



المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرّجة وموثّقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهيّة وحديثيّة ولغويّة"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء الثامن

المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم


المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٨)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٨)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة : ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢ _ ٠٥٠٢٢١٩٢٠ _ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ _ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة : ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة : ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم : ٠٥٠٢٢٠٦١٦

المحرَّمات



٢٩٧- منزلة الدماء في الشريعة

١١/ ٣/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى تَعْظِيمُ دِينِهِ، وَالْغَيْرَةُ عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَالْتِزَامُ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلُ بِأَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ زَوَاجِرِهِ.

مَنْ عَظَّمَ اللَّهَ ﷻ عَظَّمَ حُرُمَاتِهِ فَلَمْ يَنْتَهِكْهَا، وَوَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهِ فَلَا يَتَعَدَّاهَا، وَلَوْ خَالَفَ ذَلِكَ هَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْتِلَاءُ الْبَشَرِ بِالشَّرَائِعِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ ثَقِيلَةٌ عَلَى النُّفُوسِ، وَفِيهَا مُخَالَفَةٌ لِشَهْوَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوَاهُ.

وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الشَّرْعِيَّةُ مُتَفَاوِتَةٌ فِي مَرَاتِبِهَا، مُتَفَاضِلَةٌ بِحَسَبِ أَهَمِّيَّتِهَا؛ فَمِنَ الْأَوَامِرِ مَا تَرْكُهُ كُفْرٌ، وَمِنْهَا مَا تَرْكُهُ فِسْقٌ، وَمِنْهَا مَا تَرْكُهُ خِلَافُ السُّنَّةِ

أَوْ خِلَافُ الْأَوْلَى، وَكَذَلِكَ النَّوَاهِي مِنْهَا مَا يُوصِلُ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنْهَا مَا فِعْلُهُ فِسْقٌ، وَمِنْهَا مَكْرُوهٌ كَرَاهَةً تَنْزِيهِيَّةً.

وَالْأَوَامِرُ الشَّرْعِيَّةُ تَتَأَكَّدُ بِحَسَبِ تَأْكِيدِ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ عَلَيْهَا، وَالنَّوَاهِي تَكُونُ مُغَلَّظَةً إِذَا غَلَّظَهَا الشَّارِعُ الْحَكِيمُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِمَخْلُوقٍ مَهْمَا عَلَا شَأْنُهُ؛ بَلْ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ ﷻ، وَضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ رُبُوبِيَّتِهِ ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٤].

وَالدِّمَاءُ الْمَعْصُومَةُ حُرْمَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمَةٌ، وَشَأْنُهَا كَبِيرٌ، وَغِلْظَتُهَا شَدِيدَةٌ.

وَمِنْ دَلَائِلِ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَالتَّغْلِيظِ فِيهَا: أَنَّ ذِكْرَهَا وَالتَّنْوِيهَ بِهَا وَقَعَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ الرُّوحُ فِي آدَمَ عليه السلام، وَقَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ دِمَاؤُهُ فِي عُرُوقِهِ؛ فَالْمَلَائِكَةُ عليهم السلام، هُمْ مِنْ أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا يَرْضَاهُ وَمَا لَا يَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ ﷻ أَنَّهُ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٠]، وَلَوْلَا عَظَمَةُ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا نَوَّهَ الْمَلَائِكَةُ بِذِكْرِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ وُجُوهِ الْإِفْسَادِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْكَثْرَةِ بِمَا يَعِزُّ عَلَى الْعَدِّ وَالْحَصْرِ.

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ، وَجَرَتْ عَلَيْهِ الْمِحْنَةُ وَالْبَلَاءُ وَالتَّكْلِيفُ، ثُمَّ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَنَاسَلَ بَنُوهُ مِنْ صُلْبِهِ كَانَ أَوَّلَ ذَنْبٍ عَظِيمٍ وَقَعَ مِنْ بَنِيهِ: قَتْلُ أَحَدِهِمْ أَخَاهُ، فِي قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَأَهَمِّيَّةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ تَأْرِيخِ أَوَّلِ دَمٍ سُفِكَ عَلَى الْأَرْضِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَعَقِبَ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ تَأْتِي الْآيَاتُ لِتُبَيِّنَ مَنْزِلَةَ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى إِنَّ سَافِكَ دَمٍ وَاحِدٍ قَدْ شُبِّهَ بِمَنْ سَفَكَ دَمَ النَّاسِ جَمِيعًا ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ

مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة: ٣٢]، وَلَسْتُ أَعْلَمُ ذَنْبًا فِي الشَّرِيعَةِ يَكُونُ مُرْتَكِبُهُ فِي حَقِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ كَمَنْ فَعَلَهُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ غَيْرَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ؛ فَمَا أَعْظَمَ شَأْنَ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى!!

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَنِ اسْتَحَلَّ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحَلَّ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا»[١].

وَجَاءَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ تُؤَكِّدُ عَلَى ذَلِكَ، وَتَزِيدُهُ وُضُوحًا وَبَيَانًا؛ فَابْنُ آدَمَ الَّذِي سَفَكَ أَوَّلَ دَمٍ فِي الْأَرْضِ شَرِيكٌ فِي إِثْمِ كُلِّ دَمٍ سُفِكَ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَمَا أَكْثَرَ مَا سَيَتَحَمَّلُ مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!! نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ. رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

وَلِذَا كَانَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ الَّتِي تُوبِقُ صَاحِبَهَا، وَيَسْتَحِقُّ بِسَبَبِهَا الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْحَقِّ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥)، وينظر: تفسير البغوي (٢/ ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٣١٥٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

(٣) جاء ذلك في أحاديث عدة منها:

أ- حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور -أو قال- وشهادة الزور**» أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٨٨).

ب- حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات** . . . وذكر منها: **قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**» أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٨٩). =

وَالمُسْلِمُ فِي سَعَةٍ مِنْ دِينِهِ، وَفِي فُسْحَةٍ مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي هِيَ دُونَ الْقَتْلِ، حَتَّى يُبَاشِرَ الْقَتْلَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَيَضِيقَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ؛ لِعِظَمِ شَأْنِ الدَّمِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**فِي فُسْحَةٍ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْفُسْحَةُ فِي الدِّينِ سَعَةُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْلُ ضَاقَتْ؛ لِأَنَّهَا لَا تَفِي بِوِزْرِهِ، وَالْفُسْحَةُ فِي الذَّنْبِ قَبُولُهُ الْغُفْرَانَ بِالتَّوْبَةِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْلُ ارْتَفَعَ الْقَبُولُ»(٥).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْخَسَارَةِ، وَأَشَدِّ الْخِذْلَانِ: أَنْ يُوَرِّطَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي دَمٍ حَرَامٍ؛ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ»(٦).

= ج- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر الإشراك بالله ... وقتل النفس**» أخرجه البخاري (٦٤٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٤)، والبخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٦٩)، والرواية الثانية للكشميهني أحد رواة صحيح البخاري كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٩٥).

(٥) نقله عنه الحافظ في الفتح (١٢/ ١٩٥).

(٦) أخرجه البخاري موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٧٠)، والبيهقي (٨/ ٢١).

والوَرَطات بفتح الواو والراء، وحكى ابن مالك أنه قُيِّد في الرواية بسكون الراء، قال الحافظ ابن حجر: «والصواب التحريك» وهي جمع وَرْطة بسكون الراء. الفتح (١٢/ ١٩٦).

وأصل الورطة: الهوة العميقة في الأرض، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بلية يعسر المخرج منها. ذكره ابن الأثير في النهاية (٥/ ١٧٣).

وفي اللسان عن أبي عبيد: «وأصل الورطة: أرض مطمئنة لا طريق فيها» اهـ (٧/ ٤٢٥). =

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ دِهْقَانَ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِذُلُقْيَةَ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لَهُ، يُقَالُ لَهُ: هَانِئُ بْنُ كُلْثُومِ بْنِ شَرِيكٍ الْكِنَانِيُّ، فَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكَرِيَّا وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ، قَالَ لَنَا خَالِدٌ: فَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَكَرِيَّا قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**». فَقَالَ هَانِئُ بْنُ كُلْثُومٍ: سَمِعْتُ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ يُحَدِّثُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**». قَالَ لَنَا خَالِدٌ: ثُمَّ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ**»[٧].

= وقال الحافظ في الفتح «وهي الهلاك، يقال: وقع فلان في ورطة أي: في شيء لا ينجو منه، وقد فسرها في الخبر بقوله: التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها» اهـ (١٢/ ١٩٦).

(٧) أخرجه بهذا السياق أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، والبيهقي (٨/ ٢١)، وهذا الحديث مشتمل على أحاديث ثلاثة: حديثين عن أبي الدرداء وحديث عن عبادة. وقد فَصَل الألباني هذه الأحاديث، وساقها ثلاثة أحاديث في صحيح سنن أبي داود مع اختصار السند وصححها (٣٥٨٨ - ٣٥٨٩ - ٣٥٩٠).

والحديث الأول منها: حديث أبي الدرداء رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره ...**» الحديث. أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٨)، وفي المعجم الأوسط (٩٢٢٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠).

وله شاهد من حديث معاوية رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ٩٩)، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ٨١)، والطبراني في مسند الشاميين (٤٩٧)، وفي المعجم الكبير (١٩/ ٣٦٥) برقم: (٨٥٨)، والأوسط (٥١٣٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١). =

. . . .

= والحديث الثاني: حديث عبادة ﷺ: «من قتل مؤمنًا فاغتبط ...» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣١١).

والحديث الثالث: حديث أبي الدرداء ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنقًا ...» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٩)، وفي المعجم الأوسط (٢٢٩)، والصغير (١١٠٨).

قوله في الحديث الثاني: «فاغتبط» جاء بالعين المهملة: «فاعتبط»، وفي بعض النسخ بالغين المعجمة، كما في عون المعبود (١١/ ٣٥٣).

قال الخطابي في معالم السنن بهامش سنن أبي داود (٤/ ٤٦٤): «قوله: فاعتبط قتله، يريد أنه قتله ظلمًا لا عن قصاص، يقال: عبطت الناقة، واعتبطها إذا نحرتها من غير داء أو آفة تكون بها، ومات فلان عبطة إذا كان شابًّا، واحتضر قبل أوان الشيب والهرم، قال أمية بن أبي الصلت: من لم يمت عبطة مات هرمًا» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (٣/ ١٧٢): «من اعتبط مؤمنًا قتلًا فإنه قود، أي: قتله بلا جناية كانت منه، ولا جريرة توجب قتله؛ فإن القاتل يقاد به ويقتل، وكل من مات بغير علة فقد اعتبط، ومات فلان عبطة؛ أي: شابًّا صحيحًا ...» ثم ذكر ابن الأثير الحديث، ونقل قول الخطابي.

وقد جاء في الحديث ما يدل على أن هذا التفسير غير مراد، وهو ما رواه أبو داود عقب هذا الحديث: قال خالد بن دهقان: سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله: «اعتبط بقتله» قال: الذين يقاتلون في الفتنة، فيقتل أحدهم، فيرى أنه على هدى لا يستغفر الله، يعني: من ذلك» اهـ (٤٢٧١).

قلت: هذا التفسير من الغساني يرد ما ذكره الخطابي من معنى كلمة «فاعتبط»، ويدل على أن الرواية بالمعجمة «فاغتبط».

قال ابن الأثير بعد أن أورد تفسير الغساني: «وهذا التفسير يدل على أنه من الغبطة بالغين المعجمة، وهي الفرح والسرور وحسن الحال؛ لأن القاتل يفرح بقتل خصمه، فإذا كان المقتول مؤمنًا وفرح بقتله دخل في هذا الوعيد ...»، ثم ذكر ابن الأثير أن الخطابي لم يذكر تفسير الغساني لهذه الكلمة، انظر: النهاية (٣/ ١٧٢)، واللسان (٧/ ٣٤٨)، وعون المعبود (١١/ ٣٥٣).

وقوله في الحديث الثالث: «لا يزال المؤمن مُعنِقًا» أي: خفيف الظهر، وهي بضم الميم وسكون العين وكسر النون، قال الخطابي في معالم السنن (٤/ ٤٦٤): «يريد خفيف =

وَمَعْنَى: مُعْنِقًا؛ أَيْ: خَفِيفَ الظَّهْرِ، وَمَعْنَى: بَلَّحَ، أَيْ: صَارَ ثَقِيلًا بِسَبَبِ الدَّمِ الَّذِي حَمَلَهُ.

إِنَّ الدَّمَ المَعْصُومَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَا يَجُوزُ سَفْكُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوِ التَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِ، وَإِذَا كَانَ النَّهْيُ الشَّرْعِيُّ قَدْ زَجَرَ عَنْ قَتْلِ الْبَهِيمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَرُتِّبَ عَلَى ذَلِكَ وَعِيدٌ، فَكَيْفَ بِقَتْلِ الْآدَمِيِّ؟! ثُمَّ كَيْفَ بِقَتْلِ المُسْلِمِ؟! وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما[٨].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَتْلُ المُؤْمِنِ**

= الظهر، يعنق في مشيه سير المخف، والعَنَق: ضرب من السير وسيع، يقال: أعنق الرجل في سيره فهو معنق ...» اهـ.

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ١٣١): «أي متبسِّطًا في سيره يوم القيامة».

وقال ابن منظور: «أي مسرعًا في طاعته، منبسطًا في عمله، وقيل: أراد يوم القيامة» اهـ من اللسان (١٠/ ٢٧٣).

وقوله في الحديث: «فإذا أصاب دمًا حرامًا بلَّح» بتشديد اللام، وقد تخفف كما في عون المعبود (١١/ ٣٥٤)، ونقله عن مرقاة الصعود.

قال الخطابي في معالم السنن (٤/ ٤٦٤): «معناه: أعيا وانقطع، ويقال: بلح عليَّ الغريم: إذا قام عليك فلم يعطك حقك، وبلَّحت الركية: إذا انقطع ماؤها» اهـ وانظر: الغريب له (١/ ٢٠٣).

وقال ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٠١): «والمُبلح من قولك: بَلَح الرجل: إذا انقطع من الإعياء، فلم يقدر على أن يتحرك، ويقال: أبلحه السير» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٥١): «بلح الرجل: إذا انقطع من الإعياء فلم يقدر أن يتحرك، وقد أبلحه السير فانقطع به، يريد به: وقوعه في الهلاك بإصابة الدم الحرام، وقد تخفف اللام» اهـ وانظر: الفائق للزمخشري (٣/ ٣١).

(٨) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، والبيهقي (٨/ ٢٢).

وقد جاء مرفوعًا وموقوفًا والموقوف أصح كما ذكر الترمذي والبيهقي.

أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[٩].

إِنَّ الدَّمَ الَّذِي يُسْفَكُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا لَا يَضِيعُ، وَلَوْ تَمَالأَ أَهْلُ بَلَدٍ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ لَقُتِلُوا بِهِ، وَلَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ عَلَى سَفْكِ دَم مُحَرَّم لَأُخِذُوا بِهِ، وَعُذِّبُوا بِسَبَبِهِ، كَيْفَ؟! وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١٠].

وَحَمْلُ السِّلَاحِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَتَرْوِيعُهُمْ بِهِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَلَوْ لَمْ يُقَاتِلْ بِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ قَاتَلَ بِهِ؟! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١١].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «**مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**»[١٢].

---

(٩) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٣).
وله شاهد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند: ابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا (٢٦١٩).
وقال الترمذي في جامعه (٤/ ١٦): «وفي الباب عن سعد وابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وعقبة بن عامر وابن مسعود رضي الله عنهم» اهـ.

(١٠) أخرجه الترمذي في الديات، باب الحكم في الدماء، وقال: هذا حديث غريب (١٣٩٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٢١)، والصغير (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١١٢٨)، وفي الروض النضير (٩٢٥).

(١١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» (٦٦٥٩)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» (٩٨).
وجاء أيضًا من حديث أبي موسى عند البخاري (٦٦٦٠)، ومسلم (١٠).
ومن حديث أبي هريرة عند مسلم (١٠١).

(١٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٥)، ومسلم في البر والصلة، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسلاح (٢١٦٢).

فَإِذَا اسْتَحَقَّ الَّذِي يُشِيرُ بِالْحَدِيدَةِ اللَّعْنَ فَكَيْفَ بِالَّذِي يُصِيبُ بِهَا؟ وَكَيْفَ بِمَنْ حَمَلَ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا؟!

وَرَوَى جَابِرٌ ﷺ فَقَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولًا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٣).

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا تُثْبِتُ خُطُورَةَ أَمْرِ الدِّمَاءِ، وَتَدُلُّ عَلَى حُرْمَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَتَسُدُّ كُلَّ ذَرِيعَةٍ مِنْ ذَرَائِعِ إِخَافَتِهِ وَتَرْوِيعِهِ، فَضْلًا عَنْ إِيذَائِهِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، وَأَعْظَمُ الِاعْتِدَاءِ: سَفْكُ دَمِهِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَحْقِنَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ أَيْدِيَنَا مِنْ دِمَائِهِمْ، وَأَلْسِنَتَنَا مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، وَيُجَنِّبَنَا الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ٩٣].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❀ ❀ ❀

(١٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠)، وأبو داود في الجهاد، باب في النهي أن يتعاطى السيف مسلولًا (٢٥٨٨)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن تعاطي السيف مسلولًا وقال: حديث حسن غريب (٢١٦٣)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٢٢).

ونقل الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٨) عن ابن العربي قوله: «إذا استحق الذي يشير بالحديدة اللعن فكيف الذي يصيب بها، ثم قال: وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديدًا سواءً كان جادًّا أم لاعبًا كما تقدم، وإنما أوخذ اللاعب لما أدخله على أخيه من الروع، ولا يخفى أن إثم الهازل دون إثم الجاد، وإنما نهى عن تعاطي السيف مسلولًا؛ لما يخاف من الغفلة عند التناول فيسقط فيؤذي» اهـ.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَهُ، وَالْتَزِمُوا أَمْرَهُ، وَجَانِبُوا نَهْيَهُ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ يَوْمًا عَسِيرًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، تَذْهَلُ فِيهِ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِعِظَمِ أَمْرِ الدَّمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ؛ كَانَ ابْتِدَاءُ الْقَضَاءِ بِهِ يَوْمَ الْقَضَاءِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

وَقَدْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَى كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا: «**يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُعَلِّقًا رَأْسَهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حَتَّى يَقِفَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ. وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ: «**أَنَّ**

---

(١٤) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٧١)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

المَقْتُولَ يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟»(١٥).

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ، فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٦).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: بَانَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ قَصْدَ الْمُسْلِمِ بِالتَّرْوِيعِ وَالْقَتْلِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَأَعْظَمَ ذَنْبٍ يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ مَخْلُوقٍ: سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمِنْ أَبْيَنِ صُوَرِ ذَلِكَ: التَّفْجِيرُ وَالتَّخْرِيبُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَصْدُ الْمَعْصُومِينَ بِالتَّخْوِيفِ وَالتَّرْوِيعِ، وَالْإِيذَاءِ وَالْقَتْلِ، وَمَا حَصَلَ قَبْلَ أَيَّامٍ مِنْ قَصْدِ بَعْضِ دَوَائِرِ

---

(١٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٢ - ٢٤٠)، والنسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٥)، وابن ماجه في الديات، باب هل لقاتل المؤمن من توبة (٦٢١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٩٤١)، والألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٣٤).

(١٦) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٤)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٩٦) برقم: (١٠٠٧٥)، من حديث الأعمش عن شقيق عن عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود رضي الله عنه به.

وأخرجه من حديث الأعمش عن عمرو بن شرحبيل به: ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٤٥٥- ٤٥٦) برقم: (٢٧٩٤٠)، ولم يذكر فيه شقيقًا ولا ابن مسعود ولا رفعه إلى النبي ﷺ وصحح الألباني رواية النسائي في صحيح سنن النسائي (٣٧٣٢) وذكرها في السلسلة الصحيحة، وقال بعد إيراد سند النسائي: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين (٢٦٩٨).

قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في ذكر الصور، أخرجه إسحاق ابن راهويه في مسنده (١٠)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)، وسنده ضعيف.

الْأَمْنِ بِالتَّفْجِيرِ[١٧]، مَا هُوَ إِلَّا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَفَاعِلُهُ قَدْ أَتَى جُرْمًا عَظِيمًا، وَعَلَّقَ فِي رَقَبَتِهِ دِمَاءً مَعْصُومَةً، مَعَ مَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ إِعْدَامٍ لِلْبِنْيَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِتْلَافٍ لِلْمُمْتَلَكَاتِ، وَاعْتِدَاءٍ عَلَى الْآمِنِينَ، وَتَرْوِيعٍ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَآثَارُ هَذَا الْعَمَلِ الشَّنِيعِ وَأَمْثَالِهِ مِنْ قَصْدِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ تَطُولُ نِسَاءً بِالتَّرْمِيلِ، وَأَطْفَالًا بِالتَّيْتِيمِ لَا ذَنْبَ لَهُمْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ، وَفِيهَا مِنَ الْإِثْمِ وَالْبَغْيِ مَا فِيهَا، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا إِلَّا أَعْدَاءُ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ؛ مِنَ الصَّهَايِنَةِ الْحَاقِدِينَ، وَالْمُنَافِقِينَ الْمَوْتُورِينَ؛ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ أَنْ يَخْتَلِطَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَخْتَلَّ أَمْنُهُمْ، وَيَضْرِبَ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

إِنَّ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ لَنْ يَكُونَ صُورَةً مِنْ صُوَرِ الْإِصْلَاحِ، وَالتَّخْرِيبَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَكُونَ سَبِيلًا لِلتَّعْمِيرِ، وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَ أَمْرَهُ، وَمَنْ عَظَّمَ أَمْرَهُ عَظَّمَ شَأْنَ الدِّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ؛ فَلَا يَسْفِكُهَا بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَهَلْ يَعْقِلُ ذَلِكَ مَنْ يَقْصِدُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ؟ وَهَلْ يُعَظِّمُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ؟!

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْحَاسِدِينَ، مِنْ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ مَنْ قَصَدَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَرَامَ الْإِفْسَادَ فِي بِلَادِهِمْ، وَالتَّخْرِيبَ فِي أَوْسَاطِهِمْ فَاهْتِكْ سِتْرَهُ، وَاكْشِفْ أَمْرَهُ، وَاكْفِ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

---

(١٧) وهو التفجير الذي حصل يوم الثلاثاء فيما أظن ١/ ٣/ ١٤٢٥هـ لمقر إدارة المرور وقوة الطوارئ بشارع الوشم في الرياض؛ حيث فخخت سيارة وفجرت بالقرب من المبنيين، ونتج عن ذلك قتل عدد من المسلمين وجرح آخرين، ودمار المباني المقصودة بالتفجير والمجاورة لها. أسأل الله تعالى أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل شر، وأن يكبت المفسدين في الأرض، إنه سميع مجيب.

اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ بِسُوءٍ فَاشْغَلْهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ، وَاجْعَلْهُ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ اهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصْلِحْ شَبَابَهُمْ وَشَيْبَهُمْ، وَرِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَفُكَّ أَسْرَاهُمْ، وَعَافِ مُبْتَلَاهُمْ.

اللَّهُمَّ فَارِجَ الْهَمِّ، كَاشِفَ الْغَمِّ، مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ، ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفَلُّوجَةِ وَفِي فِلَسْطِينَ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



٢٩٨- خطورة إشاعة المحرمات

٥/٤/١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ فَدَبَّرَهُمْ، وَكَلَّفَ الْبَشَرَ وَهَدَاهُمْ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى قَوْمٍ بَلَغُوا مِنَ الْجَهَالَةِ مَا بَلَغُوا؛ فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَصْلَحَ بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَتَبْلِيغِ دِينِهِ، فَبَلَّغُوا وَنَصَحُوا، وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ يَزْدَادُ شِدَّةً، وَإِنَّ الدِّينَ أَضْحَى لِأَهْلِ الغُرْبَةِ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَقَرِيبٌ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ أَنْ عَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَسَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَرَكَّبَ فِيهِمْ وَسَائِلَ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ مِنَ الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالْعُقُولِ؛ فَبِهَا يَسْمَعُونَ الْعِلْمَ وَيُبْصِرُونَهُ، وَبِالْعُقُولِ يُفَكِّرُونَ وَيُحَلِّلُونَ وَيَسْتَنْبِطُونَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

إِنَّهَا نِعَمٌ وَأَيُّ نِعَمٍ؛ بِهَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَا يَضُرُّهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ، وَبِهَا تَبَادَلَ الْبَشَرُ الْمَنَافِعَ وَالْمَصَالِحَ، وَتَنَاقَلُوا الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ، وَمَا يُكْتَبُ فِي الْغَرْبِ يُتَرْجَمُ فِي حِينِهِ وَيَصِلُ إِلَى الشَّرْقِ، وَمَا يَقَعُ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ يُنْقَلُ حَالَ وُقُوعِهِ إِلَى أَقْصَى الْجَنُوبِ.

وَبِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ فِي مَجَالَاتِ الِاتِّصَالِ؛ صَارَ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَحْمِلُ فِي جَيْبِهِ أَجْهِزَةً فِي حَجْمِ الْكَفِّ يَخْتَزِنُ الْوَاحِدُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ، وَيَلْتَقِطُ صُوَرًا كَثِيرَةً ثَابِتَةً وَمُتَحَرِّكَةً، وَفِيهِ مِنَ النَّفْعِ مَا يَعِزُّ عَلَى الْحَصْرِ؛ وَلَكِنْ إِذَا أُسِيءَ اسْتِخْدَامُهَا فَإِنَّ أَضْرَارَهَا بَلِيغَةٌ، وَعَوَاقِبَهَا وَخِيمَةٌ؛ فَبِهَا تُكْشَفُ الْعَوْرَاتُ، وَيُهْتَكُ سِتْرُ الْمُخَدَّرَاتِ، وَتُشَاعُ الْفَوَاحِشُ وَالْمُنْكَرَاتُ. وَبِهَا يَنْشُرُ أَهْلُ الْفَسَادِ فَسَادَهُمْ، وَيُحَقِّقُونَ أَهْدَافَهُمْ وَأَغْرَاضَهُمْ، وَيَصِلُونَ إِلَى أَهْلِ الْبُيُوتِ فِي بُيُوتِهِمْ؛ وَكَمْ مِنِ امْرَأَةٍ عَفِيفَةٍ طُعِنَتْ فِي عَفَافِهَا مِنْ صَدِيقَةٍ أَوْ زَمِيلَةٍ نَشَرَتْ سَوْءَتَهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ؟ وَكَمْ مِنْ أُسْرَةٍ مُجْتَمِعَةٍ فَرَّقَتْهَا صُورَةٌ أُشِيعَتْ هُنَا وَهُنَاكَ؟

حَمَى اللَّهُ نِسَاءَنَا وَنِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ خِزْيٍ وَفَضِيحَةٍ.

إِنَّ فِئَامًا مِنْ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ رَكِبُوا سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُجَّانِ وَالْفَاسِقِينَ؛ وَذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِالْمَشَاهِدِ الْخَلِيعَةِ، وَالصُّوَرِ الْقَبِيحَةِ، وَلَمْ يَكْتَفِ أَكْثَرُهُمْ بِحِفْظِهَا وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِسْخَاطِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَتْلِ الْغَيْرَةِ وَالْمُرُوءَةِ، بَلْ رَاحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُشِيعُونَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَنَاقَلُونَهَا مَعَ أَصْحَابِهِمْ وَأَقْرَانِهِمْ، وَيُهْدُونَهَا إِلَى مَنْ يَعْرِفُونَ وَمَنْ لَا يَعْرِفُونَ؛ وَلَا يُدْرِكُونَ مَغَبَّةَ مَا يَفْعَلُونَ!!

إِنَّنِي -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- وَفِي هَذَا الْمَقَامِ الْجَامِعِ لَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْأَضْرَارِ

الْأَخْلَاقِيَّةِ أَوِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ الِاجْتِمَاعِيَّةِ أَوِ الْأَمِنِيَّةِ الَّتِي تَنْتِجُ عَنْ تبَادُلِ هَذِهِ الصُّوَرِ الخَلِيعَةِ بَيْنَ الشَّبَابِ؛ فَالحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ يَطُولُ، بَيْدَ أَنَّ حَدِيثِي سَيَكُونُ عَنِ الجِنَايَةِ الَّتِي يَجْنِيهَا الشَّابُّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى صَحِيفَةِ حَسَنَاتِهِ حِينَ يَحْتَفِظُ بِهَذِهِ الصُّوَرِ وَيُوَزِّعُهَا عَلَى أَقْرَانِهِ، إِنَّهُ لَا يَدْرِي عِظَمَ مَا يَفْعَلُ، وَلَا يُدْرِكُ حَجْمَ الْأَوْزَارِ الَّتِي يَحْمِلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ، وَلَوْ أَدْرَكَ الشَّبَابُ ذَلِكَ لَامْتَنَعُوا عَنْهُ؛ وَلَوْ كَانُوا مِنْ ضِعَافِ الدِّينِ وَالمُرُوءَةِ.

إِنَّ مَنْ يُهْدِي مِثْلَ هَذِهِ الصُّوَرِ الْآثِمَةِ إِلَى غَيْرِهِ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ وِزْرَهُ مَعَ وِزْرِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ وِزْرِ المُهْدَى إِلَيْهِ شَيْءٌ؛ وَذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وَتَنَاقُلُ الصُّوَرِ الإِبَاحِيَّةِ؛ ثَابِتَةً كَانَتْ أَوْ مُتَحَرِّكَةً مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ، كَيْفَ وَقَدْ أَضَلُّوا بِهَا أَغْرَارًا مَا عَرَفُوا الخَنَا حَتَّى أَسَرُوهُمْ بِهَا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

إِنَّهَا لَخَسَارَةٌ فَادِحَةٌ أَنْ تَرِدَ الصُّورَةُ المَاجِنَةُ إِلَى شَابٍّ مُسْلِمٍ، فَيَحْفَظُهَا فِي آلَتِهِ، وَيُهْدِيهَا إِلَى أَقْرَانِهِ وَأَقَارِبِهِ، ثُمَّ هُمْ يُرْسِلُونَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ؛ حَتَّى تَصِلَ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ إِلَى مِائَةٍ أَوْ مِائَتَيْنِ، وَفِي جُمُعَةٍ إِلَى أَلْفٍ أَوْ أَلْفَيْنِ، وَمَا تَمْضِي أَشْهُرٌ قَلِيلَةٌ إِلَّا وَتَبْلُغُ أَعْدَادُ مَنْ وَصَلَتْهُمْ تِلْكَ الصُّورَةُ الْخَلِيعَةُ عَشَرَاتِ الْآلَافِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة أو دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤)، والترمذي في العلم، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة (٢٦٧٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٥٠٤)، والدارمي (٥١٣).

يَحْمِلُ وِزْرَهُمْ جَمِيعًا مَنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ عَنْ طَرِيقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ شَيْءٌ مِنْ أَوْزَارِهِمْ فِي أَعْدَادٍ مِنَ الأَوْزَارِ وَالآثَامِ تَزْدَادُ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ وَلَا تَنْقُصُ، مَا كَانَ يَظُنُّ مَنْ وَزَّعَهَا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَفْسَدَةٍ لِهَذِهِ الْعَادَةِ الْقَبِيحَةِ إِلَّا حَمْلُ أَوْزَارِ الْغَيْرِ بِلَا مُقَابِلٍ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي رَدِّ الشَّبَابِ إِلَى الْجَادَّةِ، وَالمَرْءُ تَكْفِيهِ ذُنُوبُهُ؛ فَكَيْفَ يَرْضَى بِحَمْلِ ذُنُوبِ غَيْرِهِ، وَبِأَعْدَادٍ وَفِيرَةٍ جِدًّا.

وَبِهَذَا يُتَصَوَّرُ-أَيُّهَا الإِخْوَةُ- كَمْ مِنَ الأَوْزَارِ يَحْمِلُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَبَرَّعُوا لِإِبْلِيسَ فَأَسَّسُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً عَرَبِيَّةً تُفْسِدُ وَلَا تُصْلِحُ، وَتَسْتَبِقُ إِلَى جَبْذِ الشَّبَابِ إِلَيْهَا بِإِثَارَةِ غَرَائِزِهِمْ، وَقَتْلِ مُرُوءَاتِهِمْ، وَتَعْطِيلِ عُقُولِهِمْ.

وَقَدْ يُرْسِلُ الشَّابُّ مَادَّةً إِبَاحِيَّةً إِلَى زَمِيلِهِ، فَيَرْتَكِبُ زَمِيلُهُ بِسَبَبِهَا الزِّنَا، أَوْ يَفْعَلُ فِعْلَ قَوْمِ لُوطٍ، أَوْ يَغْتَصِبُ عَفِيفَةً، أَوْ يَقَعُ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ، وَمَا أَغْوَاهُ إِلَّا صَاحِبُهُ فِي حَالِ ضَعْفٍ وَغَفْلَةٍ، وَغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، وَتَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَجُنْدِهِ.

وَلَوْ نُقِلَتْ هَذِهِ الحَقِيقَةُ المُرْعِبَةُ إِلَى الشَّبَابِ لَكَفَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ غَيِّهِ، وَخَافُوا تَكَاثُرَ الذُّنُوبِ بِتَدَاوُلِ هَذِهِ الصُّوَرِ.

كَيْفَ؟ وَتِلْكَ المُمَارَسَةُ الخَاطِئَةُ تُخْرِجُ فَاعِلَهَا مِنْ دَائِرَةِ المُعَافَاةِ إِلَى المُجَاهَرَةِ الَّتِي نُفِيَتِ المُعَافَاةُ عَنْ صَاحِبِهَا؟!

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَاصِي أَنْ يَسْتُرَهُ رَبُّهُ، فَلَا يُفْتَضَحُ أَمْرُهُ أَمَامَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَشْتَدُّ حَيَاؤُهُ مِنْهُمْ؛ كَوَالِدَيْهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَسَاتِذَتِهِ، وَالشَّابُّ الَّذِي يَقْتَنِي صُوَرًا مُحَرَّمَةً عَاصٍ لِلَّهِ ﷻ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ سَتَرَهُ فِي مَعْصِيَتِهِ تِلْكَ، فَإِذَا أَطْلَعَ غَيْرَهُ عَلَى مَا يَحْمِلُ مِنْ صُوَرٍ مُحَرَّمَةٍ فَقَدْ هَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَجَاهَرَ بِعِصْيَانِهِ، وَبِقَدْرِ تَوْزِيعِهِ لِتِلْكَ المَوَادِّ المُحَرَّمَةِ تَكُونُ مُجَاهَرَتُهُ حَتَّى تَبْلُغَ

الآفَاقَ، وَالمُجَاهِرُ بِعِصْيَانِهِ حَرِيٌّ أَنْ لَا يُعَافَى فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ أَوْ مِنَ الإِقْلَاعِ عَنْ ذَنْبِهِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢].

فَإِنْ مَاتَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى المُجَاهَرَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعَافِيَةِ، جَدِيرٌ بِالمُؤَاخَذَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣]. وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَيَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، إِنَّكَ فِي سِتْرِي لَا يَطَّلِعُ عَلَى ذُنُوبِكَ غَيْرِي**»[٤].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: «إِذَا تَمَحَّضَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ، وَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ فَلِذَلِكَ إِذَا سَتَرَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَفْضَحْهُ فِي الآخِرَةِ، وَالَّذِي يُجَاهِرُ يَفُوتُهُ جَمِيعُ ذَلِكَ . . .».

وَسَتْرُ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَلْزِمٌ لِسَتْرِ المُؤْمِنِ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَمَنْ قَصَدَ إِظْهَارَ المَعْصِيَةِ

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢١)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢٢)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

(٤) هذه الرواية الثانية عزاها الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني، وضعفها بالقاسم بن بهرام (٧/ ٣٧)، وسكت عنها الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٨٨).

وَالمُجَاهَرَةَ بِهَا أَغْضَبَ رَبَّهُ فَلَمْ يَسْتُرْهُ، وَمَنْ قَصَدَ التَّسَتُّرَ بِهَا؛ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ وَمِنَ النَّاسِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِسَتْرِهِ إِيَّاهُ(٥).

فَلْيَعْلَمْ مَنْ يَتَنَاقَلُونَ الصُّوَرَ المُحَرَّمَةَ أَنَّهُمْ حَرِيُّونَ بِالخُرُوجِ مِنْ سِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى المُجَاهَرَةِ بِعِصْيَانِهِ، وَيُخْشَى عَلَيْهِمُ الحِرْمَانُ مِنَ المُعَافَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ مِمَّا يُنْذِرُ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَشُؤْمِ الْعَاقِبَةِ؛ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

وَمِنَ المَفَاسِدِ الْعَظِيمَةِ لِمَنْ سَلَكَ هَذَا المَسْلَكَ الخَاطِئَ أَنَّهُ بِتَبَادُلِ هَذِهِ المَوَادِّ الْفَاسِدَةِ مَعَ غَيْرِهِ مَعْدُودٌ فِيمَنْ يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِي حَقِّ مَنْ يُحِبُّ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ فَكَيْفَ بِمَنْ تَوَلَّى بِنَفْسِهِ إِشَاعَتَهَا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ وَمَعْرِفَةٍ فِي اسْتِخْدَامِ التِّقْنِيَّاتِ المُعَاصِرَةِ؟!

فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ كُلُّ مَنْ تَلَطَّخَ بِهَذَا الْإِثْمِ المُبِينِ، وَلْيُبَادِرْ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ قَبْلَ أَنْ يَدْهَمَهُ المَوْتُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ السَّيِّئَةِ.

وَمَنِ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ الْقَاذُورَاتِ حَتَّى صَارَ أَسِيرًا لَهَا فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَسْتَتِرَ بِسِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونَ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ عَلَى شَبَابِ المُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ؛ وَلْيَقْصُرْ هَذَا الإِثْمَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يُعَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ رُجِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ، وَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يُعْتَقَ مِنْ أَسْرِ تِلْكَ الخَطِيئَةِ المُرْدِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٦).

---

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٦) أخرجه مرسلًا من حديث زيد بن أسلم: مالك (٢/ ٨٢٥) ومن طريقه الشافعي في =

وَعَلَى كُلِّ أَبٍ وَأُمٍّ أَنْ يَتَعَاهَدُوا أَوْلَادَهُمْ بِالنَّصِيحَةِ وَالتَّوْجِيهِ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ، وَالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، مَعَ بَيَانِ مَخَاطِرِ سُوءِ اسْتِخْدَامِ التِّقْنِيَّاتِ المُعَاصِرَةِ؛ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُصْلِحَ أَوْلَادَنَا وَأَوْلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَهُمْ شُرُورَ أَنْفُسِهِمْ وَشُرُورَ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛

= الأم (٦/ ١٤٥) وقال: منقطع. قال ابن عبد البر في الاستذكار (٧/ ٤٩٧): «لم يختلف عن مالك في إرسال هذا الحديث، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ من وجه من الوجوه» اهـ. وأخرجه موصولًا من حديث ابن عمر ﷺ: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨١٥٨)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤/ ٤٢٥). وعزاه الحافظ ابن حجر للحاكم، وقال: «وصححه ابن السكن وذكره الدارقطني في العلل، وقال: روي عن عبد الله بن دينار مسندًا ومرسلًا، والمرسل أشبه» اهـ. من التلخيص الحبير (٤/ ٥٧)، وصححه ابن الملقن فقال: «أسنده الحاكم والبيهقي من رواية ابن عمر بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم» اهـ من خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٠٤).

فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا؛ فَيَحِلُّ الْخَوْفُ مَحَلَّ الأَمْنِ، وَتَكُونُ القِلَّةُ بَعْدَ الْجِدَا، وَيُمْنَعُ الْعِبَادُ أَرْزَاقَ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الأَرْضِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كُلَّمَا تَقَادَمَ زَمَنُ النُّبُوَّةِ كَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَعَظُمَتِ الشُّرُورُ، وَانْتَشَرَتِ الْفَوَاحِشُ وَالْمُنْكَرَاتُ؛ حَتَّى إِنَّ الْفَوَاحِشَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُعْلَنُ بِهَا، وَيَقْوَى أَهْلُهَا، وَيَضْعُفُ الْمُنْكِرُونَ لَهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَفْنَى هَذِهِ الأُمَّةُ حَتَّى يَقُومَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ فَيَفْتَرِشَهَا فِي الطَّرِيقِ، فَيَكُونُ خِيَارُهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ: لَوْ وَارَيْتَهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(٧).

وَلَمَّا كَانَتْ قِيَادَةُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِيَدِ أَقْوَامٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَغَايَةُ هَمِّهِمْ إِشْبَاعُ شَهَوَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَأْبَهُوا بِتَرَدِّي الْعَالَمِ فِي نَوَاحِي الأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ، بَلْ هُمْ يُتَاجِرُونَ فِي أَخْلَاقِ الأُمَمِ، وَيَشْتَرُونَ الذِّمَمَ فِي مَبَادِئَ لَا تَعْرِفُ الْمَبَادِئَ، وَأَخْلَاقٍ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنِ الأَخْلَاقِ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا النَّفْعِيَّةُ وَالِانْتِهَازِيَّةُ أَيْنَمَا وُجِدَتْ، وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ كَانَتْ؛ فَالْغَايَاتُ عِنْدَهُمْ تُسَوِّغُ الْوَسَائِلَ وَتَفْرِضُهَا.

وَقَدْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَتُجَّارِهِمْ فَسَلَكُوا مَسْلَكَهُمْ، وَاخْتَطُّوا خُطَّتَهُمْ فِي الْمُتَاجَرَةِ بِالْغَرَائِزِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَدْمِيرُ شَبَابِ

---

(٧) أخرجه أبو يعلى (٦١٨٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٧٠٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣١): «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح».

وجاء بنحوه من حديث أبي ذر ﵁ عند: الطبراني في الأوسط (٤٨٦٠)، والحاكم (٣/ ٣٨٦)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد بسيف بن مسكين (٧/ ٣٢٥).

أُمَّتِهِمْ؛ وَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ المَعْصُومُ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ. قُلْنَا**: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه(٨).

وَرَوَى الحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلًا بِمِثْلٍ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مِثْلُهُ**»(٩).

وَلَنْ يَزُولَ هَذَا الْبَلَاءُ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ مَا دَامَ مَنْ يُدِيرُهَا يَدِينُونَ بِتِلْكَ الْأَفْكَارِ الإِلْحَادِيَّةِ النَّفْعِيَّةِ، وَلَا سَبِيلَ لِحِفْظِ المُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ المَاحِقِ إِلَّا بِتَحْصِينِ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ بِالدِّينِ الْقَوِيمِ، وَمَلْءِ قُلُوبِهِمْ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّةِ

---

(٨) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٩)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

(٩) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وقال: حديث حسن غريب (٢٦٤١)، والديلمي في مسند الفردوس (٥٣٤٨)، واللالكائي في السنة (١٤٧)، ومحمد بن نصر في السنة (٥٩)، والحاكم (١/ ٢١٨).

وجاء بنحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه عند: ابن أبي شيبة (٧/ ٤٨١)، والطبراني في مسند الشاميين (٩٨٧)، وأبي عمرو الداني في السنن الواردة (٢٢٥-٢٧١)، والحاكم وصححه (٤/ ٥١٦).

وجاء بنحوه أيضًا من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٤) رقم (٦٠١٧).

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عند: الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤).

وجاء من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه عند: ابن أبي عاصم في السنة (٤٥) ومحمد بن نصر في السنة (٤٢)، والحاكم (١/ ٢١٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣) رقم (٣)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٠) بكثير بن عبدالله.

رَسُولِهِ ﷺ، وَمَحَبَّةِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، مَعَ تَقْلِيلِ وَسَائِلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ قَدْرَ الإِمْكَانِ، وَتَخْفِيفِ الْبُيُوتِ مِنْهَا، وَإِيجَادِ الْبَدَائِلِ النَّافِعَةِ، وَإِشْغَالِ الشَّبَابِ بِمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالنَّفْعِ عَاجِلًا وَآجِلًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



٢٩٩- الإنسان والمال (١)
المال بين المدح والذم

٢١/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمَالِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَهِيَ مُسْتَكِينَةٌ لَهُ، خَاضِعَةٌ لِأَمْرِهِ، ذَلِيلَةٌ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهَا وَأَمَرَهَا وَدَبَّرَهَا، وَإِذَا شَاءَ أَبْقَاهَا، وَإِذَا شَاءَ أَفْنَاهَا، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْفَاتِحَة: ٢]. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْمُلْك: ١]، وَمِنْ أَفْضَلِ الذِّكْرِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ

السُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[(١)].

وَمِنْ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي خَلْقِهِمْ وَرِزْقِهِمْ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ سُخْرَةً لِبَعْضٍ؛ لِتَسْتَقِيمَ أَحْوَالُهُمْ، وَتَحْصُلَ مَنَافِعُهُمْ؛ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢].

جَعَلَ ﷻ فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالشَّرِيفَ وَالْوَضِيعَ، وَالْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالمَالِكَ وَالمَمْلُوكَ، فَهَذَا يَخْدِمُ ذَاكَ، وَذَاكَ مُحْتَاجٌ لِهَذَا.

وَمِنْ نِعْمَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى بَنِي آدَمَ مَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنْ مَنَافِعِ الْأَرْضِ، وَمَا اسْتَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ نِعَمِهَا، وَمَا رَزَقَهُمْ مِنْ خَيْرَاتِهَا؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلْك: ١٥]، ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٥، ٣٦]. وَرَأْسُ هَذَا الرِّزْقِ: المَالُ الَّذِي يَتَمَوَّلُهُ الْإِنْسَانُ، فَيَكْفِيهِ حَاجَتَهُ، وَيُغْنِيهِ عَنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِمَا يَشْفِي وَيَكْفِي فِي بَيَانِ عَلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِهَذَا المَالِ الَّذِي رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَإِيضَاحِ الْحُدُودِ وَالضَّوَابِطِ فِي كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ بِمَا يُحَقِّقُ

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شريك له، له الملكُ وله الحمْدُ وهو على كل شيء قدير، في يوم مِئَة مرة كانت له عدْل عشر رِقَاب، وكتبت له مِئَةُ حسنة، ومُحِيَتْ عنه مِئَةُ سيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمْسِي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ،إلا أَحَدٌ عَمِلَ أكثر من ذلك**» أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١١٩)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١).

النَّفْعَ لِلْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

فَالْأَصْلُ أَنَّ المَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ المَالِكُ لَهُ؛ لِأَنَّ المُلْكَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ فَهُوَ لَهُ ﷻ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَتْ نِسْبَتُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى المُكَاتَبِينَ قَالَ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النُّور: ٣٣].

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالمَالِ، وَيَسْتَخْلِفُهُمْ فِيهِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يُدِيرُونَهُ كَسْبًا وَإِنْفَاقًا: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الْحَدِيد: ٧]، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا سَخَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَرْزَاقِ، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لُقْمَانَ: ٢٠].

إِنَّ الَّذِي يَخْلُقُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ، وَالَّذِي لَا يَخْلُقُ لَا يَمْلِكُ، فَالْخَلْقُ هُوَ أَسَاسُ المُلْكِ؛ وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالِارْتِبَاطُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالمُلْكِ مُدْرَكٌ بِالْعُقُولِ، وَمُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ، وَجَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الْفُرْقَان: ٢]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [المُلْك: ١، ٢].

وَمَا دَامَ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَاجِزٌ عَنِ الْخَلْقِ فَهُوَ لَا يَمْلِكُ اسْتِقْلَالًا، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ بِمَا مَلَّكَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَزَقَهُ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْضَعَ لِأَوَامِرِ مَنْ مَلَّكَهُ فِيمَا مَلَّكَهُ، يَقُولُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «النَّاسُ عَبِيدُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ فَمَلَّكَهُمْ مَا شَاءَ أَنْ يُمَلِّكَهُمْ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيمَا مَلَّكَهُمْ مَا شَاءَ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فَكَانَ فِيمَا آتَاهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ»[٢].

(٢) أحكام القرآن للشافعي (١/ ١٠٢)، والأم (٢/ ٢٧).

لَقَدِ ابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ بِالمَالِ فَرَزَقَهُ إِيَّاهُ، وَأَبَاحَ لَهُ اكْتِسَابَهُ وَإِنْفَاقَهُ وَفْقَ ضَوَابِطَ مُحَدَّدَةٍ، فِي شَرَائِعَ مُنَزَّلَةٍ، وَأَحْكَامٍ بَيِّنَةٍ، وَحُدُودٍ وَاضِحَةٍ؛ فَإِنْ هُوَ الْتَزَمَهَا فَازَ بِالْحَسَنَتَيْنِ: حَسَنَةِ المَالِ، وَحَسَنَةِ الْتِزَامِ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ هُوَ أَخَلَّ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي المَالِ؛ ذَهَبَتْ بَرَكَةُ مَالِهِ، وَحُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِخْلَالِهِ.

وَالَّذِي يَجْعَلُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَلْتَزِمُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْوَالِهِمْ كَسْبًا وَإِنْفَاقًا مَا رُكِّبَ فِيهِمْ مِنْ جِبِلَّةِ حُبِّ المَالِ الَّتِي تُزَاحِمُ التَّقْوَى وَالْوَرَعَ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الْفَجْر: ٢٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [الْعَادِيَات: ٨]، وَالْخَيْرُ هُنَا هُوَ المَالُ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى زِينَةً لِبَنِي آدَمَ يَتَزَيَّنُونَ بِهَا أَمَامَ النَّاسِ فِيمَا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ، وَيَرْكَبُونَ، وَيَسْكُنُونَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْكَهْف: ٤٦].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ المَالُ فِتْنَةً عَظِيمَةً فُتِنَ بِهَا الْخَلْقُ، فَهُمْ مِنْ جِهَةٍ يُحِبُّونَهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْهُ وَلَوْ مَلَكُوا أَوْدِيَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٣].

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄ مرفوعًا: الطبراني في الكبير (١١/ ٧٦) برقم: (١١٠٩٥)، والأوسط (٥٦٧٠)، والبزار كما في مختصر زوائده للحافظ ابن حجر (٨١)، وفي سنده ليث بن أبي سليم، قال البزار: ليث أصابه شبه الاختلاط فبقي في حديثه لين، ولا نعلمه يروى من وجه أحسن من هذا» اهـ.
وأخرجه موقوفًا على ابن عباس ﵄: ابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٤) برقم: (٢٦١١٨).
وجاء من حديث أبي بكر الداهري عن إسماعيل بن أبي خالد عن زيد بن وهب عن ابن مسعود مرفوعًا، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٢٢) ولا يصح فالداهري مرمي بالوضع.
=

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُطْلِقْ لِلإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ تَحْصِيلِ المَالِ وَإِنْفَاقِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ بَلْ جَعَلَ لِذَلِكَ قُيُودًا تُقَيِّدُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ، وَفِتْنَةً لِأَصْحَابِ الْأَمْوَالِ: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التَّغَابُن: ١٥].

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِوَصْفِ المَالِ بِالطَّيِّبِ وَالصَّالِحِ بِالنَّظَرِ إِلَى طُرُقِ كَسْبِهِ المَشْرُوعَةِ الَّتِي أَبَاحَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي إِنْفَاقِهِ فِيمَا يَنْفَعُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] **وقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

= وجاء من رواية عون بن عبد الله عن ابن مسعود موقوفًا، وفيه انقطاع بين ابن عون وابن مسعود، أخرجه الدارمي (٣٤٤).
وله شاهد آخر من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم أجد له علة، ووافقه الذهبي (١/ ٩٢)، قلت: وعلته رواية قتادة عن أنس بالعنعنة وهو مدلس.
وقد جاء مرسلًا من حديث الحسن عن النبي ﷺ عند ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٨).
وجاء من كلام الحسن ولم يرسله عند الدارمي (٣٤٣).
وجاء أيضًا من كلام الزهري -رحمه الله تعالى- عند عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٤٧٨).
وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢٠٦) بعد إيراد تلك الأحاديث: «وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة فبمجموعها تقوى» اهـ.
وقد صحح الألباني حديث أنس في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣٢٧٢)، ومسلم في الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها =

وَأَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ لَا يُدْخِلَ أَحَدُهُمْ فِي جَوْفِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فَقَدْ قَالُوا لَهُ: أَوْصِنَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي بَطْنِهِ إِلَّا طَيِّبًا؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٥).

وَلَمَّا أَسْلَمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ زَعْبَةً صَالِحَةً**، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: **يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٦).

= (١٠١٥)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة (٢٩٨٩)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٩٩)، والدارمي (٢٧١٧).

(٥) أخرجه من حديث جندب بن عبد الله ﷺ موقوفًا: البخاري في الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٦٧٣٣).
وأخرجه مرفوعًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، والأوسط (٨٤٩٥)، والبيهقي في الشعب، وقال: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٧). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، وتعقب البيهقي في إعلاله الحديث بالوقف فقال: قلت: وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن -وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري (٣٣٧٩).

(٦) أخرجه أحمد واللفظ له (٤/ ١٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٥٦-٦٠٥٧)، وأبو يعلى (٧٢٩٨)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٩٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣١٥)، وصححه ابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٢/ ٢٣٦).
وقوله في الحديث: «وأزعب لك من المال زعبة صالحة» جاء هكذا بالزاء والعين المهملة في مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة (٢٢٦٢٧)، والمعجم الأوسط للطبراني، =

. . . .

= تحقيق: طارق عوض الله (٩٠١٢)، وفوائد أبي محمد الفاكهي، تحقيق: محمد الغباني، ط: الرشد (١٤).

وجاء في بعض النسخ والكتب بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» بالراء والغين المعجمة هكذا فيما وقفت عليه من النسخ المطبوعة من المسند، وفي المطبوع من فضائل الصحابة تحقيق وصي الله محمد عباس (١٧٤٥)، وكذلك في مستدرك الحاكم (٢/ ٢)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، وكذا في مسند أبي يعلى تحقيق إرشاد الحق الأثري (٧٢٩٨).

وذكره الشيخ الساعاتي في بلوغ الأماني في ثلاثة مواضع بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» ولم يشرح هذه الجملة فيما يشرحه من الغريب. ينظر: بلوغ الأماني مع الفتح الرباني (١٩/ ١٢٤) و(٢١/ ١٤١) و(٢٢/ ٢٤٠). فالظاهر أن اللفظ لم يكن مشكلًا عنده ولذلك ما شرحه.

وكتب الغريب تذكره بلفظ: «وأزْعَبُ لك من المال زَعْبَةً صالحة» بالزاي والعين المهملة، فقد نقل أبو عبيد بن سلام في غريب الحديث (١/ ٩٤) عن الأصمعي قوله: «أزعب لك زعبة من المال، أي: أعطيك دفعة من المال، قال: والزعب هو الدفع، يقال: جاءنا سيل يزعب زعبًا، أي يتدافع» اهـ.

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٤٣٦): «قوله: وأزعب لك من المال زعبة، أي: أعطيك دفعة منه».

وقال الزمخشري في الفائق (٢/ ١١٠) بعد أن ساق الحديث: «زعب الزعْبُ والزَّأب والزَّهْبُ أخوات معناها: الدفع والقسم، ومنه: تزعَبُوا المال، وتزهَّبوه، وتأزنوه على القلب إذا توزعوه، والزعبة بناء المرة، ويقال للمدفوع: الزَّعبة والزَّهبة أيضًا والزَّعب والزَّهب» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٣٠٢): «وأَزْعَبُ لك زَعْبَة من المال، أي: أعطيك دفعة من المال، وأصل الزعب: الدفع والقسم، ومنه حديث أبي الهيثم: فلم يلبث أن جاء بقربة يزعبها، أي يتدافع بها ويحملها لثقلها» اهـ.

وفي مادة «زعب» قال الخليل في العين (١/ ٣٦٢): «وزعبت له من مال زعبة أي: قطعت له قليلًا من كثير» وفي القاموس (١/ ١٢٠): «وله من المال زَعْبَةَ، ويضم، وزعبًا بالكسر: دفع له قطعة منه» اهـ. =

. . . .

= وفي اللسان (٦/ ٤٣) ذكر الحديث ثم قال: «أي: أعطيك دفعة من المال، الزعبة: الدفعة من المال، قال: وأصل الزعب الدفع والقسم يقال: زعبت له زَعْبَة من المال زُعبةً، وزهْبتُ زُهْبة: دفعت له قطعة وافرة من المال، وأصل الزعب: الدفع والقسم، يقال: أعطاه زعْبًا من ماله، فازدعبه، وزهبًا من ماله فازدهبه، أي: قطعه» اهـ.

ولم أعثر في كتب الغريب واللغة في مادة (رغب) على ما يوافق ما جاء في بعض النسخ المطبوعة التي ذكرت الحديث بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» مما يرجح أنها ليست رواية أخرى، وليس ثمة خلاف في ضبط الجملة كما في بعض الأحاديث، وإنما هو تصحيف من النُسّاخ وقد فات على المراجعين، فجاء مصحفًا في كل الكتب التي وقفت عليها، وأشرت إليها آنفًا، والله أعلم.

ثم بعد كتابة ما سبق وقفت على نسخة مؤسسة الرسالة للمسند بتحقيق جماعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط (٢٩/ ٢٩٩) رقم الحديث (١٧٧٦٣) فوجدتهم قد نبهوا على هذا التصحيف فقالوا بعد ذكرهم لكلام الأصمعي الذي نقله أبو عبيد: «قلنا: وتصحف في بعض النسخ إلى: أرغب رغبة» اهـ فالحمد لله كثيرًا.

ثم بعد مدة طويلة وقفت على كلام للعلامة المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- في صحيح الأدب المفرد، ذكر فيه عكس ما قررته آنفًا، فقال: كذا الأصل بالراء، وكذا في الهندية وغيرها، وكذلك هو في مصادر الحديث من المسانيد وغيرها وهو الصواب، ووقع في «سنة البغوي»: «وأزعب» بالزاء ثم العين المهملة، وبذلك قيده شارح الكتاب «الأدب» اغترارًا منه برواية البغوي، واعتمدها المعلق عليه! وهي وإن كان لها وجه في اللغة، وعليه جرى أهل الغريب كأبي عبيد، وابن الجوزي، وابن الأثير؛ لأنهم يفسرون اللفظة التي وقعت لهم، بغض النظر عن ثبوت نسبتها إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أو الراوي كما هو معروف عند أهل العلم.

أقول: إذا كان الأمر كذلك فلا وجه لهذه اللفظة من حيث الرواية؛ لأن المصادر المشار إليها على خلافها، مثل «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند أحمد»، و«أبي يعلى»، و«صحيح بن حبان» و«مستدرك الحاكم» في موضعين منه، و«شعب الإيمان»، و«المعجم الأوسط» للطبراني (مخطوط)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر «مخطوط» عن خمسة من الثقات فيهم بعض الحفاظ كلهم قالوا: «أرغب» بالراء، وشذ عنهم سعيد الجمحي عند البغوي فرواه بالزاي! ومع ذلك ففيه نفسه ضعف من قبل حفظه، فمن العجب بعد ذلك =

. . . .

= أن يزعم المعلق على البغوي أن رواية (الراء) التي في «المسند» تصحيف، وبناء عليه قيده في طبعته لِصحيح ابن حبان (٨/ ٧) بالزاي تقليدًا منه لزعمه المذكور، وهو يعلم أن المصادر التي قرنها مع «المسند» موافقة له، وإنما أُتي من عدم انتباهه لما ذكرته من التحقيق، والله ولي التوفيق.اهـ من صحيح الأدب المفرد (ص: ١٢٦) رقم الحديث (٢٢٩).

قلت: هذا الذي جزم به الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- فيه نظر من أوجه:

الأول: أن كتب الحديث منقسمة بين اللفظين، ولم تكن لفظة (وأزعب) في مصدر واحد أو مصدرين حتى يُجزم بخطأ في النسخ.

الثاني: أن كل كتب الغريب التي وقفت عليها تشرح كلمة (أزعب) وتعزوها للحديث، ولم أقف على مصدر واحد ذكرها (أرغب)، ومعلوم أن مؤلفي الغريب ينقلون من المخطوطات لا من المطبوع، ومنهم متقدمون جدًّا كأبي عبيد، ونقله عن الأصمعي، وهم أقرب إلى مصادر السنة الأصلية من الشيخ الألباني، فوقوفه -رحمه الله تعالى- على جملة من المخطوطات لا يغير من الأمر شيئًا، ولا سيما أن لفظة (أرغب) على الجادة، فالغلط وارد فيها جدًّا، بخلاف (أزعب). ومعلوم أن مؤلفي كتب الغريب شرحوا ألفاظا هي أقل غرابة من لفظة (وأرغب لك من المال رغبة صالحة) فلماذا لم يأت أحد منهم على هذا اللفظ بالشرح، وشرحوا كلهم لفظ (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) فدعوى أنهم يشرحون ما اتفق لهم دليل على أن المتفق لهم هو اللفظ الصحيح، وأن ما لم يتفق لهم فليس صحيحًا؛ لأنه لم يوجد في وقتهم، ولو وجد ولو مصحفًا لنبهوا عليه أو ذكروا وجهًا آخر.

الثالث: أن العلامة الألباني -رحمه الله تعالى- قد ذكرها على الصواب (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ط: الأولى ١٤٢٤هـ حديث (٣٢٠١)، وأيضًا في تحقيقه لمشكاة المصابيح، ط: الثانية ١٣٩٩هـ حديث (٣٧٥٦) وعلق في حاشية المشكاة شارحًا الكلمة بقوله: أي: أقطع لك قطعة أو دفعة من المال.

ويحتمل أن الشيخ -رحمه الله تعالى- رجع عما قرره في الأدب المفرد؛ لأنني وقفت على الطبعة الرابعة منه، المطبوعة عام ١٤١٨هـ وفي حاشيتها ما ذكرته عنه آنفًا، ثم أخرج الشيخ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان عام ١٤٢٤هـ أي: بعدها بست سنوات، وأثبت فيه (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) على الصواب، مخالفًا ما قرره في صحيح =

فَدَلَّتْ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى وَصْفِ المَالِ بِالطَّيِّبِ وَبِالصَّالِحِ إِذَا كَانَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ يُرَاعِي شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ؛ بَلْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ مِنْ مَوَاطِنِ الْغِبْطَةِ فَقَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**»، وَذَكَرَ مِنْهُمَا: «**وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَلِعَظِيمِ شَأْنِ المَالِ وَقِيمَتِهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ؛ كَانَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ الْخَمْسِ الَّتِي لَا تَقُومُ بِدُونِهِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهِ، فَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيهِ(٨)، وَهُوَ أَقَلُّ الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ مَنْزِلَةً؛ وَلِذَلِكَ يُضَحَّى بِهِ فِي سَبِيلِ حِفْظِ الدِّينِ، وَسَلَامَةِ النَّفْسِ، وَتَأْمِينِ الْعَقْلِ، وَحِمَايَةِ الْعِرْضِ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ المَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ كَالسُّؤَالِ عَنْ غَيْرِهِ، فَلَهُ جِهَتَانِ فِي المَسْأَلَةِ: جِهَةُ الْكَسْبِ، وَجِهَةُ الْإِنْفَاقِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ**»(٩).

= الأدب المفرد. إلا أن تكون تعليقات الشيخ على صحيح ابن حبان قديمة، ولم يدفعها للطبع إلا متأخرًا ولم يراجعها، وهذا فيه بُعْد لمن عرف الشيخ ودقته وإتقانه لعمله -رحمه الله تعالى- رحمة واسعة.

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٨) وهو حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**» أخرجه البخاري في المظالم، باب من قتل دون ماله (٢٣٤٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه (١٤١).

(٩) أخرجه من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: الترمذي في صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، وقال: حديث حسن صحيح (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤٨). وله شواهد عن معاذ وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَشْهَدُ المَالُ عَلَى صَاحِبِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . . ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ مَوْتِكُمْ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَلَا بَقَاءَ لِحَيٍّ فِيهَا، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٤]، فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَمِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ.

---

(١٠) أخرجه في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري ﷺ: البخاري في الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦)، ومسلم في الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢).

أَيُّهَا النَّاسُ: لَيْسَ المَالُ مَحَلَّ ذَمٍّ مُطْلَقًا، وَلَا يُمْدَحُ مُطْلَقًا؛ بَلْ يُنْظَرُ فِي مَصْدَرِهِ وَمَخْرَجِهِ، فَإِنْ كَانَ مَصْدَرُهُ طَيِّبًا فَهُوَ مَالٌ صَالِحٌ، وَكَانَ عِنْدَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ تَقِيٍّ مُنْفِقٍ كَانَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَهُوَ مَحَلُّ مَدْحٍ وَمُدِحَ بِهِ صَاحِبُهُ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مَالًا فَاسِدًا مَصْدَرُهُ الرِّبَا، أَوِ الرَّشْوَةُ، أَوْ أَكْلُ الْحُقُوقِ، أَوِ التِّجَارَةُ المُحَرَّمَةُ؛ فَهُوَ مَالٌ خَبِيثٌ، وَمَآلُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى السُّحْتِ وَقِلَّةِ الْبَرَكَةِ، وَغَالِبًا مَا يَكُونُ وَبَالًا عَلَى صَاحِبِهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا مَلَكَ المَالَ رَجُلُ سُوءٍ يُمْسِكُهُ عَنْ وَاجِبَاتِهِ، وَيَبْخَلُ بِهِ عَنْ حُقُوقِهِ، وَيُنْفِقُهُ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ يَعُودُ بِالْخُسْرَانِ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ تَمَلَّكَهُ مِنْ طُرُقٍ حَلَالٍ كَالْإِرْثِ وَالْهِبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَشَرُّ النَّاسِ فِي الْأَمْوَالِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْخَبِيثَيْنِ، وَحَصَّلَ السُّحْتَيْنِ: فَكَسَبَ مَالَهُ مِنْ حَرَامٍ، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي الْحَرَامِ.

وَلَقَدْ فَهِمَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ هَذِهِ المَسْأَلَةَ المُهِمَّةَ؛ فَاجْتَنَبُوا الْحَرَامَ فِي كَسْبِهِمْ، وَسَلَّطُوا المَالَ عَلَى حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبَةِ وَالمَنْدُوبَةِ، وَكَانَ مِنْهُمْ تُجَّارٌ نَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِتِجَارَتِهِمُ الْإِسْلَامَ كَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُمْ.

وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى مَا قَدَرَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْأَفْذَاذُ؟ فَأَبُو بَكْرٍ ﷺ تَكَفَّلَ بِجِهَازِ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي خِدْمَتِهِ وَخِدْمَةِ دَعْوَتِهِ، وَلَمَّا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْإِنْفَاقِ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِكُلِّ مَالِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟** قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[11].

---

(١١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: أبو داود في الزكاة، باب في الرخصة في ذلك =

وَبَلَغَ مَا أَنْفَقَهُ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعِينَ أَلْفًا؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂(١٢)، وَالْأَلْفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ لَهُ قِيمَتُهُ الْكَبِيرَةُ، وَلِكَثْرَةِ مَا أَنْفَقَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: مَا أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٣).

وَخَرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ . . .»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٤).

وَعُثْمَانُ ﷺ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَجَاءَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فَأَفْرَغَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقَلِّبُهَا وَيَقُولُ: **«مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ»** أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١٥).

= (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر ﵄ كليهما (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (١٤)، والدارمي (١٦٦٠)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (١/ ٥٧٤).

(١٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٨٥٩).

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد في المسند (٢/ ٢٥٣)، وفي فضائل الصحابة (٢٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٨)، وصححه ابن حبان (٦٨٥٨).

(١٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: البخاري في الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٥)، وأحمد (١/ ٢٧٠).

وجاء أيضًا بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند: البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٢).

(١٥) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ: أحمد في المسند (٥/ ٦٣)، وفي فضائل =

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ سَمِعَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مِنْ بَعْدِي**» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ؛ فَأَوْصَى لَهُنَّ بِحَدِيقَةٍ بِيعَتْ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ(١٦).

وَبَاعَ أَرْضًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَسَّمَ قِيمَتَهَا فِي فُقَرَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، وَفِي الْمُهَاجِرِينَ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ(١٧).

= الصحابة (٧٣٨)، والترمذي في المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٧٠١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٤١٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١١٠).

(١٦) أخرجه بنحوه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ﷺ: الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٧٤٩).
وأخرجه من حديث أبي سلمة «أن عبد الرحمن بن عوف أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربع مئة ألف» الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٧٥٠).
وأخرجه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**خيركم خيركم لأهلي من بعدي**» أبو يعلى (٥٩٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤١٤)، والطبري في تاريخه (٧/ ٢٧٦-٢٧٧)، والحاكم وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١-٣١٢).
وقال الهيثمي في الزوائد (٩/ ١٧٤): «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات».
وقصة بيعه للحديقة وقسمتها بين أمهات المؤمنين جاءت عند الترمذي وابن أبي عاصم والحاكم.

(١٧) جاء ذلك في حديث أم بكر بنت المسور: أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضًا له من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين، قال المسور: فأتيت عائشة بنصيبها، فقالت: من أرسل بهذا؟ فقلت: عبدالرحمن، قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحِنُّ عليكن من بعدي إلا الصابرون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة» أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٠٣-١٣٥)، وفي فضائل الصحابة (١٢٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٨)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٥٦٦)، والطبراني في الأوسط (٩١١١).

وَأَوْصَى ﷺ لِلْبَدْرِيِّينَ فَوَجَدُوا مِائَةَ بَدْرِيٍّ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَأَوْصَى بِأَلْفِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى(١٨).

وَكَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ كَعِيَالِهِ ﷺ؛ قَالَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ عِيَالًا عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: ثُلُثٌ يُقْرِضُهُمْ مَالَهُ، وَثُلُثٌ يَقْضِي دَيْنَهُمْ، وَيَصِلُ ثُلُثًا(١٩).

هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ أَمْوَالِهِمْ؛ جَمَعُوهَا بِالْحَقِّ، ثُمَّ أَنْفَقُوهَا بِالْحَقِّ، فَكَانَتْ أَمْوَالًا طَيِّبَةً صَالِحَةً عِنْدَ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى طَيِّبِينَ صَالِحِينَ.

أَيْنَ حَالُ تُجَّارِ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ هَذَا؟ أَيْنَ حَالُ مَنْ جَمَعُوا أَمْوَالَهُمْ مِنَ الرِّبَا، أَوِ الرِّشَا، أَوْ أَكْلِ الْحُقُوقِ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ؟ أَيْنَ مَنْ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فِي تَشْيِيدِ الْبُنُوكِ الرِّبَوِيَّةِ، وَالمُسَاهَمَاتِ المُحَرَّمَةِ، أَوْ فِي إِصْدَارِ مَجَلَّاتٍ فَاضِحَةٍ تَمْتَلِئُ بِصُوَرِ الْبَغَايَا وَأَشْبَاهِ الْبَغَايَا، وَتَنْضَحُ بِالْغَزَلِ المَاجِنِ وَالْفِكْرِ المُنْحَرِفِ الَّذِي يُعَارِضُ الدِّينَ وَالْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ؟!

وَأَعْظَمُ شَرًّا مِنْهُمْ مَنْ أَطْلَقُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً، وَصَنَعُوا بَرَامِجَ تَرْفِيهِيَّةً لَيْسَ لَهَا رِسَالَةٌ تُؤَدِّيهَا إِلَّا إِفْسَادَ الْفِطْرَةِ، وَإِمَاتَةَ الْغَيْرَةِ، وَقَتْلَ الْأَخْلَاقِ وَالدِّيَانَةِ، بِاسْمِ التَّرْفِيهِ وَالِانْفِتَاحِ، وَيُشَارِكُهُمْ فِي إِثْمِهِمْ تُجَّارٌ يَدْعَمُونَ هَذِهِ الْوَسَائِلَ الْإِعْلَامِيَّةَ الْفَاسِدَةَ وَالمُفْسِدَةَ بِالْإِعْلَانِ فِيهَا، وَالدِّعَايَةِ لِتِجَارَاتِهِمْ وَمُنْتَجَاتِهِمْ عَبْرَهَا، وَلَا يُنْكِرُونَ مَا فِيهَا مِنْ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ! وَلَوْ أَنَّهُمْ كَفُّوا عَنْهَا، وَلَمْ يُعْلِنُوا فِيهَا إِلَّا بِشَرْطِ تَنْظِيفِ قَنَوَاتِهِمْ مِنْ هَذِهِ المَوَادِّ المُحَرَّمَةِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ وَلِأَصْحَابِهَا،

---

(١٨) سير أعلام النبلاء (١/ ٩٠).

(١٩) المصدر السابق (١/ ٨٨).

وَلِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ؛ بِتَقْلِيلِ الشَّرِّ وَتَحْجِيمِهِ، وَالِاحْتِسَابِ عَلَى أَهْلِهِ وَنَاشِرِيهِ.

وَأَيْنَ مَا فَعَلَهُ أَئِمَّةُ الْهُدَى بِأَمْوَالِهِمْ، وَإِنْفَاقِهَا فِي مَجَالَاتِ الْخَيْرِ، مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ المَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي وَلَائِمِهِمْ وَأَفْرَاحِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ، مِنْ سَرَفٍ عَظِيمٍ، وَتَبْذِيرٍ كَبِيرٍ، وَكُفْرَانٍ لِنِعْمَةِ المَالِ، بِإِلْقَاءِ فَوَائِضِ الْأَطْعِمَةِ فِي النُّفَايَاتِ، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا يُنْقَلُ عَبْرَ الشَّاشَاتِ مِنْ مَجَاعَاتٍ هُنَا وَهُنَاكَ، وَقَدْ تَبِعَهُمْ فِي سَرَفِهِمْ، وَقَلَّدَهُمْ فِي تَبْذِيرِهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ مَسْتُورِي الْحَالِ، فِي بُعْدٍ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ المَالِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُحَاسَبُونَ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ دَخَلَ بُسْتَانًا مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فَأَكَلُوا بَلَحًا، وَشَرِبُوا مَاءً، فَلَمَّا انْتَهَوْا قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ[٢٠].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ: المَاءُ وَالتَّمْرُ، وَسُيُوفُنَا عَلَى رِقَابِنَا وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟! قَالَ: «**أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢١].

---

(٢٠) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٣٣٨)، والنسائي في الوصايا، باب قضاء الدين قبل الميراث (٦/ ٢٤٦)، والطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨٦)، وأبو يعلى (١٧٩٠)، والطيالسي (١٧٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٤١١).

(٢١) أخرجه من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٤٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٠) برقم: (٣٤٣٤٥).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر (٣٣٥٧).
=

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَا الَّذِي سُنَسْأَلُ عَنْهُ، وَنَحْنُ لَا نَدْرِي مَاذَا نَأْكُلُ؟ وَلَا مَاذَا نَشْرَبُ؟ وَلَا مَاذَا نَلْبَسُ؟ وَلَا مَاذَا نَرْكَبُ؟ وَلَا مَاذَا نَضَعُ فِي بُيُوتِنَا مِنْ أَثَاثٍ وَمَتَاعٍ وَتُحَفٍ وَزِينَةٍ؟!

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ، وَالْعَمَلَ فِي أَمْوَالِنَا بِمَا يُرْضِيهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ . . .



= وشاهد ثان من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه عند: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: هذا حديث حسن(٣٣٥٦).



٣٠٠- الإنسان والمال (٢)
رأي في تجارة الأسهم

١٧/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَبْسُطُ وَيَقْبِضُ، وَيَرْفَعُ وَيَخْفِضُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَعْطَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣]، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّدْبِيرُ فِي خَلْقِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَرَضَ عَلَيْهِ رَبُّهُ الدُّنْيَا فَرَضِيَ بِالْكَفَافِ، وَخَيَّرَهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ مَعَ الْمُلْكِ، وَبَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ مَعَ النُّبُوَّةِ؛ فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَلِكًا رَسُولًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ، وَهَاجَرُوا مَعَهُ، وَقَاتَلُوا دُونَهُ، وَبَذَلُوا فِي الْإِسْلَامِ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ؛ إِرْضَاءً لِرَبِّهِمْ، وَتَصْدِيقًا لِإِيمَانِهِمْ، وَنُصْرَةً لِدِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى وَلَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَ شَيْئًا مِنْ حَظِّهَا، فَخَافَ أَنْ تَكُونَ طَيِّبَاتُهُ قَدْ عُجِّلَتْ لَهُ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ؛ فَفِي التَّقْوَى تَفْرِيجٌ لِكُرَبِ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا، وَأَفَاضَ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ أَرْزَاقِ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الْأَرْضِ مَا يَكُونُ عَوْنًا لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَأَمَرَهُمْ

بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْبَقَرَة: ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٣].

وَالمَالُ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا سَخَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ، وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ وَيَتَعَامَلُونَ، وَبِهِ يُقَدِّرُونَ قِيمَةَ مَا يَتَبَادَلُونَ، وَالمَالُ شَهْوَةٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَقَدْ رُكِّبَ فِي بَنِي آدَمَ مَحَبَّةُ الشَّهَوَاتِ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الْفَجْر: ٢٠] وَهُوَ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا الَّتِي يُحِبُّ الْبَشَرُ نَمَاءَهَا وَزِيَادَتَهَا، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْهَا مَهْمَا كَانَتْ كَثْرَتُهَا ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْكَهْف: ٤٦]، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَلَيْسَ إِمْدَادُ اللَّهِ تَعَالَى عَبْدَهُ بِالمَالِ دَلِيلَ رِضًا وَمَحَبَّةٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ ابْتِلَاءً، أَوِ اسْتِدْرَاجًا، أَوْ عَذَابًا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥٥، ٥٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ أَبِي لَهَبٍ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المَسَد: ٢]، وَفِي

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٢)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٩).

وجاء من حديث أنس ﷺ عند: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٥)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٨).

ومن حديث عبدالله بن الزبير ﷺ عند: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٤).

ومن حديث أبي موسى ﷺ عند: مسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٥٠).

الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٨٥]، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى إِغْدَاقَ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ، وَأَنَّ مِنْ عَدَمِ الرِّضَا قِلَّةَ المَالِ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الزَّجْرُ عَنْ هَذَا الْفَهْمِ الْخَاطِئِ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]؛ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنُّونَ.

وَلَمَّا تَفَاخَرَ أَغْنِيَاءُ الْكُفَّارِ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سَبَأ: ٣٥]، كَانَ الْجَوَابُ عَلَيْهِمْ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مِنَ الْآيَةِ [سَبَأ: ٣٧]، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَعْرَاف: ٤٨]، وَنَحْنُ نُبْصِرُ أَنَّ الدُّوَلَ الْكَافِرَةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَكْثَرُ حَظًّا بِالْغِنَى وَالْأَمْوَالِ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَثْرَةَ المَالِ وَقِلَّتَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْفِتْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ لَيْسَ إِلَّا.

إِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ الْعَظِيمَةُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، وَفَهِمَهَا حَقَّ الْفَهْمِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ المَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، يُقَسِّمُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْزَعُ لِفَوَاتِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا تَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَيَرْضَى بِمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ فِيهِ.

وَمَجَالَاتُ تَنْمِيَةِ الْأَمْوَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ تَنَوَّعَتْ وَتَعَدَّدَتْ وَسَائِلُهَا، وَقَذَفَتِ النُّظُمُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ بِمِئَاتِ الصُّوَرِ فِي إِدَارَةِ الِاقْتِصَادِ وَتَنْمِيَةِ الْأَمْوَالِ، تَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ أَيَّةِ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ تَحُولُ بَيْنَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ وَبَيْنَ الْأَرْبَاحِ الْكَبِيرَةِ؛ فَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ الرِّبَا وَالْغِشِّ وَالنَّجْشِ وَالْغَرَرِ وَالِاحْتِكَارِ، وَصَارَ الْأَقْوِيَاءُ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى اصْطِيَادِ الضُّعَفَاءِ وَإِغْرَائِهِمْ، ثُمَّ

سَحْقِهِمْ وَإِنْهَائِهِمْ. وَيَكْفِي تَصْرِيحٌ أَوْ تَلْمِيحٌ أَوْ إِشَارَةٌ مِنْ أَحَدِ كِبَارِ المُرَابِينَ لِيُحْدِثَ ارْتِبَاكًا كَبِيرًا فِي أَسْوَاقِ المَالِ وَالْأَعْمَالِ، يَأْتِي عَلَى السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنَ النَّاسِ.

وَسُوقُ الْأَسْهُمِ هِيَ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي أَفْرَزَهَا النِّظَامُ الرَّأْسِمَالِيُّ، وَأَقْبَلَ عَلَى الِاتِّجَارِ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَتَقَلَّبُوا فِي أَرْبَاحِهَا وَخَسَارَتِهَا، وَذَاقُوا حَلَاوَتَهَا كَمَا طَعِمُوا مَرَارَتَهَا، وَجَرَّبُوا فِيهَا الثَّرَاءَ السَّرِيعَ، كَمَا جَرَّبُوا الْخَسَارَةَ الْكَبِيرَةَ، وَكَثُرَتْ فِيهَا أَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ وَالمُفْتِينَ؛ فَأَحَلَّهَا قَوْمٌ وَحَرَّمَهَا آخَرُونَ، وَتَوَقَّفَ فِيهَا قَوْمٌ وَفَصَّلَ الْقَوْلَ فِيهَا آخَرُونَ. وَكَثِيرٌ مِنْ مُعَامَلَتِهَا يُخَالِطُهَا شَيْءٌ مِنَ الرِّبَا أَوِ الِاحْتِكَارِ أَوِ النَّجْشِ، وَمَنْ يَدْخُلُ سُوقَهَا مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ يَدْخُلُونَهَا عَلَى غَرَرٍ وَعَدَمِ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا مُقَلِّدُونَ لِغَيْرِهِمْ، مُتَّبِعُونَ لِلْأَثْرِيَاءِ مِنْهُمْ.

وَمَا الْأَسْهُمُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ الرَّأْسِمَالِيِّ الَّذِي أَغْرَقَ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِأَنْوَاعِ المُعَامَلَاتِ المُحَرَّمَةِ وَالمُخْتَلِطَةِ وَالمُتَشَابِهَةِ الَّتِي تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ، وَيَخْتَلِفُ فِيهَا المُجْتَهِدُونَ.

وَمَهْمَا كَثُرَ الِاخْتِلَافُ حَوْلَهَا، وَقَالَ النَّاسُ فِيهَا مَا قَالُوا؛ فَإِنَّ مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ أَنَّ مَنْ تَوَرَّعَ عَنْهَا اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَلَمْ يُخَاطِرْ بِمَالِهِ، وَمَنْ تَاجَرَ فِيهَا بِفَتْوَى عَالِمٍ مُعْتَبَرٍ فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ عَلَيْهِ الْحَذَرَ مِنَ الْفِتْنَةِ بِهَا؛ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنْ فِتْنَةِ المَالِ عَرِيضٌ، وَمَجَالٌ مِنْ مَجَالَاتِ الْكَسْبِ وَالْخَسَارَةِ سَرِيعٌ، يُصْبِحُ صَاحِبُهَا عَلَى حَالٍ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ أُخْرَى، فَإِنْ رَبِحَ فَرِحَ وَشَكَرَ، وَإِنْ خَسِرَ سَخِطَ وَضَجِرَ، لَا يَرْحَمُ سُوقُهَا فِي ضَعِيفٍ ضَعْفَهُ، وَلَا يُمْهِلُهُ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ، مَنْ دَخَلَهَا فَمَالُهُ لَيْسَ لَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْهَا رَابِحًا أَوْ خَاسِرًا، فَإِنْ خَرَجَ رَابِحًا لَا يَلْبَثُ فَرَحُهُ إِلَّا قَلِيلًا فَتَرْتَفِعُ مَرَّةً أُخْرَى فَيَحْزَنُ لِفَوَاتِ الرِّبْحِ الْجَدِيدِ،

وَإِنْ خَسِرَ تَرَبَّصَ لَعَلَّهَا تَعُودُ كَمَا كَانَتْ، فَتَزْدَادُ خَسَارَةً إِلَى خَسَارَتِهَا حَتَّى لَا يَجِدَ مَنْ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ، فَلَا تَمَتَّعَ بِأَرْبَاحِهَا لَمَّا رَبِحَتْ، وَلَا سَلِمَ مِنْ خَسَارَتِهَا إِذْ خَسِرَتْ، كَأَنَّ الْوَاحِدَ فِي سُوقِهَا يَمُدُّ حَبْلًا مَطَّاطًا يَزْدَادُ طُولُهُ مَعَ اسْتِمْرَارِهِ فِي شَدِّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ لَا مَحَالَةَ لَكِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَنْقَطِعُ، فَلَا سَلِمَ لَهُ حَبْلُهُ، وَلَا تَوَقَّفَ هُوَ عَنْ مَدِّهِ!! وَلَيْسَ لِلْوَاحِدِ فِيهَا أَمَدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، بَلْ تُغْرِيهِ وَتُغْرِيهِ حَتَّى يَتَمَلَّكَهُ الطَّمَعُ، وَيَسْتَبِدَّ بِهِ الْجَشَعُ، فَيُصْبِحَ رَقِيقَهَا، تَمْلِكُهُ وَلَوْ كَانَ هُوَ مَالِكَهَا، وَمَنْ أَسَرَتْهُ فَلَا هَنِئَ بِنَوْمٍ، وَلَا الْتَذَّ بِطَعَامٍ؛ فَهُوَ مُنْشَغِلُ الْبَالِ، دَائِمُ التَّفْكِيرِ، مُضَيِّعُ الْحُقُوقِ، وَكَمْ مِنْ صَلَاةٍ ضُيِّعَتْ لِأَجْلِهَا! وَكَمْ مِنْ حُقُوقٍ لِلْأَهْلِ وَالْعِيَالِ أُهْدِرَتْ فِي سَبِيلِهَا! وَفِي طَرِيقِهَا الطَّوِيلِ تَهْلِكُ أَنْفُسٌ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْهَا، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ مَعَهَا فَسَلَامَتُهُ مِنْهَا خَيْرٌ لِنَفْسِهِ وَدِينِهِ وَأَهْلِهِ.

وَمَنْ أَبَى إِلَّا اقْتِحَامَهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَيَسْتَخِيرَهُ فِيهَا، وَيَتَحَرَّى أَقْرَبَهَا إِلَى الْحَلَالِ، وَأَكْثَرَهَا سَلَامَةً مِنَ الْإِثْمِ، وَلَوْ كَانَ رِبْحُهَا أَقَلَّ مِنْ غَيْرِهَا، فَقَلِيلُ الْحَلَالِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْحَرَامِ.

وَعَلَيْهِ أَلَّا يُخَاطِرَ بِمَالِهِ كُلِّهِ فِيهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُحَمِّلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ بِقَرْضٍ أَوْ رَهْنٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَمِنَ الطَّمَعِ الْمَذْمُومِ أَنْ يَرْهَنَ شَيْئًا تَتَعَلَّقُ مَنَافِعُهُ بِغَيْرِهِ، كَدَارِهِ الَّتِي يَسْكُنُهَا أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ فَإِنَّهُ إِنْ خَسِرَ شُرِّدُوا مِنْهَا، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَهَى أَنْ يُوصِيَ الرَّجُلُ بِشَطْرِ مَالِهِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَضِيعَ الْوَرَثَةُ بَعْدَ مَوْتِهِ(٢)، فَكَيْفَ بِمَنْ يَعْمَلُ عَلَى إِضَاعَتِهِمْ وَهُوَ حَيٌّ فَيَجْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ طَمَعِهِ وَجَشَعِهِ!!

وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُتَاجِرَ فِيمَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ بِأَمْوَالٍ لَا يَمْلِكُهَا وَهُوَ وَصِيٌّ عَلَيْهَا،

---

(٢) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: البخاري في الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٥٩١)، ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

كَأَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ وَالْقَاصِرِينَ وَنَحْوِهِمْ، وَسَلَامَتُهُ مِنْ أَمْوَالِ غَيْرِهِ مَهْمَا كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخَاطِرَ بِهَا، فَإِنْ رَبِحُوا عَزَوُا الرِّبْحَ إِلَى السُّوقِ، وَإِنْ خَسِرُوا نَسَبُوا الْخَسَارَةَ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا شَارَطَهُمْ عَلَى بَعْضِ أَرْبَاحِهَا. وَكَمْ مِنْ ضَغَائِنَ وَقَعَتْ، وَقَرَابَةٍ قُطِعَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ! وَالنَّاسُ فِي أَغْلَبِهِمْ مُحِبُّونَ مَا دَامُوا يَرْبَحُونَ، فَإِنْ خَسِرُوا أَمْوَالَهُمْ تَأَثَّرُوا وَأَبْغَضُوا.

فَإِنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَاجَرَ بِبَعْضِ مَالِهِ فِيهَا، فَلَا يَجْعَلُهَا أَكْبَرَ هَمِّهِ، وَلَا يَصْرِفُ عَلَيْهَا جُلَّ وَقْتِهِ، بَلْ يُعْطِيهَا مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ وَالْمُتَابَعَةِ بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، مُحَافِظًا عَلَى الْحُقُوقِ الَّتِي عَلَيْهِ لِرَبِّهِ وَلِنَفْسِهِ وَوَالِدَيْهِ وَأُسْرَتِهِ وَقَرَابَتِهِ، مُوَطِّنًا نَفْسَهُ عَلَى الرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ؛ فَلَا الرِّبْحُ يَسْتَخِفُّهُ، وَلَا الْخَسَارَةُ تُجْزِعُهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ لَا يُصْغِيَ إِلَى الشَّائِعَاتِ، أَوْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِهَا، أَوْ يَسْعَى فِي بَثِّهَا وَنَشْرِهَا.

وَمَنْ رَأَى مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفًا شَدِيدًا تُجَاهَ المَالِ، وَأَحَسَّ أَنَّ المَالَ بَدَأَ يَتَسَرَّبُ مِنْ يَدِهِ إِلَى قَلْبِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ: إِضَاعَةُ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ لِصَالِحِ الْأَسْهُمِ وَالشَّاشَاتِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَرِقَّ دِينُهُ، أَوْ تَعْتَلَّ صِحَّتُهُ. وَرِقَّةُ دِينِهِ تُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَجَاوُزَ الْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ، بِتَسْوِيغَاتٍ يُقْنِعُ بِهَا نَفْسَهُ، وَتَأْوِيلَاتٍ يَلْتَفُّ بِهَا عَلَى أَحْكَامِ دِينِهِ. وَمَنِ اسْتَحْوَذَ المَالُ عَلَى قَلْبِهِ اعْتَلَّتْ صِحَّتُهُ بِسَبَبِ اضْطِرَابِ أَسْوَاقِ الْأَسْهُمِ وَالمَالِ، فَكُلُّ خَسَارَةٍ تُوجِدُ فِيهِ عِلَّةً، وَكُلُّ رِبْحٍ يُحْدِثُ فِيهِ خِفَّةً؛ حَتَّى يَفْقِدَ نَشَاطَهُ وَصِحَّتَهُ، وَلَرُبَّمَا فَقَدَتْهُ أُسْرَتُهُ فِي قَارِعَةٍ مِنْ قَارِعَاتِ الْأَسْهُمِ! فَلَا اسْتَمْتَعَ بِمَالِهِ، وَلَا سَلِمَ مِنْ تَبِعَتِهِ وَإِثْمِهِ. وَكُلُّ امْرِئٍ أَبْصَرُ بِنَفْسِهِ، وَأَدْرَى بِكَوَامِنِ قَلْبِهِ، وَمَنْ بَلَى نَفْسَهُ وَاخْتَبَرَهَا، وَأَيْقَنَ بِضَعْفِهَا أَمَامَ المَالِ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا نَزَّاعَةٌ إِلَى الطَّمَعِ، وَلَا تَحْتَمِلُ الصَّدَمَاتِ الْفُجَائِيَّةَ فِي سُوقِ

الْأَسْهُمِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ مَرِيضًا بِأَمْرَاضٍ مُزْمِنَةٍ تَتَأَثَّرُ بِالْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَحَرَامٌ عَلَيْهِ ثُمَّ حَرَامٌ أَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ وَيُوبِقَهَا مِنْ أَجْلِ المَالِ، وَلْيَسْلُكْ فِي التِّجَارَةِ مَسَالِكَ أُخْرَى؛ فَذَلِكَ أَتْقَى لِرَبِّهِ، وَأَنْقَى لِدِينِهِ، وَأَحْفَظُ لِنَفْسِهِ. وَالْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَانَا فِي قُلُوبِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التَّغَابُن: ١٥، ١٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ الْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالمُلْكُ مُلْكُهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، نِعَمُهُ عَلَى عِبَادِهِ تَتْرَا، وَخَيْرُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٦٠٨١)، ومسلم في الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْزَلَهَا! وَكَمْ مِنْ نِقْمَةٍ دَفَعَهَا! وَكَمْ مِنْ ضَرَّاءَ كَشَفَهَا! لَا تَضِيقُ بِالْعَبْدِ حَالٌ إِلَّا أَعْقَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهَا فَرَجًا، وَأَوْجَدَ لَهُ مِنْهَا مَخْرَجًا ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرْح: ٥، ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: المَالُ عَزِيزٌ عَلَى النُّفُوسِ، يَرْتَفِعُ بِزِيَادَتِهِ أَقْوَامٌ، وَيَسْفُلُ بِخَسَارَتِهِ آخَرُونَ، وَهُوَ سَبَبُ الْجَاهِ، كَمَا أَنَّ الْجَاهَ سَبَبُهُ؛ وَلِذَا كَانَ فَقْدُهُ شَدِيدَ الْوَطْأَةِ عَلَى النَّفْسِ، وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ يَتَمَالَكُ نَفْسَهُ، وَيُقَلِّلُ آثَارَ خَسَارَتِهِ، فَإِنْ خَسِرَ مَالَهُ فَلَا يَخْسَرُ دِينَهُ بِجَزَعِهِ، وَلَا يَخْسَرُ أَجْرَهُ عَلَى مُصَابِهِ بِقِلَّةِ صَبْرِهِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَحْتَسِبَ، وَأَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ(٤).

فَإِنْ قَابَلَ مُصِيبَتَهُ عَلَى خَسَارَتِهِ بِالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَذَلِكَ أَعْلَى المَنَازِلِ، وَأَشْرَفُ المَقَامَاتِ، رَوَى أَبُو عَمْرٍو الْكِنْدِيُّ فَقَالَ: «أَغَارَتِ الرُّومُ عَلَى جَوَامِيسَ لِبَشِيرٍ الطَّبَرِيِّ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ جَامُوسٍ، فَرَكِبْتُ مَعَهُ أَنَا وَابْنٌ لَهُ، فَلَقِينَا عَبِيدُهُ الَّذِينَ كَانَتْ مَعَهُمُ الْجَوَامِيسُ مَعَهُمْ عِصِيُّهُمْ، فَقَالُوا: يَا مَوْلَانَا ذَهَبَتِ الْجَوَامِيسُ، فَقَالَ: وَأَنْتُمْ أَيْضًا اذْهَبُوا مَعَهَا، فَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتِ أَفْقَرْتَنَا! قَالَ: اسْكُتْ! إِنَّ رَبِّي اخْتَبَرَنِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَزِيدَهُ»(٥).

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ لَهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا**

---

(٤) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الجنائز، باب زيارة القبور (١٢٢٣)، ومسلم في الجنائز، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (١٩)، وهو في صفة الصفوة (٤/ ٢٣٥)، والوافي بالوفيات (١٠/ ٩٩).

لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَعَلَيْهِ أَلَّا يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِالمَخْلُوقِينَ مِنْ خُبَرَاءِ السُّوقِ وَالمَالِ، وَمُدِيرِي الْبُنُوكِ وَالشَّرِكَاتِ، بَلْ يَهْرَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِرْجَاعِ، وَيَسْأَلُهُ التَّثْبِيتَ وَالتَّعْوِيضَ؛ كَمَا رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂ فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ قَوَادِحِ التَّوْحِيدِ كَالْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَكَثْرَةِ اللَّوْمِ، وَفَتْحِ بَابِ «لَوْ»، فَيَقُولُ: لَوْ أَطَعْتُ فُلَانًا فَبِعْتُ، أَوْ لَوْ عَصَيْتُ فُلَانًا فَلَمْ أَبِعْ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَحِينَئِذٍ يَفْتَحُ عَلَى نَفْسِهِ عَمَلَ الشَّيْطَانِ. وَلْيُوقِنْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا الْخَيْرُ لَهُ، فَقَدْ يَطْلُبُ الرِّبْحَ وَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي خَسَارَتِهِ حِفْظُ دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَيَسْخَطُ عَلَى رَبِّهِ وَهُوَ يَحْفَظُهُ، رَوَى قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ المَاءَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٨).

---

(٦) أخرجه من حديث صهيب ﵁: مسلم في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٧) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة (٩١٨)، وأبو داود في الجنائز، باب ما يستحب أن يقال عند الميت من الكلام (٣١١٩)، والترمذي في الدعوات باب (٨٨) (٣٥٠٦)، ومالك (١/ ٢٣٦)، وأحمد (٦/ ٣٠٩).

(٨) أخرجه الترمذي في الطب، باب ما جاء في الجمعة، وقال: حسن غريب (٢٠٣٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، والحاكم (٤/ ٢٣٠).

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مُصِيبَتَهُ كَانَتْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي جُزْءٍ مِنْهُ، وَلَمْ تَكُنْ فِي دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ، وَلَوْ قُدِّرَ عَلَى وَلَدِهِ مَرَضٌ لَا يُعَافَى مِنْهُ إِلَّا بِبَذْلِ مَالِهِ كُلِّهِ وَزِيَادَةٍ لَبَذَلَ مَالَهُ وَاقْتَرَضَ، أَفَإِنْ سَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدَهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ مُصِيبَتَهُ فِي مَالِهِ جَزِعَ وَتَسَخَّطَ، وَقَدْ كَانَ يَبْذُلُهُ لِعَافِيَةِ وَلَدِهِ؟!

ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى حَالِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ مَا مَلَكَ، مَنِ الَّذِي رَزَقَهُ وَأَعْطَاهُ وَوَفَّقَهُ وَقَدْ كَانَ لَا يَمْلِكُ مِنْ قَبْلُ شَيْئًا؟! فَلَا يَخْدَعْ نَفْسَهُ وَيَخْدَعْهُ شَيْطَانُهُ بِأَنَّهُ وَرِثَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، أَوْ أُعْطِيَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدَهُ؛ فَفِي النَّاسِ مَنْ هُمْ أَمْكَنُ مِنْهُ عَمَلًا، وَأَكْثَرُ سَعْيًا، وَأَوْفَرُ عَقْلًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ وَحَرَمَهُمْ، أَفَإِنْ أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ مَا أَعْطَاهُ، وَأَبْقَى لَهُ مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى يَغْضَبُ وَلَا يَرْضَى؟!

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ أَنْ يُنَفِّسَ عَنْ غَضَبِهِ فِيمَنْ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ، وَلَا ذَنْبَ لَهُ فِي خَسَارَتِهِ، مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ، وَزَوْجَةٍ وَرَعِيَّةٍ. فَضِعَافُ الرِّجَالِ مَنْ لَا يَثْبُتُونَ فِي الْأَزَمَاتِ، وَلَا يُوَاجِهُونَ الْمُشْكِلَاتِ، فَلَرُبَّمَا عَقَّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَالِدَهُ وَوَالِدَتَهُ، أَوْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، أَوْ آذَى وَلَدَهُ، أَوْ عَاقَبَ مَنْ هُمْ تَحْتَ إِدَارَتِهِ، بِسَبَبِ خَسَارَتِهِ، وَهَذَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَعُقُوقٌ كَبِيرٌ، فَمَا ذَنْبُ هَؤُلَاءِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ السَّيِّئَةِ، وَمُخَاطَرَتِهِ بِأَمْوَالِهِ؟!

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعِوَضَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَطْلُبْهُ مِنْهُ، وَرِزْقُ اللَّهِ تَعَالَى يُطْلَبُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ.

فَإِنْ تَبَدَّلَتْ حَالُهُ، وَعَادَتْ خَسَارَتُهُ أَرْبَاحًا فَلْيَتَذَكَّرْ حَالَهُ مِنْ قَبْلُ، وَيُقَارِنْهَا مَعَ حَالِهِ بَعْدَ عَافِيَتِهِ مِنْ خَسَارَتِهِ؛ لِيَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَيَنْسُبَ الْفَضْلَ إِلَيْهِ، لَا لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

بَعْدُ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَا مَضَى مِنْ خَسَارَتِهِ مَوْعِظَةً لَهُ حَتَّى لَا يَأْخُذَهُ الْعُجْبُ وَالْبَطَرُ، وَكُفْرَانُ النِّعْمَةِ، وَمِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ: الْإِكْثَارُ مِنَ الصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّهَا تُنَمِّي المَالَ وَتُبَارِكُهُ، وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .





٣٠١- الإنسان والمال (٣)
شؤم الكسب الخبيث

٢٢/٨/١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ، وَيُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونُس: ٣١، ٣٢]، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مِنَنِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَوْجَدَ الْبَشَرَ مِنَ الْعَدَمِ، وَرَبَّاهُمْ بِالنِّعَمِ، وَكَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ آجَالُهُمْ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرُّوم: ٤٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَشَدُّهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ، يَمُرُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الطَّرِيقِ فَيَجِدُ تَمْرَةً فَيَشْتَهِيهَا فَيَقُولُ: «**لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا**»[١]، وَيَقُولُ ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، ثُمَّ أَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**»[٢]، وَتَضَوَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقِيلَ لَهُ: «مَا أَسْهَرَكَ؟ قَالَ: **إِنِّي وَجَدْتُ**

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات (١٩٥٠)، ومسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وآله (١٠٧١).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وآله (١٠٧٠)، وابن حبان (٣٢٩٢).

تَمْرَةً سَاقِطَةً فَأَكَلْتُهَا، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ تَمْرًا كَانَ عِنْدَنَا مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَلَا أَدْرِي أَمِنْ ذَلِكَ كَانَتِ التَّمْرَةُ أَوْ مِنْ تَمْرِ أَهْلِي، فَذَلِكَ أَسْهَرَنِي»(٣) فَمَا أَشَدَّ خَشْيَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى! وَمَا أَعْظَمَ اتِّقَاءَهُ لِلْحَرَامِ! صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، اتَّقُوا مَنْ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَحَرَمَ غَيْرَكُمْ، وَأَعْطَاكُمْ وَمَنَعَ سِوَاكُمْ؛ فَإِنَّ تَقْوَاهُ مِنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَهِيَ سَبَبٌ لِاسْتِدَامَةِ رِزْقِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فَاطِر: ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: أَنْ جَعَلَ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدَّرَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ جَنِينٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَلَوْ كَانَ الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ بِيَدِ بَعْضِ الْبَشَرِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَجَوَّعُوا الْخَلْقَ، وَأَبَادُوا النَّاسَ، وَلَبَقِيَ الْجَبَابِرَةُ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ أَبَدَ الدَّهْرِ. كَيْفَ؟! وَهَمْ يَظْلِمُونَ وَيَعْتَدُونَ لَمَّا مُنِحُوا بَعْضَ الْقُوَّةِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، فَلَوْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْبَشَرِ إِلَيْهِمْ، وَآجَالُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَكَيْفَ سَيَكُونُ الْحَالُ؟! وَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِهِمْ؟! وَتِلْكَ حِكْمَةٌ قَلَّ فِي الْخَلْقِ مَنْ يَفْهَمُهَا، وَنِعْمَةٌ جَلَّ فِي الْعِبَادِ مَنْ يَشْكُرُهَا، فَنَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

إِنَّ مَنْ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الشَّرْعُ وَالْأَمْرُ، وَمَنْ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ فَلَا أَمْرَ لَهُ، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ لِرَبٍّ مَعْبُودٍ؛ وَلِذَا قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ وَالشَّرْعَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَعْرَاف: ٥٤]. فَوَاجِبٌ عَلَى

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ١٨٣)، والبيهقي في الشعب (٥٧٤٤)، وصححه الحاكم (٢/ ١٧)، والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٦٧٢٠)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٩).

الْمُسْلِمِ أَنْ يَلْتَزِمَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ مُعْتَرِفًا بِخَلْقِهِ، مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِهِ، مُلْتَزِمًا لِشَرْعِهِ.

وَقَضِيَّةُ الرِّزْقِ قَضِيَّةٌ أَرَّقَتْ كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ، وَشَوَّشَتْ تَفْكِيرَهُمْ، وَسَبَّبَتْ أَنْوَاعًا مِنَ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ؛ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَجَزَعًا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ، فَضَرَبَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ كُلَّ وَادٍ فِي كَسْبِ الْمَالِ، وَتَأْمِينِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَاسْتَحَلُّوا كُلَّ وَسِيلَةٍ؛ فَالْحَلَالُ عِنْدَهُمْ مَا حَلَّ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ، دُونَ مُرَاعَاةٍ لِلشَّرْعِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ! وَتِلْكَ وَاللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الْبَشَرُ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ إِذْ سَادَتِ النُّظُمُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ فَقَذَفَتْ بِأَنْوَاعٍ مِنْ وَسَائِلِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، مَبْنِيَّةً عَلَى مَا يُشْبِهُ الْحُرِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ فِي الْأَمْوَالِ، فَعَمَّ الظُّلْمُ وَالْفَسَادُ وَالسُّحْتُ أَرْجَاءَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا تَكَادُ بُقْعَةٌ تَخْلُو مِنْ كَسْبٍ خَبِيثٍ، وَاتِّجَارٍ مُحَرَّمٍ. وَكَمَا أَنَّ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ طَيِّبًا وَخَبِيثًا فَكَذَلِكَ فِي الْكَسْبِ وَالتِّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ مَا هُوَ طَيِّبٌ وَمَا هُوَ خَبِيثٌ، وَلَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا؛ بَلْ قَلِيلُ الطَّيِّبِ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ وَأَكْثَرُ بَرَكَةً وَنَفْعًا مِنَ الْخَبِيثِ.

وَمَهْمَا كَثُرَ الْخَبِيثُ وَامْتَلَأَتْ بِهِ خَزَائِنُ الْبُنُوكِ، وَتَنَفَّذَ بِهِ الْمُتَنَفِّذُونَ، وَسَادَ بِهِ الْأَرْذَلُونَ، وَتَسَلَّطَتْ بِهِ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ عَلَى الدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ؛ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ إِلَى تَبَابٍ وَخُسْرَانٍ فِي الدُّنْيَا الْآخِرَةِ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٠]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَيَّنَ ﷻ أَنَّ مَصِيرَ الْخَبِيثِ نَارُ جَهَنَّمَ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَنْفَال: ٣٧].

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَسْعَى جُهْدَهُ لِجَرِّهِمْ إِلَى المَكَاسِبِ الْخَبِيثَةِ، وَيُزَيِّنُ لَهُمُ الْمُتَشَابِهَ لِيُجَاوِزَ بِهِمْ إِلَى الْحَرَامِ، فَيَنْقُلَهُمْ إِلَيْهِ خُطْوَةً خُطْوَةً؛ حَتَّى إِذَا أَغْرَقَهُمْ فِي الْحَرَامِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا النَّجَاةَ مِنْهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٨].

إِنَّهَا خُطُوَاتٌ يَنْقُلُ بِهَا الشَّيْطَانُ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْبَشَرِ مِنَ الْحَلَالِ الْخَالِصِ إِلَى الْمُتَشَابِهِ الْمُشْكِلِ؛ لِيَكُونَ قَنْطَرَةً إِلَى الْحَرَامِ الْخَالِصِ، بَعْدَ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِهِمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ كَحَالِهِمْ لَوِ افْتَقَرُوا، وَأَحْوَالِ أَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمُقَارَنَةِ كَسْبِهِمْ بِكَسْبِ غَيْرِهِمْ مِمَّنِ اسْتَحَلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَلَغُوا فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، فَإِذَا أَغْرَقَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي الْكَسْبِ الْخَبِيثِ فَقَدْ أَوْقَعَهُمْ فِي النَّارِ، وَلَنْ تُنْجِيَهُمْ أَمْوَالُهُمُ الْخَبِيثَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، بَلْ سَتَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَشُؤْمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَمَنْ تَخَوَّضَ فِي الْحَرَامِ، وَاكْتَسَبَ الْخَبِيثَ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ لِلنَّارِ؛ كَمَا رَوَتْ خَوْلَةُ الْأَنْصَارِيَّةُ ﵂ فَقَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِلتِّرْمِذِيِّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ**»[٤].

---

(٤) أخرجه البخاري في الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (٢٩٥٠)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في أخذ المال (٢٣٧٤)، وأحمد (٦/ ٣٦٤)، وعبد الرزاق (٢٩٦٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٥)، وعبد بن حميد (١٥٨٨)، وابن حبان (٢٨٩٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ**»(٥).

وَلَمَّا قَالَ أَصْحَابُ جُنْدُبٍ ﷺ لَهُ: أَوْصِنَا، قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦).

وَمِنْ شُؤْمِ المَالِ الْحَرَامِ أَنَّهُ يَمْنَعُ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، حَتَّى فِي سَفَرِ الطَّاعَاتِ؛ كَالْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ**

---

(٥) أخرجه مطولًا من حديث كعب بن عجرة ﷺ: الترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، وقال: حسن غريب، ثم قال: وسألت محمدًا -يعني البخاري- عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى واستغربه جدًّا (٦١٤)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٥).

وأخرجه مطولًا أيضًا من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣٢١)، وعبد الرزاق (٢٠٧١٩)، وصححه ابن حبان (١٧٢٣)، وأخرجه مختصرًا الدارمي (٢٧٧٦)، وقال الهيثمي عن حديث جابر ﷺ: رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح (٥/ ٢٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٦) أخرجه من حديث جندب بن عبد الله ﷺ موقوفًا: البخاري في الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٦٧٣٣).

وأخرجه مرفوعًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، والأوسط (٨٤٩٥)، والبيهقي في الشعب وقال: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٧). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وتعقب البيهقي في إعلاله الحديث بالوقف فقال: قلت: وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن -وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري (٣٣٧٩).

الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَقَوْلُهُ: «**وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ**» ظَاهِرُهُ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ، فَيُخْشَى عَلَيْهِمْ أَلَّا يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُمْ، وَهَذَا مِنْ شُؤْمِ مَنْ أَنْفَقَ الْحَرَامَ عَلَيْهِمْ، وَبَنَى بِهِ أَجْسَادَهُمْ؛ فَإِنْ تَصَدَّقَ مِنْ هَذَا الْحَرَامِ الْخَبِيثِ لَمْ تُقْبَلْ صَدَقَتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ... ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عز وجل لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقره (٢٩٨٩)، والدارمي (٢٧١٧).

(٨) أخرجه مرفوعًا: أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٦٦)، والحاكم وصححه (١/ ٨٨) و(٤/ ١٨٢)، والبيهقي في الشعب (٦٠٧) و(٥٥٢٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٤٣٧)، وضعفه مرفوعًا الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٣٦٧٢)، وفي سنده الصباح بن محمد ضعيف، ويرفع الموقوفات.
وأخرج موقوفًا: البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)، وأبو نعيم في الحليه (٤/ ١٦٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٣) رقم (٨٩٩٠)، والحاكم وصححه (٢/ ٤٨٥)، وقال المنذري بعد أن عزاه للطبراني: ورواته ثقات (٢/ ٢٨٣)، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٩٠)، ورجح الدارقطني في العلل وقْفه (٨٧٢).

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَأَنْ يَتْرُكَ الرَّجُلُ دِرْهَمًا حَرَامًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ»(٩).

وَصَاحِبُ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ يُبْتَلَى بِأَمْرَاضِ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ وَالْبُخْلِ وَالْأَثَرَةِ وَالْفَرْدِيَّةِ، وَحُبِّ الذَّاتِ، وَالْعُلُوِّ عَلَى النَّاسِ، وَيَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُمْ يُنَافِسُونَهُ فِي الْمَالِ، وَلَا دِينَ يَرْدَعُهُ عَنْ حَسَدِهِمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ دِينٌ لَرَدَعَهُ عَنِ الْحَرَامِ الَّذِي أَفْسَدَ قَلْبَهُ، وَابْتَنَى بِهِ جَسَدَهُ وَجَسَدَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

وَمَعَ تَمَكُّنِ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ الْخَبِيثَةِ مِنْ قَلْبِهِ يَتَحَوَّلُ مِنْ مُتَمَوِّلٍ لِلْمَالِ، مُنْتَفِعٍ بِهِ، إِلَى خَادِمٍ لَهُ، يَجْمَعُهُ وَيَحْرُسُهُ وَيُنَمِّيهِ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْخَوْفِ، وَلَرُبَّمَا كَانَ حَتْفُهُ بِسَبَبِ مَالِهِ فِي صَفْقَةٍ فَاتَتْهُ، أَوْ خَسَارَةٍ أَصَابَتْهُ. رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا**، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الْأَرْضِ .... ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَهَذَا وَاقِعٌ مَشَاهَدٌ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِأَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ لَا يَقْنَعُونَ بِقَلِيلِ الْكَسْبِ، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْ كَثِيرِهِ، بَلْ هُمْ فِي تَزَوُّدٍ دَائِمٍ مِنَ الْحَرَامِ، يَجْمَعُونَهُ لِغَيْرِهِمْ، وَيَحْمِلُونَ وِزْرَهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ.

وَمِنْ شُؤْمِ الْمَالِ الْحَرَامِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْكَسَلِ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَاسْتِسْهَالِ الْكَبَائِرِ

---

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٤٣٠).

(١٠) أخرجه مطولًا من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦٣)، ومسلم في الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢).

وَالمُوبِقَاتِ؛ إِذْ لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَقْذِفُ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ أَنَّ الطَّاعَاتِ لَا تَنْفَعُهُ مَا دَامَ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ، فَرُبَّمَا تَرَكَ الصَّدَقَةَ وَتَقَاعَسَ عَنِ الزَّكَاةِ المَفْرُوضَةِ، بِحُجَّةِ أَنَّ كَسْبَهُ حَرَامٌ فَكَيْفَ يُزَكِّيهِ، فَإِنْ كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ بَعْضِ المُحَرَّمَاتِ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ يُذَكِّرُهُ أَنَّ مَالَهُ حَرَامٌ، فَمَا ضُرُّهُ لَوِ اسْتَمْتَعَ بِهَذَا الْحَرَامِ الَّذِي كَفَّ عَنْهُ؟! وَتُعِينُهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ عَلَى الْحَرَامِ، وَتَدْفَعُهُ الرُّفْقَةُ الْخَبِيثَةُ إِلَيْهِ دَفْعًا. بَلْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْكَسْبَ الْخَبِيثَ يَنْبَغِي أَلَّا يُنْفَقَ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ الْخَبِيثِ، فَيُحْدِثُ أَعْمَالًا وَمَشَارِيعَ خَبِيثَةً يُنْفِقُ فِيهَا مَالَهُ الْخَبِيثَ، فَيَعُودُ مَوْزُورًا بِالْكَسْبِ الْخَبِيثِ، وَبِالْعَمَلِ الْخَبِيثِ، وَبِالْإِنْفَاقِ عَلَى مَا هُوَ خَبِيثٌ، فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- كَيْفَ جَرَّهُ الْكَسْبُ الْخَبِيثُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَلَوْ فَتَّشْتُمْ عَنْ حَالِ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَخَوَّضُونَ فِي المَالِ الْحَرَامِ لَوَجَدْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ. وَانْظُرُوا إِلَى أَحْوَالِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةَ الْفَاضِحَةَ، المُدَمِّرَةَ لِلدِّيَانَةِ وَالْأَخْلَاقِ، وَرَاجِعُوا مَكَاسِبَهُمْ، وَمَصَادِرَ ثَرَوَاتِهِمْ قَبْلَ إِنْشَاءِ فَضَائِيَّاتِهِمْ تَجِدُوا أَنَّهَا كَانَتْ مَكَاسِبَ خَبِيثَةً، أُنْفِقَتْ فِي مَجَالَاتٍ خَبِيثَةٍ.

وَلَرُبَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى صَاحِبِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ ظَلَمَةٌ أَقْوَى مِنْهُ يَبْتَزُّونَهُ فِي تِجَارَتِهِ، وَيُرِيدُونَ غَصْبَ مَالِهِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَوَارِدِهِ، وَلِقَنَاعَتِهِمْ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ، فَلَا يَزَالُ يَدْفَعُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ، فَمَا هَنِئَ بِمَالِهِ، وَكَانَ مَا جَمَعَ مِنْ حَرَامٍ سَبَبًا فِي خَوْفِهِ وَشَقَائِهِ، وَغَالِبًا مَا يُسَلِّطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الظَّالِمِ مَنْ هُوَ أَظْلَمُ مِنْهُ وَأَطْغَى؛ لِيُذِيقَهُ بَعْضَ الْأَلَمِ وَالظُّلْمِ الَّذِي جَرَّعَهُ مَنْ ظَلَمَهُمْ سَابِقًا.

فَإِنْ كَانَ المَالُ الْحَرَامُ الَّذِي اكْتَسَبَهُ مُتَعَلِّقًا بِحُقُوقِ النَّاسِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ، كَالْغِشِّ وَالرِّشْوَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالْغَصْبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ وَفَاءَ غُرَمَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مِنْ صَحِيفَةِ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ

مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْمُفْلِسِ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ إِفْلَاسِهِ: «**وَأَكَلَ مَالَ هَذَا**»(١١).

وَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَقْلًا، وَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ أَنْ يُجَانِبَ الْكَسْبَ الْخَبِيثَ، وَقَدْ عَلِمَ مَا فِيهِ مِنْ تَبِعَاتٍ وَآثَامٍ، وَمَا يُخَلِّفُهُ مِنْ آثَارٍ مُهْلِكَةٍ عَلَيْهِ وَعَلَى دِينِهِ وَقَلْبِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ كَثِيرًا قَبْلَ أَنْ يَدْهَمَهُ الْمَوْتُ، فَيَحْمِلَ عَلَى ظَهْرِهِ ذُنُوبَ مَا جَمَعَ مِنْ حَرَامٍ، وَخَلَّفَهُ لِوَارِثِهِ، وَلَا يَدْرِي أَيَتَذَكَّرُهُ وَرَثَتُهُ فَيَدْعُونَ لَهُ، أَمْ يَشْغَلُهُمْ عَنْهُ مَا وَرَّثَهُ لَهُمْ، فَيَذَرُونَهُ نَسِيًا مَنْسِيًّا، وَقَدْ تَدِبُّ الْخُصُومَةُ بَيْنَهُمْ عَلَى إِرْثِهِمْ، فَيَقْطَعُونَ أَرْحَامَهُمْ، وَيَغْصِبُ بَعْضُهُمْ حُقُوقَ بَعْضٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ عَاجِلِ شُؤْمِ مَا خَلَّفَهُ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مِنْ مَالٍ حَرَامٍ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَالْكِفَايَةَ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَ

---

(١١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

الْعِبَادَ أَنْ يَطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، الْمُعْطِي الْمَانِعُ، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ الْحَلَالِ الْمُبَارَكِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ١٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَافِعِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرْءَ إِلَى الْكَسْبِ الْخَبِيثِ: خَوْفَهُ عَلَى أَهْلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ الْفَقْرَ وَالْعَالَةَ، وَزَعْمَهُ تَأْمِينَ مُسْتَقْبَلِهِمْ، وَمَا عَلِمَ الْمِسْكِينُ أَنَّهُ بِهَذَا الْحَرَامِ يُدَمِّرُ مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَغَالِبًا مَا يَرَى عُقُوقَهُمْ لَهُ رَغْمَ مَا مَتَّعَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُتَعِ وَالرَّفَاهِيَةِ بِكَسْبِهِ الْخَبِيثِ، ثُمَّ يَتَحَمَّلُ هُوَ وِزْرَ وَإِثْمَ مَا سَيُخَلِّفُهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَهَذَا وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٨]، فَكَيْفَ يَأْمُلُ فِي بِرِّ وَلَدِهِ -وَالْبِرُّ عَمَلٌ طَيِّبٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ- وَهُوَ قَدْ غَذَّاهُ بِأَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، وَابْتَنَى جَسَدَهُ بِالْمُحَرَّمَاتِ؟!

وَكَثِيرًا مَا يُبَدِّدُ الْوَرَثَةُ مَا خَلَّفَ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مِنْ مَالٍ حَرَامٍ، فَيَعُودُونَ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ؛ لِمَحْقِ بَرَكَةِ مَا خَلَّفَ لَهُمْ بِخُبْثِ مَصْدَرِهِ وَكَسْبِهِ، فَلَا أَمَّنَ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَلَا سَلِمَ هُوَ مِنْ وِزْرِ مَا وَرَّثَ لَهُمْ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا اسْتَهْوَاهُ الْمَالُ الْحَرَامُ، وَغَرَّتْهُ زَهْرَتُهُ، وَكَانَتْ مَجَالَاتُهُ تَحْتَ يَدِهِ بِوِلَايَةٍ، أَوْ شَرَاكَةٍ، أَوْ وِصَايَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ خَبِيثٌ، وَأَنَّ بَرَكَتَهُ مَمْحُوقَةٌ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ إِلَى الْقِلَّةِ وَالزَّوَالِ، وَأَنَّ السَّلَامَةَ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ يُحِبُّ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ إِنَّمَا هِيَ فِي مُجَانَبَتِهِ.

وَلْيَتَيَقَّنْ أَنَّ دُخُولَهُ فِي الْحَرَامِ هُوَ مِنْ أَسْهَلِ مَا يَكُونُ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ وُجُودِ الْمُغْرِيَاتِ، وَغِيَابِ الْعُقُوبَاتِ، وَضَعْفِ الرَّادِعِ، وَلَكِنَّ خُرُوجَهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَإِنْقَاءَ مَالِهِ مِنْهُ أَعْسَرُ مَا يَكُونُ، وَانْظُرُوا إِلَى أَحْوَالِ مَنْ غَرِقُوا فِي الْحَرَامِ تَجِدُوا ذَلِكَ صَحِيحًا.

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُرَاقِبَ اللَّهَ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يُرَاقِبَ الْجِهَاتِ الرِّقَابِيَّةَ، وَأَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ مِنْهُ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِهِ مِنَ الْبَشَرِ مَهْمَا كَانُوا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى مَا يَرْدَعُهُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ. فَإِنْ وَفَّقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ إِلَى كَبْحِ جِمَاحِ نَفْسِهِ عَنِ الْخُطْوَةِ الْأُولَى فِي الْكَسْبِ الْخَبِيثِ نُجِّيَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا بَعْدَهَا، وَإِنْ خَطَاهَا أَسْرَعَ إِلَى غَيْرِهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

فَإِنْ رَأَى غَيْرَهُ قَدِ اغْتَنَوْا بِالْغُلُولِ وَالرِّشْوَةِ وَالرِّبَا وَالسُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَبِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الْخَبِيثَةِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ مَسْتُورَ الْحَالِ أَوْ فَقِيرًا، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَأَنَّ الْفَقْرَ فَقْرُ الْقَلْبِ، وَأَنَّ مَنْ يَثْرُونَ بِالطُّرُقِ الْمُحَرَّمَةِ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ فَقْرًا فِي قُلُوبِهِمْ وَإِنْ بَدَا لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ، ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى أَحْوَالِ مَنْ هُمْ أَشَدُّ فَقْرًا مِنْهُ؛ لِئَلَّا يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ لِيَسْتَشْعِرِ الْمُسْلِمُ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ؛ وَلِذَا قُرِنَ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠]، فَلَا يُسَوَّغُ لَهُ أَنْ يُلَطِّخَهُ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

وَلْيُوقِنْ أَنَّ الْخَيْرَ الْعَظِيمَ فِي تَرْكِهِ لِلْخَبِيثِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، مَهْمَا كَانَتِ الْمُغْرِيَاتُ، وَمَهْمَا كَثُرَ الْمُتَسَاقِطُونَ فِيهِ، وَحَرِيٌّ أَنْ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا مِمَّا تَرَكَ لِأَجْلِهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ: «مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئًا لَا يَتْرُكُهُ إِلَّا لِلَّهِ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَلَا تَهَاوَنَ بِهِ فَأَخَذَهُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَنْبَغِي لَهُ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ»(١٢)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا تَرَكْتُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا أَعْقَبَنِي اللَّهُ ﷻ فِي قَلْبِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ» يَعْنِي: مِنَ الزُّهْدِ(١٣).

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَطَيِّبُوا مَكَاسِبَكُمْ تُقْبَلْ صَدَقَاتُكُمْ، وَتُسْتَجَبْ دَعَوَاتُكُمْ، وَتَبَرَّكُمْ أَوْلَادُكُمْ، وَتُعَوَّضُوا خَيْرًا مِمَّا تَرَكْتُمْ، وَتَسْتَقِمْ لَكُمْ أُمُورُ دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . . .



---

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (٤٢).

(١٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (٤٣).

٣٠٢- التحذير من المتشابهات

٢٧/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَوْجَدَنَا مِنَ العَدَمِ، وَأَغْدَقَ عَلَيْنَا النِّعَمَ، أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الشَّرَائِعَ، وَحَدَّ الْحُدُودَ، وَأَكْمَلَ الدِّينَ، وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ؛ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا أَنْقَى هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَصْدَقَهُمْ أَلْسُنًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَشَدَّهُمْ وَرَعًا، فَتَرَكُوا المُتَشَابِهَ خَوْفًا مِنَ الحَرَامِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَظِيمٌ، وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ كَبِيرٌ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ: مَا بَيَّنَ لَهُمْ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي تُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَوْ تَرَكَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ لَضَلُّوا وَهَلَكُوا، وَشَرَعُوا لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ عَاجِلًا وَآجِلًا؛ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨].

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ الكِتَابَ، وَبَيَّنَ فِيهِ لِلأُمَّةِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، قَالَ مُجَاهِدٌ

-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ»[١]، وَوَكَلَ بَيَانَ مَا أَشْكَلَ مِنَ التَّنْزِيلِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ الأَمْوَالِ وَالأَبْضَاعِ، خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَفِي سُورَةِ الأَنْعَامِ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ اللُّحُومِ وَالطَّعَامِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ عَلِيمٍ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وَهَذَا الْبَيَانُ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ هُوَ مِنْ هِدَايَةِ النَّاسِ لِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَصَرْفِهِمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، إِذَا مَا أَخَذُوا بِهَذِهِ الأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وَمَا يَبْتَغِيهِ النَّاسُ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ، وَمَلَابِسَ وَمَرَاكِبَ، وَبُيُوعٍ وَمُعَامَلَاتٍ، وَأَنْكِحَةٍ وَعَادَاتٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَلَالًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُشْتَبِهًا، وَلَا رَابِعَ لَهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجه من حديث النعمان بن بشير ﭭ: البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

لَقَدْ دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ الْعَظِيمُ عَلَى أَنَّ مَنْ جَانَبَ الشُّبُهَاتِ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ وَعِرْضُهُ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِشَأْنِهَا، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ فِيهَا؛ فَهُوَ يَدْفَعُهَا لِمُوَاقَعَةِ الحَرَامِ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مُتَبَايِنَيْنِ بَرْزَخًا؛ فَجَعَلَ الشُّبُهَاتِ بَرْزَخًا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَمَا جَعَلَ المَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ بَرْزَخًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ المَعَاصِيَ بَرْزَخًا بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَجَعَلَ الْأَعْرَافَ بَرْزَخًا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ[٣].

فَمَنْ وَقَعَ فِي بَرْزَخِ المُتَشَابِهَاتِ جَاوَزَهَا إِلَى الْحَرَامِ، ثُمَّ عَسُرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى عَنِ الحَرَامِ، فَضْلًا عَنْ تَوَرُّعِهِ عَنِ المُشْتَبِهَاتِ.

وَلِذَا جَاءَتِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ تُحَذِّرُ مِنَ الاِسْتِهَانَةِ بِالمُتَشَابِهَاتِ، وَتَحُثُّ عَلَى مُجَانَبَتِهَا؛ صِيَانَةً لِلنَّفْسِ عَنِ التَّمَادِي إِلَى مَا وَرَاءَهَا، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ، مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٤]، وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ حِبَّانَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الحَلَالِ**»[٥].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ[٦].

---

(٣) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥-١٦).

(٤) هذه الرواية من حديث النعمان بن بشير ﵄ للبخاري في البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات (٢٠٥١).

(٥) هذه الرواية من حديث النعمان بن بشير ﵄ لابن حبان (٥٥٦٩).

(٦) أخرجه من حديث الحسن بن علي ﵄: الترمذي في صفة القيامة، وصححه (٢٥١٨)، والنسائي في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات (٨/ ٣٢٧)، والدارمي (٢٥٧٤)، وصححه ابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ١٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِثْمُ؟ قَالَ: «**إِذَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٧]، وَمَعْنَاهُ: إِذَا شَكَكْتَ فِي شَيْءٍ فَدَعْهُ.

وَتَرْكُ الْمُسْلِمِ مَا يَشُكُّ فِيهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي الْوَرَعِ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ مَرْفُوعًا: «**لَا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ حَذَرًا مِمَّا بِهِ الْبَأْسُ**»[٨].

قَالَ الْخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُلُّ مَا شَكَكْتَ فِيهِ فَالوَرَعُ اجْتِنَابُهُ، ثُمَّ هُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: وَاجِبٍ، وَمُسْتَحَبٍّ، وَمَكْرُوهٍ؛ فَالْوَاجِبُ: اجْتِنَابُ مَا يَسْتَلْزِمُهُ ارْتِكَابُ الْمُحَرَّمِ، وَالمَنْدُوبُ: اجْتِنَابُ مُعَامَلَةِ مَنْ أَكْثَرُ مَالِهِ حَرَامٌ، وَالمَكْرُوهُ: اجْتِنَابُ الرُّخَصِ المَشْرُوعَةِ عَلَى سَبِيلِ التَنَطُّعِ»[٩].

وَرَوَى وَابِصَةُ بْنُ مَعْبَدٍ ﵁ فَقَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَلَّا أَدَعَ شَيْئًا مِنَ البِرِّ وَالإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَإِذَا عِنْدَهُ جَمْعٌ، فَذَهَبْتُ أَتَخَطَّى النَّاسَ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ، فَقُلْتُ: أَنَا وَابِصَةُ، دَعُونِي أَدْنُو مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: **ادْنُ يَا وَابِصَةُ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ**. فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى مَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ، فَقَالَ: **يَا وَابِصَةُ، أُخْبِرُكَ مَا جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْهُ؟** فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْبِرْنِي، قَالَ: **جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ**. قُلْتُ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي،

---

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٠٢)، والطبراني في الأوسط (٣٠١٧)، وصححه ابن حبان (١٧٦)، والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ١٤).

(٨) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: حسن غريب (٢٤٥١)، وابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٥)، وعبد بن حميد (٤٨٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٦٣٢٠).

(٩) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٩٣).

وَيَقُولُ: **يَا وَابِصَةُ، اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**»(١٠).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «**الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنَ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**»(١١).

وَعَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ مِنِ اجْتِنَابِ الْمُتَشَابِهَاتِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، سَارَ خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَفْضَلُهَا رَسُولُنَا ﷺ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ حَاذَرَ الْمُشْتَبِهَاتِ مُحَاذَرَةَ الْحَرَامِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِتَمْرَةٍ بِالطَّرِيقِ،

---

(١٠) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وابن أبي شيبة في مسنده (٧٥٣)، والدارمي (٢٥٣٣)، وأبو يعلى (١٥٨٦)، والطحاوي في شرح المشكل (٢١٣٩)، وحسنه المنذري في الترغيب (٢٦٨٣)، والنووي في الأذكار (١٢٤٩)، وفي المجموع (٩/ ١٤١)، والألباني في صحيح الترغيب (١٧٣٤).

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩)، رقم (٥٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠)، وجود إسناده المنذري في الترغيب (٢٦٨٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨١).

(١٢) أخرجه البخاري في اللقطة، باب إذا وَجَدَ تمرةً في الطريق (٢٤٣١)، ومسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وعلى آله -وهم بنو هاشم وبنو المطلب- دون غيرهم (١٠٧٠).

فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَلَوْ وَقَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ فِي مُشْتَبِهٍ سَهْوًا أَوْ نِسْيَانًا نَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ؛ كَمَا رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ تَحْتَ جَنْبِهِ تَمْرَةً مِنَ اللَّيْلِ، فَأَكَلَهَا، فَلَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ بَعْضُ نِسَائِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرِقْتَ البَارِحَةَ! قَالَ: **إِنِّي وَجَدْتُ تَحْتَ جَنْبِي تَمْرَةً فَأَكَلْتُهَا، وَكَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ**»(١٤).

وَلَقَدْ تَأَسَّى بِهِ ﷺ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ إِذْ كَانُوا أَحْوَطَ النَّاسِ لِدِينِهِمْ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْمُشْتَبِهَاتِ، حَتَّى جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا كَثِيرًا مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ ﷺ: «كُنَّا نَدَعُ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْحَلَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَرَامِ»(١٥).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ: «إِنَّ إِتْمَامَ التَّقْوَى أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ الْعَبْدُ فِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، حَتَّى يَتْرُكَ بَعْضَ مَا يَرَى أَنَّهُ حَلَالٌ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، يَكُونُ حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَرَامِ»(١٦).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَدَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ لَا أَخْرِقُهَا»(١٧).

---

(١٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وعلى آله -وهم بنو هاشم وبنو المطلب- دون غيرهم (١٠٧١).

(١٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد، ورجاله موثقون (٣/ ٨٨)، وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٩).

(١٥) ذكره أبو القاسم القشيري عن أبي بكر الصديق ﷺ في الرسالة القشيرية (١٤٦) وذكره عن بعض الصحابة الغزالي في الإحياء (٣/ ٢٦٨)، وابن القيم في المدارج (٢/ ٢٢).

(١٦) الورع للمروزي (١٧١).

(١٧) الورع للمروزي (٥٠)، وجامع العلوم والحكم (٧٤).

هَكَذَا كَانَ الْقَوْمُ ﷺ وَبِنَحْوِ هَذَا سَبَقُوا غَيْرَهُمْ، وَشَرُفُوا بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَرَعَنَا مِثْلَ وَرَعِهِمْ، كَمَا أَسْأَلُهُ ﷻ أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: خَلَفَ الصَّحَابَةَ ﷺ رِجَالٌ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ؛ فَسَارُوا عَلَى هَذِهِ الْجَادَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَعَالَجُوا المُشْتَبِهَ بِتَرْكِهِ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِذَا شَكَكْتَ فِي شَيْءٍ فَاتْرُكْهُ»[١٨]، وَاجْتَمَعَ حَسَّانُ مَرَّةً وَيُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ -عَلَيْهِمَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- فَقَالَ يُونُسُ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْوَرَعِ، فَقَالَ حَسَّانُ: مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ حَسَّانُ: تَرَكْتُ مَا يَرِيبُنِي إِلَى مَا لَا يَرِيبُنِي؛ فَاسْتَرَحْتُ»[١٩]،

---

(١٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٦).

(١٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٦).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا رَأَيْتُ أَسْهَلَ مِنَ الْوَرَعِ، مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ فَاتْرُكْهُ»[٢٠].

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ الشُّبْهَةِ، فَقَالَ: «هُوَ الشَّيْءُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ . . . وَقَالَ: آمُرُ الرَّجُلَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَهَا»[٢١].

وَقَدْ تَوَقَّفَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي طَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ إِذَا أَمَرَا بِالْمُشْتَبِهَاتِ مَعَ مَا لِلْوَالِدَيْنِ مِنْ عَظِيمِ الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَزِيُّ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: هَلْ لِلْوَالِدَيْنِ طَاعَةٌ فِي الشُّبْهَةِ؟ فَقَالَ: فِي مِثْلِ الْأَكْلِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ يُقِيمَ مَعَهُمَا عَلَيْهَا، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَعْصِيَهُمَا، يُدَارِيهِمَا، قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُقِيمَ عَلَى الشُّبْهَةِ مَعَ وَالِدَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ الشُّبْهَةَ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»، وَلَكِنْ يُدَارِي بِالشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ، فَأَمَّا أَنْ يُقِيمَ مَعَهُمَا عَلَيْهَا فَلَا»[٢٢].

إِذَا عُلِمَ ذَلِكَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- فَأَيْنَ هُوَ وَاقِعُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ مِنَ التَّوَقِّي وَالِاحْتِيَاطِ، وَمُجَانَبَةِ الشُّبُهَاتِ خَوْفًا مِنَ الْحَرَامِ؟

إِنَّهُ وَاقِعٌ يَنْدَى لَهُ الْجَبِينُ؛ إِذِ اسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَدْنَى الْحِيَلِ.

وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ فَقَلِيلٌ ثُمَّ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا، وَخَاصَّةً فِي مَجَالَاتِ الِاقْتِصَادِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، تَسِيرُ بِهِمُ الْمُشْتَبِهَاتُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، حَتَّى تُوقِعَهُمْ فِي الْحَرَامِ الصُّرَاحِ، تَغْزُو الْبِلَادَ مُعَامَلَاتٌ مُحَرَّمَةٌ مِنَ

(٢٠) الرسالة القشيرية (١٤٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٢).

(٢١) الورع للمروزي (٤٧).

(٢٢) الورع للمروزي (٤٨).

الشَّرْقِ أَوْ مِنَ الْغَرْبِ؛ فَيَنْبَرِي لَهَا جَمَاعَةٌ يَتَلَقَّفُونَهَا، وَيُجْرُونَ عَلَيْهَا عَمَلِيَّاتٍ تَجْمِيلِيَّةً؛ لِإِخْرَاجِهَا مِنَ الْحَرَامِ الْوَاضِحِ إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ بِحِيَلٍ وَشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ، تُكْتَبُ وَلَا يُعْمَلُ بِأَكْثَرِهَا، فِي غَفْلَةٍ أَوْ تَغَافُلٍ عَنِ الأُصُولِ الْكَبِيرَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ؛ مِنْ نَحْوِ: النَّهْيِ عَنِ الْغَبْنِ، وَالْغَرَرِ، وَالْغِشِّ، وَالظُّلْمِ، وَوُجُوبِ رَفْعِ الضَّرَرِ، وَعَدَمِ جَوَازِ اسْتِغْلَالِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ لِإِفْقَارِهِ وَإِغْرَاقِهِ فِي دُيُونٍ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنْهَا.

وَمَعَ كُلِّ مَفَاسِدِ هَذِهِ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْحَرَامِ الْوَاضِحِ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ؛ فَإِنَّهَا قَدْ قَضَتْ قَضَاءً تَامًّا عَلَى الْقَرْضِ الْحَسَنِ الَّذِي رَتَّبَ عَلَيْهِ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ أُجُورًا عَظِيمَةً.

إِنَّ الصُّورَةَ الْجَدِيدَةَ مِنْ صُوَرِ الْبَيْعِ أَوِ الشَّرَاكَةِ أَوِ الاكْتِتَابِ، يُدْعَى النَّاسُ إِلَيْهَا؛ فَيُفْتِي بِحِلِّهَا عَشَرَةٌ، وَيُفْتِي وَاحِدٌ بِحُرْمَتِهَا، فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَوَرَّعُ عَنْهَا خَوْفًا مِنَ الشُّبْهَةِ، ثُمَّ تَأْتِي أُخْرَى، فَيُفْتِي نِصْفٌ بِحِلِّهَا وَنِصْفٌ بِتَحْرِيمِهَا؛ فَتَرَى أَكْثَرَ النَّاسِ يَأْخُذُ بِأَقْوَالِ مَنْ أَحَلُّوهَا، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَنْ حَرَّمُوهَا، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ، ثُمَّ تَأْتِي ثَالِثَةٌ فَيُفْتِي عَشَرَةٌ بِحُرْمَتِهَا، وَيُفْتِي وَاحِدٌ بِحِلِّهَا، فَتَجِدُ أَقْوَامًا يُسَارِعُونَ فِيهَا اعْتِمَادًا عَلَى قَوْلِهِ، وَلَوْ كَانَ ضَعِيفًا! ثُمَّ تَأْتِي رَابِعَةٌ فَلَا يُفْتِي أَحَدٌ بِحِلِّهَا، فَيَقُولُ مَنْ وَلَغُوا فِيمَا قَبْلَهَا: قَدْ أَخَذْنَا بِالسَّابِقَةِ، وَلَمْ يُفْتِنَا فِيهَا إِلَّا وَاحِدٌ مُقَابِلَ عَشَرَةٍ، فَمَا قِيمَةُ هَذَا الْوَاحِدِ إِنْ لَمْ يُوجَدْ فِي تِلْكَ؟ فَيَقَعُونَ فِي الْحَرَامِ الْوَاضِحِ، بَعْدَ أَنْ تَدَرَّجُوا فِي دَرَكَاتِ الْمُشْتَبِهَاتِ، مِنَ الْمُشْتَبِهِ الضَّعِيفِ إِلَى الْمُتَوَسِّطِ إِلَى الْمُشْتَبِهِ الْقَوِيِّ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى الْحَرَامِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنِ الأُولَى؛ لَمَا وَقَعُوا فِي الثَّانِيَةِ الَّتِي قَادَتْهُمْ إِلَى الثَّالِثَةِ

وَالرَّابِعَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ الَّتِي حَذَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُقَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِلَا عِلْمٍ فِي الْمُعَامَلَاتِ الْمُعَاصِرَةِ! وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فِيهَا! نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْهِدَايَةَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٠٣- الفساد المالي والإداري (١) التحذير من الرشوة

١٠/٥/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ غَمَرَنَا بِرُّهُ وَإِنْعَامُهُ، وَتَتَابَعَ عَلَيْنَا فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ، خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَهَدَانَا وَعَلَّمَنَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَانَا، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَمَرَنَا بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَانَا عَنِ المُنْكَرِ، وَأَحَلَّ لَنَا الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الخَبَائِثَ، وَوَضَعَ عَنَّا الآصَارَ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَن قَبْلَنَا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: حِينَ يَضْعُفُ الدِّينُ فِي النَّاسِ تَفْسُدُ أَخْلاقُهُمْ، وَتَقِلُّ أَمَانَتُهُمْ، فَتُرْفَعُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، وَتَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَيَتَسَلَّطُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، فَتَحُلُّ فِيهِمُ الأَثَرَةُ مَحَلَّ الإِيثَارِ، وَيَتَخَلَّقُونَ بِحُبِّ الذَّاتِ بَدَلَ المُوَاسَاةِ وَالإِحْسَانِ، وَالسَّاعَةُ لَا تَقُومُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، وَمِنْ عَلَامَاتِ قُرْبِهَا فَسَادُ الزَّمَانِ، وَالزَّمَانُ يَفْسُدُ إِذَا رُفِعَتِ الأَمَانَةُ.

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: **إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١).

وَمِنْ أَبْيَنِ صُوَرِ ارْتِفَاعِ الأَمَانَةِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ انْتِشَارُ الرِّشْوَةِ فِيهَا؛ حَتَّى لَا تَصِلَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا بِهَا، وَهِيَ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَإِثْمٌ مُبِينٌ، يَحْذَرُهَا الشُّرَفَاءُ الْكُرَمَاءُ، وَلَا يَرْتَضِيهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا الأَرَاذِلُ الْوُضَعَاءُ.

تَخَلَّقَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرُهْبَانِ النَّصَارَى، فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى صَنِيعَهُمْ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وَسَمَّى مَا أَكَلُوهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سُحْتًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ(٢).

إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا ذَمَّ كَفَرَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ نَجِسَةٌ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالخِزْيِ فِي الدُّنْيَا، وَالعَذَابِ الأَلِيمِ فِي الآخِرَةِ؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب فضل العلم (٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ١٤١).
وله شاهد عن جابر رضي الله عنه عند: الحاكم أيضًا (٤/ ١٤١).
ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الكبير (١١/ ١١٤) رقم (١١٢١٦)، والأوسط (٢٩٤٤)، والصغير (٢٢٤).
ومن حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عند: الطبراني (١٩/ ١٤١) رقم (٣٠٩)، وقد استقصى طرقه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٤٩-١٥٠)

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «السُّحْتُ: الرِّشَا»[٣]. وقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ الْحَاكِمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَاهُ أَحَدُهُمْ بِرِشْوَةٍ جَعَلَهَا فِي كُمِّهِ فَأَرَاهَا إِيَّاهُ وتَكَلَّمَ بِحَاجَتِهِ، فَيَسْمَعُ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَى خَصْمِهِ، فَيَأْكُلُ الرِّشْوَةَ، وَيَسْمَعُ الكَذِبَ»[٤].

بَلْ إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَسَاغُوا الرِّشْوَةَ، وَأَضْحَتْ لَهُمْ خُلُقًا؛ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ وَأَنْكَرُوهُ وَزَوَّرُوهُ، وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالرَّعَاعِ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُمْ كَتَمُوا النَّاسَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوَّتَهُ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ؛ بِرِشْوَةٍ أُعْطُوهَا فَأَخَذُوهَا[٥].

إِنَّهُمْ -بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا وَالمَالِ، وَقَبُولِ الرِّشْوَةِ لِإِخْفَاءِ الحَقِّ وَإِظْهَارِ البَاطِلِ- حَرَّفُوا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَغَيَّرُوا مَعَانِيَهَا؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَ مَنْ يَرْشُونَهُمْ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، فكَانَ وَعِيدُهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا شَدِيدًا، وَعَذَابُهُمْ أَلِيمًا، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وَكَانَ الثَّمَنُ الَّذِي بَاعُوا بِهِ الحَقَّ، وَنَصَرُوا الْبَاطِلَ هُوَ الرِّشْوَةُ الَّتِي ذَمَّهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَذَمَّ أَهْلَهَا.

وَكَانَ مِنْ عَاجِلِ عُقُوبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَهُمْ مِنْ

---

(٣) أخرجه أبو بكر الضبي في أخبار القضاة (١/ ٥١).

(٤) تفسير البغوي (٢/ ٣٩).

(٥) تفسير الطبري (٢/ ٨٩).

طَيِّبَاتٍ فِي الدُّنْيَا، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

وَظَلَّ هَذَا الْخُلُقُ الدَّنِيءُ مُلَازِمًا لِلْيَهُودِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذُوا خَيْبَرَ مِنْهُمْ، وَعَامَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا، فَحَاوَلُوا رِشْوَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه لَمَّا جَاءَ يَخْرُصُ تَمْرَ خَيْبَرَ لِإِخْرَاجِ زَكَاتِهِ كَمَا رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ يَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ فَخَفِّفْ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَلِكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»(٦).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا أَخَذَهُ الْحَاكِمُ وَالشَّاهِدُ عَلَى الْحُكْمِ بِالحَقِّ أَوِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ سُحْتٌ، وَكُلَّ رِشْوَةٍ

---

(٦) أخرجه مالك مرسلًا (٢/ ٧٠٤)، وعنه البيهقي (٤/ ١٢٢).
وأخرجه من حديث الزهري: عبد الرزاق (٧٢٠٢) قال ابن عبد البر: «هذا الحديث مرسل في جميع الموطآت عن مالك بهذا ... وقد يستند معنى هذا الحديث من رواية ابن عباس وجابر وغيرهما عن النبي ﷺ، وسماع سليمان بن يسار من ابن عباس صحيح» التمهيد (٩/ ١٣٩).
وجاء إرسال ابن رواحة إلى اليهود لخرص نخلهم من حديث ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عند: عبد الرزاق (٧٢١٩)، وأحمد (٦/ ١٦٣)، وأبي داود في البيوع، باب في الخرص (٣٤١٣)، وابن خزيمة (٢٣١٥)، وهو منقطع؛ فابن جريج لم يسمع من الزهري.

سُحْتٌ، وَكُلَّ سُحْتٍ حَرَامٌ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَكْلُهُ، وَهَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ . . . ، وَفِي هَذَا الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّحْتَ وَهُوَ الرِّشْوَةُ عِنْدُ الْيَهُودِ حَرَامٌ وَلَا يَحِلُّ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ وَلَوْلَا أَنَّ السُّحْتَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِمْ مَا عَيَّرَهُمُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِأَكْلِهِ، فَالسُّحْتُ مُحَرَّمٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ، آمِينَ» انْتَهَى[٧].

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّشْوَةُ عَلَى تَبْدِيلِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَصْلَةً نَشَأَتْ عِنْدَ الْيَهُودِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلَعْنَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ عَنْهُمْ؛ كَانَ مَنْ تَخَلَّقَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُتَّصِفًا بِأَخَسِّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ، مُسْتَحِقًّا لِلَعْنَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَإِذَا ارْتَشَى وَتَبَرْطَلَ عَلَى تَعْطِيلِ حَدٍّ ضَعُفَتْ نَفْسُهُ أَنْ يُقِيمَ حَدًّا آخَرَ، وَصَارَ مِنْ جِنْسِ الْيَهُودِ الْمَلْعُونِينَ، وَأَصْلُ الْبَرْطِيلِ هُوَ الْحَجَرُ الْمُسْتَطِيلُ سُمِّيَتْ بِهِ الرِّشْوَةُ؛ لِأَنَّهَا تُلْقِمُ الْمُرْتَشِيَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ كَمَا يُلْقِمُهُ الْحَجَرُ الطَّوِيلُ؛ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «إِذَا دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ مِنَ الْبَابِ خَرَجَتِ الْأَمَانَةُ مِنَ الْكُوَّةِ»[٨]». وَمِنْ كَلَامِهِمْ: الْبَرَاطِيلُ تَنْصُرُ

---

(٧) التمهيد (٩/ ١٤٠-١٤١).

(٨) رواه عن الحسن البصري: الدولابي في الكنى والأسماء (٧٨١)، وابن المقرئ في معجمه (٢/ ٨٣).

وجاء مرفوعًا من حديث أبي هريرة ﷺ عند: أبي يعلى الخليلي القزويني في الإرشاد، وقال: لم نكتبه إلا من هذا الطريق، ولا يعرف بالعراق من حديث الحجاج (٣/ ٩٤٥).

قلت: يريد الحجاج بن أرطاة النخعي، وهو ضعيف، ينظر الكامل لابن عدي (٤٠٦).

الأَبَاطِيلَ[٩]. وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: «الرِّشْوَةُ تُسَفِّهُ الْحَلِيمَ، وَتُعْمِي عَيْنَ الْحَكِيمِ»[١٠].

وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُتَخَلِّقِينَ بِقَبُولِ الرِّشْوَةِ أَخْذًا أَوْ عَطَاءً أَوْ تَوَسُّطًا؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَقَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ والمُرْتَشِيَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ[١١].

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّشْوَةُ هِيَ كُلُّ مَالٍ دُفِعَ لِيَبْتَاعَ بِهِ مِنْ ذِي جَاهٍ عَوْنًا عَلَى مَا لَا يَجُوزُ، والمُرْتَشِي هُوَ قَابِضُهُ، وَالرَّاشِي هُوَ دَافِعُهُ، وَالرَّائِشُ يُوَسِّطُ بَيْنَهُمَا»[١٢].

وَمَهْمَا تَعَدَّدَتْ أَسَالِيبُ الرِّشْوَةِ وَسُمِّيَتْ بِغَيْرِ اسْمِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَتِهَا شَيْئًا؛ فَهِيَ سُحْتٌ يَبْنِي بِهَا صَاحِبُهَا جَسَدَهُ وَأَجْسَادَ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَكُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ.

إِنَّ الرِّشْوَةَ رِشْوَةٌ وَلَوْ سُمِّيَتْ هِدَيَّةً أَوْ مُكَافَأَةً أَوْ حُلْوَانًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَوْ قُدِّمَتْ مَالًا أَوْ مَتَاعًا أَوْ حَتَّى قَضَاءَ حَاجَةٍ لَا تَحِلُّ لِصَاحِبِهَا مُقَابِلَ أَنْ يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ مُسَمَّى الرِّشْوَةِ، وَلَا يَرْفَعُ الإِثْمَ الوَاقِعَ بِسَبَبِهَا، وَظَنُّ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الأَمْوَالِ ظَنٌّ خَاطِئٌ أَدَّى إِلَى

---

(٩) ينظر: ربيع الأبرار (١/ ٤٨٣) قال الفيومي: «كأنه مأخوذ من (البرطيل) الذي هو المعول؛ لأنه يستخرج به ما استتر، وفتح الباء عامي لفقد فعليل بالفتح» المصباح المنير (١/ ٤٢).

(١٠) المغني لابن قدامة (١١/ ٤٣٧).

(١١) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب كراهية الرشوة (٣٥٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، وقال: حسن صحيح (١٣٣٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة (٢٣١٣)، وصححه ابن حبان (٥٠٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٠٣).

(١٢) عارضة الأحوذي (٦/ ٨٠).

احْتِيَالِهِمْ عَلَى الشَّرْعِ بِطُرُقٍ شَيْطَانِيَّةٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ إِثْمِ الرِّشْوَةِ؛ لِيَقَعُوا فِيهَا بِطُرُقٍ أُخْرَى، مَعَ إِثْمِ احْتِيَالِهِمْ عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَأَمَّا اسْتِحْلَالُ السُّحْتِ بِاسْمِ الهَدِيَّةِ، وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ؛ كَرِشْوَةِ الحَاكِمِ وَالْوَالِي وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ المُرْتَشِيَ مَلْعُونٌ هُوَ وَالرَّاشِي؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ المَفْسَدَةِ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّهُمَا لَا يَخْرُجَانِ عَنْ حَقِيقَةِ الرِّشْوَةِ بِمُجَرَّدِ اسْمِ الْهَدِيَّةِ، وَقَدْ عَلِمْنَا وَعَلِمَ اللَّهُ وَمَلائِكَتُهُ وَمَنْ لَهُ اطِّلَاعٌ عَلَى الْحِيَلِ أَنَّهَا رِشْوَةٌ»(١٣).

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ الرِّشْوَةَ هِيَ مَا يُعْطِيهِ الشَّخْصُ لِلْحَاكِمِ وَغَيْرِهِ لِيَحْكُمَ لَهُ أَوْ يَحْمِلَهُ عَلَى مَا يُرِيدُ(١٤).

وَوَاضِحٌ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّ الرِّشْوَةَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَالًا أَوْ مَنْفَعَةً يُمَكِّنُهُ مِنْهَا، أَوْ يَقْضِيهَا لَهُ، وَالمُرَادُ بِالْحَاكِمِ: الْقَاضِي وَغَيْرُهُ، وَكُلُّ مَنْ يُرْجَى عِنْدَهُ قَضَاءُ مَصْلَحَةِ الرَّاشِي، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ وُلَاةِ الدَّوْلَةِ وَمُوَظَّفِيهَا، أَوِ الْقَائِمِينَ بِأَعْمَالٍ خَاصَّةٍ كَوُكَلَاءِ التُّجَّارِ وَالشَّرِكَاتِ وَأَصْحَابِ الْعَقَارَاتِ وَنَحْوِهِمْ، وَالمُرَادُ بِالْحُكْمِ لِلرَّاشِي وَحَمْلِ المُرْتَشِي عَلَى مَا يُرِيدُهُ الرَّاشِي: تَحْقِيقُ رَغْبَةِ الرَّاشِي وَمَقْصِدِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا(١٥).

وَلَا يُسْتَثْنَى مِنَ التَّحْرِيمِ إِلَّا مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ مَظْلِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا إِلَّا بِالرِّشْوَةِ، أَوْ مُنِعَ مِنْ حَقِّهِ الثَّابِتِ لَهُ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَا؛ فَهَذَا قَدْ رُخِّصَ لَهُ فِي دَفْعِهَا، وَالمُصَانَعَةِ بِهَا؛ لِأَخْذِ حَقِّهِ، وَرَفْعِ الضَّرَرِ عَنْ نَفْسِهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَنْفِذَ الطُّرُقَ المَشْرُوعَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَالإِثْمُ فِي هَذِهِ الحَالِ عَلَى آخِذِ الرِّشْوَةِ دُونَ دَافِعِهَا.

---

(١٣) إعلام الموقعين (٣/ ١١٦).
(١٤) المصباح المنير (١/ ٢٢٨)، والبحر الرائق (٦/ ٢٨٥)، وتاج العروس (٣٨/ ١٥٣).
(١٥) المغني (١١/ ٤٣٧).

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَأَمَّا الرَّاشِي فَإِنْ رَشَاهُ لِيَحْكُمَ لَهُ بِبَاطِلٍ، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ حَقًّا فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَإِنْ رَشَاهُ لِيَدْفَعَ ظُلْمَهُ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى وَاجِبِهِ، فَقَدْ قَالَ عَطَاءٌ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالحَسَنُ: لَا بَأْسَ أَنْ يُصَانِعَ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ: مَا رَأَيْنَا فِي زَمَنِ زِيَادٍ أَنْفَعَ لَنَا مِنَ الرِّشَا! وَلِأَنَّهُ يَسْتَنْقِذُ مَالَهُ كَمَا يَسْتَنْقِذُ الرَّجُلُ أَسِيرَهُ!»(١٦).

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرَّاشِي يَقْصِدُ بِهَا التَّوَصُّلَ إِلَى إِبْطَالِ حَقٍّ أَوْ تَحْقِيقِ بَاطِلٍ، فَهَذَا الرَّاشِي المَلْعُونُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنْ رَشَا لِدَفْعِ الظُّلْمِ اخْتُصَّ المُرْتَشِي وَحْدَهُ بِاللَّعْنَةِ»(١٧).

عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الصَّبْرَ وَاحْتِسَابَ الْحَقِّ الضَّائِعِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنَ المُصَانَعَةِ بِالرِّشْوَةِ لِاسْتِخْرَاجِ حَقِّهِ، إِلَّا إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى ضَيَاعِ ذَلِكَ الحَقِّ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ تَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ.

---

(١٦) المغني (١١/ ٤٣٧). وعقد ابن أبي شيبة بابًا في المصنف بعنوان: الرجل يصانع عن نفسه، وذكر فيه من الآثار:

١- عن جابر بن زيد قال: لم نجد في ذلك الزمان لنا أشياء أنفع لنا من الرشاء.

٢- وعن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود لما أتى أرض الحبشة أُخذ في شيء فأعطى دينارين حتى خلي سبيله، وقد حرف هذا الأثر إلى (أخذ سبيله) في طبعة مكتبة الرشد، تحقيق كمال الحوت (٢١٩١١)، وهي طبعة سقيمة جدًّا كثيرة التحريف والسقط. وهو على الصواب في طبعة محمد عوامة (٢٢٤٢٣).

٣- وعن مجاهد قال: اجعل مالك جنة دون دينك، ولا تجعل دينك جنة دون مالك.

٤- وعن عطاء وعمرو بن دينار وجابر بن زيد والشعبي أنهم قالوا: لا بأس أن يصانع الرجل إلى نفسه وماله إذا خاف الظلم، وعن الحسن مثله.

٥- وعن الحسن أنه كان لا يرى بأسًا أن يعطي الرجل من ماله ما يصون به عرضه. ينظر: المصنف (٦/ ٥٥٧-٥٥٨) طبعة عوامة.

(١٧) الروح (٢٤٠).

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَيْضًا: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ الحَقَّ فِي الشَّيْءِ، فَيُصَانِعُ عَلَى نَيْلِهِ بِالرِّشَا، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ؛ كَمَنْ يَدْفَعُ الرِّشْوَةَ لِلْوُصُولِ إِلَى الهِبَاتِ وَالْعَطَايَا الَّتِي يَبْذُلُهَا السَّلَاطِينُ وَالأُمَرَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ، فَهَذِهِ الْعَطَايَا مُبَاحَةٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ مُغْتَصَبَةً، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا بِالرِّشْوَةِ؛ لِأَنَّهُ وَغَيْرَهُ فِيهَا سَوَاءٌ، وَلَيْسَتْ حَقًّا ثَابِتًا لَهُ مُنِعَ مِنْهُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا؛ فَكَمْ أَرْدَتِ الْفِتْنَةُ بِهَا مِنْ أَقْوَامٍ، اسْتَحَلُّوا مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ، وَحَمَلُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ غَيْرِهِمْ.

حَمَانَا اللَّهُ وَالمُسْلِمِينَ مِنَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتِهَا، وَرَزَقَنَا الْقَنَاعَةَ بِمَا رَزَقَنَا، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِغِنَى النُّفُوسِ، وَصَلَاحِ الْقُلُوبِ، إِنَّهُ خَيْرُ مَسْؤُولٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ وَمَا يُقَرِّبُ

مِنْهَا، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِلرِّشْوَةِ آثَارٌ سَيِّئَةٌ عَلَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ، فَهِيَ سَبَبٌ لِفَسَادِ الأَخْلَاقِ، وَانْحِطَاطِ الهِمَمِ، وَسُفُولِ الأُمَمِ؛ لَا يَرْضَاهَا كَسْبًا لَهُ إِلَّا مَنْ ضَعُفَتْ نَفْسُهُ، وَرَقَّ دِينُهُ، وَلَا يَتَخَلَّقُهَا إِلَّا مَنْ ذَهَبَتْ أَمَانَتُهُ، وَظَهَرَتْ خِيَانَتُهُ، وَتَقَاصَرَتْ عَنِ الْكَسْبِ الْحَلَالِ هِمَّتُهُ؛ فَأَضْحَى دَنِيءَ النَّفْسِ، يُرْضِي شَهْوَتَهُ بِبَذْلِ دِينِهِ، وَيُشْبِعُ طَمَعَهُ بِتَعْطِيلِ مَصَالِحِ إِخْوَانِهِ، وَلَنْ يَشْبَعَ وَلَوْ حَازَ الدُّنْيَا كُلَّهَا؛ إِذْ مُشْكِلَتُهُ فِي فَقْرِ قَلْبِهِ، لَا فِي قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ.

إِنَّ الرِّشْوَةَ سَبَبٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَسْتَوْلِي الرَّاشِي عَلَى حُقُوقِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ دَفَعَ لِلْمُرْتَشِي، وَيُمْنَعُ صَاحِبُ الحَقِّ حَقَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْفَعْ لِلْمُرْتَشِي.

وَاللهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ، فَأَخَذُوا الرِّشْوَةَ فِي الحُكْمِ، وَجَاوَزُوا الحُدُودَ؛ أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، فقَالَ ﷻ فِي الْيَهُودِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقَالَ فِي النَّصَارَى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ١٤]، وَهَكَذَا الْمُسْلِمُونَ إِنْ تَعَامَلُوا بِالرِّشْوَةِ، وَلَمْ يُنْكِرُوهَا وَيُكَافِحُوهَا؛ حَرِيٌّ أَنْ تُلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَحِينَهَا لَا يَأْمَنُ وَاحِدُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا مَالِهِ وَلَا وَلَدِهِ.

وَالرِّشْوَةُ سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ عَلَى مَنْ تَعَامَلَ بِهَا؛ لِأَنَّهَا ظُلْمٌ وَبَغْيٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٨).

---

(١٨) أخرجه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أبو داود في الأدب، باب النهي عن البغي (٤٩٠٢)، =

وَمَا دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَفْسَدَتْهُ، وَلَا فِي بِلَادٍ إِلَّا دَمَّرَتْهَا، وَلَا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَهْلَكَتْهَا؛ فَإِنْ دَخَلَتْ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَغَزَتِ المَدَارِسَ وَالْجَامِعَاتِ؛ خَرَّجَتْ طُلَّابًا يَمْلِكُونَ أعلَى المُؤَهِّلَاتِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، فَوُكِلَتْ إِلَيْهِمُ المَهَامُّ الْعَظِيمَةُ، وَأُسْنِدَتْ إِلَيْهِمُ المَسْؤُولِيَّاتُ الْكَبِيرَةُ، وَعُلِّقَتْ بِهِمْ مَصَالِحُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ؛ فَأَضَاعُوهَا بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ، وهَذَا مِنْ إِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ المُؤْذِنِ بِقُرْبِ السَّاعَةِ.

وَإِنْ كَانَتِ الرِّشْوَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالتَّعْمِيرِ؛ كَانَ الْغِشُّ فِي المَسَاكِنِ وَالْبِنَايَاتِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَأْمَنُ النَّاسُ أَنْ تَخِرَّ بُيُوتُهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ.

وَإِنْ دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ مَجالَاتِ الطِّبِّ وَالصِّحَّةِ كَانَتْ حَيَاةُ النَّاسِ فِي خَطَرٍ؛ إِذْ يَتَطَبَّبُ فِيهِمْ فَاقِدُ الْعِلْمِ وَالْأَمَانَةِ؛ فَلَا الْعِلْمَ يَسْنُدُهُ فِي عَمَلِهِ، وَلَا يَمْلِكُ أَمَانَةً تَمْنَعُهُ مِنَ التَّجْرِبَةِ فِي عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَإِذَا كَانَتِ الرِّشْوَةُ فِي المُنَاقَصَاتِ وَإِرْسَاءِ الْعُقُودِ؛ تَعَطَّلَتْ مَصَالِحُ الْعِبَادِ، وَتَقَهْقَرَ عُمْرَانُهُمْ، وَتَأَخَّرَتْ حَضَارَتُهُمْ؛ إِذْ يَرَى النَّاسُ أَنَّه لَا مَجَالَ لِلْمُنَافَسَةِ الشَّرِيفَةِ فِي ذَلِكَ، فَيُغَادِرُ الْأَكْفَاءُ مِنْهُمْ بِلَادَهُمْ إِلَى أُخْرَى، يَسْتَطِيعُونَ فِيهَا المُنَافَسَةَ وَالْإِبْدَاعَ، وَمَا هَاجَرَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقُولِ الإِسْلَامِيَّةِ المُنْتِجَةِ إِلَى الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَّا بِسَبَبِ الْفَسَادِ المَالِيِّ والْإِدَارِيِّ الَّذِي خَيَّمَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ.

وَإِذَا تَخَلَّقَ بِالرِّشْوَةِ أَهْلُ الْقَضَاءِ، أَوْ حُرَّاسُ الْأَمْنِ؛ فَشَتِ الْجَرَائِمُ، وَكَثُرَ الِاعْتِدَاءُ، وَرُفِعَ الْأَمْنُ، وَحَلَّ الْخَوْفُ.

= والترمذي في صفة القيامة وصححه (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد، باب البغي (٤٢١١)، وأحمد (٢٠٣٧٤)، وصححه ابن حبان (٤٥٥).

وَبِهَذَا يُعْلَمُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الرِّشْوَةَ لَا تَفْشُو فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فَسَدَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَذَهَبَتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَهُمْ حَرِيُّونَ بِمَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى وَعُقُوبَتِهِ، مَعَ تَوَقُّفِ عُمْرَانِهِمْ، وَكَسَادِ أَرْزَاقِهِمْ؛ مِمَّا يُوَلِّدُ الْفَقْرَ وَالْجَرِيمَةَ.

فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَهَا وَيُحَذِّرَ مِنْهَا، وَيَسْعَى فِي إِنْكَارِهَا بِنَصِيحَةِ الْمُتَعَامِلِينَ بِهَا، وَالتَّبْلِيغِ عَنْهُمْ إِذَا لَمْ تُجْدِ النَّصِيحَةُ؛ حِمَايَةً لَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ، وَرَدْعًا لِغَيْرِهِمْ عَنِ الْفَسَادِ، وَحِفَاظًا عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مِنَ الضَّيَاعِ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



٣٠٤- الفساد المالي والإداري (٢) غلول العمال

٢٣/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَعَ لِعِبَادِهِ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَمَنَعَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَلَهُ الشُّكْرُ فَلَا أَحَدَ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ مِنْهُ ﷻ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ وَرَزَقَهُمْ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَهَدَاهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ هُدَاهُ فَاهْتَدَى، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَرَدَى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، أَحَلَّ لَنَا الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الْخَبَائِثَ، وَوَضَعَ عَنَّا الْأَغْلَالَ وَالْآصَارَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ أَمَلُ الْإِنْسَانِ فِيهَا فَهُوَ مُفَارِقُهَا، وَإِنْ طَابَ عَيْشُهُ فِيهَا فَهُوَ يَنْسَاهَا، وَلَا دَارَ إِلَّا الدَّارُ الْآخِرَةُ؛ فَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، وَاسْعُوا لَهَا سَعْيَهَا، وَاعْمَلُوا بِعَمَلِ الْفَائِزِينَ فِيهَا ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا صَلَحَ الزَّمَانُ صَلَحَتِ الذِّمَمُ وَالْأَخْلَاقُ، وَإِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ فَسَدَتِ الذِّمَمُ وَالْأَخْلَاقُ، حَتَّى تُرْفَعَ الْأَمَانَةُ، وَتَكْثُرَ الْخِيَانَةُ، وَتَنْتَشِرَ الْأَخْلَاقُ الرَّدِيئَةُ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالرَّشْوَةِ وَالظُّلْمِ، وَيَعُمَّ الْفَسَادُ جَمِيعَ مَنَاحِي الْحَيَاةِ،

وَإِنَّمَا يَصْلُحُ الزَّمَانُ وَالْحَالُ أَوْ يَفْسُدَانِ بِصَلَاحِ النَّاسِ أَوْ فَسَادِهِمْ، وَيَبْلُغُ الْفَسَادُ بِالنَّاسِ حَدًّا يَعْجَزُ أَكْثَرُهُمْ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَلَوْ كَانَ أَدَاؤُهَا يَسِيرًا، وَلَا يَنْتَهُونَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ بَلْ وَالْمُوبِقَاتِ، وَلَوْ كَانَ الْبَدِيلُ حَلَالًا؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ النُّفُوسِ، وَتَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ، وَغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ أَكْثَرِ مَا تَسَاهَلَ النَّاسُ فِيهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ: غُلُولُ الْعُمَّالِ، وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَامَّةِ مَا لَيْسَ لَهُ، أَوْ يُسَخِّرَ أَدَوَاتِ وَظِيفَتِهِ أَوْ نُفُوذَهُ لِنَفْعِ نَفْسِهِ وَقَرَابَتِهِ لَا لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَهُوَ مَا أُجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَّا لِأَجْلِهِمْ، وَهَذَا مِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجُرُّ الْمُجْتَمَعَ إِلَى فَسَادٍ عَرِيضٍ، وَصَاحِبُهُ مُتَوَعَّدٌ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَمَنْ غَلَّ شَيْئًا لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُحَاسَبَ عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ** -أي: الرَّقِيقُ- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ** -أَي: الثِّيَابُ وَنَحْوُهَا- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ**

شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ -أَي: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(١)].

إِنَّهُ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ أَكَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، أَيْ: هِيَ حَالَةٌ شَنِيعَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ أَرَاكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[(٢)]، وَمَعْنَاهُ: لَا تَعْمَلُوا عَمَلًا أَجِدُكُمْ بِسَبَبِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ[(٣)]، ثُمَّ عَدَّدَ أَنْوَاعَ المَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ غَالَّهَا يَحْمِلُ مَا غَلَّ مِنْهَا عَلَى رَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَاخَذُ بِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ وَالتَّخْفِيفَ.

وَعَلَى عِظَمِ قَدْرِ الْجِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَرِفْعَةِ مَنْزِلَةِ المُجَاهِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى -حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْجِهَادَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ- وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَنْ غَلَّ شَيْئًا مِنَ المَغَانِمِ فَهُوَ مُتَوَعَّدٌ بِالْعَذَابِ فِي قَبْرِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَدَدٍ مِمَّنْ غَلُّوا فِي زَمَنِهِ أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ بِمَا غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وَلَوْ كَانَ مَا غَلُّوهُ قَلِيلًا كَعَبَاءَةٍ يَلْبَسُهَا أَحَدُهُمْ، أَوْ كِسَاءٍ يَكْتَسِيهِ، أَوْ شَمْلَةٍ يَتَّزِرُهَا، أَوْ سَيْرًا يَجْعَلُهُ فِي نَعْلِهِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ عَلى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ -أَيْ: عَلَى مَتَاعِهِ- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كَرْكِرَة، فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **هُوَ فِي النَّارِ**. فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا»[(٤)].

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، وَلَمْ نَغْنَمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الغلول (٣٠٣٧)، ومسلم في الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٨٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١٦).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب القليل من الغلول (٣٠٧٤).

ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ وَالمَتَاعَ وَالحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ، أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ، حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **بَلْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**. فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **شِرَاكٌ -أَوْ شِرَاكَانِ- مِنْ نَارٍ**»(٥).

وَالشِّرَاكُ: سَيْرُ النَّعْلِ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ، فَإِذَا كَانَ الْغَالُّ يُؤَاخَذُ بِسَيْرِ النَّعْلِ الَّذِي لَا يُسَاوِي شَيْئًا فَكَيْفَ بِمَا فَوْقَهُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ الْعَظِيمِ؟! فَيَا وَيْلَ مَنِ اسْتَحَلُّوا الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا، وَائْتِمَانِهِمْ عَلَيْهَا! وَيْلَهُمْ! مَاذَا سَيَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَابِهِمْ؟! وَمَا جَوَابُهُمْ لِرَبِّهِمْ حِينَ يَسْأَلُهُمْ؛ إِذَا كَانَ سُبْحَانَهُ قَدْ عَذَّبَ أَشْخَاصًا فِي قُبُورِهِمْ فِي شَمْلَةٍ وَعَبَاءَةٍ، وَسَيْرِ نَعْلٍ، فَمَا أَعْظَمَ الْأَمْرَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- وَقَدْ تَسَاهَلَ النَّاسُ بِهِ! وَمَا أَكْثَرَ الْوَاقِعِينَ فِيهِ! نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْهِدَايَةَ وَالنَّجَاةَ لَهُمْ وَلِأَنْفُسِنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ، آمِينَ آمِينَ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَكَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى وُجُوبِ أَدَاءِ الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ، وَعَدَمِ احْتِقَارِ الشَّيْءِ مَهْمَا كَانَتْ قِلَّتُهُ وَوَضَاعَتُهُ فِي نَفْسِ آخِذِهِ مَا دَامَ أَنَّ لِغَيْرِهِ فِيهِ حَقًّا، فَقَدْ رَوَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ فِي غَزْوِهِمْ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ المَقْسِمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَاوَلَ وَبَرَةً بَيْنَ

---

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٥).

أُنْمُلَتَيْهِ فَقَالَ: **إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الخُمُسُ، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَدُّوا الخَيْطَ وَالمَخِيطَ، وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ، وَلَا تَغُلُّوا؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَلَمَّا قَالَ رَجُلٌ لِسَلْمَانَ رضي الله عنه: «إِنِّي أَخَذْتُ خَيْطًا مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَخِطْتُ بِهِ ثَوْبِي، قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ وَقَدْرُهُ»(٧).

إِنَّ الْقَضِيَّةَ لَيْسَتْ فِي شَمْلَةٍ أَوْ عَبَاءَةٍ، أَوْ سَيْرِ نَعْلٍ، أَوْ خَيْطٍ أَوْ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحْتَقَرُ فِي الْعَادَةِ، وَلَكِنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةُ دِينٍ يَدِينُ النَّاسُ بِهِ لِرَبِّهِمْ، وَخُلُقٌ يَتَخَلَّقُونَهُ، وَأَمَانَةٌ يُؤَدُّونَهَا، وَمَنْ أَخَذَ مَا يُحْتَقَرُ أَخَذَ مَا فَوْقَهُ، وَمَنِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى سَيْرِ نَعْلٍ امْتَدَّتْ إِلَى جَامِ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَمَنْ فُتِنَ بِقَلِيلِ المَالِ فَاسْتَحَلَّهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَفِتْنَتُهُ بِكَثِيرِهِ أَحْرَى وَأَوْلَى.

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُصَلِّ عَلَى صَاحِبِ الْغُلُولِ، مَعَ أَنَّهُ مَا غَلَّ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا لَا يَكَادُ يُذْكَرُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه يُحَدِّثُ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ تُوُفِّيَ بِخَيْبَرَ، وَأَنَّهُ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**. قَالَ: فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ الْقَوْمِ لِذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى الَّذِي بِهِمْ، قَالَ: **إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**. فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ، فَوَجَدْنَا فِيهِ خَرَزًا مِنْ خَرَزِ الْيَهُودِ مَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٨).

---

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦-٣٢٦)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٢)، وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند النسائي (٦/ ٢٦٢).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٢).

(٨) أخرجه مالك (٢/ ٤٥٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في تعظيم الغلول (٢٧١٠)، والنسائي في الجنائز، باب الصلاة على من غل (٤/ ٦٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب =

وَمِنْ تَرْبِيَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ، وَتَأْدِيبِ المُخَالِفِ مِنْهُمْ، وَتَعْظِيمِ أَمْرِ الْغُلُولِ فِي نُفُوسِهِمْ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا كَانَ يَقْبَلُ مِمَّنْ غَلَّ إِرْجَاعَ مَا غَلَّ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَانْتِفَاءِ الْعُذْرِ؛ كَمَا رَوَى سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا غَنِمَ غَنِيمَةً أَمَرَ بِلَالًا فَيُنَادِي فِي النَّاسِ فَيَجُوزُ بِغَنَائِمِهِمْ فَيُخَمِّسُهُ وَيُقَسِّمُهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَوْمًا بَعْدَ النِّدَاءِ بِزِمَامٍ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا كَانَ مِمَّا أَصَبْنَاهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَقَالَ: **أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ؟** فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٩).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ مَرَّةً فِي مُؤَخِّرَةِ الْجَيْشِ وَالنَّاسُ جَوْعَى، فَاجْتَهَدَ بَعْضُ مَنْ كَانُوا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، فَذَبَحُوا شِيَاهًا مِنَ الْغَنَائِمِ وَطَبَخُوهَا لِلْجَيْشِ، فَمَا قَبِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اجْتِهَادَهُمْ، وَأَنْكَرَ فِعْلَهُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ﷺ فَقَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ وَأَصَبْنَا إِبِلًا وَغَنَمًا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُخْرَيَاتِ النَّاسِ، فَعَجِلُوا فَنَصَبُوا الْقُدُورَ فَأَمَرَ بِالْقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ»(١٠).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ النَّاسَ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ، وَأَصَابُوا غَنَمًا فَانْتَهَبُوهَا، فَإِنَّ

= الغلول (٢٨٤٨)، وصححه ابن حبان (٤٨٥٣)، والحاكم، وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٣٨).

(٩) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الغلول إذا كان يسيرًا يتركه الإمام ولا يحرق رحله (٢٧١٢)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وصححه ابن حبان (٤٨٠٩)، والحاكم، ووافقه الذهبي (٢/ ١٣٨).

(١٠) أخرجه البخاري في الشركة، باب قسمة الغنم (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم (١٩٦٨).

قُدُورَنَا لَتَغْلِي؛ إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي عَلَى قَوْسِهِ فَأَكْفَأَ قُدُورَنَا بِقَوْسِهِ، ثُمَّ جَعَلَ يُرَمِّلُ اللَّحْمَ بِالتُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ**»[١١].

فَجَعَلَ ﷺ فِعْلَهُمْ نُهْبَةً انْتَهَبُوهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ قِسْمَتِهَا، وَأَكْفَأَ قُدُورَهُمْ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ، مَعَ جُوعِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْمَيْتَةَ أَحَلُّ مِنْ فِعْلِهِمْ.

وَلَمَّا عَلِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ مَا فِي الْغُلُولِ مِنَ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ، وَالْفَضِيحَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ اسْتَعْفَوْا مِنَ الْوِلَايَةِ، وَاعْتَذَرُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَبُولِهَا؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَلْحَقَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغُلُولِ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ عُذْرَهُمْ، وَأَعْفَاهُمْ مِنْ وَظَائِفِهِمْ، كَانَ مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﵁، وَقِصَّتُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: وَمَا لَكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: **وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْحَاكِمِ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا سَعْدُ، إِيَّاكَ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ**، قَالَ: لَا آخُذُهُ وَلَا أَجِيءُ بِهِ، فَأَعْفَاهُ»[١٢].

وَمِمَّنْ اسْتَعْفَى مِنَ الْوَظِيفَةِ خَوْفًا مِنَ الْغُلُولِ: أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي

---

(١١) أخرجه عن رجل من الأنصار ﵁: أبو داود في الجهاد، باب في النهي عن النهبى إذا كان في الطعام قلة في أرض العدو (٢٧٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٩٨٦).

(١٢) رواه مسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٣)، وأبو داود في الأقضية، باب في هدايا العمال (٣٥٨١)، والرواية الثانية للحاكم (١/ ٥٥٦).

قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاعِيًا، ثُمَّ قَالَ: **انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودٍ، لَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ**. قَالَ: إِذًا لَا أَنْطَلِقُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِذًا لَا أُكْرِهُكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٣).

وَأَعْظَمُ الْغُلُولِ: غُلُولُ الْجَارِ أَوِ الشَّرِيكِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ خِيَانَتِهِ وَقَدْ أَمَّنَهُ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذِرَاعٌ مِنْ أَرْضٍ يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ أَوِ بَيْنَ الشَّرِيكَيْنِ لِلدَّارِ، فَيَقْتَسِمَانِ فَيَسْرِقُ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا مِنْ أَرْضٍ، فَيُطَوَّقُهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١٤).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❃ ❃ ❃

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى؛ عَمَّ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ كُلَّ الْوَرَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ

---

(١٣) رواه أبو داود (٢٩٤٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥٧٦).

(١٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٠)، والرواية الثانية له أيضًا (٥/ ٣٤٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (٥/ ١٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٧٤).

وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا تَعَاقَبَ النَّهَارُ وَالدُّجَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا انْتَشَرَ الْغُلُولُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدُهُمْ حَرَجًا مِنَ امْتِدَادِ يَدِهِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ؛ لِضَعْفِ دِيَانَتِهِ، وَفَسَادِ خُلُقِهِ، وَجَشَعِ نَفْسِهِ، مَعَ غِيَابِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالْعِقَابِ؛ فَإِنَّ أَخْلَاقًا رَدِيئَةً تَنْتَشِرُ فِي النَّاسِ، يَأْخُذُ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلُّ خُلُقٍ سَيِّئٍ مِنْهَا يَدْعُو إِلَى خُلُقٍ آخَرَ أَسْوَأَ مِنْهُ، فِي سِلْسِلَةٍ لَا تَنْتَهِي مِنْ فَسَادِ الضَّمَائِرِ وَالْأَخْلَاقِ، وَالطَّمَعِ وَالْجَشَعِ، مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا فِي الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ الضَّغَائِنُ وَالْأَحْقَادُ الَّتِي تُؤَدِّي بِالنَّاسِ إِلَى النِّزَاعِ وَالشِّقَاقِ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اتِّسَاعِ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةِ الْمَوَارِدِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِعِفَّةِ الْيَدِ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ عَقِبَ غَنْمِهِمْ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، مُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ مِنَ الِافْتِتَانِ بِمَا يَرَوْنَ مِنْ أَمْوَالٍ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي الْغُلُولِ، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبْ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَلْبَسْ ثَوْبًا مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ رَدَّهُ فِيهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَبِيعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقْسَمَ**»(١٥).

وَتَأَمَّلُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبْ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ**»،

---

(١٥) أخرجه من حديث رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب في الرجل ينتفع من الغنيمة بالشيء (٢٧٠٨)، والدارمي (٢٤٨٨)، وصححه ابن حبان (٤٨٥٠)، وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٥٦).

والرواية الثانية لأبي داود في النكاح، باب جامع في النكاح (٢١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٠٨).

وَقَارِنُوهُ مَعَ حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَنَفِّذِينَ فِي الدَّوَائِرِ الْحُكُومِيَّةِ وَالشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ؛ إِذْ يَسْتَحِلُّونَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنَ السَّيَّارَاتِ وَغَيْرِهَا وَيَقْسِمُونَهَا فِي أَوْلَادِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَكَأَنَّهَا مِلْكُ آبَائِهِمْ، وَيَعْمَلُونَ بِهَا مَا لَا يَعْمَلُونَ بِسَيَّارَاتِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَا خَلِقَتْ أَوْ تَلِفَتْ أَعَادُوهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَخَذُوا بَدَلًا عَنْهَا بِلَا وَازِعٍ يَزَعُهُمْ، وَلَا عِقَابٍ يَرْدَعُهُمْ.

وَلَقَدْ كَانَ المِسْكُ يُوزَنُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَيَأْخُذُ بِأَنْفِهِ حَتَّى لَا تُصِيبَهُ الرَّائِحَةُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، مَا ضَرَّكَ إِنْ وَجَدْتَ رِيحَهُ؟ فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنْ هَذَا إِلَّا بِرِيحِهِ؟![(١٦)].

إِنَّ الْفَسَادَ الْإِدَارِيَّ وَالمَالِيَّ قَدْ ضَرَبَ أَطْنَابَهُ فِي أَكْثَرِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَأَدَّى بِهِمْ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ التَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ، وَالْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَضَعْفِ الدِّيَانَةِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ؛ حَتَّى إِنَّ عَفِيفَ الْيَدِ فِي بَعْضِ المُجْتَمَعَاتِ المُعَاصِرَةِ غَرِيبٌ بَيْنَ أَقْرَانِهِ، وَلَرُبَّمَا قُطِعَتْ يَدُهُ أَوْ كُفَّتْ عَنِ الْعَمَلِ لِعِفَّتِهَا، وَغَابَ السُّؤَالُ المَشْهُورُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ وَحَلَّ مَكَانَهُ: فُلَانٌ ضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ الْفُرْصَةَ بِمِثَالِيَّتِهِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَأَصْبَحْتُ مِنْ أَثْرِيَاءِ النَّاسِ!

وَأَضْحَى كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ضَعُفَ دِينُهُمْ وَمَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَفَسَدَتْ ذِمَمُهُمْ هُمْ سَرَاةَ النَّاسِ وَقُدْوَتَهُمْ، بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ، وَتَقَبَّلُوا العَزَاءَ فِي مُجْتَمَعَاتٍ يَكُونُ أَهْلُ الْقُدْوَةِ فِيهِمْ هُمُ السُّرَّاقَ وَالنُّهَّابَ، وَأَكَلَةَ الْحَرَامِ، وَأَهْلَ الْغُلُولِ.

وَأَدَّى هَذَا الْفَسَادُ الْعَظِيمُ إِلَى تَعْطِيلِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي كَثِيرٍ مِنْ دِيَارِ أَهْلِ

---

(١٦) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩١٩)، ونحوه عند: أبي نعيم في الحلية (٥/ ٣٢٦).

الْإِسْلَامِ، وَظُلْمِهِمْ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، فَمَنْ يَمْلِكُ الْوَظَائِفَ يَغُلُّهَا فَيَحْبِسُهَا عَلَى بَنِيهِ وَقَرَابَتِهِ، وَأَهْلِ عَشِيرَتِهِ وَقَبِيلَتِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي النَّاسِ مَنْ هُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْهُمْ، وَمَنْ كَانَتْ مَقَاعِدُ الْقَبُولِ فِي الْجَامِعَاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ بِيَدِهِ غَلَّهَا وَحَرَمَ مِنْهَا الأَكْفَاءَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَحْجِزَهَا لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا! وَدَوَالَيْكَ فِي أَكْثَرِ حَاجَاتِ النَّاسِ وَمَصَالِحِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ أَمَانَاتٍ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَخَذَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ حَمَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحُوسِبَ بِهِ، وَلَا تَحْتَقِرُوا الْقَلِيلَ مِمَّا لَيْسَ لَكُمْ؛ كَقَلَمٍ وَوَرَقَةٍ وَمُكَالَمَةٍ هَاتِفِيَّةٍ وَنَحْوِهَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يُحَاسَبُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَالْقَلِيلُ مَعَ الْقَلِيلِ يَصِيرُ كَثِيرًا، وَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ عَلَى الْوَرَعِ وَالْمُحَاسَبَةِ اعْتَادَتْ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ، وَالْخُسْرَانِ الْكَبِيرِ أَنْ يَجْمَعَ الْمَرْءُ مَالًا عَظِيمًا مِنْ طُرُقٍ مُحَرَّمَةٍ ثُمَّ يُخَلِّفَهَا لِوَارِثِهِ، وَحِسَابُهَا عَلَى ظَهْرِهِ، فَخَسَارَةٌ لَهُ، وَخَسَارَةٌ لِمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَأَشَدُّ خَسَارَةً مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي النَّاسِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِخَطَرِ مَا يَفْعَلُونَ بِسَبَبِ تَمَكُّنِ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِمْ!

فَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، أَوْ تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ، أَوْ تَتَمَنَّوْا أَفْعَالَهُمْ، وَلْيَكُنْ قُدْوَتُكُمْ فِي عِفَّةِ الْيَدِ، وَطِيبِ الْمَطْعَمِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتَهُ الْكِرَامَ رضي الله عنهم وَالصَّالِحِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى أَفْضَلِ الرُّسُلِ، وَخَيْرِ الْبَشَرِ . . .



٣٠٥- الفساد المالي والإداري (٣) هدايا الموظفين

١٥/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ؛ الْخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبْرَاهِيمَ: ٣٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَلَّغَنَا رِسَالَاتِ رَبِّنَا، وَنَصَحَ لَنَا؛ فَلَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلَّمَا تَقَادَمَ عَهْدُ النُّبُوَّةِ، وَاقْتَرَبَ النَّاسُ مِنَ الْقِيَامَةِ؛ قَلَّ الدِّينُ فِي النَّاسِ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ، وَمَرِجَتِ الْعُهُودُ، وَضُيِّعَتِ الْأَمَانَاتُ، وَلَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة (٦١٣١)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وابن حبان (١٠٤).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ»[٢].

وَإِذَا فُقِدَتِ الْأَمَانَةُ بَيْنَ النَّاسِ ضَاعَتِ الْحُقُوقُ، وَاضْمَحَلَّ الْعَدْلُ، وَانْتَشَرَ الظُّلْمُ، وَحِينَئِذٍ يُرْفَعُ الْأَمْنُ، وَيَسُودُ الْخَوْفُ.

وَالشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ قَدْ أَكَّدَتْ عَلَى وُجُوبِ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَحَرَّمَتِ الْخِيَانَةَ، وَسَدَّتْ كُلَّ الطُّرُقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهَا؛ حَتَّى إِنَّهَا مَنَعَتْ مَا هُوَ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فِي الْأَصْلِ إِذَا أَفْضَى إِلَى مُحَرَّمٍ تَفْسُدُ بِهِ الذِّمَمُ، وَتُقْتَطَعُ الْحُقُوقُ، وَيُعْطَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، وَيُمْنَعُ الْمُسْتَحِقُّ؛ كَمَا حَرَّمَتِ الشَّرِيعَةُ الْهَدِيَّةَ لِذَوِي الْوِلَايَاتِ وَالْوَظَائِفِ، إِذَا بُذِلَتْ لَهُمْ لِأَجْلِ مَنَاصِبِهِمْ وَوَظَائِفِهِمْ وَجَعَلَتْهَا رِشْوَةً، مَعَ أَنَّ الْهَدِيَّةَ مَأْمُورٌ بِهَا شَرْعًا، وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهَا، وَيُرْوَى: «**تَهَادُوا؛ فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصَّدْرِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣]. وَالرِّشْوَةُ مَلْعُونٌ دَافِعُهَا وَآخِذُهَا وَالسَّاعِي بَيْنَهُمَا؛ إِذْ «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٤].

---

(٢) أخرجه موقوفًا عن ابن مسعود ﷺ: سعيد بن منصور في سننه (٩٧)، وعبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٥٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١) رقم (٨٧٠٠)، والبيهقي (٦/ ٢٨٩)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٦٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٥٤٩).
وقد جاء مرفوعًا من حديث أنس ﷺ عند: البخاري في تاريخه (٢/ ١٥٨)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢١٦)، وتمام الرازي في فوائده (١٩١)، وفي الروض البسام برقم (٧٠٨).
وجاء أيضًا مرفوعًا من حديث شداد بن أوس عند: الطبراني في الكبير (٧/ ٢٩٥) رقم (٧١٨٢).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في الولاء والهبة، باب في حث النبي ﷺ على التهادي، وقال: حديث غريب من هذا الوجه (٢١٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٠٥)، والطيالسي (٢٣٣٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٥٦)، قال الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٦٩): «وفي إسناده أبو معشر المدني، وتفرد به وهو ضعيف» اهـ، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٣٣٧٧)، والألباني في ضعيف الجامع (٢٤٨٩).

(٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أبو داود في الأقضية، باب كراهية =

فَمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْهَدِيَّةِ الْمَأْمُورِ بِهَا، وَالرَّشْوَةِ الْمَمْنُوعِ مِنْهَا! وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتِ الْهَدِيَّةُ رِشْوَةً فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ الذِّمَمِ، وَضَيَاعِ الْأَمَانَةِ، وَإِهْدَارِ الْحُقُوقِ.

وَأَصْحَابُ الْوِلَايَاتِ كَالْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْمُحَافِظِينَ وَالْقُضَاةِ وَالْمُدِيرِينَ وَوُكَلَائِهِمْ وَالْمُوَظَّفِينَ تَحْتَ وِلَايَاتِهِمْ صَغُرُوا أَمْ كَبُرُوا، مِمَّنْ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ؛ إِنَّمَا نُصِّبُوا فِي وِلَايَاتِهِمْ لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَإِدَارَةِ شُؤُونِهِمْ، وَرِعَايَةِ مَصَالِحِهِمْ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَيَأْخُذُونَ أُجُورَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.

وَهَكَذَا مَنْ يَعْمَلُونَ فِي الشَّرِكَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ وَغَيْرِهَا إِنَّمَا يَخْدِمُونَ مَنْ وَظَّفُوهُمْ فِيهَا، وَيَتَقَاضَوْنَ أُجُورَهُمْ مِنْهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْذُلُوا النُّصْحَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَيُحِقُّوا الْحَقَّ، وَيُؤَدُّوا الْأَمَانَةَ، مُرَاقِبِينَ اللَّهَ تَعَالَى فِي وَظَائِفِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ مُحْتَاجِينَ إِلَى ذَوِي الْوِلَايَاتِ وَالْمَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ فِي قَضَاءِ حَاجَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَدَّدُونَ لَهُمْ، وَيَتَزَلَّفُونَ إِلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا بَذَلُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْوَسَائِطَ وَالصَّنَائِعَ مِنَ الْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ وَالْوَلَائِمِ وَالْخِدْمَاتِ وَغَيْرِهَا؛ لِنَيْلِ حُقُوقِهِمْ مِنْهُمْ، أَوْ لِلْحُصُولِ عَلَى مَا لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهِ، أَوْ لِتَقْدِيمِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْمَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ يَمْلِكُونَ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ ثَرَوَاتٍ طَائِلَةً لَوِ اسْتَغْرَقُوا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا فِي جَمْعِهَا مِنْ أَرْزَاقِهِمْ مَا جَمَعُوهَا، وَلَكِنَّهَا هَدَايَا النَّاسِ وَصِلَاتُهُمُ الَّتِي لَوْلَا مَنَاصِبُهُمْ وَوَظَائِفُهُمْ مَا ظَفِرُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا.

= الرشوة (٣٥٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، وقال: حسن صحيح (١٣٣٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة (٢٣١٣)، وصححه ابن حبان (٥٠٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٠٣).

وَأَضْحَى الْخُبَرَاءُ فِي هَذَا الْبَابِ يَدُلُّونَ غَيْرَهُمْ عَلَى مَفَاتِيحِ مَنْ لَهُمْ حَاجَةٌ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي المَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ، وَكَيْفَ تُقْضَى حَاجَاتُهُمْ، وَمَا يُنَاسِبُ بَذْلَهُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْهَدَايَا الَّتِي تُبْذَلُ لِهَؤُلَاءِ المُوَظَّفِينَ لِأَجْلِ وَظَائِفِهِمْ قَدْ مَنَعَتِ الشَّرِيعَةُ مِنْهَا، سَوَاءً كَانَتْ مَالًا أَمْ مَتَاعًا أَمْ وَلَائِمَ أَمْ خِدْمَاتٍ أَمْ غَيْرَهَا، وَلَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا؛ إِذْ لَوْلَا وَظَائِفُهُمْ مَا بُذِلَتْ لَهُمْ، وَلَوْ قَعَدُوا فِي بُيُوتِهِمْ لَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَحَرُمَ بَذْلُهَا عَلَى الْبَاذِلِينَ، كَمَا حَرُمَ أَخْذُهَا عَلَى الْعَامِلِينَ، وَلَا يَحِلُّ لِمُوَظَّفٍ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا أَنْ يُمَاطِلَ فِي حُقُوقِ النَّاسِ، أَوْ يُؤَخِّرَ مُعَامَلَاتِهِمْ لِأَجْلِ أَنْ يَبْذُلُوا لَهُ شَيْئًا، أَوْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِصَنِيعَةٍ.

كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ هَدِيَّةً بُذِلَتْ إِلَيْهِ مِمَّنْ لَهُ مَصْلَحَةٌ عِنْدَهُ وَلَوْ لَمْ يُشَارِطْهُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا -وَلَا بُدَّ- تُؤَثِّرُ فِي قَلْبِهِ، فَيَمِيلُ إِلَى صَاحِبِهَا، وَيُقَدِّمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْ نَقْصٍ أَوْ خَلَلٍ فِي مُعَامَلَتِهِ لِأَجْلِ هَدِيَّتِهِ، وَقَدْ لَا يَشْعُرُ بِمَا فَعَلَ؛ وَذَلِكَ مِنْ تَضْيِيعِ الْأَمَانَةِ وَغِشِّ المُسْلِمِينَ.

وَالْأَصْلُ فِي مَنْعِ هَدَايَا المُوَظَّفِينَ وَتَحْرِيمِهَا حَدِيثُ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟!** ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي، فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ؟! وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا**

خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٥). وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَرَوَى بُرَيْدَةُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ هَدَايَا الْعُمَّالِ سُحْتٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ سَبِيلُهَا سَبِيلَ سَائِرِ الْهَدَايَا الْمُبَاحَةِ، وَإِنَّمَا يُهْدَى إِلَيْهِ لِلْمُحَابَاةِ، وَلِيُخَفِّفَ عَنِ الْمُهْدِي، وَيُسَوِّغَ لَهُ بَعْضَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ، وَهُوَ خِيَانَةٌ، وَبَخْسٌ لِلْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ اسْتِيفَاؤُهُ لِأَهْلِهِ» اهـ(٨).

هَذَا؛ وَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَتَوَرَّعُونَ عَنْ قَبُولِ الْهَدَايَا؛ خَوْفًا مِنَ الشُّبْهَةِ، وَلَا سِيَمَا إِذَا تَقَلَّدَ أَحَدُهُمْ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا

---

(٥) أخرجه البخاري في الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له (٦٥٧٨)، ومسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢).

(٦) أخرجه من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ: أحمد (٥/ ٤٢٤)، والبزار، وقال: هذا الحديث رواه إسماعيل بن عياش، واختصره وأخطأ فيه، وإنما هو عن الزهري عن عروة عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ بعث رجلًا على الصدقة ... (٣٧٢٣)، والبيهقي في الصغرى (٤١٨٩)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٠٠)، والحافظ في الفتح (٥/ ٢٢١)، والعراقي كما في فيض القدير (٦/ ٣٥٧)، وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٣)، والسيوطي في الجامع الصغير (٩٥٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٢١)، وفي الإرواء (٢٦٢٢)، ونقل عن ابن الملقن في الخلاصة أنه قال: (بإسناد حسن) ثم ساق الألباني في الإرواء شواهد للحديث عن جابر وأبي هريرة وابن عباس ﷺ.

(٧) أخرجه أبو داود في الخراج والفيء والإمارة، باب في أرزاق العمال (٢٩٤٣)، وصححه ابن خزيمة (٢٣٦٩)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٥٦٢)، والألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٣).

(٨) معالم السنن بحاشية أبي داود (٣/ ٣٥٥).

عَقَدَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بَابًا لِذَلِكَ قَالَ فِيهِ: «بَابُ مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْهَدِيَّةَ لِعِلَّةٍ»، ثُمَّ سَاقَ الْبُخَارِيُّ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَتِ الْهَدِيَّةُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ هَدِيَّةً، وَالْيَوْمَ رِشْوَةً»(٩).

وَقِصَّةُ ذَلِكَ مَا رَوَى عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «اشْتَهَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ تُفَّاحًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ مِنْ تُفَّاحٍ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ طَيِّبُ الطَّعْمِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَأَهْدَى إِلَيْهِ تُفَّاحًا، فَلَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَالَ عُمَرُ: مَا أَطْيَبَ رِيحَهُ وَأَحْسَنَهُ! ارْفَعْهُ يَا غُلَامُ، وَأَقْرِئْ فُلَانًا السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ هَدِيَّتَكَ وَقَعَتْ عِنْدَنَا بِحَيْثُ نُحِبُّ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ابْنُ عَمِّكَ وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، وَقَدْ بَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ! فَقَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً وَهِيَ لَنَا الْيَوْمَ رِشْوَةً»(١٠).

فَإِنْ كَانَتِ الْهَدِيَّةُ تُبْذَلُ لِمَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ كَالْقَاضِي وَنَحْوِهِ فَالْإِثْمُ أَكْبَرُ، وَالْخَطَرُ أَشَدُّ؛ لِمَا يَلْحَقُهُ مِنْ تُهْمَةِ تَغْيِيرِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَمْسِ الْعَدْلِ، وَإِقْرَارِ الظُّلْمِ بِسَبَبِ مَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْهَدَايَا الَّتِي تُهْدَى لِلْقُضَاةِ وَنَحْوِهِمْ هِيَ نَوْعٌ مِنَ الرِّشْوَةِ؛ لِأَنَّ الْمُهْدِيَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِلْإِهْدَاءِ إِلَى الْقَاضِي قَبْلَ وِلَايَتِهِ لَا يُهْدِي إِلَيْهِ إِلَّا لِغَرَضٍ وَهُوَ: إِمَّا التَّقَوِّي بِهِ عَلَى بَاطِلِهِ، أَوِ التَّوَصُّلُ لِهَدِيَّتِهِ لَهُ إِلَى حَقِّهِ، وَالْكُلُّ حَرَامٌ، وَأَقَلُّ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ طَالِبًا لِقُرْبِهِ

---

(٩) في كتاب الهبة من صحيحه (٢/ ٩١٦)، وأثر عمر بن عبد العزيز وصله ابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٩٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ١٧-١٨)، وينظر: تغليق التعليق (٣/ ٣٥٩)، وتاريخ الخلفاء (٢٣٧).

(١٠) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ٢٢٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ١٨).

مِنَ الْحَاكِمِ وَتَعْظِيمِهِ وَنُفُوذِ كَلَامِهِ، وَلَا غَرَضَ لَهُ بِذَلِكَ إِلَّا الِاسْتِطَالَةُ عَلَى خُصُومِهِ، أَوِ الْأَمْنُ مِنْ مُطَالَبَتِهِمْ لَهُ، فَيَحْتَشِمُهُ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْهِ، وَيَخَافُهُ مَنْ لَا يَخَافُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْأَغْرَاضُ كُلُّهَا تَؤُولُ إِلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ الرِّشْوَةُ، فَلْيَحْذَرِ الْحَاكِمُ الْمُتَحَفِّظُ لِدِينِهِ، الْمُسْتَعِدُّ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مِنْ قَبُولِ هَدَايَا مَنْ أَهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ تَوَلِّيهِ لِلْقَضَاءِ؛ فَإِنَّ لِلْإِحْسَانِ تَأْثِيرًا فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ، وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَرُبَّمَا مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمُهْدِي إِلَيْهِ مَيْلًا يُؤَثِّرُ الْمَيْلَ عَنِ الْحَقِّ عِنْدَ عُرُوضِ الْمُخَاصَمَةِ بَيْنَ الْمُهْدِي وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَالْقَاضِي لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الصَّوَابِ بِسَبَبِ مَا قَدْ زَرَعَهُ الْإِحْسَانُ فِي قَلْبِهِ، وَالرِّشْوَةُ لَا تَفْعَلُ زِيَادَةً عَلَى هَذَا» اهـ[١١].

أَلَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى كُلُّ عَبْدٍ وَلِيَ وِلَايَةً صَغِيرَةً كَانَتْ أَمْ كَبِيرَةً، وَلْيُؤَدِّ الْأَمَانَةَ فِي وِلَايَتِهِ، وَلْيَحْذَرْ مِنْ بَخْسِ الْحُقُوقِ، وَاسْتِحْلَالِ الرَّشَاوِي بِاسْمِ الْهَدَايَا؛ فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْمَعَانِي لَا بِالْمُسَمَّيَاتِ، وفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٢].

---

(١١) نيل الأوطار (٩/ ١٧٣).

(١٢) هذا الحديث يحتمل الرفع والوقف في رواية البخاري، فقد رواه بسنده عن طريف أبي تميمة، قال: شهدت صفوان وجندبًا وأصحابه وهو يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا؟ قال: سمعته يقول: «من سمع سمع الله به يوم القيامة، قال: ومن يشاقق يشقق الله عليه يوم القيامة»، فقالوا: أوصنا، فقال: إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهراقه فليفعل، قلت لأبي عبد الله: «من يقول: سمعت رسول الله ﷺ؟ جندب؟ قال: نعم جندب» انتهى من صحيحه، كتاب الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٧١٥٢).

وأخرجه مرفوعًا من حديث أبي عوانة عن قتادة عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره. الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، وفي الأوائل =

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ

= (٢٢) وابن أبي الدنيا في الورع (١١٩)، والبيهقي في الشعب، وقال عقبه: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠) فرجح البيهقي وقفه.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «هكذا وقع هذا الحديث من هذا الوجه موقوفًا، وكذا أخرجه الطبراني من طريق قتادة عن الحسن هو البصري عن جندب موقوفًا، وأخرجه من طريق صفوان ابن محرز وسياقه يحتمل الرفع والوقف؛ فإنه صدر بقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سمع ... الحديث. ثم قال: وهذا لو لم يرد مصرحًا برفعه لكان في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالرأي» فتح الباري (١٣/ ١٣٠).

ورجح القاري رفعه فقال: «والظاهر من عبارته أن الحديث بكماله مرفوع، والله تعالى أعلم» مرقاة المفاتيح (٩/ ٥١٢).

ورجح الألباني أن رفعه صحيح فقال: «وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن- وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري، فقد قال: عن طريفٍ أبي تميمة قال ... فذكر رواية البخاري آنفة الذكر.

ثم قال الألباني: وعندي جواب آخر على افتراض أن الجريري حفظه، وهو قول الحافظ في الفتح ... فساقه وقد ذكرته آنفًا، ثم قال الألباني: فكيف وقد صح مرفوعًا؟ ثم ساق حديثًا بطرقه ومتابعاته وقال: وبالجملة؛ فالحديث بهذه الطرق والمتابعات صحيح مرفوعًا، ولا يضره وقف مَنْ أوقفه، ولذلك سكت عن هذه الطرق الحافظ في الفتح، بل صرح بأن الموقوف في حكم المرفوع؛ كما تقدم عنه، فاتفقت الروايات، وزال الخلاف من بينها. والحمد لله رب العالمين» ينظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٧٩).

الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا أُهْدِيَ لِلْمُوَظَّفِ هَدِيَّةٌ لِأَجْلِ وَظِيفَتِهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّهَا وَعَدَمُ قَبُولِهَا، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْكِرَ عَلَى بَاذِلِهَا، وَيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّهَا رِشْوَةٌ لَا يَحِلُّ بَذْلُهَا وَلَا أَخْذُهَا. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِ؛ لِقُوَّتِهِ وَنُفُوذِهِ وَقَدْ يَضُرُّهُ فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَقْبَلَهَا وَلَا يُحَابِيَهِ مِنْ أَجْلِهَا، بَلْ يُحِقُّ الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ اسْتَعْفَى مِنَ الْبَتِّ فِي مُعَامَلَتِهِ لِتُحَالَ عَلَى غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِاجْتِنَابِ الْوُقُوعِ فِي الْإِثْمِ.

فَإِنْ قَبِلَ الْمُوَظَّفُ هَدِيَّةً أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ لِأَجْلِ وَظِيفَتِهِ؛ جَهْلًا بِالْحُكْمِ، أَوْ تَهَاوُنًا بِالتَّحْرِيمِ؛ فَلَا يَسْتَحِلُّهَا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا، بَلْ يَرُدُّهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِلْكًا لَهُ دُونَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَبُولِ مَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ مَنْصِبِهِ أَوْ وَظِيفَتِهِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٣)].

وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: «خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي جَيْشٍ إِلَى الْعِرَاقِ، فَلَمَّا قَفَلَا مَرَّا عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

---

(١٣) أخرجه من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب في تحريم هدايا العمال (١٨٣٣).

وينظر تفصيل تصرف الموظف المهدى إليه في كتاب (الهدايا للموظفين .. أحكامها وكيفية التصرف فيها) د. عبد الرحيم بن إبراهيم الهاشم ص٨٢-٨٦.

وَهُوَ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ، فَرَحَّبَ بِهِمَا وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ أَقْدِرُ لَكُمَا عَلَى أَمْرٍ أَنْفَعُكُمَا بِهِ لَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، هَا هُنَا مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأُسْلِفُكُمَاهُ فَتَبْتَاعَانِ بِهِ مَتَاعًا مِنْ مَتَاعِ الْعِرَاقِ ثُمَّ تَبِيعَانِهِ بِالمَدِينَةِ، فَتُؤَدِّيَانِ رَأْسَ المَالِ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَيَكُونُ الرِّبْحُ لَكُمَا، فَقَالَا: وَدِدْنَا ذَلِكَ، فَفَعَلَ وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمَا المَالَ، فَلَمَّا قَدِمَا بَاعَا فَأُرْبِحَا، فَلَمَّا دَفَعَا ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ قَالَ: أَكُلُّ الْجَيْشِ أَسْلَفَهُ مِثْلَ مَا أَسْلَفَكُمَا؟ قَالَا: لَا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ابْنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فَأَسْلَفَكُمَا، أَدِّيَا المَالَ وَرِبْحَهُ، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَسَكَتَ، وَأَمَّا عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ هَذَا، لَوْ نَقَصَ هَذَا المَالُ أَوْ هَلَكَ لَضَمِنَّاهُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَدِّيَاهُ، فَسَكَتَ عَبْدُ اللَّهِ، وَرَاجَعَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ عُمَرَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ: لَوْ جَعَلْتَهُ قِرَاضًا، فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ جَعَلْتُهُ قِرَاضًا، فَأَخَذَ عُمَرُ رَأْسَ المَالِ وَنِصْفَ رِبْحِهِ، وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نِصْفَ رِبْحِ المَالِ» رَوَاهُ مَالِكٌ فِي المُوَطَّإِ(١٤).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَقَدِ اسْتَهَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِهَذَا الْبَابِ الْخَطِيرِ، وَهُوَ سَبَبُ فَسَادِ الذِّمَمِ، وَشِرَاءِ الضَّمَائِرِ، وَالمُمَاطَلَةِ فِي الْحُقُوقِ، وَالتَّقَاعُسِ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ إِلَّا بِرَشْوَةٍ أَوْ هَدِيَّةٍ أَوْ خِدْمَةٍ يَبْذُلُهَا صَاحِبُ الْحَقِّ.

وَتَاللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَخَلُّفِ المُسْلِمِينَ

(١٤) أخرجه مالك (٢/ ٦٨٧) رقم (١٣٧٢)، وعنه الشافعي في مسنده (١٢٣٥)، وفي الأم (٤/ ٣٣). ومن طريقهما البيهقي (٦/ ١١٠)، وصححه الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٥٧)، وفي الإصابة (٥/ ٥٣).
وفي تهذيب الأسماء واللغات أن الذي أشار على عمر ﷺ أن يجعله قراضًا فقبل منه هو عبد الرحمن بن عوف ﷺ (٢/ ٥٨٢) رقم (١٠٨٢)، وكذا في غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال (٢/ ٥٩٧).

وَانْحِطَاطِهِمْ؛ إِذْ لَمَّا عَمَّتْ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ الرَّدِيئَةُ كَثِيرًا مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ تَوَقَّفَ نَمَاؤُهَا، وَاسْتَشْرَى فَسَادُهَا، وَخَرِبَتْ إِدَارَاتُهَا، وَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُ أَبْنَائِهَا، وَصَارَ الْمَرْءُ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ لَا لِبَلَدِهِ وَأُمَّتِهِ، وَيَسْعَى فِي مَلْءِ خَزَائِنِهِ بِالْمَالِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ انْتِهَاكُ الشَّرِيعَةِ، وَمُخَالَفَةُ الْأَنْظِمَةِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَرَابُ الدِّيَارِ وَالْعُمْرَانِ، وَفَسَادُ الذِّمَمِ وَالْأَخْلَاقِ، وَعَمَّ ذَلِكَ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يَكَادُ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، إِلَّا مَنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَبِسَبَبِ ذَلِكَ سَادَ فِي كَثِيرٍ مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَبُلْدَانِهِمُ السَّفِلَةُ وَالْأَرَاذِلُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، سَادُوا بِمَا جَمَعُوا مِنْ أَمْوَالٍ مُحَرَّمَةٍ جَلَبَتْ لَهُمْ جَاهًا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، فَخَرِبَتِ الْبُلْدَانُ بِسَبَبِهِمْ، وَاسْتَشْرَى الْفَسَادُ، وَانْزَوَى الْأُمَنَاءُ الْمُصْلِحُونَ النَّاصِحُونَ، وَخَمَلَ ذِكْرُهُمْ؛ لِأَنَّ الْبِيئَاتِ الْمُتَلَوِّثَةَ بِالرِّشْوَةِ وَالْغِشِّ وَالسُّحْتِ وَأَكْلِ الْحَرَامِ وَمُمَارَسَتِهِ وَتَسْوِيغِهِ لَا مَكَانَ فِيهَا لِلْأُمَنَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ النَّاصِحِينَ.

وَمَا تَقَدَّمَتْ بِلَادُ الْغَرْبِ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِذَكَاءٍ فِي عُقُولِ أَبْنَائِهَا، وَلَا بِفَسَادِ أَخْلَاقِهَا وَأَعْرَاضِهَا، وَلَا بِتَحَرُّرِ نِسَائِهَا؛ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ وَالتَّغْرِيبِ مِنْ دُعَاةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَلَكِنَّهَا تَقَدَّمَتْ بِأَنْظِمَةٍ صَارِمَةٍ تُجَاهَ الْغِشِّ وَالرِّشْوَةِ وَجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ الْإِدَارِيِّ وَالْمَالِيِّ، لَا مُحَابَاةَ فِيهَا لِأَحَدٍ، وَيُؤَاخَذُ بِهَا الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

وَلَا سَبِيلَ لِنَجَاةِ الْفَرْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِمُرَاقَبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ الْخَوْفِ مِنَ الْجِهَاتِ الرِّقَابِيَّةِ، وَلَا سَبِيلَ لِنَهْضَةِ الْأُمَّةِ وَتَقَدُّمِهَا، وَانْتِشَالِهَا مِنَ الْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ إِلَّا بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَاسْتِعْمَالِ الْأَمِينِ، وَإِقْصَاءِ الْخَائِنِ، وَمُكَافَأَةِ الْمُحْسِنِ، وَمُعَاقَبَةِ الْمُسِيءِ،

وَمُحَاسَبَةِ المُقَصِّرِ، وَعَدَمِ مُحَابَاةِ أَحَدٍ فِي ذَلِكَ، كَبِيرًا كَانَ أَمْ صَغِيرًا، وَإِلَّا كَانَ المَزِيدُ مِنَ التَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ وَالذُّلِّ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَلَنْ يَكُونَ حَالُ المُسْلِمِينَ إِلَّا كَحَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ: إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَرَاقِبُوهُ فِي وَظَائِفِكُمْ وَمَكَاتِبِكُمْ؛ فَإِنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَمُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨].

فَأَعِدُّوا لِمَا سَتُسْأَلُونَ عَنْهُ جَوَابًا، وَإِنَّكُمْ لَمَسْئُولُونَ عَنْ أَمْوَالِكُمْ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتُمُوهَا، وَأَيْنَ أَنْفَقْتُمُوهَا، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ تَخَوَّضُوا فِي المَالِ الْحَرَامِ كَمْ جَمَعُوا؟ فَإِنَّهُمْ زَائِلُونَ عَنْ جَمْعِهِمْ! وَأَمْوَالُهُمْ تُثْقِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظُهُورَهُمْ، وَمَنِ اغْتَصَبَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ(١٥)، فَاحْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا!

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

(١٥) كما في حديث عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ ظَلَمَ قَيد شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ طوِّقه مِنْ سَبْعِ أرضِين» أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٢٤٥٣) ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢).

٣٠٦- بين المصلحين والمفسدين (١)
بركة المصلحين

٢٢/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الإِنْسَانَ وَكَلَّفَهُ، وَجَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَاهُ النَّجْدَيْنِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ؛ فَقَدْ هَدَانَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَدَلَّنَا عَلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَجَعَلَ الجَزَاءَ عَلَيْهِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظُمَ سُلْطَانُهُ وَقَهْرُهُ؛ فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَكُلُّ الوُجُودِ تَحْتَ حُكْمِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَبِّهِ وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ؛ شُكْرًا لِخَالِقِهِ، وَمَحَبَّةً لَهُ، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَرَجَاءً لِرَحْمَتِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَعَلَى التَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ لَنَا وَلِلْأُمَمِ قَبْلَنَا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا يَعْلُو أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ، وَتَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَصْحَابِ الضَّلَالَةِ عَلَى أَتْبَاعِ الهُدَى، وَيُدَالُ لِجُنْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى عِبَادِ الرَّحْمَنِ؛ فَإِنَّ المَفَاهِيمَ تَنْقَلِبُ، وَتَنْتَكِسُ المَوَازِينُ، وَيَكُونُ الحُكْمُ عَلَى الأَشْيَاءِ بِمِيزَانِ

الْقُوَّةِ، لَا بِمِيزَانِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالحَقِّ وَالْعَدْلِ، كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْبَشَرِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ شَهَوَاتُ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ، فَرْدًا كَانَ أَمْ دَوْلَةً أَمْ أُمَّةً، وَعَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ الْخُضُوعُ لِهَذَا الْقَانُونِ الْجَائِرِ مَهْمَا كَانَ مُوغِلًا فِي الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ، وَلَوْ كَانَ مُغْرِقًا فِي الشُّذُوذِ وَالْجُنُونِ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أُمَّةً مُخْتَلِفَةً مُتَفَرِّقَةً مُسْتَبَاحَةً مُسْتَضَامَةً؛ فَإِنَّ أَهْلَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ؛ هُمْ مَنْ يُقَرِّرُ مِيزَانَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُمَيِّزُ الْمُصْلِحَ مِنَ الْمُفْسِدِ. بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْحُكْمِ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْجَرَاءَةِ عَلَى نَقْدِهَا وَرَدِّهَا، وَبَيَانِ مَا يَصْلُحُ مِنْهَا وَمَا لَا يَصْلُحُ، وَإِلْزَامِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا حَكَمَتْ بِهِ أَهْوَاؤُهُمُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَعُقُولُهُمُ السَّقِيمَةُ، تَحْتَ مُسَمَّيَاتِ الْإِصْلَاحِ وَنَشْرِ الْحُرِّيَّةِ، وَضِمْنَ مَشَارِيعِ مَسْخِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَبْدِيلِهَا؛ لِتُوَافِقَ الْمَشَارِيعَ اللِّيبْرَالِيَّةَ الَّتِي يُرَادُ لَهَا أَنْ تَسُودَ الأَرْضَ كُلَّهَا، وَأَنْ يُقْضَى بِهَا عَلَى كُلِّ الْمَنَاهِجِ وَالشَّرَائِعِ، رَبَّانِيَّةً كَانَتْ أَمْ وَضْعِيَّةً.

وَمَا اخْتِرَاعُ إِمَامَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ تَؤُمُّهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي كَنِيسَةٍ مِنَ الْكَنَائِسِ، وَعَلَى حَالٍ مِنَ الِاخْتِلَاطِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَكَشْفِ الْعَوْرَاتِ[1]، إِلَّا جُزْءٌ مِنْ

---

(١) هذا إشارة لما قامت به امرأة أمريكية في الجمعة الماضية في سابقة هي الأولى من نوعها؛ إذ أمت المصلين في صلاة الجمعة الماضية ٨/ صفر/ ١٤٢٦ الموافق ١٨/ مارس/ ٢٠٠٥، وكانت صلاة اختلط فيها النساء بالرجال وهن متكشفات، وكثير منهن متبرجات حاسرات الرؤوس، وقد لبس بعضهن بناطيل الجينز!!
وقد نظمت تلك الصلاة منظمة تدعى (جولة حرية المرأة المسلمة) والموقع الالكتروني (صحوة الإسلام).
وقامت الدكتورة أمينة ودود أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة (فيرجينيا كومنولث) الأمريكية بإلقاء خطبة الجمعة وإمامة الصلاة.
وأقيمت هذه الصلاة الشاذة وسط إجراءات أمن مشددة بكنيسة (سينود هاوس) التابعة =

. . . .

= لإحدى الكاتدرائيات بمدينة (مانهاتن) الأمريكية، بسبب أن المساجد رفضت استضافة هؤلاء المفسدين لإقامة صلاتهم.
وهذه عادة الغرب: حماية المشغبين على الإسلام، المحرفين لشريعته، ولو أن امرأة رشحت نفسها لتكون بابا الفاتيكان لقامت الدنيا ولم تقعد في الغرب المتحضر الذي يزعم حفظ الحقوق ونشر الحرية، وهو لا يحفظ هذه الحقوق المزعومة إلا إذا كانت لمنحرفين يطعنون في الإسلام فحسب.
وقالت إمامتهم ودود في مؤتمر صحفي قبل الصلاة: لا أريد أن أغير من طبيعة المساجد. أريد أن أشجع قلوب المسلمين على الإيمان بأنهم متساوون. مضيفة: أنها تتمنى المساعدة في إزالة القيود المصطنعة والمزعجة التي تستهدف المرأة المسلمة حسب زعمها.
وقالت ودود: إن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة أمر مهم في الإسلام، وقد استعمل المسلمون -وللأسف- تفسيرات تاريخية متشددة للعودة إلى الوراء.
ولهذه المبتدعة كتاب بعنوان (القرآن والمرأة) تناولت فيه قراءة للنصوص القرآنية من خلال وجهة نظر نسائية حسب زعمها، تناولت فيه حق المرأة في إمامة المسلمين، وترى ودود أن عدم إعطاء المرأة المسلمة هذا الحق هو أمر خاطئ متجذر داخل المجتمعات الإسلامية، دون أن يقوم أحد بمحاولات جادة لتصويبه.
وتزعم هذه الضالة عن الحق أنه من خلال الأبحاث التي قامت بها: لا يوجد في سلوكيات النبي محمد ﷺ ما يمنع أن تؤم المرأة المسلمين رجالًا ونساء، وتؤكد في كتابها أن الرسول الكريم وافق على إمامة المرأة المسلمة، وعدم إعطائها هذا الحق جعلها تفقد مكانتها كقائدة روحية وفكرية.
وستطالب د. ودود بحق النساء المسلمات في المساواة مع الرجال في التكاليف الدينية كحق المرأة في الإمامة، وعدم ضرورة أن يصلي النساء في صفوف خلفية وراء الرجال، باعتبار أن هذا الأمر هو ناتج عن عادات وتقاليد بالية، وليس من الدين في شيء.
وتأتي هذه الخطوة التي تقوم بها هذه المرأة وأمثالها برعاية ودعم جماعات أمريكية منحرفة تدعو إلى تحرير المرأة المسلمة من أحكام الإسلام؛ لتصبح مثل المرأة الغربية سواء بسواء، وتقوم بتنظيم مسيرات وفعاليات عديدة لإفساد المرأة زاعمين المطالبة بحقوقها، وهي في واقع الأمر حقوق اخترعوها لتطويع الإسلام للنظم الليبرالية الغربية.
وقد شهدت هذه الصلاة الشاذة شذوذات كثيرة منها: أن المؤذن كان امرأة وكانت =

. . . .

= بلا حجاب ولا حتى شيء يغطي شعرها!! والتصق الرجال بالنساء في الاصطفاف للصلاة، وهن بلا حجاب أيضًا بل حاسرات الرؤوس، وقد لبسن الألبسة الضيقة كبناطيل الجينز وغيرها.
ومن أعظم المنكر الذي قامت به هذه الخطيبة المنحرفة: إشارتها أثناء الخطبة إلى لفظ الجلالة (الله) بضمير المذكر والمؤنث وغير العاقل بالإنجليزية، بحجة أن الله الدائم يستعصي على التعريف من حيث النوع، تعالى الله عن فعلها وقولها علوًّا كبيرًا!
وبعد أن أنهت خطبتها قامت لتؤم المصلين الذين وقفوا نساء ورجالًا في نفس الصفوف، وكان أغلبية الصف الأول من النساء وأدى هذه الصلاة الباطلة خلف هذه المنحرفة نحو (١٥٠) مصليًا (٦٠) منهم من النساء والباقي من الرجال والأطفال.
وقد أجرت قناة الجزيرة لقاء مع د.آمنة ودود قالت فيه: أنا لست فقيهًا ولا أقوم بأعمال الفقه، ولكنني أقرأ في كتب الفقه، وقرأت الكثير منها في الأسبوعين الماضيين، ربما أكثر من أي وقت مضى من قبل، وتخصصي الرئيسي في الحقيقة هو في التفسير ... أنا أشجع وأروج لفكرة مفادها: إن الحاجة للإصلاح في القانون الإسلامي لا يمكن أن يحدث ما لم ننجح، وأيضًا نحن ننجح في جعل المزيد أو وضع المزيد من الدراسات المفصلة والمعمقة والتحليل المفصل للقرآن نفسه، إذن هذا هو نقطة تركيزي الرئيسية وليس تركيزي على الفقه؛ لأن الفقه ليس في الحقيقة جزء من سُنة الرسول ﷺ، فالرسول لم ينتم إلى مذهب، أنا أنتمي إلى نفس المذهب الذي ينتمي إليه الرسول ... ونحن محظوظون الآن في استمرارنا في بحثنا وفي تحليلنا لماهية معاني القرآن الكريم، وأيضًا في القرن الحادي والعشرين إحدى القضايا التي دخلت مع بداية هذا القرن الجديد كانت مسألة الوعي بأننا لا نملك سجلًا للمرأة، وهو كيفية استجابتها لمعاني القرآن الكريم، إذن رسالتي لو أننا استطعنا أن نوسع من نطاق فهمنا للقرآن الكريم علينا أن نوسع من اهتمام علمائنا ليُضمِنوا النساء بشكل متساو مع الرجال، بحيث تتوافر لهن علوم القرآن والمهارات اللازمة لكي يتقصوا المعاني التي تمشي جنبًا إلى جنب مع النصوص ومعانيها.
وقالت أيضًا: أنا سأقف أمام المصلين إن شاء الله، وسنصلي إن شاء الله تعالى حسب أفضل ما يتوفر لي من فهم أعكسه.. المبدأ التوحيدي القائل، والذي على أساسه تتوحد كل الكائنات البشرية على أساس من المساواة الروحية، ومع القدرة الكامنة للوصول إلى أهداف أسمى وأعلى، وأن يحصلوا أيضًا على المزيد من الفوائد المادية أيضًا. =

. . . .

= وسألها المذيع حافظ الميرازي فقال: دكتورة آمنة: هل اللحظة غير مناسبة والمكان غير مناسب؟

فأجابت: أولًا أنا لم أختر هذا الوقت، أنا وُجِّهت إلى الدعوة كضيفة وقبلتُها، وأيضًا قبلت دعوة قبل أكثر من عشر سنوات لأكون خطيبة في بلد آخر في جنوب أفريقيا، وصليت مع الرجال والنساء جنبًا إلى جنب، وصليت وراء نساء كن يؤمن رجالًا ونساء. إذن هذه ليست بالضرورة قضية جديدة مثيرة للجدل، هذه قضية مستمرة وهي مبعث قلق واهتمام، ولو لم نجعل قضية الهوية الروحية الكاملة والخلافة للمرأة المسلمة بشكل كامل لن نكون قد وضعنا هذا في مصافه الصحيح، ونكون قد خذلنا المرأة كما فعلنا في جزء كبير من تاريخنا.

وكانت امرأة أخرى مفسدة تدعى (إسراء النعماني) وهي كاتبة وصحفية سابقة بصحيفة (وول ستريت جورنال)، وهي أيضًا من منظمي هذه الصلاة الشاذة دخلت مسجدًا بمنطقة (مورجانتاون) بولاية (وست فرجينيا) من الباب الأمامي المخصص للرجال داعية بذلك إلى اختلاط الجنسين، رافضة الفصل بينهما بتخصيص باب للرجال وآخر للنساء وقالت معقبة على فعلها الشنيع: اليوم تنتقل النساء المسلمات من خلفية المسجد إلى الأمام، إنه حدث تاريخي.

وهذه المفسدة تترأس جمعية (جولة الحرية للنساء المسلمات) تتبنى الدعوة إلى إمامة المرأة للرجال في الصلاة متحدية إجماع علماء المسلمين على عدم مشروعية ما تدعو إليه هي وسابقتها.

وقالت: إنها ستؤم المصلين في صلاة الجمعة القادمة في ولاية بوسطن، على الرغم من رفض الأوساط الفقهية والشرعية هذا العمل البدعي.

وكانت نعماني، مؤلفة كتاب سيصدر قريبًا حول المرأة في الإسلام، قد أمَّت المسلمين في إحدى الصلوات يوم الأربعاء، وفق ما ذكرته وكالة رويترز للأنباء، لتصبح ثاني امرأة تقوم بهذا العمل المخالف لأحكام الشريعة الإسلامية.

وأضافت نعماني بأنها ستنظم صلوات مختلطة أخرى في مختلف الولايات الأمريكية، ومن بينها سان فرانسيسكو وواشنطن، وأكدت أنها لن تقبل بالأفكار التي أجمع عليها علماء الأمة الإسلامية، مدعية اعتقادها بشرعية وصحة ما تقوم به.

وقالت في مقابلة بثتها قناة الجزيرة القطرية: شكرًا جزيلًا لإتاحة الفرصة لي، ويشرفني =

. . . .

= أن أتحدث إليكم وإلى مشاهديكم؛ لنعلم أين هي الأزمة في العالم الإسلامي، والأمر متروك للنساء والمعتدلين ليعيدوا الدين من الذين استحوذوا عليه باسم التطرف، حقوق المرأة جانب حيوي من العالم الإسلامي وفي الولايات المتحدة -وبصفتنا نساء مسلمات- نحن نطالب بحقوقنا ضمن الإسلام، وأن نقف في مساجدنا، وأن ندخل من الأبواب الرئيسية، وغدًا سوف نستعيد حقنا في إمامة الصلاة، الدكتورة آمنه ودود امرأة قوية وشجاعة ألهمتني لأتعلم التعاليم الحقيقية ...

وهذه المنحرفة ابنة لمهاجر هندي يدعى ظفر نعماني وصل إلى (مورجان تاون) قبل حوالي ربع قرن، وكان يرتاد مسجدًا فيها، لكن المسجد لفت اهتمام وسائل الإعلام عندما نظمت نساء بزعامة ابنته المنحرفة إسراء مسيرة في العام الماضي لتحدي إدارة المسجد التي كانت تمنعهن من استخدام الباب الأمامي المخصص للرجال.

وفي كتابها لا تخجل من مفاخرتها بالزنا وإنجابها ولدًا سفاحًا، وتذكر هذه المنحلة كيف أن والديها المسلمين لم يتخليا عن دعمها حتى مع ابنها الذي أنجبته من دون زواج.

وقال والدها ظفر نعماني: إنه حفيدي، إنه طفل جميل ورائع، أقضي معه أوقات جميلة أستمتع بها كثيرًا.

فإذا كان هذا حال هذا الرجل وابنته يرضيان بالزنا، ويعترفان بولد السفاح ابنًا وحفيدًا لهما بلا حياء ولا إعلان توبة أو ندم من هذه الكبيرة، فلا يستغرب عليهما أي انحراف آخر! نسأل الله تعالى الهداية والموافاة على الإيمان والسنة.

والمنحرفون من الليبراليين والعقلانيين العرب يعجبهم مثل هذا التلاعب بالشريعة، ويعدونه تطويرًا للإسلام، وتقريبًا له من الحضارة الغربية والأمريكية على وجه الخصوص، وهم أشد إخلاصًا لها من قومها الأصليين! نسأل الله تعالى العافية. وكما عودونا فقد سنّوا أقلامهم للدفاع عن هاتين المرأتين المنحرفتين، واستخرج بعضهم حديثًا ضعيفًا للاستدلال به على هذا الشذوذ.

ورغم أنهم يردون الأحاديث الصحيحة الصريحة التي أجمعت الأمة على الأخذ بها في كثير من القضايا؛ كأحاديث تحريم الخلوة بالأجنبية، واشتراط المحرم للمرأة في السفر، وغيرها من الأحاديث الصحيحة الصريحة في كثير من القضايا التي لا تتفق وأهواءهم؛ فإنهم في هذه القضية يستدلون بحديث ضعيف في سنده، ولو فرض صحة إسناده فإنه لا يدل على ما يريدون، وهذا الحديث هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٠٥) =

. . . .

= قال: حدثنا أبو نعيم قال: ثنا الوليد قال: حدثتني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري، وكانت قد جمعت القرآن، وكان النبي ﷺ قد أمرها أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن، وكانت تؤم أهل دارها. ورواه أبو داود (٥٩٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢٣٨١)، وابن خزيمة (١٦٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٦٣)، والدارقطني (١/ ٤٠٣)، والطبراني في الكبير(٢٥/ ١٣٤) برقم (٣٢٦)، والبيهقي (٣/ ١٣٠).
وهو حديث ضعيف؛ فجدة الوليد بن عبد الله بن جميع مجهولة. ينظر: التلخيص الحبير(٢/ ٢٧) ونقل الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٣١) عن ابن القطان قوله: الوليد بن جميع وعبد الرحمن بن خلاد لا يعرف حالهما.
وقد نقل الشوكاني في نيل الأوطار (٣ / ١٨٧) عن الدارقطني: «إنما أذن لها أن تؤم نساء أهل دارها».
قال ابن قدامة في المغني (٢/ ١٦): «وحديث أم ورقة إنما أذن لها أن تؤم نساء أهل دارها. كذلك رواه الدارقطني، وهذه زيادة يجب قبولها ولو لم يذكر ذلك؛ لتعين حمل الخبر عليه؛ لأنه أذن لها أن تؤم في الفرائض بدليل أنه جعل لها مؤذنًا، والأذان إنما يشرع في الفرائض، ولا خلاف في أنها لا تؤمهم في الفرائض؛ ولأن تخصيص ذلك بالتراويح واشتراط تأخرها تحكم يخالف الأصول بغير دليل فلا يجوز المصير إليه، ولو قدر ثبوت ذلك لأم ورقة لكان خاصًا لها، بدليل أنه لا يشرع لغيرها من النساء أذان ولا إقامة فتختص بالإمامة لاختصاصها بالأذان والإقامة» انتهى.
قلت: هذه الزيادة التي ذكرها ابن قدامة والشوكاني عن الدارقطني كاشفة تثبت أن إمامتها للنساء دون الرجال، فإن كانت هذه الزيادة محفوظة لم يكن فيه حجة لمن يجيز إمامة المرأة للرجال، وإن لم تثبت هذه الزيادة فلم يثبت أيضًا أن مؤذن أم ورقة كان يصلي معها مقتديًا بها في أي رواية من الروايات، ومن قال بخلاف ذلك فليسق الرواية الدالة على ما يريد، فيحتمل أن خادمها يؤذن ثم يذهب إلى المسجد فيصلي مع الناس؛ لأن الرجال مأمورون بصلاة الجماعة التي لم يأذن النبي ﷺ للأعمى بأن يتخلف عنها. وهذا يكفي في الجزم بأنها إنما كانت تؤم نساء أهل بيتها، فإن قيل: يحتمل أن من أهل بيتها رجال تؤمهم، قيل: هذا الاحتمال يسقط الاستدلال بهذا الدليل، على أن ضعف الحديث كاف في الرد على من استدل به. والله أعلم. =

. . . .

= والأدلة على عدم جواز إمامة المرأة للرجال كثيرة جدًّا، منها:
١- قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].
فجعل الله تبارك وتعالى القوامة للرجال ولم يجعلها للنساء، والولاية من القوامة، وإمامة الصلاة نوع ولاية، بل هي الولاية الصغرى عند الفقهاء، فلا تتولاها المرأة على الرجال.
٢- حديث أبي بكرة ﷺ قال: «لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي ﷺ أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى قال: **لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» رواه البخاري (٦٦٨٦).
فنفى النبي ﷺ الفلاح عمن تولى أمورهم امرأة، والصلاة أمر من هذه الأمور، بل هي من أعظم الأمور، ونفي الفلاح يقتضي التحريم، فلا تتولى الإمامة فيها النساء.
وكثير ممن لم يعجبهم هذا الحديث ممن فتنوا بالحضارة المعاصرة التي تساوي بين الرجل والمرأة في كل شيء شرقوا به:
أ- فمنهم مَنْ رَدَّهُ جملة وتفصيلًا.
ب- ومنهم مَنْ خَصَّهُ بِزَمَن النبوة قبل أن تتعلم المرأة، زعموا.
ت- ومنهم من خَصَّه بقوم فارس، مع أن سياق الحديث يفيد العموم في الزمان والمكان، فالنبي ﷺ لما بلغه خبر فارس ما قال: لن يفلحوا، بل عمم ذلك في كل قوم، وليس ذلك في زمان دون زمان، أو أحوال دون أحوال؛ لأن الذي أخبر بذلك لا ينطق عن الهوى، وأقره الله سبحانه على ذلك مع علمه ﷺ بتغير أحوال البشر.
هذا إذا سلم أن ذلك الزمان ليس فيه نساء متعلمات وهو غير مُسَلَّم؛ فعائشة ﵂ كانت تحوي علمًا كثيرًا، ويرجع إليها في العلم كبار الصحابة ﷺ كما هو معلوم من سيرتهم ﷺ.
٣- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلها وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلهَا**» رواه مسلم (٤٤٠).
فهذا الحديث نص في تأخر النساء عن الرجال، وقد جعل الخيرية في ابتعادهن عن الرجال، وجعل الشر في مقاربة صفوفهن صفوف الرجال، فكيف إذن يجوز أن تتقدم المرأة عليهم، وتكون أمامهم إمامة لهم؟! هذا أفسد ما يكون حكمًا وتعطيلًا لهذا الحديث.
ويتأكد ذلك بقول أَنَس ﷺ: «صليت أنا ويتيم في بيتنا خلف النبي ﷺ وأمي أم سليم خلفنا» رواه البخاري (٦٩٤).
فالحديث نص على أن المرأة لا تصافف الرجل ولو كان ابنها، ولو كان صغيرًا .. فكيف =

. . . .

= إذن تؤم الرجال وتتقدَّم عليهم؟ ومع أن الرجل لا يجوز له أن يصلي منفردًا خلف الصف، فإن ذلك سائغ شرعًا في حق المرأة؛ لئلا تخالط الرجل، وقد بوب البخاري -رحمه الله تعالى- على ذلك في صحيحه (١/ ٢٥٥) فقال: باب المرأة وحدها تكون صفًّا.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٢/ ٢١٢) تعليقًا على حديث أنس وقصة صلاته وأمه مع النبي ﷺ: فيه أن المرأة لا تصف مع الرجال، وأصله ما يخشى من الافتتان بها.

٤- حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

ومعلوم أنَّ الذي عليه أمر النبي ﷺ أنَّ الرجل هو الذي يؤم الرجل والمرأة، واستمر العمل على ذلك في سائر العصور والأمصار الإسلامية، ولم تُنقل حادثة واحدة بخلاف ذلك، إلى أن أحدث هؤلاء بدعتهم النكراء، فإحداثهم لذلك بدعة في الإسلام، وكل بدعة ضلالة، وهي مردودة على صاحبها، وهذا يقتضي بطلان ذلك؛ لأن الأمر المردود ما ردَّ إلا لبطلانه.

٥- ما رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٤٥) معلقًا مجزومًا به: أن عائشة ﵂ كان يؤمها عبدها ذكوان من المصحف، ووصله ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٢٣) ولفظه: عن أبي بكر بن أبي مليكة أن عائشة أعتقت غلامًا لها عن دبر، فكان يؤمها في رمضان في المصحف. وصححه الحافظ في تغليق التعليق (٢/ ٢٩١).

٦- وعلى جلالة عائشة ﵂، ومكانتها في العلم والفضل، وهي وعاء من أوعية علم هذه الأمة الخاتمة، ورغم محلها من النبي ﷺ؛ فإنها لم تتقدم على عبدها في الصلاة، بل كانت تابعة له، رغم أنه غير حافظ للقرآن فيما يظهر من الأثر، وهذا كان في صلاة التراويح وهي نافلة، فكيف بمن أمَّتِ الرجال في الفريضة وهي دون عائشة ﵂، وفي صلاة الجمعة التي لم يوجبها الله تعالى إلا على الرجال دون النساء؟!

٧- أن الشريعة الغراء جاءت بسد كل الذرائع المفضية إلى اختلاط المرأة بالرجال، وحرمت نظر الرجل للمرأة، وأمرت كلا الجنسين بالغض من أبصارهم، وألزمت المرأة بالحجاب، وشرعت آداب الاستئذان وكيفية الدخول في البيوت، والنظر للمخطوبة، وغير ذلك من التشريعات التي تحسم مادة الفساد والانحلال. واعتلاء المرأة المنبر أمام الرجال، ثم تقدمها بين أيديهم لإمامتهم ينافي تلك التشريعات، ويبطل هذه الأحكام =

. . . .

= الربانية التي شرعها اللطيف الخبير بعباده، العليم بما يصلحهم وما يصلح لهم، والمعروف أن الخطيب إذا قام في الناس توجهت إليه الأبصار، فذلك أدعى للإنصات ومتابعة ما يقول، والرجل مأمور بغض بصره عن المرأة، فكيف يكون هذا التناقض؟!
٨- ما ثبت في الشريعة من وجوب الخشوع في الصلاة، والبعد عن كل ما يلهي المصلي فيها من لباس أو غيره، وفي إمامة المرأة للرجال وركوعها وسجودها أمامهم أعظم الإلهاء في الصلاة، بتحجيم عورتها، وإبداء محاسنها في الركوع والسجود، وهو سبب لعدم الخشوع، وسبيل لانحراف المصلين عن صلاتهم إلى شهواتهم. نسأل الله تعالى العافية والسلامة من ذلك.
وكل من له مسكة عقل، وعنده أدنى معرفة بالشريعة، وله فطرة سليمة؛ فإنه يستبشع هذا العمل المشين من هاتين المرأتين، ومن أيدهما في انحرافهما.
إنكار الأمة هذا العمل الشنيع:
استنكر المسلمون هذا العمل الشنيع من هاتين المرأتين المجترئتين على الله تعالى وعلى شريعته، وصدرت بيانات كثيرة، منها:
البيان الأول: صادر عن مجمع الفقه الإسلامي، ونصه:
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
إن الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بجدة المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي تعبر باسم علماء الأمة الإسلامية وفقهائها عن استنكارها وأسفها على ظهور بدعة مضلة وفتنة قائمة تمثلت في تقدم امرأة لأول مرة لإمامة جماعة من المصلين في صلاة جمعة بكاتدرائية مسيحية في مدينة مانهاتن، وفي هذا مخالفة لأحكام الشريعة من وجوه: تولي المرأة خطبة الجمعة وإمامتها للرجال في صلاتها ووقوف الرجال والنساء متجاورين مختلطين في كاتدرائية مسيحية، وهى أمور تخالف ما عليه اتفاق جمهور علماء الإسلام وفقهائه المعتمدين، وقد يكون المقيمون لهذه الصلاة على هذا الوجه معتمدين على أقوال ضعيفة أو غير معتمدة وردت في بعض الكتب الفقهية.
والمعتبر عند فقهاء الإسلام أن الجمعة فرض على الرجال دون النساء، فهم الذين يقيمونها خطبة وصلاة. والمرأة يجوز لها الحضور استحبابًا لا فرضًا، فكيف يسوغ لها أن تتقدم على من هو أحق منها بأدائها؟! كما أن من المعلوم أن تقدم المرأة على الرجل في =

. . . .

= الصف مما يبطل صلاة الرجل فكيف تؤمه؟! وقد بين رسول الله ﷺ أماكن وقوف النساء في الصفوف في حديث رواه أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجالِ أولها وشَرُّهَا آخِرُهَا، وخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُها**» رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمي.

وأن من شروط إقامة الجمعة عند الفقهاء أن تكون في مسجد جامع فضلًا عن إقامتها في غيره، فكيف تصح في كنيسة أو كاتدرائية مع وجود المساجد؟ وبناء على ما سَبَقَ فإن هذه الصلاة غير مستوفية للشروط، وعَلَى مَنْ أَدَّاها أن يعيدها ظهرًا قضاء.

والمجمع إذ يستنكر هذا الحدث، ويحث المسلمين كافة على التمسك بأحكام الدين الإسلامي المستمدة من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ويدعو الباحثين إلى الرجوع إلى أهل الدين المعتمدين فيما يعرض لهم من مشاكل وقضايا، محذرًا إياهم من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين المبطلة لأحكام الشرع وأدلته، إما بالطعن في ألفاظها أو أسانيدها أو بالعمل على تأويل معانيها الأصلية الثابتة بين الناس وبإجماع الأمة من عهده عليه الصلاة والسلام، ومن بعده بين الصحابة والتابعين، إلى أن انتهى الأمر للائمة المجتهدين.

والرسول ﷺ هو المبلغ والداعي إلى تحكيم الشرع بما صدر عنه من أوامر ونواه وإقرارات، وأن الدين وبخاصة في العبادات لا يجوز أن يتصرف فيه؛ لأن التوجيه فيها ينبغي أن يقصد به وجه الله، والامتثال له فيما أمر به ولكن طائفة من المبطلين ترمي إلى تحقيق مصالح خاصة على حساب المبادئ الإسلامية السامية، وتروم عقلنة الشريعة وإخراج الدين الإسلامي من كونه إلهيًّا إلى دين طبيعي قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الناس على مذهبين لا ثالث لهما: مذهب الملتزمين بالشريعة التي تلقوها عن الله، ومذهب المنحرفين الذين يحكمون بأهوائهم وبما لا يعلمون، منحرفين عن شريعة الله وأحكام دينه.

وينبه المجمع كل مسلم عاقل يقدم على الاجتهاد في الدين أن يعرف قدره، وألا يتعدى طوره، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ويذكر المجمع سائر المسلمين بأن الحقوق والواجبات والتكاليف المتنوعة المرتبطة =

. . . .

= بالنساء والرجال قد قضى الله بها، وليس لأحد من الناس التصرف فيها أو التأويل لها. ولقد خص سبحانه كل جنس من الجنسين الرجال والنساء بما هو محتاج إليه ومفتقر له، فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وفي هذا دليل على أن المنهج الإسلامي يتبع الفطرة، وقد أودع سبحانه كل واحد من الجنسين خصائص يتميز بها عن الآخر، فتناط على وفقها الأحكام والوظائف المناسبة للشخص رجلًا كان أو امرأة، وبهذا تبطل أسباب الخصام والتنازع على أعراض الدنيا.

فلا وجه للحملة على الرجال ولا على النساء، ولا وجه لمحاولة النيل من أحدهم، كما لا مكان للطعن بأن التنوع في التكوين والخصائص لا يقابله تنوع في التكليف والوظائف، وكل هذه التصورات التي قدمنا عبث وسوء فهم للمنهج الإسلامي ولإرادة تحقيق وظيفة كل واحد من الجنسين، فالله الأعلم بما خلق، وهو الأعرف بمصالح الناس، وهو وليهم في الأمر كله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

البيان الثاني: **من مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ونصه ما يلي**:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد: فقد ورد إلى مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا استفسار حول مدى مشروعية إمامة المرأة لصلاة الجمعة وإلقائها لخطبتها، وذلك بمناسبة ما أعلن عنه مؤخرًا من اعتزام بعض النساء على إلقاء خطبة الجمعة وإمامة صلاتها بأحد مساجد نيويورك. والمجمع إذ يستنكر هذا الموقف البدعي الضال ويستبشعه فإنه يقرر للأمة الحقائق التالية:

أولًا: أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الكتاب والسنة، وقد قال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»، وأن الإجماع على فهم نص من النصوص حجة دامغة تقطع الشغب في دلالته، فقد عصم الله مجموع هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة، وأن من عدل عن ما أجمع عليه المسلمون عبر القرون كان مفتتحًا لباب ضلالة، متبعًا لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ في معرض بيانه للفرقة الناجية في زحام الفرق الهالكة: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

ثانيًا: لقد انعقد إجماع الأمة في المشارق والمغارب على أنه لا مدخل للنساء في خطبة الجمعة ولا في إمامة صلاتها، وأن من شارك في ذلك فصلاته باطلة إمامًا كان =

. . . .

= أو مأمومًا، فلم يسطر في كتاب من كتب المسلمين على مدى هذه القرون المتعاقبة من تاريخ الإسلام فيما نعلم قول فقيه واحد: سني أو شيعي، حنفي أو مالكي أو شافعي أو حنبلي يجيز للمرأة خطبة الجمعة أو إمامة صلاتها، فهو قول محدث من جميع الوجوه، باطل في جميع المذاهب المتبوعة، السنية والبدعية على حد سواء!

ثالثًا: لقد علم بالضرورة من دين الإسلام أن سنة النساء في الصلاة التأخير عن الرجال، فخير صفوف الرجال أولها وخير صفوف النساء آخرها، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلها وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلها**» وما ذلك إلا صيانة لهن من الفتنة، وقطعًا لذريعة الافتتان بهن من جميع الوجوه، فكيف يجوز لهن صعود المنابر والتقدم لإمامة الرجال في المحافل العامة؟!

رابعًا: لم يثبت أن امرأة واحدة عبر التاريخ الإسلامي قد أقدمت على هذا الفعل، أو طالبت به على مدى هذه العصور المتعاقبة من عمر الإسلام، لا في عصر النبوة، ولا في عصر الخلفاء الراشدين، ولا في عصر التابعين، ولا فيما تلا ذلك من العصور، وإن ذلك ليؤكد تأكيدًا قاطعًا على ضلال هذا المسلك وبدعية من دعا إليه أو أعان عليه. ولو كان شيئًا من ذلك جائزًا لكان أولى الناس به أمهات المؤمنين، وقد كان منهن الفقيهات النابغات، وعن بعضهن نقل كثير من الدين، وحسبك بالفصيحة البليغة العالمة النابهة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة ﷺ، ولو كان في ذلك خير لسبقونا إليه وسنّوا لنا سنة الاقتداء به.

لقد عرف تاريخ الإسلام فقيهات نابغات ومحدثات ثقات أعلام، وقد أبلى النساء في ذلك بلاء حسنًا، وعرفن بالصدق والأمانة حتى قال الحافظ الذهبي: (لم يؤثر عن امرأة أنها كذبت في الحديث)، ويقول ﷺ: (وما علمت من النساء مَنِ اتُّهِمَتْ ولا من تركوها) (ميزان الاعتدال: ٤/ ٦٠٤) وحتى كان من شيوخ الحافظ ابن عساكر بضع وثمانون من النساء! ومثله الإمام أبو مسلم الفراهيدي المحدث الذي كتب عن سبعين امرأة، ومن النساء في تاريخ هذه الأمة من كن شيوخًا لمثل الشافعي والبخاري وابن خلكان وابن حيان وغيرهم!! ومع ذلك لم يؤثر عن واحدة منهن أنها تطلعت إلى خطبة الجمعة أو تشوفت إلى إمامة الصلاة فيها، مع ما تفوَّقْن فيه على كثير من الرجال يومئذ من الفقه في الدين والرواية عن النبي ﷺ. لقد عرف تاريخ الإسلام المرأة عاملة على جميع الأصعدة، عرفها عالمة =

. . . .

= وفقيهة، وعرفها مشاركة في العبادات الجماعية، ومشاركة في العمليات الإغاثية، ومشاركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه لم يعرفها خطيبة جمعة ولا إمامة جماعة عامة من الرجال.

وبهذا يعلم بالضرورة والبداهة من دين المسلمين أن الذكورة شرط في خطبة الجمعة وإمامة صلوات الجماعة العامة، وأمام من يجادل في ذلك عمر نوح لكي يفتش في كتب التراث ليخرج لنا شيئًا من ذلك، وهيهات هيهات! وما ينبغي لهم وما يستطيعون!

خامسًا: أما تعويل من زعم ذلك على ما روي من أن أم ورقة قد أذن لها النبي ﷺ في إمامة أهل بيتها؛ فإن هذا الحديث على فرض صحته لا علاقة له بموضوع النازلة، فإنه يتحدث عن إمامة خاصة داخل البيت بالنساء أو بهن وببعض أهل البيت من الرجال على أوسع التفسيرات، وأكثرها ترخصًا، فأين ذلك من خطبة الجمعة والإمامة العامة للصلاة؟!

إن المجمع ليحذر الأمة من الافتتان بمثل هذه الدعوات الضالة المارقة من الدين، والمتبعة لغير سبيل المؤمنين، ويدعوهم إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، ويذكرهم بأن هذا العلم دين، وأن عليهم أن ينظروا عمن يأخذون دينهم، وأن القابض على دينه في هذه الأزمنة كالقابض على الجمر، ويسأل الله لهذه الأمة السلامة من الفتن والعافية من جميع المحن، وأن يحملها في أحمد الأمور عنده وأجملها عاقبة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الأمين العام: د. صلاح الصاوي

ثالثًا: ما جاء على لسان مفتي عام المملكة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ حيث قال: قضية في هذه الأيام يروج لها الإعلام الخارجي، ربما ننظر إليها على أنها ثانوية وهامشية، ولكن إذا سبرنا الوضع وجَدْنَا أنها لإيجاد الفرقة بين أبناء الأمة، وقطْع الصلة بين حاضرها وماضيها، وهذه القضية: ما ينشر بأن هناك فكرة هي: إمامة امرأة لرجال ونساء في صلاة الجمعة.

ومن نظر بتدبر وجد أن أمَّتَنَا منذ عهد محمد ﷺ إلى وقتنا الحاضر لم يجز للمرأة أن تقف خطيبة في الرجال، فهذه القضية ما أُتي بها إلا لإضعاف الحياء في النساء، ولم يريدوا خيرًا بل سوءًا وضلالًا؛ لأن هذا الأمر لم يعهد منذ العصور السابقة. وعلى الرغم من أن البعض اعتبرها قضية خاصة، إلَّا أنه يجب الحذر منها، فالمراد بها تحطيم الحواجز وحياء المرأة، ويكون أعداء الإسلام معول هدم في الأمة الإسلامية ويأبى الله ذلك. =

. . . .

= **رابعًا: ما جاء عن شيخ الأزهر؛ حيث أكد شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي** أن إمامة المرأة للرجال بصفة عامة سواء كانت في صلاة الجمعة أو في الصلوات الخمس المفروضة أو في صلاة النوافل أو في أي صلاة أخرى لا تجوز، وإنما يجوز لها أن تكون إمامة لبنات جنسها من النساء؛ لأن بدن المرأة عورة، وعندما تؤم الرجال ففي هذه الحالة لا يليق بهم أن ينظروا إلى المرأة التي يظهر أمامهم بدنها، فإن ظهر لهم في الحياة العامة فإنه لا يصح أن يوجد في العبادات التي لحمتها الخشوع.

خامسًا: ما جاء عن مفتي مصر السابق الدكتور نصر فريد واصل؛ حيث أكد على أن قيام المرأة بإمامة الرجال في الصلاة غير صحيح، ولا يجوز شرعًا للمرأة إمامة الرجال أو الصبيان، وإنما يجوز لها فقط أن تؤم النساء.

وأضاف: من أدى الصلاة خلف هذه المرأة فصلاته باطلة، فلو أن إمامة المرأة جائزة للرجال في الصلاة لكان أولى بها أمهات المؤمنين، مشيرًا إلى أن ما فعلته الدكتورة أمينة ودود بإمامتها صلاة الجمعة الماضية للرجال والنساء بدعة منكرة؛ لأن حكم إمامة المرأة للرجال شيء معلوم من الدين بالضرورة.

سادسًا: ما صدر عن الشيخ محمد نور عبدالله رئيس الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية، وهي أكبر منظمة إسلامية في الولايات المتحدة وكندا والمكسيك؛ حيث قال تعليقًا على هذا الحدث الشاذ والغريب: قطعًا نحن كمسلمين في أمريكا الشمالية وفي العالم ككل نواجه تحديًا كبيرًا جدًّا، تحديًا حضاريًّا، تحديًا ثقافيًّا، تحديًا دينيًّا، وهذه التحديات تسير في اتجاه واحد هو خلخلة مبادئ الإسلام والأصول الثابتة للإسلام وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة. والمشيعون للتصدي للإسلام لديهم مواقع على الإنترنت يكشفون فيها نواياهم الحقيقية لتغيير الإسلام أو تعديله كما حصل في الأديان الأخرى، في حين أننا كمسلمين لدينا في ديننا ثوابت متينة مصدرها القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وإجماع السلف الصالح، أما ما عدا ذلك فيدخل تحت نطاق الاجتهاد.

ومن خلال اطلاعي على السنة وعلى أقوال الفقهاء لم أجد أنهم أجازوا قيام امرأة بإمامة الناس رجالًا ونساءً في مكان عام.

ثم قال: لو كان في إمامة المرأة للرجال في الصلاة خير أو رفعة وعزة للمرأة، فبدون شك أن أمهات المؤمنين سَيَكُنَّ السباقات إلى ذلك.

إن عائشة رضي الله عنها التي هي فقيهة الأمة أمت النساء فقط في صلاة التراويح، ووقفت في =

مَشْرُوعِ المَسْخِ وَالتَّبْدِيلِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفِ شَرِيعَتِهِ، مَعَ إِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى مُجَافَاةِ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّاذِّ لِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ هَذَا الإِجْمَاعِ إِلَّا شُذَّاذٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ، قَدْ تَدَثَّرُوا بِاللِّيبْرَالِيَّةِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهَا، وَهَتَفُوا بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَهُمْ وَأَسْيَادُهُمْ يَنْحَرُونَهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً. وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ بَغْيَهُمْ وَظُلْمَهُمْ، أَوْ رَدَّ مَنْهَجَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ، فَهُوَ مِحْوَرٌ لِلشَّرِّ، خَارِجٌ عَلَى الْقَانُونِ، مُفْسِدٌ فِي الْأَرْضِ.

= وسط الصف، وكذلك الحال مع أم سلمة ﵂ التي أمت النساء فقط.
والأمر الآخر المهم هو أن صلاتنا تعني الخشوع والخضوع لله ﷻ فكيف يمكن لذلك أن يتم متى كانت امرأة تؤم الرجال، ترجع وتسجد أمامهم؟!! حتى حياء المرأة يمنعها من فعل هذا الشيء، لو سلمنا بأن ذلك جائز، وأنا شخصيًا لا يمكنني تخيل أن والدتي أو أختي ستؤم الرجال الأجانب. وحادثة الدكتورة أمينة ودود لا تخرج عن كونها خلخلة لمبادئ الدين الإسلامي؛ لأن من يقومون بهذا العمل -وقد تكون نواياهم سليمة -إلا أنهم- وبدون قصد- يصبحون أدوات في أيدي أعداء الإسلام الساعين إلى إحداث تغيير أو تبديل في الإسلام. ولذلك فنحن نناشد كل من لديهم ضمير، وكل من لديهم حياء في دينهم أن يتقوا الله في أنفسهم وفي دينهم وفي آخرتهم؛ فالدين الإسلامي ليس مظاهرة أو مسألة صراع بين الرجل والمرأة، الإسلام كرَّم المرأة ومنحها حقوقها كاملة، وهي حقوق لم تمنح للمرأة من قبل، وحتى الآن لم تتمتع المرأة الغربية بالحقوق التي تتمتع بها المرأة المسلمة. وختم حديثه بقوله: علينا أن نؤكد على أن أمامة المرأة للرجال والنساء في الصلاة بإجماع الفقهاء تجعل من صلاتهم صلاة باطلة؛ فالتاريخ الإسلامي لا يتضمن سوى حالة واحدة، وهي حالة الصحابية الجليلة أم ورقة ﵂ التي أمت أهل بيتها ولم تؤم المسلمين، رجالًا ونساءً، في مكان عام سواء في صلاة الجمعة أو غيرها. كانت هذه هي الحالة الوحيدة، ولو كانت حالة أو حالات غيرها لكان قد دَوَّنَها العلماء. ومع الأسف أن هذا الذي نواجهه ما هو إلا تحد جديد يواجهه الإسلام والمسلمون، ونحن المسلمين في أمريكا أصبحنا في فوهة المدفع؛ لأن أمريكا أصبحت لأعداء الإسلام ساحة اختبار، أما الهدف الأساسي لهم فهو تخريب الإسلام في العالم أجمع، ومسخ كل القواعد والمسلمات المتعلِّقة بالإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إِنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِيهِمْ، الْمُبَيِّنُ لِأَحْوَالِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فَمَنْ تبعَ شَرِيعَتَهُ، وَدَعَا إِلَيْهَا، وَدَافَعَ عَنْهَا؛ فَهُوَ الْمُصْلِحُ. وَمَنْ أَنْكَرَهَا، أَوْ تَنَكَّرَ لَهَا، أَوْ حَرَّفَهَا، أَوْ حَادَ عَنْهَا؛ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ مُصْلِحٌ، هَذَا هُوَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ هِيَ إِرَادَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ الْمُطَهَّرِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ ﷺ، وَبِهَذَا الْمِيزَانِ الْعَادِلِ يُوزَنُ النَّاسُ، بَعِيدًا عَنْ تَحْكِيمِ الْأَهْوَاءِ، أَوْ الِاعْتِبَارِ بِالْأَعْرَاقِ وَالْأَنْسَابِ، أَوِ الْإِمْكَانَاتِ وَالْقُوَّةِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَلَكِنَّ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ عَنْ جَهْلٍ أَوْ هَوًى لَا يَرْتَضُونَ هَذَا الْحُكْمَ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا الْمِيزَانِ، وَلَا يَخْتَطُّونَ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ؛ وَلِذَا فَهُمْ يَحْكُمُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَيُرْجِعُونَ مَشَاكِلَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَيَرْمُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ نَقِيصَةٍ، وَيَقْذِفُونَهَا بِكُلِّ خَسِيسَةٍ؛ بَلْ وَيَتَشَاءَمُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ شَرِيعَتِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَلَفُوا فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ حِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧]، وَجَاءَ بَعْدَهُمْ أَقْوَامٌ فَقَالُوا لِرُسُلِهِمْ: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

إِنَّهَا سُنَّةُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ يَرْمُونَ غَيْرَهُمْ بِأَدْوَائِهِمْ، وَيَتَطَيَّرُونَ بِالصَّالِحِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَنَتِيجَةً لِضَخَامَةِ التَّزْوِيرِ وَالْإِفْكِ الَّذِي يَنْشُرُهُ كُفَّارُ هَذَا الزَّمَنِ وَمُنَافِقُوهُ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَيَخُصُّونَ عِبَادَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَخْدُوعِينَ صَدَّقُوا إِفْكَهُمْ، وَانْطَلَى عَلَيْهِمُ افْتِرَاؤُهُمْ، فَظَنُّوا ظَنَّ الْجَاهِلِينَ: ظَنُّوا أَنَّ التَّمَسُّكَ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ سَبَبُ مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا

الْعَصْرِ هُمْ حَمَلَةُ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ وَلِذَا فَهُمْ يَرُومُونَ تَغْيِيرَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَبْدِيلَ شَرِيعَتِهِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِلنَّاسِ كَافَّةً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي الأَرْضِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْهُمْ بِوَجْهٍ أَخَصَّ هُمْ أَهْلُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ عَلَى الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ؛ فَبِعِبَادَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ عَمَّ الْخَيْرُ أَرْجَاءَ الأَرْضِ، وَرُفِعَ بِصَلَاحِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ وَدُعَائِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا رُفِعَ، فَلَيْسُوا مَصْدَرَ شُؤْمٍ وَبَلَاءٍ.

بَلِ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَأَهْلُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ، الْمُحَادُّونَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمُحَارِبُونَ لِأَوْلِيَائِهِ هُمْ أَهْلُ الشُّؤْمِ، وَهُمْ سَبَبُ الْعَذَابِ وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ عَلَى الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، وَيَتَعَدَّى شُؤْمُهُمُ الْبَشَرَ لِيُصِيبَ الْحَيَوَانَ وَالطَّيْرَ وَالْوَحْشَ وَالنَّبَاتَ، بِمَا يُحْبَسُ عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ مِنَ الأَمْطَارِ، وَمَا يُمْنَعُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَبِمَا يَقَعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ مُحَادَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِشَرِيعَتِهِ.

إِنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ يَجِبُ أَنْ يَفْرَحَ النَّاسُ بِكَثْرَتِهِمْ، وَأَنْ يَقْتَدُوا بِهِمْ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ، وَأَنْ يُعِينَهُمُ النَّاسُ فِي إِصْلَاحِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ؛ فَبِدَعْوَتِهِمْ تُسْتَمْطَرُ السَّمَاءُ، وَيُسْتَنْصَرُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَيُدْفَعُ الْبَلَاءُ، وَيَعُمُّ الْخَيْرُ وَالأَمْنُ أَرْجَاءَ الأَرْضِ:

فَفِي شَأْنِ الِاسْتِمْطَارِ بِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعَفَتِهِمْ، بِدَعَوَاتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**»(٢).

---

(٢) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب من =

وَإِيمَانُ الْمُؤْمِنِ سَبَبٌ لِرِزْقِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِرِزْقِهِ غَيْرُهُ مِنْ قَرَابَتِهِ وَمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَأَمَّا رَفْعُ الْعَذَابِ عَنِ الْعِبَادِ فَبِسَبَبِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهُمُ الْمُصْلِحُونَ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُبَالِي بِهِمْ، بَلْ وَلَا يُبَالِي بِأَهْلِ الأَرْضِ إِذَا خَلَتْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَتَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً**»(٤).

= استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٧٣٩)، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/ ٤٥)، والبزار (١١٥٩)، والبيهقي (٣/ ٣٤٥) وتمام الرازي في فوائده (٦٩٨).

وأخرجه بنحوه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أحمد (٥/ ١٩٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة (٢٥٩٤)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (١٧٠٢)، والنسائي (٦/ ٤٥)، وصححه ابن حبان (٤٧٦٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ١١٦).

(٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا (٢٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٥)، وأبو يعلى (٢٨٤٤)، والطبراني في الأوسط (٢٨٨٦).

(٤) أخرجه من حديث مرداس الأسلمي رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٢٥). =

وَالمَعْنَى: لَا يَرْفَعُ لَهُمْ قَدْرًا، وَلَا يُقِيمُ لَهُمْ وَزْنًا[(٥)]، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ وَزْنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ خُلُوِّهِمْ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ؛ رُفِعَتْ عَنْهُمُ الْبَرَكَاتُ، وَحَلَّتْ بِهِمُ الْعُقُوبَاتُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: النَّدْبُ إِلَى الاقْتِدَاءِ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَصِيرَ مَنْ خَالَفَهُمْ مِمَّنْ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ[(٦)].

وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وَالمُسْلِمُونَ هُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْفِي الْعَذَابَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْهُمْ هُمْ أَهْلُ الشُّكْرِ وَالإِحْسَانِ.

وَفِي خِطَابٍ قُرْآنِيٍّ آخَرَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وَأَهْلُ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ هُمْ أَهْلُ الِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِدَعْوَةِ رُسُلِهِ ﷺ، وَهُمْ أَهْلُ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَهُمْ أَهْلُ دُعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، وَالِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ-: أَنَّ خَيْرًا كَثِيرًا يَنْعَمُ بِهِ البَشَرُ كُلُّهُمْ سَبَبُهُ وُجُودُ الصَّالِحِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَهَذَا الخَيْرُ الْكَثِيرُ يَقَعُ بِصَلَاتِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، وَأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَكَمْ مِنْ خَيْرٍ نَزَلَ عَلَى الْعِبَادِ، وَشَرٍّ دُفِعَ عَنْهُمْ

= والرواية الثانية للبخاري في الرقاق، باب ذهاب الصالحين (٦٠٧٠). وقال البخاري: يقال حفالة، وحثالة.

وقال الحافظ في الفتح: يعني: أنها بمعنى واحد، ثم نقل عن الخطابي قوله، الحثالة بالفاء والمثلثة الرديء، من كل شيء. وقيل: آخر ما يبقى من الشعير والتمر وأرداه، وقال ابن التين: الحثالة سقط الناس، وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير وغيرها، وقال الداودي: ما يسقط من الشعير عن الغربلة (١١/ ٢٥٢).

(٥) هذا المعنى ذكره الخطابي فيما نقله الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥٢).

(٦) شرح ابن البطال (١٠/ ١٥٨)، وعنه ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٥٢).

بِسَبَبِهِمْ؟! وَكَمْ مِنْ عَجَائِزَ رُكَّعٍ سُجَّدٍ يَعْبأُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِنَّ، فَيَرْفَعُ عُقُوبَتَهُ عَنِ الْعِبَادِ بِدُعَائِهِنَّ؟! فَهَلْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ شُؤْمٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ حَتَّى يَتَطَيَّرَ بِهِمُ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي بَغْيِهِمْ مِنَ الْجَهَلَةِ وَالظَّالِمِينَ؟! أَمْ أَنَّ الشُّؤْمَ عَلَى الْبَشَرِ مَا وَقَعَ إِلَّا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَمُحَاوَلَةِ مَسْخِهَا وَإِلْغَائِهَا، ثُمَّ اعْتَدَوْا عَلَى الْبَشَرِ بِالظُّلْمِ وَالْبَطْشِ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ قُوَّةً بَنَوْهَا مِنْ أَقْوَاتِ وَدِمَاءِ الشُّعُوبِ الْمَغْلُوبَةِ الْمَقْهُورَةِ.

ثُمَّ تَرَى أَقْوَامًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَوْ مِنَ الْجَاهِلِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَنَاهِجِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي كَانَتْ أَعْظَمَ شُؤْمٍ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَيَصْرِفُونَهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُخَوِّفُونَهُمْ مِنْ حَمَلَتِهَا، وَمَا كَانَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا خَيْرًا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ.

فَحَذَارِ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُرْجِفَةِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي حَمَلَتِهِ وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ نَعِيقُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ عَمَّ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ أَرْكَانَ الْبَسِيطَةِ، وَلَوْ قَهَرُوا النَّاسَ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ، وَاللهُ تَعَالَى مُظْهِرٌ دِينَهُ، مُعْلٍ كَلِمَتَهُ، مُتِمٌّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَمَا هَذِهِ الْمِحَنُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ إِلَّا ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨، ١٣٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

الخُطْبَةُ الثّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ-؛ فَإِنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِتَقْوَاهُ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى آمِنُونَ مِنَ الخَوْفِ وَالحُزْنِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: أَهْلُ الإِسْلَامِ أَهْلُ خَيْرٍ وَفَضْلٍ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَحِمَ بِهَا الأَحْيَاءَ عَلَى الأَرْضِ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا خَلَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ فَلَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا فِيمَنْ كَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[7].

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ»[8].

---

(٧) جاء في ذلك أحاديث عدة منها:

أ- حديث النواس بن سمعان عند: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

ب- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤٠).

ج- حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٩٤٩).

(٨) أخرجه موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» (١٩٢٤).

وَمِنْ بَرَكَاتِ تَوَافُرِ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّالِحِينَ عَلَى الأَرْضِ أَنَّ الْعَذَابَ وَالهَلَاكَ يُؤَخَّرُ أَوْ يُرْفَعُ عَمَّنِ اسْتَوْجَبُوهُ بِكُفْرِهِمْ وَفِسْقِهِمْ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُصِيبَ الْمُسْلِمِينَ أَوِ الصَّالِحِينَ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَقَدْ يُدْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ؛ لِئَلَّا يُصِيبَ مَنْ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فَلَوْلَا الضُّعَفَاءُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ بَيْنَ ظَهْرَانَي الكُفَّارِ عَذَّبَ اللَّهُ الكُفَّارَ، وَقَدْ قَالَ المَسِيحُ ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فَبَرَكَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ بِاعْتِبَارِ نَفْعِهِمْ لِلْخَلْقِ بِدُعَائِهِمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِدُعَائِهِمْ لِلْخَلْقِ، وَبِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرَّحْمَةِ، وَيَدْفَعُ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِمْ حَقٌّ مَوْجُودٌ» اهـ[٩].

وَلِانْتِفَاعِ الْبَشَرِ بِوُجُودِ الْمُسْلِمِينَ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ بِالنَّخْلَةِ النَّافِعَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي يُسْتَفَادُ مِنْ كُلِّ أَجْزَائِهَا، وَهَكَذَا الْمُسْلِمُ أَيْنَمَا حَلَّ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ حَلَّتِ الْبَرَكَةُ وَالْخَيْرُ عَلَى أَهْلِهِ، بِمَا يَقُومُ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ، رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسٌ إِذْ أُتِيَ بِجُمَّارِ نَخْلَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ**. فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي النَّخْلَةَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ الْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشَرَةٍ أَنَا أَحْدَثُهُمْ، فَسَكَتُّ، فَقَالَ

---

(٩) مجموع الفتاوى (١١/ ١١٣-١١٤).

النَّبِيُّ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

فَلَيْسَ المُسْلِمُونَ كَالْكُفَّارِ، وَلَا الأَبْرَارُ مِثْلُ الْفُجَّارِ؛ فَالْفُجَّارُ وَالْكُفَّارُ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ، حَتَّى يَطُولَ ضَرَرُهُمْ مَنْ عَلَى الأَرْضِ جَمِيعًا، وَأَمَّا المُسْلِمُونَ الأَبْرَارُ فَإِنَّ نَفْعَهُمْ يَتَعَدَّاهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

فَلَمْ يُسَوِّ اللَّهُ ﷻ بَيْنَهُمْ؛ بَلْ بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُمْ شُؤْمٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى مُجْتَمَعَاتِهِمْ، بَلْ وَعَلَى أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَ الْعِبَادَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ.



---

(١٠) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب أكل الجمار (٥١٢٩)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

والجُمَّار: بضم الجيم وتشديد الميم: هو شَحْم النخلة الذي في قلبها، قال النووي: «هو الذي يُؤْكَل مِنْ قَلْبِ النخل يكون لَيِّنًا» شرح مسلم (١٧/ ١٥٥).

٣٠٧- بين المصلحين والمفسدين (٢)
شؤم المفسدين

٢١/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَقَامَ حُجَّتَهُ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى وِلَايَتِهِ؛ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٧]، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْكُفَّارِ، وَالْأَخْيَارَ بِالْفُجَّارِ؛ حِكْمَةً مِنْهُ وَامْتِحَانًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٣]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَلَا يَسَعُ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ إِلَّا اتِّبَاعُهُ؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٨]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ عَمَلَكُمْ، وَأَقِيمُوا دِينَكُمْ، فَمَنْ وَافَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَمَنْ فَرَّطَ فِي حَيَاتِهِ، وَضَيَّعَ دِينَهُ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ؛ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨-٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَمِنْ عَظِيمِ ابْتِلَائِهِ لَهُمْ أَنْ

جَعَلَهُمْ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، وَقَسَّمَهُمْ إِلَى فَرِيقَيْنِ مُتَحَارِبَيْنِ؛ فَفَرِيقٌ اخْتَارَ طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فِي السَّعْيِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَفَرِيقٌ سَارَ سِيرَةَ الطُّغَاةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَسَعَى بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي تَحْدِيدِ الصَّلَاحِ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْإِصْلَاحِ مِنَ الْإِفْسَادِ بِحَسَبِ أَدْيَانِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ يَدَّعِيهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَالْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ كُلُّ النَّاسِ، وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ لَا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وَمَلَاحِدَةُ الْبَشَرِ يَرَوْنَ أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمُفْسِدُ لِلنَّاسِ؛ وَلِذَا يُحَارِبُونَهُ لِتَحْرِيرِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْهُ كَمَا يَزْعُمُونَ، وَقَدِيمًا قَالَ فِرْعَوْنُ الطَّاغِيَةُ وَهُوَ رَأْسٌ فِي الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وَإِذَا كَانَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي تَحْدِيدِ الصَّلَاحِ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْمُصْلِحِ مِنَ الْمُفْسِدِ قَدْ بَلَغَ هَذَا الْحَدَّ؛ فَإِنَّ الْمِيزَانَ فِي ذَلِكَ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْخَلْقِ وَمُدَبِّرُهُمْ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الدِّينَ وَشَرَعَهُ لَهُمْ، وَهُوَ مَنْ يُحَاسِبُهُمْ بِهِ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَتَحْدِيدُ الْمُصْلِحِينَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ عَنْ طَرِيقِ وَحْيِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ يَجِبُ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ فِيهَا مُسْلِمَانِ، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٦٣]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس: ٤٠].

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقٍ بِمَوْعُودِهِ، دَاعِيَةٍ إِلَى دِينِهِ، مُحَارِبٍ لِمَا عَارَضَهُ فَهُوَ صَالِحٌ مُصْلِحٌ وَإِنْ رُمِيَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَكُلُّ مُعَارِضٍ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى مُمَالِئٍ لِمَنْ يُحَارِبُهَا، فَهُوَ فَاسِدٌ مُفْسِدٌ وَلَوْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ المُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُمْ يَتَشَاءَمُونَ بِالمُصْلِحِينَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَبَبُ بَلَاءِ الْبَشَرِ، وَانْتِكَاسِ حَالِهِمْ، وَتَرَدِّي أَوْضَاعِهِمْ، وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ الْأَقْدَمُونَ مِنَ المُفْسِدِينَ، وَتَشَاءَمُوا مِنْ رُسُلِهِمْ عليهم السلام، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ سَبَبُ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ:

فَقَبِيلَةُ ثَمُودَ تَطَيَّرُوا بِصَالِحٍ عليه السلام وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النَّمل: ٤٧].

وَأَصْحَابُ الْقَرْيَةِ تَطَيَّرُوا بِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ؛ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩].

وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُمْ تَطَيَّرُوا بِمُوسَى عليه السلام وَالمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٣١].

وَالمُفْسِدُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فَعَلُوا ذَلِكَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَتَطَيَّرُوا بِهِ، وَأَرْجَعُوا كُلَّ مَصَائِبِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ؛ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

وَمَنْ تَأَمَّلَ وَاقِعَ المُفْسِدِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ، سَوَاءٌ كَانُوا مَلَاحِدَةً أَمْ وَثَنِيِّينَ أَمْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَمْ مُنَافِقِينَ، فَسَيَجِدُ أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا عَلَى ذَاتِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا إِخْوَانُهُمُ المُفْسِدُونَ قَبْلَهُمْ؛ فَهُمْ يَتَطَيَّرُونَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِشَرِيعَتِهِ وَبِحَمَلَتِهَا، وَبِالدُّعَاةِ إِلَيْهَا، وَيُرْجِعُونَ كُلَّ مَصَائِبِ الْأُمَّةِ وَتَأَخُّرَهَا وَاخْتِلَافَهَا إِلَى

دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى نَبْذِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ أَرَادُوا عِزًّا وَتَقَدُّمًا وَاجْتِمَاعًا وَازْدِهَارًا.

وَالْحَقِيقَةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ الْبَشَرِ وَمَصَائِبِهِمْ هُمْ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَسَارَ سِيرَتَهُمْ، وَهُمْ سَبَبُ رَفْعِ الْخَيْرَاتِ، وَتَنَزُّلِ الْعُقُوبَاتِ، وَهُمْ سَبَبُ هَلَاكِ مَنْ هَلَكَ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَكُلُّ بَلَاءٍ حَلَّ فِي الْبَشَرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فَبِشُؤْمِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَحَرْبِهِمْ عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَسَعْيِهِمْ لِإِفْسَادِ الْبَشَرِ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُصْلِحِينَ بِشَتَّى الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، وَاقْرَؤُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى تَجِدُوا أَنَّ كُلَّ الْمُعَذَّبِينَ قَبْلَنَا إِنَّمَا عُذِّبُوا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لِلْمُفْسِدِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَتَنَكُّبِهِمْ لِمَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ رُسُلُهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

فَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٩٠]، وَقَدْ ذَكَّرَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسِيَرِ الْمُعَذَّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٦]، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُصْغُوا إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسَارُوا سِيرَةَ الْمُفْسِدِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعُذِّبُوا كَمَا عُذِّبُوا.

وَهَكَذَا كُلُّ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ إِنَّمَا عُذِّبَتْ بِسَبَبِ طَاعَةِ الْمُفْسِدِينَ، فَكَانُوا شُؤْمًا وَبَلَاءً عَلَى أَقْوَامِهِمْ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الْحَجّ: ٤٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا

خُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٨، ٩]، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ شُؤْمِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى الْبَشَرِ.

وَالْمُفْسِدُونَ مِنَ الْبَشَرِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ فِي نَشْرِ فَسَادِهِمْ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكْثُرَ الْخَبَثُ فِيهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ عَذَابِهِمْ، وَقَدْ قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَلَا يَكْتَفُونَ بِإِتْيَانِ الْخَبِيثِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَنَشْرِهِ فِي النَّاسِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ، بَلْ يُجَاهِرُونَ بِمُنْكَرِهِمْ، وَيُعْلِنُونَ بِهِ، حَتَّى تُرْفَعَ الْعَافِيَةُ عَنِ النَّاسِ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْعِقَابَ بِسَبَبِهِمْ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٢).

وَالْأُمَّةُ الَّتِي يُجَاهِرُ الْمُفْسِدُونَ فِيهَا بِالْمُنْكَرَاتِ وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ حَرِيَّةٌ بِرَفْعِ عَافِيَتِهَا، وَوُجُوبِ عُقُوبَتِهَا.

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

---

(١١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٦٨)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢١).

(١٣) أخرجه البخاري في الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (٩٩٧)، ومسلم في الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١).

(١٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة (٤٩٢٢)، ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٦٧٦٠).

وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الْفَوَاحِشَ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَيُمَهِّدُونَ سُبُلَهَا بِمَا يَشْرَعُونَهُ مِنِ انْحِرَافٍ فِكْرِيٍّ عَقَائِدِيٍّ يُسَمُّونَهُ الْحُرِّيَّاتِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ، وَبِمَا يُيَسِّرُونَ مِنْ سُبُلِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ سَبَبُ سَلْبِ الْخَيْرَاتِ، وَقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِي الْأَرْزَاقِ، وَهُمْ سَبَبُ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَهُمْ أَهْلُهَا وَالدَّاعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا شُؤْمَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ عَلَى قَوْمِهِمْ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١].

وَقَوْمُ سَبَإٍ لَمْ يَتَبَدَّلْ نَعِيمُهُمْ وَهَنَاؤُهُمْ إِلَى جُوعٍ وَخَوْفٍ وَعَذَابٍ إِلَّا بِشُؤْمِ الْمُفْسِدِينَ مِنْهُمْ؛ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سَبَأ: ١٥-١٧].

وَأَهْلُ مَكَّةَ كَانُوا فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَأَمْنٍ مِنَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا اسْتَكْبَرَ الْمُفْسِدُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُصِيبَتْ مَكَّةُ بِالْجُوعِ وَالْخَوْفِ، وَهِيَ المَعْنِيَّةُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَٰقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ المُعَاصِرِ وَجَدَ أَنَّ كُلَّ بَلَاءِ النَّاسِ وَجُوعِهِمْ وَخَوْفِهِمْ، وَاضْطِرَابِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ إِفْسَادِ المُفْسِدِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَعْبِيدَ النَّاسِ لِأَهْوَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ سَعَّرَ الْحُرُوبَ، وَأَفْقَرَ الشُّعُوبَ

إِلَّا الْمُسْتَكْبِرُونَ فِي الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ؟! وَمَنْ حَالَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ دِينِ الْحَقِّ إِلَّا هُمْ وَالْمُنَافِقُونَ مَعَهُمْ بِتَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَالتَّدْلِيسِ عَلَى النَّاسِ؟! وَلَا يَزَالُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ جَادِّينَ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَيَمْلِكُونَ أَقْوَى وَسَائِلِ الدِّعَايَةِ فِي ذَلِكَ.

رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩، ١٥٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: قَدْ أَفَاضَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي وَصْفِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْبَشَرِ، وَبَيَّنَ أَسْبَابَ ضَلَالِهِمْ، وَرَدَاءَةَ أَحْوَالِهِمْ، وَحَذَّرَ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، وَلَمْ يُسَوِّ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُصْلِحِينَ، بَلْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ

تَعَالَى هُمْ خَيْرُ خَلْقِهِ ﷻ، كَمَا بَيَّنَ ﷻ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ هُمْ شَرُّ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦، ٧].

وَأَعْظَمُ شُؤْمٍ جَرَّهُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ أَتْبَاعَهُمُ المَخْدُوعِينَ بِهِمُ السَّائِرِينَ خَلْفَهُمْ، يُعَذَّبُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعِدُونَهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَبِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَهْدُونَهُمْ سُبُلَ الرَّشَادِ، فَإِذَا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى تَبَيَّنَ لِلْأَتْبَاعِ أَنَّ هَؤُلَاءِ المُفْسِدِينَ قَدْ غَشُّوهُمْ وَكَذَبُوا عَلَيْهِمْ، وَأَوْرَدُوهُمْ دَارَ السَّعِيرِ، ثُمَّ تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ، كَمَا يَتَبَرَّأُ المُجْرِمُ مِنْ شُرَكَائِهِ فِي الْجَرِيمَةِ؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٦، ١٦٧].

وَفِي مَشْهَدٍ آخَرَ يَحْكِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢١].

وَفِي مَشْهَدٍ ثَالِثٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصِفًا جِدَالَهُمْ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سَبَأ: ٣١-٣٣].

وَفِي مَشْهَدٍ رَابِعٍ يَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غَافِر: ٤٧، ٤٨].

إِنَّهَا آيَاتٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ يَتَعَدَّى وَبَالُهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِيُصِيبَ أَتْبَاعَهُمْ، فَهَلْ هُنَاكَ شُؤْمٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟! حِينَ يُورِدُونَهُمُ الْعَذَابَ، ثُمَّ يَتَخَلَّوْنَ عَنْهُمْ، وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ.

إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِالمَعَاصِي، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ أَهْلُ المَعَاصِي، وَهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا.

وَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِهِ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يَصُدُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحَارِبُونَ الدُّعَاةَ إِلَيْهِ.

وَإِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ لَا يُصِيبُ الْعِبَادَ إِلَّا بِكُفْرِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ مَنْ يُزَيِّنُونَ المَعَاصِيَ لِلنَّاسِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَيْهَا، وَيَفْتَحُونَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا، وَيُمَهِّدُونَ سُبُلَهَا.

وَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُطِيعُوهُمْ وَلَا يُطِيعُوا رَبَّهُمْ، فَهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا، فَاحْذَرُوهُمْ، وَاحْذَرُوا مَسَالِكَهُمْ وَحَبَائِلَهُمْ، وَحَذِّرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ تَبَرَّؤُوا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٣٠٨- بين الإصلاح والإفساد
الاختلاط أنموذجًا

٧/ ٤/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ، وَامْتَدَحَ الْمُصْلِحِينَ، وَنَهَى عَنِ الْفَسَادِ، وَذَمَّ الْمُفْسِدِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَبَعْثَةِ خَيْرِ الْأَنَامِ ﷺ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَمَامِ الدِّينِ، وَكَمَالِ الشَّرِيعَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَكَلَّفَهُمْ، وَبِدِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ ابْتَلَاهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ لَهُمْ وَيُصْلِحُهُمْ؛ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ حَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنْ دُعَاةٍ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا[(١)]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَتْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَسْرَعُهُمُ امْتِثَالًا لِتَعَالِيمِ الْمِلَّةِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَكُونُوا صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الصَّلَاحُ غَيْرُ الْفَسَادِ، وَالْإِفْسَادُ مُنَاقِضٌ لِلْإِصْلَاحِ، وَمَعَايِيرُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمَفْهُومُ ذَلِكَ وَمَعْنَاهُ وَحَقِيقَتُهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الدِّيَانَاتِ وَالمَبَادِئِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي يَحْتَكِمُ النَّاسُ إِلَيْهَا، وَيَصْدُرُونَ

(١) كما في حديث حذيفة ﷺ عند: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

عَنْهَا، فَمَا تَرَاهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا، قَدْ يَرَاهُ غَيْرُهَا فَسَادًا وَإِفْسَادًا؛ لِاخْتِلَافِ الدِّيَانَةِ الَّتِي يَدِينُونَ بِهَا، وَالشَّرِيعَةِ الَّتِي يَلْزَمُونَهَا، وَالْفِكْرَةِ الَّتِي يُعَظِّمُونَهَا.

وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ دَعَا كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ، وَالسِّيَاسِيِّينَ وَالصَّحَفِيِّينَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ وَالِاقْتِصَادِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَكُلُّ دَاعِيَةٍ مِنْهُمْ يَصْدُرُ فِي دَعْوَتِهِ تِلْكَ عَنْ أَفْكَارٍ يَعْتَقِدُهَا، وَمَنَاهِجَ يَعْتَنِقُهَا، رَبَّانِيَّةً كَانَتْ أَمْ بَشَرِيَّةً، وَيَرَى أَنَّ الْفَسَادَ فِيمَا يُخَالِفُ دَعْوَتَهُ، وَأَنَّ مَنْ يُعَارِضُهَا فَهُوَ المُفْسِدُ.

وَمَعَ كَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ، وَغَزَارَةِ مَا يُلْقَى عَلَى النَّاسِ فِي شَأْنِ الْإِصْلَاحِ، أَضْحَى أَكْثَرُ النَّاسِ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، لَا يَعْلَمُونَ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ، وَلَا يُمَيِّزُونَ الصَّادِقَ فِي دَعْوَاهُ مِنَ الْكَاذِبِ.

وَقَضَايَا المَرْأَةِ أُنْمُوذَجٌ حَيٌّ لِهَذَا التَّجَاذُبِ وَالِاخْتِلَافِ، فَأَقْوَامٌ يَدْعُونَ إِلَى تَحْرِيرِ المَرْأَةِ مِنْ كُلِّ الْقُيُودِ، وَمُسَاوَاتِهَا بِالرِّجَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَإِقْحَامِهَا مَعَهُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ؛ مُدَّعِينَ أَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ صَلَاحِ الْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ، وَطَرِيقُ انْتِشَالِهَا مِنْ تَخَلُّفِهَا وَجَهْلِهَا.

وَآخَرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْأُطْرُوحَاتِ لَا تُرِيدُ الْخَيْرَ بِالْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا تُغْرِقُهَا فِي مُسْتَنْقَعَاتِ الْإِثْمِ وَالْفَسَادِ، وَتُجَرِّدُهَا مِنْ أَقْوَى سِلَاحٍ يَمْتَلِكُهُ المُسْلِمُونَ أَمَامَ الْغَرْبِ، وَهُوَ الْأُسْرَةُ السَّوِيَّةُ، فِي مُقَابِلِ الْأُسْرَةِ الْغَرْبِيَّةِ المُفَكَّكَةِ.

وَإِزَاءَ كَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ، وَتَعَدُّدِ الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ، وَأَنْ يُسَلِّمَ بِهِ كُلُّ مُسْلِمٍ يَدِينُ بِالْإِسْلَامِ: أَنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ هُوَ فِيمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ ﷺ، وَأَنَّ الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ هُوَ مَا عَارَضَ

ذَلِكَ، أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ وَزْنُ قَائِلِهِ، فَشَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ؛ إِذْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَمُدَبِّرُ الْكَوْنِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ؛ وَكُلُّ الْعُقَلَاءِ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الصَّنْعَةِ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلْك: ١٤]، وَهُوَ أَدْرَى بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٠].

إِنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ هُوَ فِيمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالرُّسُلُ عليهم السلام وَأَتْبَاعُهُمْ هُمُ المُصْلِحُونَ، وَيَدْعُونَ إِلَى الصَّلَاحِ، وَيُحَارِبُونَ الْفَسَادَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ شُعَيْبٌ عليه السلام فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٥]، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَسَادِ وَيَأْتِيهِ، بَلْ يُجَانِبُهُ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هُود: ٨٨].

وَأَعْدَاءُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، المُسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ، المُعَارِضُونَ دَعْوَتَهُمْ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، هُمُ الْفَاسِدُونَ المُفْسِدُونَ؛ إِذْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كِبَارِ ثَمُودَ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا عليه السلام بِأَنَّهُمْ ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٢]، وَأَوْصَى مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ عليهما السلام بِالْإِصْلَاحِ لَمَّا اسْتَخْلَفَهُ عَلَى قَوْمِهِ، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٢].

وَلَكِنَّ أَعْدَاءَ الرُّسُلِ عليهم السلام مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهُمْ فَاسِدُونَ مُفْسِدُونَ؛ بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ مُصْلِحُونَ، وَيَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، كَمَا فَعَلَ وُزَرَاءُ فِرْعَوْنَ؛ إِذْ قَالُوا لَهُ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٧].

وَإِخْوَانُهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُخَاطِبُونَ المُلُوكَ وَالسَّاسَةَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ

قَائِلِينَ لَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوِ المَقَالِ: أَتَدْرُونَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ وَالدُّعَاةَ لِيُفْسِدُوا النَّاسَ، وَيَصْرِفُوهُمْ عَنِ المَشَارِيعِ التَّغْرِيبِيَّةِ فِي المَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ الَّتِي كُلُّهَا صَلَاحٌ وَتَقَدُّمٌ، إِلَى شَرِيعَةٍ قَدِيمَةٍ لَا تُنَاسِبُ هَذَا الْعَصْرَ؟

وَأَعْرَضُ دَعْوَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفِرْعَوْنَ الْأَوَّلَ فِي الْبَشَرِ سَوَّغَ مُعَارَضَتَهُ لِمُوسَى عليه السلام وَمُحَارَبَتَهُ إِيَّاهُ، وَالتَّنْكِيلَ بِأَتْبَاعِهِ، وَالسَّعْيَ لِقَتْلِهِ؛ بِالْخَوْفِ عَلَى النَّاسِ مِنْ فَسَادِهِ وَإِفْسَادِهِ، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وَمَا نَفَعَتْ فِرْعَوْنَ دَعْوَاهُ الْعَرِيضَةُ فِي قَلْبِ الحَقِيقَةِ؛ إِذْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْفَسَادِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصَص: ٤]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفَجْر: ١٠-١٢].

وَالْمُنَافِقُونَ يَدَّعُونَ الْإِصْلَاحَ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِفْسَادِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١، ١٢]؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى الْإِصْلَاحَ مُصْلِحًا، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ رُمِيَ بِالْفَسَادِ مُفْسِدًا، بَلْ تُعْرَضُ دَعْوَتُهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَيَنْجَلِي الْأَمْرُ، وَيَبِينُ الْحَقُّ.

إِنَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَرْضَوْنَ عَنِ الْحَقِّ مَهْمَا بُسِطَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونُس: ١٠١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الْأَنْعَام: ١٢٥]، وَمِنْ قَبْلُ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ لِمُوسَى عليه السلام: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣٢]. فَمَا يَعْنِينَا فِي هَذَا المَقَامِ هُوَ بَسْطُ الْحَقِّ بِأَدِلَّتِهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَالْقَضِيَّةُ الْمُتَنَازَعُ عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هِيَ: تَوْسِيعُ عَمَلِ المَرْأَةِ

فِي المَحَلَّاتِ التِّجَارِيَّةِ بِزَعْمِ الْقَضَاءِ عَلَى الْبِطَالَةِ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى بِزَعْمِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى خُصُوصِيَّةِ النِّسَاءِ فِي شِرَاءِ مَلَابِسِهِنَّ، وَتَعَالَوْا لِنَعْرِضَ هَذَا المَشْرُوعَ الْإِصْلَاحِيَّ الْإِنْقَاذِيَّ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِنَرَى هَلْ هُوَ إِصْلَاحٌ كَمَا يُرَوِّجُ لِذَلِكَ أَصْحَابُهُ، أَوْ إِنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟!

لَقَدْ بَيَّنَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ، وَالصَّفْقَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَالْإِنْفَاقَ عَلَى الْأُسْرَةِ، هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ، وَبِهِ خُوطِبُوا فِي نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطَّلَاق: ٧]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةِ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَلَمْ يَرِدْ خِطَابٌ وَاحِدٌ لِلنِّسَاءِ يُلْزِمُهُنَّ بِالضَّرْبِ فِي الأَرْضِ أَوِ النَّفَقَةِ عَلَى الأُسْرَةِ، بَلْ أُمِرَ النِّسَاءُ بِالْقَرَارِ فِي الْبُيُوتِ، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٣]. يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِلُزُومِ النِّسَاءِ بُيُوتَهُنَّ، وَالِانْكِفَافِ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ»(٣).

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا**» صَحَّحَهُ

---

(٢) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب: ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى (٥٦)، ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٩).

ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ[٤]. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٥].

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «نُبِّئْتُ أَنَّهُ قِيلَ لِسَوْدَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا لَكِ لَا تَحُجِّينَ وَلَا تَعْتَمِرِينَ كَمَا يَفْعَلُ أَخَوَاتُكِ؟ فَقَالَتْ: قَدْ حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ، وَأَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَقَرَّ فِي بَيْتِي، فَوَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ بَيْتِي حَتَّى أَمُوتَ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: فَوَاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بَابِ حُجْرَتِهَا حَتَّى أُخْرِجَتْ جِنَازَتُهَا»[٦].

فَالْأَصْلُ أَنَّ الرَّجُلَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْمَرْأَةَ مَكْفُولَةٌ مِنْ قِبَلِ ذَوِيهَا مُنْذُ وِلَادَتِهَا إِلَى أَنْ تَمُوتَ، فَإِنْ قَصَّرُوا أُخِذَ لَهَا حَقُّهَا بِالْقَضَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا قَرِيبٌ فَالْإِمَامُ وَلِيُّهَا، وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُومُونَ عَلَى حَاجَاتِهَا، وَإِنْ عَمِلَتْ لِكَفَافِ نَفْسِهَا فَذَلِكَ اسْتِثْنَاءٌ وَلَيْسَ أَصْلًا، وَيَكُونُ بِشُرُوطٍ تُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ لَهَا، وَتُدْرَأُ الْفِتْنَةُ بِهَا. وَلَكِنَّ هَذَا الْأَصْلَ الْمُقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ قَدْ قُلِبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ؛ بِسَبَبِ سَيْطَرَةِ الْمَذَاهِبِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ عَلَى أَكْثَرِ الْبَشَرِ، وَصَارَ الْأَصْلُ -وَهُوَ قَرَارُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا- اسْتِثْنَاءً، وَأَضْحَى الِاسْتِثْنَاءُ -وَهُوَ خُرُوجُهَا لِلْعَمَلِ- أَصْلًا.

وَانْقِلَابُ الْمَوَازِينِ لَا يُضْفِي الشَّرْعِيَّةَ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يَقْلِبُهُ إِلَى حَقٍّ،

---

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب التشديد في ذلك (٥٧٠)، والترمذي في الرضاع، باب رقم (١٨) وقال: حسن غريب (١١٧٣)، وصححه ابن خزيمة (١٦٩٠)، وابن حبان (٥٥٩٩).

(٥) أخرجه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٠).

(٦) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٨/ ٣٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن المنذر (٦/ ٥٩٩).

وَلَا يَجْعَلُ الْفَسَادَ إِصْلَاحًا؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ دَائِمَةٌ بَاقِيَةٌ حَاكِمَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، فَالْوَاجِبُ تَعْدِيلُ مَيلِ المَوَازِينِ، وَرَدُّ الْحَقِّ إِلَى نِصَابِهِ. وَمِنَ الْإِفْسَادِ تَسْوِيغُ هَذَا الْبَاطِلِ بِالمُسَوِّغَاتِ السَّامِجَةِ، وَتَعْلِيلُهُ بِالتَّعْلِيلَاتِ الْبَارِدَةِ.

ثُمَّ رَأَيْنَا هَذَا المَشْرُوعَ المُنْقِذَ لِلنِّسَاءِ مِنَ الْبِطَالَةِ قَدْ تُعُمِّدَ فِيهِ الِاخْتِلَاطُ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْبَائِعَةِ، تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَتُخَاطِبُهُ وَيُخَاطِبُهَا، وَرُبَّمَا مَازَحَتْهُ وَمَازَحَهَا، فَمِائَةُ أَلْفِ وَظِيفَةٍ وَقَدْ تَزِيدُ تَنْتَظِرُ نِسَاءَ المُجْتَمَعِ فِي جَوٍّ مِنَ الِاخْتِلَاطِ الْبَرِيءِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنِ اخْتَرَعُوا بِدْعَةَ الْبَرَاءَةِ فِي اجْتِمَاعِ رَجُلٍ بِامْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ، مُعَارِضِينَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يُخْبِرُ عَنْهَا المُبَلِّغُ عَنْهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: الحَمْوُ المَوْتُ**»[٧]، فَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يُحَذِّرُ مِنْ قَرِيبِ الزَّوْجِ وَهُوَ يَغَارُ عَلَى عِرْضِ قَرِيبِهِ، فَأَيُّ بَرَاءَةٍ فِي اجْتِمَاعِ رَجُلٍ بِامْرَأَةٍ لَا رَابِطَ بَيْنَهُمَا إِلَّا الْعَمَلُ؟!

وَمَاذَا يَفْعَلُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النُّور: ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]، وَهُمْ سَيَجْمَعُونَ بَيْنَهُمَا أَطْوَلَ وَقْتٍ، وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ مَا يُحَتِّمُ نَظَرَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ!

ثُمَّ سَيَخْلُو بِهَا حَتْمًا فِي الْأَوْقَاتِ المَيِّتَةِ الَّتِي لَا بَيْعَ فِيهَا، وَهِيَ غَالِبُ الْأَوْقَاتِ، وَأَيَّامُ الْجَرْدِ السَّنَوِيِّ حَيْثُ تُغْلَقُ المَحِلَّاتُ، وَتُحْسَبُ الْبَضَائِعُ. بَلْ قَدْ تَصْحَبُهُ فِي دَوْرَةٍ لِتَطْوِيرِ الْأَدَاءِ الْوَظِيفِيِّ، وَتَعَلُّمِ المَزِيدِ مِنْ فُنُونِ التَّسْوِيقِ، وَتَضْطَرُّ لِلسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ، إِلَّا زَمِيلَهَا الَّذِي أَصْبَحَ مَحْرَمَهَا بِجَامِعِ الْعَمَلِ

(٧) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﵁: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

وَالزَّمَالَةِ! وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا فِي الْبُنُوكِ وَالشَّرِكَاتِ الْكُبْرَى، فَكَيْفَ سَيَصِيرُ الْحَالُ لَوْ وُسِّعَ ذَلِكَ بِهَذَا الْمَشْرُوعِ الآثِمِ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لَنَا: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: **ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

فَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْجِهَادِ وَهُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِيَكُونَ رَفِيقًا لِامْرَأَتِهِ فِي سَفَرِهَا، وَلَيْسَ سَفَرُهَا سَفَرَ رِيبَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ عَمَلٍ، بَلْ هُوَ أَشْرَفُ سَفَرٍ لِامْرَأَةٍ؛ سَفَرُ حَجِّهَا الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ، فَحَالُهَا وَحَالُ مَنْ مَعَهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ الرِّيبَةِ وَالْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي عِبَادَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنَ الْمَحْرَمِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ بِمَكَانٍ مَوْبُوءٍ تُحِيطُ بِهِ شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؟! وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَسْوَاقُهَا(٩).

وَقَدْ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلُ أَنْ تَتَحَلَّى الْبَائِعَةُ بِكَامِلِ زِينَتِهَا حَتَّى تَكُونَ دِعَايَةً لِلْمَتْجَرِ، وَلِتَجْذِبَ الزَّبَائِنَ إِلَيْهِ، فَيُسَوِّقُ التَّاجِرُ بِضَاعَتَهُ بِأَجْسَادِ بَنَاتِ النَّاسِ وَزِينَتِهِنَّ، وَهَذَا وَاقِعٌ فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي هَذَا الْمَجَالِ؛ وَمَنْ يُسَافِرُونَ وَيُتَاجِرُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَكَمْ يُعْلَنُ فِي صُحُفِهِمْ عَنْ وَظَائِفَ لِبَائِعَاتٍ يُشْتَرَطُ فِيهِنَّ مِنَ الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ أَكْثَرُ مِمَّا يُشْتَرَطُ فِيهِنَّ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْخِبْرَةِ! وَنُعِيذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ بَنَاتِنَا وَبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَالَهُنَّ.

---

(٨) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٣)، ومسلم في الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٤١).

(٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**» أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وفضل المساجد (٦٧١).

وَإِذَا كَانَ زَمِيلُهَا ذِئْبًا أَغْبَرَ، يُجِيدُ التَّلَاعُبَ بِالْعَوَاطِفِ، وَيَعْرِفُ نِقَاطَ الضَّعْفِ فِي الْمَرْأَةِ، كَالَ لَهَا مِنَ الْمَدِيحِ وَالثَّنَاءِ مَا يَصْطَادُهَا بِهِ، فَيَفْتَرِسُ عَفَافَهَا، وَلَا خَيْرَ فِي وَظِيفَةٍ تِلْكَ نِهَايَتُهَا! وَلَا عَزَاءَ لِمُجْتَمَعٍ يَرْضَى لِبَنَاتِهِ أَنْ يَتَأَكَّلْنَ بِأَجْسَادِهِنَّ!

وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكَّامٍ وَمَحْكُومِينَ لَيْسُوا مَسْؤُولِينَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ تَوْفِيرِ الْوَظَائِفِ لِلنِّسَاءِ، وَإِنَّمَا هُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ رِعَايَتِهِنَّ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ قَارَّاتٌ فِي بُيُوتِهِنَّ، كُلُّ وَلِيٍّ بِوَلِيَّتِهِ، وَمَنْ لَا وَلِيَّ لَهَا فَوَلِيُّهَا الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ.

هَذَا هُوَ حُكْمُ الشَّرِيعَةِ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَتِلْكَ هِيَ مَفَاسِدُ بَعْضِ هَذَا الْقَرَارِ الَّذِي بَانَ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَهُوَ إِفْسَادٌ وَلَيْسَ إِصْلَاحًا، وَإِنْ سَمَّاهُ أَصْحَابُهُ إِصْلَاحًا، إِمَّا عَنْ جَهْلٍ بِسَبَبِ مَا يُعَانُونَهُ مِنَ الْأُمِّيَّةِ وَالتَّخَلُّفِ فِي فَهْمِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا عَنْ هَوًى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ مُؤْدَلَجُونَ بِأَفْكَارٍ مُنْحَرِفَةٍ، وَمُسَيَّسُونَ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ الْأَعْدَاءِ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ، وَالْتِزَامَ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، كَمَا نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ كُلَّ مُصْلِحٍ وَمُصْلِحَةٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَنْطَلِقُ هَذِهِ الْمَشَارِيعُ التَّخْرِيبِيَّةُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَفْكَارٍ تَغْرِيبِيَّةٍ لَا تَمُتُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِصِلَةٍ، بَلْ هِيَ نِتَاجُ مَوْجَاتِ الْإِلْحَادِ وَالْفَسَادِ الَّتِي اجْتَاحَتْ بِلَادَ الْغَرْبِ إِبَّانَ الثَّوْرَةِ الصِّنَاعِيَّةِ، فَأَفْسَدَتْ نِسَاءَهُمْ، وَحَطَّمَتْ أُسَرَهُمْ، وَفَرَّقَتْ مُجْتَمَعَاتِهِمْ.

وَيَسْتَمِيتُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ فِي تَصْدِيرِ هَذَا الْفَسَادِ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، بِالرِّضَا أَوْ بِالْقُوَّةِ، تَحْتَ دَعَاوَى الْإِصْلَاحِ فِي دُوَلِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ، مَعَ أَنَّ الْغَرْبَ لَا زَالَ يُعَانِي مِنْ آثَارِ هَذَا الْإِفْسَادِ، وَمُجْتَمَعَاتُهُ مُهَدَّدَةٌ بِالِانْقِرَاضِ، وَتُعَانِي مِنْ كَثْرَةِ الشُّيُوخِ، وَقِلَّةِ الشَّبَابِ وَالْأَطْفَالِ.

وَأَجِدُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ مُضْطَرًّا لِنَقْلِ بَعْضِ الْمَقُولَاتِ لِمُفَكِّرِينَ غَرْبِيِّينَ يُبْرِزُونَ حَجْمَ الْفَسَادِ النَّاجِمِ عَنْ إِخْرَاجِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَنْزِلِهَا وَإِقْحَامِهَا فِي مَيَادِينِ الرِّجَالِ، مِنْ بَابِ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وَإِلَّا فَالْمُسْلِمُ مُسْتَسْلِمٌ لِأَمْرِ رَبِّهِ، تَكْفِيهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَائِدًا وَإِمَامًا.

تَقُولُ كَاتِبَةٌ إِنْجِلِيزِيَّةٌ: إِنَّ الِاخْتِلَاطَ يَأْلَفُهُ الرِّجَالُ، وَلِهَذَا طَمِعَتِ الْمَرْأَةُ بِمَا

يُخَالِفُ فِطْرَتَهَا، وَعَلَى قَدْرِ كَثْرَةِ الِاخْتِلَاطِ تَكُونُ كَثْرَةُ أَوْلَادِ الزِّنَا[١٠]. وَتَقُولُ بَاحِثَةٌ أُخْرَى: إِنَّ الِاعْتِدَاءَاتِ الْجِنْسِيَّةَ بِأَشْكَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ مُنْتَشِرَةٌ انْتِشَارًا سَرِيعًا فِي أَمْرِيكَا وَأُورُبَّا . . . ، وَهِيَ الْقَاعِدَةُ وَلَيْسَتِ الِاسْتِثْنَاءَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرْأَةِ الْعَامِلَةِ فِي أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَعْمَالِ تُمَارِسُهُ مَعَ الرِّجَالِ[١١]. وَنَشَرَتْ مَجَلَّةُ «نُيُوزْوِيكَ» الْأَمْرِيكِيَّةُ تَحْقِيقًا بِعُنْوَانِ: سُوءُ اسْتِخْدَامِ الْجِنْسِ فِي الْمَكَاتِبِ، قَالَتْ فِيهِ: إِنَّ مُضَايَقَةَ الرَّئِيسِ لِمَرْؤُوسِيهِ أَمْرٌ قَدْ خَرَجَ عَنْ دَوْرَةِ الْمِيَاهِ؛ أَيْ: خَرَجَ عَنِ السِّرِّيَّةِ وَصَارَ عَلَنًا[١٢].

وَمَنْ قَالُوا هَذَا الْكَلَامَ قَدْ عَاشُوا فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَوَقَفُوا عَلَى مُشْكِلَاتِهَا، وَخَبَرُوا عِلَلَهَا، وَلَيْسُوا أُمِّيِّينَ فِي حَضَارَتِهِمْ؛ بَلْ مُثَقَّفُونَ وَمُفَكِّرُونَ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ مُؤْدَلَجِينَ وَمُسَيَّسِينَ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ يَحْكُونَ أَمْرَاضَ مُجْتَمَعَاتِهِمْ.

إِنَّ أَيَّ مَشْرُوعٍ يَسْعَى لِجَعْلِ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَنْزِلِهَا هُوَ الْأَصْلَ، وَقَرَارِهَا فِيهِ هُوَ الِاسْتِثْنَاءَ، فَهُوَ مَشْرُوعٌ مُعَارِضٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمُخَالِفٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ جُمْلَةٌ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْكُبْرَى؛ كَالِاخْتِلَاطِ، وَالتَّبَرُّجِ، وَالسُّفُورِ، وَالْخَلْوَةِ، وَالسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ؟!

وَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْحَدُّ مِنْ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ بِشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ؛ فَإِنَّ التَّجَارِبَ السَّابِقَةَ أَثْبَتَتْ أَنَّ هَذِهِ الضَّوَابِطَ تَتَبَخَّرُ مَعَ الزَّمَنِ كَمَا يَتَبَخَّرُ الْمَاءُ الرَّاكِدُ، وَانْظُرُوا كَمْ فِي سِيَاسَةِ الْإِعْلَامِ بِصُحُفِهِ وَمَجَلَّاتِهِ، وَشَاشَاتِهِ وَإِذَاعَاتِهِ مِنْ

---

(١٠) قائلة ذلك الكاتبة الإنجليزية اللادي كوك، ينظر: التبرج وخطر مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله، للإمام عبد العزيز بن باز، ط: وزارة الشئون الإسلامية، الأولى ١٤٢٣ (٣٦).

(١١) القائلة هي الباحثة لين فارلي، ينظر: عمل المرأة في الميزان، د.محمد علي البار (١٦٧).

(١٢) مجلة النيوزويك الأمريكية، ١٧ مارس ١٩٨٠م عن المصدر السابق (١٢٧).

شُرُوطٍ وَضَوَابِطَ تُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ؛ فَهَلْ طُبِّقَتْ أَوْ لَا؟!

وَالْأَبْوَابُ إِذَا فُتِحَتْ قَلِيلًا أَمْكَنَ إِشْرَاعُهَا عَلَى مَصَارِيعِهَا، بَلْ أَمْكَنَ خَلْعُهَا، وَلَا تُخْلَعُ الْأَبْوَابُ إِذَا كَانَتْ مُوصَدَةً.

فَإِيَّاكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ يَخْدَعَكُمْ مُصَدِّرُو الرَّذِيلَةِ، وَنَاشِرُو الْفَسَادِ، بِتَلْبِيسِ الْكَلَامِ، وَلَحْنِ الْقَوْلِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُنْكِرَ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُطِلُّ بِشَرِّهِ وَفَسَادِهِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَيَكُونُ إِنْكَارُهُ بِالطُّرُقِ الْمَأْذُونِ بِهَا شَرْعًا الَّتِي لَا تُسَبِّبُ إِثْمًا أَكْبَرَ، وَلَا تُحْدِثُ فِتْنَةً أَعْظَمَ.

وَالْمَسْؤُولِيَّةُ الْكُبْرَى، وَالْأَمَانَةُ الْعُظْمَى، تُثْقِلُ كَاهِلَ كِبَارِ الْقَوْمِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمَسْؤُولِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مَوْجَاتِ الْإِفْسَادِ هَذِهِ، وَإِلَّا تَحَمَّلُوا وِزْرَ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، وَبِمَاذَا سَيُقَابِلُونَ رَبَّهُمْ إِذَا سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ مَنَاصِبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى جَاهًا، وَكَلِمَتُهُ لَهَا وَقْعُهَا، أَنْ يُبَادِرَ بِالْإِنْكَارِ؛ بَرَاءَةً لِلذِّمَّةِ، وَانْتِصَارًا لِلْمِلَّةِ، وَحِفَاظًا عَلَى بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الرَّذَائِلِ، وَعَلَى صَاحِبِ كُلِّ قَلَمٍ وَبَيَانٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يُنْكِرُوا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، وَيُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ مَفَاسِدَ مِثْلِ هَذَا الْقَرَارِ.

وَنُعِيذُ بِاللَّهِ تَعَالَى كُلَّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ أَنْ يَكُونُوا عَوْنًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ بِالِاعْتِذَارِ لِلْبَاطِلِ وَتَسْوِيغِهِ، أَوِ الدِّعَايَةِ لَهُ وَتَرْوِيجِهِ؛ وَ«**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١٣)، ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: ١١٧].

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الأدب، باب: من كان يؤمن بالله =

جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى هَادِينَ مَهْدِيِّينَ، صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، وَمَنَّ عَلَى وُلَاةِ أَمْرِنَا بِالصَّلَاحِ وَالرَّشَادِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَجَنَّبَهُمْ طُرُقَ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْإِفْسَادِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



= واليوم الآخر فلا يؤذ جار (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).



المغازي والتاريخ



٣٠٩- الإسراء والمعراج (٢) (*)

٢٥/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ تَفَرَّدَ بِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَتَنَزَّهَ عَنِ النُّظَرَاءِ وَالْأَمْثَالِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١]. أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزُّخرف: ٨٤، ٨٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْمَوَاعِظَ وَالْآيَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَخَتَمَ بِهِ الرِّسَالَاتِ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى؛ فَإِنَّ الثَّابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ قَلِيلٌ، وَالنَّاكِصِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ كَثِيرٌ، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا عَظِيمٌ، وَنِعَمُهُ كَثِيرَةٌ، فِي خَلْقِنَا وَرِزْقِنَا، وَهِدَايَتِنَا وَتَوْفِيقِنَا، وَفِي كُلِّ شُؤُونِنَا وَأَحْوَالِنَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَوْفَاهَا: أَنْ جَعَلَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتَمَةِ الَّتِي قَضَى

(*) الإسراء والمعراج (١) تجدها في المجلد (٣) خطبة رقم (١٢٤).

اللهُ ﷻ بِأَنَّهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ فَرَسُولُهَا خَاتَمُ الرُّسُلِ وَأَفْضَلُهُمْ، وَكِتَابُهَا خَيْرُ الْكُتُبِ وَأَشْمَلُهَا، وَشَرِيعَتُهَا أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ وَأَتَمُّهَا.

إِنَّهَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْفَضْلِ وَالْإِكْرَامِ: أَنْ جَعَلَنَا مِنْ آخِرِ أُمَّةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، وَهِيَ أَفْضَلُ أُمَّةٍ وُجِدَتْ عِنْدَ رَبِّهَا وَخَالِقِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)].

أُمَّةٌ هِيَ الْأَخِيرَةُ فِي خَلْقِهَا وَإِيجَادِهَا، وَهِيَ الْأُولَى فِي حِسَابِهَا وَمَنْزِلَتِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[(٢)].

أُمَّةٌ أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَا مُحَمَّدًا ﷺ أَعْظَمَ كَرَامَةٍ، وَرَعَاهُ أَفْضَلَ رِعَايَةٍ، وَحَبَاهُ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ، وَتَكْرِيمُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهَا هُوَ تَكْرِيمٌ لَهَا، وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا.

أُمَّةٌ أَسْرَى اللَّهُ تَعَالَى بِنَبِيِّهَا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَأَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَنْبِيَاءَهَا وَمُرْسَلِيهَا، بَدْءًا بِآدَمَ، فَيَحْيَى

---

(١) أخرجه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أحمد (٣/ ٥٠٥)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، والدارمي (٢٧٦٠)، والبيهقي (٥/ ٩)، وعبد بن حميد (٤٠٩-٤١١)، والروياني في مسنده (٩٢١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٩٤).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٩٠)، وصَحَّحَهُ البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٣١٧).

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة ...**» أخرجه مسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

وَعِيسَى، فَيُوسُفَ، فَإِدْرِيسَ، فَهَارُونَ، فَمُوسَى، فَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٣].

وَفِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «**مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**، فَلَمَّا جَاوَزَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا بَكَى مُوسَى عليه السلام، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: **أَبْكِي؛ لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي**»[٤]، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ مُوسَى عليه السلام: «**لَمْ أَظُنَّ أَحَدًا يُرْفَعُ عَلَيَّ**»[٥]، وَقَالَ: «**يَزْعُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ، وَهَذَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي**»[٦]، «**وَلَوْ كَانَ هَذَا وَحْدَهُ هَانَ عَلَيَّ، وَلَكِنْ مَعَهُ أُمَّتُهُ وَهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى**»[٧].

بَكَى مُوسَى عليه السلام غِبْطَةً لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ، وَأَسَفًا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ رَفْعُ الدَّرَجَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ كَثْرَةِ الْمُخَالَفَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَنْقِيصِ أُجُورِهِمْ، الْمُسْتَلْزِمِ لِتَنْقِيصِ أَجْرِهِ؛ لِأَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِثْلَ أَجْرِ كُلِّ مَنْ تَبِعَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ فِي الْعَدَدِ دُونَ مَنِ اتَّبَعَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ[٨].

---

(٣) ترتيب الأنبياء هكذا هو على حسب ترتيبهم في السماوات لما رآهم النبي ﷺ، كما جاء ذلك في حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٦٧٤)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، وأحمد (٤/ ٢٠٨)، وابن حبان (٤٨)، وابن خزيمة (٣٠١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٧١) برقم (٥٩٩).

(٤) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(٥) هذه الرواية أخرجها الطبري في تفسيره من حديث أنس رضي الله عنه (٤/ ١٥)، وذكرها العيني في عمدة القاري (١٧/ ٢٧).

(٦) هذه الرواية من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أخرجها ابن أبي زمنين في تفسيره (٣/ ٥) أول سورة الإسراء، وذكرها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٣٧)، وابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٠)، والحافظ في الفتح (٧/ ٢١١)، ولم أقف على من أخرجها.

(٧) هذه الراوية ذكرها الحافظ في الفتح (٧/ ٢١١)، والعيني في عمدة القاري (١٧/ ٢٧).

(٨) ينظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).

ثُمَّ جَاوَزَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ، وَرُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى «**وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا**»(٩).

قَالَ النَّوَوِيُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سُمِّيَتْ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْمَلَائِكَةِ يَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَلَمْ يُجَاوِزْهَا أَحَدٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»(١٠).

وَقَدْ وَصَفَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: «**ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثُمَّ انْطَلَقَ بِي -أَيْ: جِبْرِيلُ- حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: «**فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ**

---

(٩) هذا جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند: مسلم في الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١٧٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النجم (٣٢٧٦)، والنسائي في الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢٣)، وأحمد (١/ ٤٢٢)، وأبي يعلى (٥٣٠٣).

(١٠) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢١٤).

(١١) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(١٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٣).

مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٣).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «فَإِذَا هُوَ بِنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ، قَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ»(١٤).

ثُمَّ جَاوَزَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، حَتَّى بَلَغَ مَقَامًا سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ(١٥)، تَنْسِخُ الْمَقَادِيرَ عَنِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَارْتَقَى مَكَانًا عَلِيًّا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا وَصَلَ إِلَيْهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ سِوَاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى، حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى اللَّهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»(١٦).

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَرَجَعْتُ، فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَ: أُمَّتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ

---

(١٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ في التوحيد باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] (٧٠٧٩)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات واللفظ له (١٦٢).

(١٤) هذه الرواية للبخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ المخرج في حاشية (١٣).

(١٥) ثبت ذلك في حديث أبي ذر المخرج في حاشية (١٢)، وفيه قال النبي ﷺ: «**ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**».

قال النووي في شرحه على مسلم: «وصريف الأقلام بالصاد المهملة: تصويتها حال الكتابة، قال الخطابي: هو صوت ما تكتبه الملائكة مِنْ أَقْضِيَة الله تعالى ووحيه، وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده من أمره وتدبيره» (٢/ ٢٢١)، وينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٦٢).

(١٦) هذه الرواية جاءت من حديث أنس ﷺ المخرج في حاشية (١٣) وهي للبخاري في التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ (٧٠٧٩).

المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا»(١٧).

فَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ رَبِّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِهِ، وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام يُشِيرُ عَلَيْهِ بِطَلَبِ التَّخْفِيفِ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ، نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ: «أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لم يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ»(١٩) يَعْنِي: الْكَبَائِرَ.

---

(١٧) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(١٨) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(١٩) هذا جزء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه المخرج في حاشية (٩).

والمقحمات هي الكبائر، قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هو بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار، وتقحمهم إياها، والتقحم: الوقوع في المهالك، ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات، والمراد -والله أعلم- بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يعذب أصلًا، فقد تقررت نصوص الشريعة وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة مِنَ المُوَحِّدِين، ويحتمل أن يكون المراد بهذا خصوصًا من الأمة، أي: يغفر لبعض الأمة المقحمات، وهذا يظهر على مذهب من يقول إن لفظة: (من) لا تقتضي العموم مطلقًا، وعلى مذهب من يقول: لا تقتضيه في الأخبار، وإن اقتضته في الأمر والنهي، ويمكن تصحيحه على المذهب المختار، وهو كونها للعموم مطلقًا؛ لأنه قد قام دليل على إرادة الخصوص، وهو ما ذكرناه من النصوص والإجماع، والله أعلم». اهـ من شرح مسلم (٣/ ٣).

وقال السندي -رحمه الله تعالى-: «ولعل المراد: أن الله تعالى لا يؤاخذهم بكلها، بل =

وَرَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي رِحْلَتِهِ تِلْكَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَسَلَّمَ عَلَى مَالِكٍ خَازِنِ النَّارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَضْحَكْ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِجِبْرِيلَ: «**مَا لِي لَمْ آتِ أَهْلَ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَّبُوا وَضَحِكُوا إِلَيَّ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِي، وَلَمْ يَضْحَكْ إِلَيَّ؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَاكَ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ لَمْ يَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَ، وَلَوْ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ لَضَحِكَ إِلَيْكَ**»[٢٠].

وَفِي رُؤْيَتِهِ لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِذَا فِي الجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَنَظَرْتُ إِلَى النَّارِ فَإِذَا عَذَابٌ شَدِيدٌ لَا تَقُومُ لَهُ الْحِجَارَةُ وَالحَدِيدُ**»[٢١]، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا!

لَقَدْ كَانَ المِعْرَاجُ رِحْلَةً عَظِيمَةً، وَمَشَاهِدُهَا كَثِيرَةٌ، وَهُوَ كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْرَمَ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَكْرِيمِ نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

لَهُ الْحَمْدُ عَلَى إِكْرَامِهِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى التَّخْفِيفِ عَنَّا مِنْ خَمْسِينَ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَبَقَاءُ أَجْرِهَا خَمْسِينَ لِمَنْ أَحْسَنَهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٢].

= لا بد أن يغفر لهم بعضها، وإن شاء غفر لهم كلها، وقيل: المراد بالغفران: أن لا يخلد صاحبها في النار، أو المراد الغفران لبعض الأمة، ولعله إن كان هناك تأويل فما ذكرت أقرب، وإلا فتفويض هذا الأمر إلى علمه تعالى أولى، والله تعالى أعلم» اهـ من حاشيته على النسائي (١/ ٢٢٤).

(٢٠) هذه الرواية من حديث أنس رضي الله عنه، عزاها ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦١) لابن أبي حاتم، وذكرها الحافظ في الفتح، وسكت عنها (٧/ ١١٧).

(٢١) هذا جزء من حديث أبي سعيد الخدري عند الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي (٢٧).

(٢٢) هذا جزء من حديث أبي ذر المخرج في حاشية (١٢).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي حَادِثَةِ المِعْرَاجِ وَمُشَاهَدَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّمَاءِ الْكَثِيرُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ، وَالمَوَاعِظِ وَالْمُعْجِزَاتِ.

فِيهَا الدَّلَائِلُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَكَمَالِ صُنْعِهِ، وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ؛ فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي المِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ الصَّلَاةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُبَاشَرَةً، وَكَلَّمَ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ بِلَا وَاسِطَةٍ، دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَقَدْ تَلَمَّسَ الْعُلَمَاءُ حِكْمَةَ ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا عُرِجَ بِهِ رَأَى فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَعَبُّدَ المَلَائِكَةِ، وَأَنَّ مِنْهُمُ الْقَائِمَ فَلَا يَقْعُدُ، وَالرَّاكِعَ فَلَا يَسْجُدُ، وَالسَّاجِدَ فَلَا يَجْلِسُ؛ فَجَمَعَ

اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَلِأُمَّتِهِ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ يُصَلِّيهَا الْعَبْدُ بِشَرَائِطِهَا مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالْإِخْلَاصِ[٢٣].

وَفِي المِعْرَاجِ بَانَ حِرْصُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَمَحَبَّتُهُمْ لِلنَّاسِ، وَمُحَاوَلَةُ إِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَتَخْفِيفُ الشَّرَائِعِ عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي نَصِيحَةِ مُوسَى لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ التَّخْفِيفَ فِي الصَّلَاةِ؛ حَتَّى خُفِّفَتْ مِنْ خَمْسِينَ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ.

رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدْ غَبَطَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَبَكَى لَمَّا رَآهُ، وَذَكَرَ تَفْضِيلَهُ عَلَيْهِ، وَتَفْضِيلَ أُمَّتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ، لَكِنَّ غَيْرَتَهُ تِلْكَ مَا حَجَزَتْهُ عَنِ النَّصِيحَةِ لِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ؛ فَمَا زَالَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِطَلَبِ التَّخْفِيفِ حَتَّى خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَانَ مُوسَى أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ حِينَ مَرَرْتُ بِهِ، وَخَيْرَهُمْ لِي حِينَ رَجَعْتُ إِلَيْهِ**»[٢٤]، وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: «**فَأَقْبَلْتُ رَاجِعًا، فَمَرَرْتُ بِمُوسَى وَنِعْمَ الصَّاحِبُ كَانَ لَكُمْ**»[٢٥].

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّحْمَةَ فِي قُلُوبِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا جَعَلَ فِي قُلُوبِ غَيْرِهِمْ»[٢٦].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَأَمَّا تَخْصِيصُ مُوسَى بِأَمْرِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمُرَاجَعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَطِّ مِنَ الصَّلَوَاتِ؛ فَلَعَلَّهُ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ أُمَّةَ مُوسَى كَانَتْ قَدْ كُلِّفَتْ مِنَ

---

(٢٣) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢١٦).

(٢٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الطبري في تفسيره (١٥/ ٦-١١)، وعزاه الحافظ في الفتح للبزار وسكت عنه (٧/ ٢١٢).

(٢٥) هذه الرواية من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح (٧/ ٢١٢) ولم أقف عليها عند غيره.

(٢٦) فتح الباري، لابن حجر (٧/ ٢١٢).

الصَّلَوَاتِ مَا لَمْ يُكَلَّفْ غَيْرُهَا مِنَ الْأُمَمِ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ، فَخَافَ مُوسَى ﷺ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يَدُلُّ قَوْلُهُ: «**فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ**»(٢٧)، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ مُوسَى: «**فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ**»(٢٨)، وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ: «**فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ، فَمَا قَامُوا بِهِمَا، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ﷻ فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ: إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَخَمْسٌ بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِرَّى، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: ارْجِعْ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ صِرَّى؛ أَيْ: حَتْمٌ، فَلَمْ أَرْجِعْ**»(٢٩). وَقَوْلُهُ: (صِرَّى) أَيْ: حَتْمٌ وَاجِبَةٌ لَا مُرَاجَعَةَ فِيهَا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ قِرَاءَةَ تَفَاصِيلِ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، وَالتَّأَمُّلَ فِي أَحْدَاثِهَا وَمُجْرَايَاتِهَا؛ لَمِمَّا يُقَوِّي إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَزَكَاءِ عَمَلِهِ، مَتَى مَا تَأَمَّلَ ذَلِكَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَأَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ يَرَى شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ فَيَخْشَاهُ وَيَحْذَرُهُ، وَيُبْصِرُ آيَاتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ؛ فَيَزِيدُهُ

---

(٢٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٢٨) هذه الرواية لمسلم من حديث أنس ﷺ المخرج في حاشية (١٣).

(٢٩) هذه الرواية للنسائي من حديث أنس بن مالك المخرج في حاشية (١٣) وهي في النسائي، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢١)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٤١)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٣٥).

«ومعنى: صِرَّى: أي حتم واجبة وعزيمة وجد، وقيل: مشتقة من صرَّ إذا قطع، وقيل: هي مشتقة من أصررت الشيء: إذا لزمته، فإن كان من هذا فهو بالصاد والرَّاء المشددة، وقيل: المعنى ثابتة ومستقرة، قال ابن فارس: الإِصْرَار: الثبات على الشيء والعزم عليه، يقال: هذه يمين صِرَّى؛ أي: جد» اهـ من شرح السيوطي على النسائي (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).
وقال السندي في حاشيته: «أي: عزيمة باقية لا تقبل النسخ» اهـ (١/ ٢٢٣).

ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَيَقِينًا إِلَى يَقِينِهِ، وَيَلْحَظُ رَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ فِي التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ؛ فَيَقُودُهُ ذَلِكَ إِلَى حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ عَلَى نِعْمَتِهِ، وَيَعْرِفُ لِلْأَنْبِيَاءِ فَضْلَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ؛ فَيُحِبُّهُمْ وَيَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَهُمْ، وَيَعْلَمُ حَقَّ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَتَّبِعُهُ وَيُطِيعُهُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى الْقَائِلِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَالْقَائِلِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَقَدْ نَهَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الِابْتِدَاعِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ تَعْظِيمِ أَزْمَانٍ لَمْ يُعَظِّمْهَا، أَوْ تَخْصِيصِهَا بِفَضَائِلَ لَمْ يَشْرَعْهَا، أَوْ بِعِبَادَاتٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا؛ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِتَخْصِيصِ رَجَبٍ بِعِبَادَاتٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا شَرَعَهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِيهِ، وَبِالْأَخَصِّ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ!! وَذَلِكَ مَا لَمْ يَثْبُتْ مِنْ جِهَةِ التَّارِيخِ؛ فَالْخِلَافُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَبِيرٌ جِدًّا، وَلَوْ عُرِفَ ذَلِكَ لَمَا كَانَ حُجَّةً لِلْمُحْتَفِلِينَ بِهَا أَنْ يَحْتَفِلُوا؛ لِعَدَمِ احْتِفَالِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا، وَلَا احْتَفَلَ بِهَا صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ، وَلَا التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْفَضْلِ؛ وَإِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ بَعْدَهُمْ!!

إِنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ مَا هِيَ إِلَّا مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَلَوْ تَنَاقَلَتْهَا وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ فِي شَتَّى الْأَقْطَارِ، وَلَوْ شَارَكَ فِي احْتِفَالَاتِهَا قُرَّاءُ وَمَشَايِخُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ عَمَائِمُ، وَلَوْ عَظُمَ بَهْرَجُهَا وَزَخَارِفُهَا، وَلَوْ قَرَأَ فِيهَا مَنْ قَرَأَ، وَوَعَظَ فِيهَا مَنْ وَعَظَ، وَبَكَى فِيهَا مَنْ بَكَى، وَتَأَثَّرَ فِيهَا مَنْ تَأَثَّرَ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَالْحَقُّ يُعْرَفُ بِالدَّلِيلِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يُدْرَكُ الْحَقُّ بِهَوَى النُّفُوسِ وَخُشُوعِهَا، وَتَأَثُّرِهَا بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ قَصَائِدَ وَمَدَائِحَ، وَغُلُوٍّ فِي النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ

يَخْشَعُونَ عِنْدَ حَائِطِ الْبُرَاقِ، وَالنَّصَارَى يَتَأَثَّرُونَ بِقِصَّةِ المَسِيحِ ﷺ، وَالهُنْدُوسَ يَبْكُونَ تَحْتَ أَبْقَارِهِمْ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَمَا سُمِّيَ الْهَوَى هَوًى إِلَّا لِأَنَّ النُّفُوسَ تَهْوَاهُ، وَلَوْ كَانَ عِبَادَةً مُحْدَثَةً.

وَأَمَّا كَثْرَةُ المُحْتَفِلِينَ بِتِلْكَ المُنَاسَبَاتِ فَلَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا جَعَلَ الْكَثْرَةَ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ؛ بَلِ الْحَقُّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ؛ فَإِنَّ الِاقْتِصَادَ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



٣١٠- الإسراء والمعراج (٣)

٢١/ ٧/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَصَّ رُسُلَهُ بِالرِّسَالَاتِ، وَأَيَّدَهُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِالْآيَاتِ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُشْكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَبَرْهَنَتْ آيَاتُهُ فِي خَلْقِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَسْرَى بِهِ رَبُّهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَعَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى، فَأَبْصَرَ مَا أَبْصَرَ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ، وَمَنْ سَارَ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ مَخْرَجٌ مِنَ الضَّوَائِقِ، وَهِيَ مَنْجَاةٌ فِي الشَّدَائِدِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ابْتِلَاؤُهُمْ وَتَمْحِيصُهُمْ؛ لِيَمِيزَ صَادِقَهُمْ مِنْ كَاذِبِهِمْ، وَيَظْهَرَ مُؤْمِنُهُمْ مِنْ مُنَافِقِهِمْ، وَيَتَبَيَّنَ خَبِيثُهُمْ مِنْ طَيِّبِهِمْ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٩]. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣].

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ يُثَبِّتُ الْمُؤْمِنَ الصَّادِقَ عَلَى إِيمَانِهِ، وَيَرْبِطُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَحِيدُ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُ مَهْمَا اشْتَدَّ بِهِ الْأَذَى،

وَمَهْمَا عَظُمَتِ عَلَيهِ الْمِحْنَةُ، ثُمَّ يَكُونُ الْفَرَجُ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَالْيُسْرُ عَقِبَ الْعُسْرِ، وَتكُونُ الْمِنْحَةُ فِي إِثْرِ الْمِحْنَةِ، وَهَكَذَا كَانَ مَعَ أَفْضَلِ الْخَلْقِ رُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إِذِ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمَّا آمَنُوا وَصَبَرُوا؛ أَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى مَا يَزِيدُهُمْ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى ثَبَاتِهِمْ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ.

هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أُوذِيَ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، وَهَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَأَرَادَ تَكْلِيفَهُ بِالدَّعْوَةِ؛ كَلَّمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ قُدْرَتِهِ؛ لِيُعْلِمَ أَنَّ قُوَّةَ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ مَهْمَا بَلَغَتْ فَهِيَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَتَقَاعَسُ عَمَّا كُلِّفَ بِهِ رَهْبَةً مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٧-٢٣].

نَعَمْ، إِنَّهَا آيَاتٌ كُبْرَى يُؤَيِّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَتكُونُ سَبَبًا فِي ثَبَاتِهِمْ وَيَقِينِهِمْ.

وَرَسُولُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُوذِيَ أَشَدَّ الْأَذَى، وَثَبَتَ أَعْظَمَ الثَّبَاتِ، وَصَبَرَ أَجْمَلَ الصَّبْرِ؛ مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ حِينَ قَالَ لَهُ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وَحِينَ تَتَابَعَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ بِمَوْتِ عَمِّهِ وَزَوْجِهِ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَامٍ سُمِّيَ: عَامَ الْحُزْنِ لِأَجْلِ ذَلِكَ؛ أَيَّدَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْآيَةِ الْكُبْرَى، وَأَكْرَمَهُ

بِالْمِنْحَةِ الْعُظْمَى؛ جَزَاءَ صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ، فَأَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى، وَكَلَّمَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى بِلَا وَاسِطَةٍ، فِي حَادِثَةٍ عَظِيمَةٍ، أَجْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهَا فِي سُورَتَي النَّجْمِ وَالْإِسْرَاءِ، وَفَصَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُنَّتِهِ مَا رَأَى، وَوَصَفَ اللَّهُ ﷻ ذَلِكَ بِالْآيَاتِ الْكُبْرَى؛ فَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الْإِسْرَاء: ١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النَّجم: ١٨].

إِنَّهَا مِنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ أُعْطِيهَا النَّبِيُّ ﷺ، فِي وَقْتٍ هُوَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ إِذْ سُدَّتْ طُرُقُ الدَّعْوَةِ فِي وَجْهِهِ، وَاشْتَدَّ تَعْذِيبُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَمَاتَ الْمُحَامِي عَنْهُ، وَمَعَ بُلُوغِ الْكَرْبِ مَدَاهُ جَاءَتْ هَذِهِ الْكَرَامَةُ مُزِيلَةً لِلْكَرْبِ، مُثْبِتَةً لِلْقَلْبِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَشَجَاعَتِهِ عَقِبَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ إِخْبَارِهِ غَيْرَهُ بِتَفَاصِيلِهَا، إِنَّهَا رِحْلَةٌ فِي غَايَةِ الْغَرَابَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَفِيهَا مِنْ خَوَارِقِ مَا اعْتَادُوهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَالْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَقَعَ لَهُ مَا يُسْتَغْرَبُ أَخْفَاهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ عُرْضَةً لِلتَّكْذِيبِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَمْلِكْ دَلِيلًا عَلَى إِثْبَاتِهِ. فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُهُ إِلَّا الْإِخْبَارَ بِهِ قَصَرَهُ عَلَى أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ.

لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَ مِنْ ثَبَاتِهِ وَشَجَاعَتِهِ عَقِبَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ: أَنْ أَخْبَرَ عَنْ رِحْلَةٍ أَرْضِيَّةٍ يَسْتَحِيلُ -عِنْدَ النَّاسِ- وُقُوعُ مِثْلِهَا فِي وَقْتِهِ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ يَتَحَدَّثُ عَنْ رِحْلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ مَا فِيهَا، وَيُحَدِّثُ بِهَا مَنْ؟

إِنَّهُ يَرْمِي بِهَا فِي نُحُورِ أَعْدَائِهِ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ، حَتَّى إِنَّ أُمَّ هَانِئٍ ﵂ لَمَّا أَخْبَرَهَا بِهَا، حَاوَلَتْ مَنْعَهُ مِنْ إِخْبَارِ النَّاسِ؛ لِئَلَّا يُكَذِّبُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، فَتَعَلَّقَتْ بِرِدَائِهِ، وَقَالَتْ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا ابْنَ عَمِّي أَنْ تُحَدِّثَ بِهَذَا قُرَيْشًا فَيُكَذِّبُكَ مَنْ

صَدَّقَكَ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى رِدَائِهِ فَانْتَزَعَهُ مِنْ يَدَيْهَا[(١)].

وَمَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ**، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: **إِنَّهُ أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ**؟ قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: **إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ**. قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: **نَعَمْ**. فَلَمْ يُرِهِ أَبُو جَهْلٍ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **نَعَمْ**، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ**. قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: **إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ**. قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: **نَعَمْ**. قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَضَجُّوا وَأَعْظَمُوا ذَلِكَ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يُصَفِّقُ، وَبَعْضُهُمْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ تَعَجُّبًا وَاسْتِنْكَارًا، فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ: كُلُّ أَمْرِكَ قَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَمَمًا -أَيْ: يَسِيرًا قَرِيبًا- غَيْرَ قَوْلِكَ الْيَوْمَ، أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ كَاذِبٌ، نَحْنُ

---

(١) أخرجه من حديث أم هانئ رضي الله عنها: أبو يعلى في معجمه (٤٢-٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٣) رقم (١٠٩٥)، والضياء المقدسي في فضائل بيت المقدس (٥٢). وعزاه السيوطي في الدر المنثور للطبراني وابن مردويه (٥/ ٢٠٧)، وينظر: المطالب العالية (٤٢٣٥)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٤٥)، والسيرة الحلبية (٢/ ٨٧)، والخصائص الكبرى (١/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣١٢)، والضياء في المختارة (١٠/ ٣٩) رقم (٣٤)، وعزاه الهيثمي لأحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح (١/ ٦٥)، والطبراني في الأوسط (٢٤٤٧)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٢١).

نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ نَصْعَدُ شَهْرًا، وَنَنْحَدِرُ شَهْرًا، تَزْعُمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا أُصَدِّقُكَ، وَمَا كَانَ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَطُّ»[٣].

«قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا المَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى المَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، قَالَ: فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عَقِيلٍ، فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ،** قَالَ: **وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ،** قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ»[٤].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ**» رَوَاهُ مسلم[٥].

لَقَدْ ظَهَرَتْ حُجَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَانَ صِدْقُهُ، وَلَكِنَّ المَصْدُودَ عَنِ الْحَقِّ لَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ، فَانْتَقَلُوا إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ يُرِيدُونَهُ «قَالُوا: يَا مُطْعِمُ، دَعْنَا نَسْأَلْهُ عَمَّا هُوَ أَغْنَى لَنَا مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا؟ فَقَالَ: **أَتَيْتُ عَلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ بِالرَّوْحَاءِ قَدْ أَضَلُّوا نَاقَةً لَهُمْ، فَانْطَلَقُوا فِي**

---

(٣) جزء من حديث أم هانئ المخرج في حاشية (١).

(٤) هذا جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في حاشية (٢).

(٥) أخرج هذا اللفظ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذبتني قريش، قمْتُ في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**» أخرجه البخاري في المناقب، باب الإسراء (٤٤٣٣)، ومسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١٧٠).

طَلَبِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رِحَالِهِمْ لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا قَدَحُ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: هَذِهِ وَالإِلَهِ آيَةٌ! ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ فَنَفَرَتْ مِنِّي الْإِبِلُ، وَبَرَكَ مِنْهَا جَمَلٌ أَحْمَرُ عَلَيْهِ جَوَالِقُ مَخِيطٌ بِبَيَاضٍ، لَا أَدْرِي أَكُسِرَ الْبَعِيرُ أَمْ لَا فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ. قَالُوا: هَذِهِ وَالإِلَهِ آيَةٌ! ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ فِي التَّنْعِيمِ يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ، وَهَا هِيَ ذِهِ تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنَ الثَّنِيَّةِ. فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: سَاحِرٌ، وَانْطَلَقُوا، فَنَظَرُوا، فَوَجَدُوا الْأَمْرَ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَرَمَوْهُ بِالسِّحْرِ، وَقَالُوا: صَدَقَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ فِيمَا قَالَ(٦).

وَهَكَذَا حَالُ الْمُكَذِّبِينَ، يَطْلُبُونَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ؛ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا رَأْيَ الْعَيْنِ؛ انْصَرَفُوا عَنِ التَّصْدِيقِ، وَصَدُّوا عَنِ الْحَقِّ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ، شَأْنُهُمْ فِي ذَلِكَ شَأْنُ مَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وَوَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وَفِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وَأَمَّا طُلَّابُ الْحَقِّ، أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، فَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ إِيمَانِهِمْ تَكْذِيبُ مُكَذِّبٍ، وَلَا اسْتِهْزَاءُ مُسْتَهْزِئٍ، وَلَا حَرْبُ مُحَارِبٍ، حَالُهُمْ حَالُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِنِدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَأَخْبَرَ ﷻ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

كَانَ مِنْهُمُ الصِّدِّيقُ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، حِينَ أُخْبِرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(٦) قطعة من حديث أم هانئ المخرج في الحاشية (١).

يُخْبِرُ بِخَبَرِ الْإِسْرَاءِ، وَأَنَّ بَعْضَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَبْلُ قَدِ ارْتَدُّوا، وَأَنَّ كِبَارَ قُرَيْشٍ جَعَلُوا حَدِيثَهُ مَوْضِعًا لِلسُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، فَبَادَرَ ﷺ إِلَى تَصْدِيقِهِ وَبَيَانِ حُجَّتِهِ فِي ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﵄ فَقَالَتْ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَى رِجَالٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟! فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ؛ أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ. فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ[٧].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٢-٣٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

(٧) أخرجه الضياء المقدسي في فضائل بيت المقدس (٥٣)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (٣/ ٨١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُطَالَعَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ؛ لِاسْتِلْهَامِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِخَيْرِ الْبَشَرِ، فِي إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَصَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الطَّاعِنُونَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمُشَكِّكُونَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا الْمُشْرِكِينَ كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِتَفَاصِيلِهَا، وَمَا جَرَى لَهُ وَمَا رَأَى غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ أَوِ اسْتِهْزَائِهِمْ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ حَقِيقَةَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ بِالْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَمْ يُخْفِ شَيْئًا خَوْفًا مِنْ تَكْذِيبِهِمْ، أَوْ حَذَرًا مِنِ اسْتِهْزَائِهِمْ؛ فَسَخِرُوا مِنْهُ وَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا مَا قَالُوا، وَتِلْكَ سُنَّةُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا كَثُرَتْ طُعُونُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي شَرِيعَةِ رَبِّنَا، تَكْذِيبًا وَتَحْرِيفًا، يُعِينُهُمْ فِي إِفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ أَقْوَامٌ مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا، يَنْطِقُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، وَمَعَ كَثْرَةِ تَشْكِيكِهِمْ فِي شَرِيعَةِ رَبِّنَا، وَتَحْرِيفِهِمْ لِكَلَامِهِ ﷻ، وَرَدِّهِم لِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَصَابَ بَعْضَ النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ

وَالزَّعْزَعَةِ، فَرَاحَتْ تَلْتَمِسُ المَعَاذِيرَ الْوَاهِيَةَ تَزْعُمُ أَنَّهَا بِهَا تَدْرَأُ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَتُقَرِّبُهَا مِنْ عُقُولِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ كَيْمَا يَرْضَوْا عَنْهَا، وَلَوِ اقْتَضَى ذَلِكَ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ، وَمُخَالَفَةَ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ.

لَقَدْ فُتِنَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْحَضَارَةِ المَادِّيَّةِ الَّتِي لَا تُؤْمِنُ بِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَلَا تَعْتَرِفُ إِلَّا بِالْعَالَمِ المُشَاهَدِ، وَكَثِيرٌ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهِ المَادِّيُّونَ أَرْبَابُ الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ، فَانْبَرَى المُنْهَزِمُونَ فِكْرِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا لِلتَّقْلِيلِ مِنْ أَهَمِّيَّةِ الْإِيمَانِ بِهَذَا الْغَيْبِ، وَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِنُوَاكِبَ مَنْ سَبَقُونَا فِي التَّقَدُّمِ المَادِّيِّ!! يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِالمُسْلِمِينَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ السِّتَّةَ الَّتِي لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهَا كُلُّهَا غَيْبٌ!!

بَلْ رَاحَ فَرِيقٌ مِمَّنْ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ، وَمَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَفَسَدَتْ دِيَانَتُهُمْ إِلَى إِنْكَارِ كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْغَيْبِ بَعْدَ إِخْضَاعِهِ لِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ المُنْحَرِفَةِ، وَيَرَى مَنْ يُمَارِسُونَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ النَّكْرَاءَ فِي حَقِّ المُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يُسْدُونَ خِدْمَةً لِلْإِسْلَامِ بِتَقْرِيبِهِ مِنَ الْحَضَارَةِ المَادِّيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ، وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ وَإِلْغَاءِ نُصُوصِهِ المُحْكَمَةِ.

وَرَسُولُنَا ﷺ لَمَّا جَاءَ قُرَيْشًا بِحَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَهِيَ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَا لَا يَخْفَى مَا هَابَ تَكْذِيبَ المُشْرِكِينَ وَلَا سُخْرِيَتَهُمْ بِهِ، وَلَا اتِّهَامَهُمْ لَهُ، وَلَا أَخْفَى شَيْئًا مِمَّا رَأَى بِحُجَّةِ أَنَّ المَصْلَحَةَ تَقْضِي بِإِخْفَائِهِ، بَلْ أَعْلَنَ ذَلِكَ فِي جُمُوعِ النَّاسِ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.

فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يُرِيدُ الِاقْتِدَاءَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَامْتِثَالَ سُنَّتِهِ أَنْ

يُفَاخِرَ بِدِينِهِ، وَيَعْتَزَّ بِشَرِيعَتِهِ، بَعِيدًا عَنِ الِاعْتِذَارِ عَنْهَا، أَوْ تَحْرِيفِهَا وَمَسْخِهَا، أَوِ الْخَجَلِ مِنْ أَحْكَامِهَا، وَلْيَرْضَ بِذَلِكَ مَنْ يَرْضَى، وَيَرْفُضْهُ مَنْ يَأْبَى، فَمَنْ رَضِيَ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الرِّضَا، وَبِهَذَا الرِّضَا يُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ سَخِطَهَا وَسَخِرَ مِنْهَا فَإِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزُّمَر: ٧].

وَمَعَ أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَقْطَارٍ شَتَّى لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ إِلَّا أَنْ جَعَلُوهَا مُنَاسَبَةً لِإِحْيَاءِ الْبِدْعَةِ، وَإِمَاتَةِ السُّنَّةِ، بِاحْتِفَالَاتٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا فَعَلَهَا صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ ﷺ مَعَ تَوَفُّرِ الدَّاعِي لِذَلِكَ، وَعَدَمِ الْمَانِعِ مِنْهُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَهُمْ لِذَلِكَ كَانَ مَقْصُودًا، وَهَلْ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ فَاتَتْهُمْ، وَهُدِيَ إِلَيْهَا مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فِي الْقُرُونِ الْمُتَأَخِّرَةِ؟ كَيْفَ يَزْعُمُ مُسْلِمٌ أَنَّ ذَلِكَ فَاتَ أَفَاضِلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَى، وَعَنْهُمْ يُؤْخَذُ الدِّينُ، أَوَلَيْسَ هَذَا طَعْنًا فِي الرِّسَالَةِ، وَاسْتِدْرَاكًا عَلَى الشَّارِعِ الْحَكِيمِ؟!

وَكُلُّ هَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَسَاسٍ لَا يَثْبُتُ، وَخَبَرٍ لَا يَصِحُّ؛ إِذْ مَبْنَاهُ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَ فِي آخِرِ رَجَبٍ، وَذَلِكَ مَا لَا يَثْبُتُ مِنْ جِهَةِ التَّارِيخِ، وَإِذَا كَانَ الِاخْتِلَافُ فِي مَعْرِفَةِ الْعَامِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْإِسْرَاءُ كَبِيرًا بَيْنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَأَهْلِ السِّيَرِ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الشَّهْرِ وَاللَّيْلَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا؟!

وَلَوْ عُلِمَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً صَحِيحَةً لِمَنْ يَحْتَفِلُونَ بِهِ، فَالْزَمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ فَإِنَّهَا تُرْدِي أَصْحَابَهَا، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى

تَثْبُتُ بِالتَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ، وَالْتِزَامِ السُّنَّةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْبِدْعَةِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١، ٣٢].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .





٣١١- الإسراء والمعراج (٤)

٢٧/٧/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الأَعْلَى؛ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى، حَتَّى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَرَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ وَهَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَنَا الْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ١٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَسَاوَمُوهُ عَلَى دِينِهِ، فَثَبَتَ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي حَتَّى أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَنَصَرَهُ وَأَعَزَّهُ، وَهَزَمَ أَعْدَاءَهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ وَالْهَوَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا صَوَابًا ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ جَعَلَ أُمَّتَهُمْ خَيْرَ الْأُمَمِ، وَجَعْلَهُمْ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٠]، فَدِينُهُمْ أَحْسَنُ الدِّينِ وَأَتَمُّهُ، وَشَرِيعَتُهُمْ أَفْضَلُ الشَّرَائِعِ وَأَكْمَلُهَا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النِّسَاء: ١٢٥].

وَلِذَا كَانَ حَقًّا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَنْشُرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، وَتَدْعُوَ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَتَحْكُمَهُمْ بِهِ، فَلَا يَعْلُو سُلْطَانٌ سُلْطَانَهُ، وَلَا يُحْكَمُ النَّاسُ بِغَيْرِهِ؛ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَلَا عَدْلَ إِلَّا فِيمَا اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَحَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ حَادِثٍ فَرْدِيٍّ صَغِيرٍ، بَلْ رَأَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْآيَاتِ الْكُبْرَى، وَتَجَلَّى لَهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُشَاهَدَةً وَعِيَانًا، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ النَّبَوِيَّةُ الْغَيْبِيَّةُ عَلَى مَعَانٍ دَقِيقَةٍ كَثِيرَةٍ، وَإِشَارَاتٍ حَكِيمَةٍ بَعِيدَةِ الْمَدَى، مِنْ أَهَمِّهَا:

أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ نَبِيُّ الْقِبْلَتَيْنِ، وَإِمَامُ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ، وَوَارِثُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَإِمَامُ الْأَجْيَالِ بَعْدَهُ، فَفِي شَخْصِهِ الْكَرِيمِ، وَفِي إِسْرَائِهِ الْعَظِيمِ؛ الْتَقَتْ مَكَّةُ بِالْقُدْسِ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ خَلْفَهُ، فَكَانَ هَذَا إِيذَانًا بِعُمُومِ رِسَالَتِهِ، وَخُلُودِ إِمَامَتِهِ، وَعَالَمِيَّةِ دِينِهِ، وَصَلَاحِيَّتِهِ لِاخْتِلَافِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَإِصْلَاحِهِ لِمَا أَفْسَدَتِ الشَّيَاطِينُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ[1].

إِنَّ مُرُورَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَنْبِيَاءِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَسَلَامَهُ عَلَيْهِمْ، وَتَرْحِيبَهُمْ بِهِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: «**مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**» إِلَّا أَبَوَيْهِ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ عليهما السلام فَقَالَا: «**مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»[2]، وَصَلَاتَهُ

---

(١) الأساس في السنه لسعيد حوى (١/ ٢٩٢)، عن: السيرة النبويه د: على محمد الصلابي (١/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن عبدالله بن صعصعة رضي الله عنهما: البخاري في الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء (١٦٤).

بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا وَهُمْ خَلْفَهُ يَأْتَمُّونَ بِهِ . . . إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام قَدْ سَلَّمُوا لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ، وَأَقَرُّوا -وَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ- أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَام قَدْ نَسَخَتِ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ، وَأَنَّهُ لَا يَسَعُ أَتْبَاعَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ وَالْأَجْنَاسِ إِلَّا مَا وَسِعَ أَنْبِيَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ التَّسْلِيمُ بِالْقِيَادَةِ لِهَذَا الرَّسُولِ وَلِرِسَالَتِهِ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا، وَالْتِزَامُ أَحْكَامِهَا.

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّينَ بِذَلِكَ، وَذَمَّ مَنْ رَفَضَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، فَالْتَزَمَ النَّبِيُّونَ عليهم السلام لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِهَذَا الْمِيثَاقِ الْعَظِيمِ، فَمَا بَالُ مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهم السلام لَا يَتَّبِعُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ فِي انْقِيَادِهِمْ لِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِقْرَارِ بِإِمَامَتِهِ؟ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١، ٨٢].

إِنَّ عَلَى الَّذِينَ يَعْقِدُونَ مُؤْتَمَرَاتِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ الْأَدْيَانِ أَنْ يُدْرِكُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَهِيَ ضَرُورَةُ انْخِلَاعِ أَتْبَاعِ الدِّيَانَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ مِنْ أَدْيَانِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَالدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ ﷺ وَرِسَالَتِهِ؛ اتِّبَاعًا لِرُسُلِهِمْ، وَوَفَاءً بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ[٣].

وَعَلَى الْمُشَارِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْمُؤْتَمَرَاتِ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ الْغَرْبِيِّينَ وَأَذْنَابَهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِمَا يُسَمَّى حِوَارَاتِ الْحَضَارَاتِ، وَدَعَوَاتِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ

(٣) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).

الْأَدْيَانِ إِلَّا إِخْضَاعَ الْحَقِّ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَطْوِيعَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَدْيَانِهِمُ الْمُحَرَّفَةِ، وَأَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ، وَهَذَا مَا لَنْ يَكُونَ قَدَرًا، وَلَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ شَرْعًا؛ فَالْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ لَا يَلْتَقِيَانِ أَبَدًا، وَلَا يَنْتَفِيَانِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ.

فَخَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يَدْعُوا الضَّالِّينَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَقْبَلُوا الْمُسَاوَمَةَ عَلَيْهِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ؛ فَإِنَّ تَنَازُلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ؛ إِرْضَاءً لِلْقُوَى الطَّاغُوتِيَّةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ لَنْ يَكُونَ حَلًّا صَحِيحًا لِمَشَاكِلِهِمْ، وَلَنْ يَرُدَّ عُدْوَانَ الظَّالِمِينَ عَنْهُمْ، بَلْ إِنَّهُ سَيُطْمِعُ أَعْدَاءَهُمْ فِيهِمْ، مَعَ إِيبَاقِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِسْخَاطِهِمْ لِرَبِّهِمْ. وَلَوْ بَذَلُوا دِينَهُمْ كُلَّهُ لِعُبَّادِ الصَّلِيبِ وَعُبَّادِ الْعِجْلِ وَعُبَّادِ الْمَادَّةِ، فَلَنْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٠].

وَلَمَّا سَاوَمَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِينِهِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ التَّنَازُلَ عَنْ بَعْضِهِ، وَمُوَافَقَتَهُمْ فِي بَعْضِ دِينِهِمْ كَانَ جَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الْكَافِرُونَ: ١-٦].

وَمَاذَا يُرِيدُ دُعَاةُ تَقَارُبِ الْأَدْيَانِ إِلَّا انْخِلَاعَ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ حَقِّهِمْ، وَمُوَافَقَةَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَاطِلِهِمْ، وَلَنْ يَقْبَلُوا حِوَارًا أَوْ تَقَارُبًا يُقْضَى فِيهِ بِالْحَقِّ، وَيُزْهَقُ فِيهِ الْبَاطِلُ، وَيُؤْخَذُ فِيهِ عَلَى أَيْدِي الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالظَّالِمِينَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ ارْتَبَطَتْ أَرْضُ الشَّامِ الْمُبَارَكَةُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ الْمُقَدَّسَةِ،

وَتَوَاثَقَتْ عَلَاقَةُ بَيْتِ المَقْدِسِ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَكَانَ الْإِسْرَاءُ مِنْ مَكَّةَ، وَالْمِعْرَاجُ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَبَيْنَهُمَا مَسْجِدُ المَدِينَةِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ المَعَانِي مَا لَا يُدْرِكُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَفِيهِ أَهَمِّيَّةُ المَسْجِدِ الْأَقْصَى بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَيْسَ لِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ، أَوْ طَائِفَةٍ دُونَ طَائِفَةٍ؛ إِذْ هُوَ مَسْرَى رَسُولِهِمْ ﷺ، وَمِعْرَاجُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ قِبْلَتَهُمُ الْأُولَى طِيلَةَ الْفَتْرَةِ المَكِّيَّةِ، وَهَذَا تَوْجِيهٌ وَإِرْشَادٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُحِبُّوا المَسْجِدَ الْأَقْصَى وَمَا حَوْلَهُ؛ لِأَنَّهَا أَرْضٌ مُبَارَكَةٌ مُقَدَّسَةٌ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ تَحْرِيرِ المَسْجِدِ الْأَقْصَى مِنَ الشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ، كَمَا هِيَ أَيْضًا مَسْئُولِيَّتُهُمْ فِي تَحْرِيرِ المَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ أَوْضَارِ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، حِينَ أُزِيلَتْ يَومَ الفَتْحِ المُبِينِ.

وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةُ ﷺ أَهَمِّيَّةَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى فَلَمْ يُرْضِهِمْ أَنْ يَظَلَّ أَسِيرًا تَحْتَ حُكْمِ الرُّومَانِ، فَسُيِّرَتْ جُيُوشُ الْحَقِّ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ المُبَارَكَةِ؛ لِفَتْحِهِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ شِرْكِ الرُّومَانِ، وَضَمِّهِ إِلَى بِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَسَافَرَ خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنَ المَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ لِاسْتِلَامِهِ مِنْ قَادَةِ النَّصَارَى لَمَّا تَصَالَحُوا مَعَ قَادَةِ المُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَجَاوَرَ فِي أَرْضِهِ المُبَارَكَةِ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَكَانَتِهِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ.

وَبِهَذَا نُدْرِكُ أَهَمِّيَّةَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِهَا سُورَةً افْتُتِحَتْ بِذِكْرِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ، وَسُمِّيَتْ بِاسْمِهَا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الْإِسْرَاء: ١].

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ أُمَّتِهِ وَمِنْ أَتْبَاعِهِ وَعَلَى دِينِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ....

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الرَّبْطَ بَيْنَ حَرَمِ مَكَّةَ وَبَيْتِ المَقْدِسِ فِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ مُشْعِرٌ بِأَنَّ أَيَّ تَهْدِيدٍ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَأَهْلِهِ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِلْحَرَمَيْنِ المَكِّيِّ وَالمَدَنِيِّ وَأَهْلِهِمَا، وَأَنَّ النَّيْلَ مِنَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى مَا هُوَ إِلَّا تَوْطِئَةٌ لِلنَّيْلِ مِنَ الْحَرَمَيْنِ؛ فَالمَسْجِدُ الْأَقْصَى هُوَ بَوَّابَةُ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ إِلَى الْحَرَمَيْنِ المَكِّيِّ وَالنَّبَوِيِّ. وَاحْتِلَالُ الصَّهَايِنَةِ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَوُقُوعُهُ فِي أَيْدِي الْيَهُودِ يَعُودُ بِالْخَطَرِ عَلَى حَرَمَيْ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَنْظَارَ الْأَعْدَاءِ تَتَّجِهُ إِلَيْهِمَا بَعْدَ الْأَقْصَى.

وَلَمَّا احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ المَسْجِدَ الْأَقْصَى سَعَى المُسْلِمُونَ إِلَى تَطْهِيرِهِ مِنْ رِجْسِهِمْ، وَجَاهَدُوهُمْ تِسْعِينَ سَنَةً فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَقَدَّمُوا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ رَخِيصَةً لِافْتِدَاءِ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَسْجِدِهَا الْأَقْصَى، حَتَّى تَهَيَّأَ لَهُمْ ذَلِكَ بِقِيَادَةِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِقَدَاسَتِهَا،

وَلِعِلْمِ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ أَنَّ أَطْمَاعَ الصَّلِيبِيِّينَ سَتَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى حَرَمَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ(٤).

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ؛ إِذْ إِنَّ الْمَلِكَ الصَّلِيبِيَّ «أَرْنَاط» صَاحِبَ مَمْلَكَةِ الْكَرَكِ آنَذَاكَ أَرْسَلَ بِعْثَةً لِلْحِجَازِ لِلاعْتِدَاءِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَبْشِ قَبْرِهِ، وَلَكِنَّهُ خَابَ وَخَسِرَ(٥).

ثُمَّ حَاوَلَ الْبُرْتُغَالِيُّونَ الْوُصُولَ إِلَى الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ لِتَنْفِيذِ مَا عَجَزَ عَنْهُ أَسْلَافُهُمُ الصَّلِيبِيُّونَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَدَّهُمْ بِالْمَمَالِيكِ وَالْعُثْمَانِيِّينَ فَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ.

---

(٤) ينظر: خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس (٣/ ٤٣٥)، وخطبة: سلب الأقصى واسترداده (٣/ ٤٦٦).

(٥) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).
قال المقريزي في السلوك في أحداث سنة (٥٧٨): «وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز، وأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفنًا، وحملها على البر إلى بحر القلزم، وأركب فيها الرجال، وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء. وسارت البقية نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم نحو ست عشرة مركبًا، وأخذوا بعيذاب مركبًا يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين، وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع؛ فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية. فجهز الملك العادل -وهو يخلف السلطان بالقاهرة- الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم فعمر مراكب بمصر والإسكندرية وسار إلى أيلة، وظفر بمراكب للفرنج فحرقها، وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب، وتبع مراكب الفرنج فوقع بها بعد أيام، واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، ورد عليهم ما أخذ لهم، وصعد البر موكب خيل العرب حتى أدرك مَنْ فَرَّ من الفرنج، وأخذهم فَسَاقَ منهم اثنين إلى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة، فضربت أعناقهم كلهم» اهـ من السلوك (١/ ١٩٠)، وأشار إلى ذلك ابن كثير في البداية (١٦/ ٥٥٧).

وَفِي حَرْبِ مَا يُسَمَّى بِالنَّكْسَةِ قَبْلَ أَرْبَعِينَ عَامًا احْتَلَّ الْيَهُودُ بَيْتَ المَقْدِسِ، ثُمَّ صَرَّحَ زُعَمَاؤُهُمْ بَعْدَ نَصْرِهِمْ بِأَنَّ الْهَدَفَ بَعْدَ بَيْتِ المَقْدِسِ احْتِلَالُ الْحِجَازِ، وَفِي مُقَدِّمَةِ ذَلِكَ مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَيْبَرُ، وَوَقَفَ الزَّعِيمُ الصِّهْيَوْنِيُّ بِنْ غُورْيُونْ بَعْدَ دُخُولِ الْجَيْشِ الْيَهُودِيِّ الْقُدْسَ يَسْتَعْرِضُ جُنُودًا وَشُبَّانًا مِنَ الْيَهُودِ بِالْقُرْبِ مِنَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَيُلْقِي فِيهِمْ خِطَابًا نَارِيًّا يَخْتَتِمُهُ بِقَوْلِهِ: «لَقَدِ اسْتَوْلَيْنَا عَلَى الْقُدْسِ، وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى يَثْرِبَ»(٦).

وَوَقَفَتْ غُولْدَا مَائِيرُ رَئِيسَةُ وُزَرَاءِ الْيَهُودِ، بَعْدَ احْتِلَالِ بَيْتِ المَقْدِسِ، عَلَى خَلِيجِ إِيلَاتَ فِي الْعَقَبَةِ، تَقُولُ: إِنَّنِي أَشُمُّ رَائِحَةَ أَجْدَادِي فِي المَدِينَةِ وَالْحِجَازِ، وَهِيَ بِلَادُنَا الَّتِي سَوْفَ نَسْتَرْجِعُهَا(٧).

ثُمَّ نَشَرَ الْيَهُودُ خَرِيطَةً لِدَوْلَتِهِمُ المُنْتَظَرَةِ الَّتِي شَمِلَتِ الْمِنْطَقَةَ مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى النِّيلِ، بِمَا فِي ذَلِكَ أَجْزَاءٌ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، مِنْ ضِمْنِهَا مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَزَّعُوا تِلْكَ الْخَرِيطَةَ فِي أُورُوبَّا إِثْرَ انْتِصَارِهِمْ فِيمَا سُمِّيَ بِالنَّكْسَةِ(٨).

كُلُّ هَذِهِ أَحْدَاثٌ وَدَلَائِلُ تُشِيرُ إِلَى الِارْتِبَاطِ الْوَثِيقِ بَيْنَ المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ لِلْعِبَادَةِ إِلَّا إِلَيْهَا، وَأَنَّ الْخَطَرَ عَلَى بَعْضِهَا يَشْمَلُ جَمِيعَهَا، وَأَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَالرُّسُلُ قَدْ بُعِثُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَرْضُ أَرْضُهُ، وَقَدْ بَارَكَ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ بِالْحَرَمَيْنِ، وَبَارَكَ أَرْضَ الشَّامِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَجَعَلَ هَذِهِ المَسَاجِدَ مَوْضِعَ ذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَلَا أَحَدَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى بِحَقٍّ إِلَّا أَتْبَاعُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(٦) السيرة النبوية لأبي فارس (٢١٣)، عن السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).
(٧) السيرة النبوية لابي فارس (٢١٤)، عن السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٧).
(٨) المصدران السابقان.

وَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُدْرِكُوا مِنْ مَعَانِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ إِلَّا إِحْيَاءَ اللَّيْلَةِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَقَعَ فِيهَا، مَعَ أَنَّهَا لَيْلَةٌ مَجْهُولَةُ الْعَيْنِ وَالشَّهْرِ وَالْعَامِ، وَلَوْ كَانَتْ مَعْلُومَةً لَمَا كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ فِي إِحْيَائِهَا بِعِبَادَةٍ لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا فَعَلَ ذَلِكَ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﵃، وَلَا التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ.

وَإِنَّمَا أَحْدَثَ الِاحْتِفَالَاتِ الْبِدْعِيَّةَ بِالْأَيَّامِ بَنُو عُبَيْدٍ الْبَاطِنِيُّونَ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ إِبَّانَ احْتِلَالِهِمْ لِمِصْرَ، وَهُمْ طَائِفَةٌ خَبِيثَةٌ تُظْهِرُ وَلَاءَهَا لِآلِ الْبَيْتِ، وَتُبْطِنُ عَقَائِدَ خَبِيثَةً، وَقَدْ أَطْبَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كُفْرِ أَئِمَّتِهِمْ وَحُكَّامِهِمْ؛ لِمَا أَظْهَرُوهُ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، وَلِمَا حَرَّفُوهُ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِمَا دَعَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، ثُمَّ قَلَّدَهُمْ جَهَلَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي الِاحْتِفَالَاتِ بِالْمَوَالِدِ وَالْإِسْرَاءِ وَالْهِجْرَةِ مَا تَرَوْنَهُ أَوْ تَسْمَعُونَ بِهِ كُلَّ عَامٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، فَاحْذَرُوا ذَلِكَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَحَذِّرُوا مِنْهُ إِخْوَانَكُمُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﵃، وَمَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❊ ❊ ❊



٣١٢- الهجرة النبوية

١٢/ ١/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ جَعَلَ الهِجْرَةَ مَلَاذًا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَسَبَبًا يُوصِلُ إِلَى النَّصْرِ المُبِينِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ الهِجْرَةَ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ، وَرَفْعِ رَايَةِ التَّوْحِيدِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَفْضَلُ المُهَاجِرِينَ، وَخَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ المُؤْمِنِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، وَيُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا.

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ: إِنَّ سِيرَةَ المُصْطَفَى ﷺ حَافِلَةٌ بِالْعِبَرِ، مَلِيئَةٌ بِالْعِظَاتِ، مُنْذُ بَعْثَتِهِ ﷺ إِلَى وَفَاتِهِ، فَمَا مِنْ يَوْمٍ قَضَاهُ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا وَهُوَ دَرْسٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعِبْرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، يَنْهَلُ المُؤْمِنُونَ مِنْ مَعِينِ سِيرَتِهِ الصَّافِيَةِ، وَيَرْتَوُونَ مِنْ عُذُوبَةِ حَدِيثِهِ الْجَامِعِ، وَطِيبِ كَلَامِهِ النَّافِعِ، إِنَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيلُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُصْطَفَاهُ ﷺ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وَلَئِنْ كَانَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَغَزَوَاتِهِ وَأَسْفَارِهِ، لَا يُحِيطُ بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَوْرَاقِ، وَلَا يَكْفِي فِي الْحَدِيثِ عَنْهَا طَوِيلُ السَّاعَاتِ، فَحَسْبُنَا جَانِبٌ مِنْ جَوَانِبِهَا الْعَظِيمَةِ، وَجُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهَا الْكَثِيرَةِ.

إِنَّهَا الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ المُبَارَكَةُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، الَّتِي بِهَا فَرَّ

الْمُسْلِمُونَ بِدِينِهِمْ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ حِينَ أَذَاقُوهُمْ أَصْنَافَ الْعَذَابِ، وَأَلْوَانَ الْأَذَى؛ لِيَصْرِفُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟! لِأَنَّ الدِّينَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَرْضَ أَرْضُهُ سُبْحَانَهُ، وَالْعِبَادَ عِبَادُهُ ﷻ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُمَكِّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالْهِجْرَةِ، وَانْتَظَرَ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ تَسَابُقَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ خَافُوا أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَتَقْوَى شَوْكَتُهُ ثُمَّ يَعُودَ فَيَغْزُوهُمْ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ لَا تَقْضِي أَمْرًا إِلَّا فِيهَا، يَتَشَاوَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَضَرَ مَعَهُمُ اجْتِمَاعَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، وَكَانَ يُخَطِّئُ كُلَّ رَأْيٍ لَا يَرَاهُ سَدِيدًا فِي الْقَضَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، حَتَّى أَعْلَنَ أَبُو جَهْلٍ رَأْيَهُ فِي أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى جَلْدًا نَسِيبًا، ثُمَّ يُعْطُوهُمْ سُيوفًا صَارِمَةً، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ وَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، فَيُرْغِمُونَ قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الرِّضَا بِالدِّيَةِ، فَقَالَ إِبْلِيسُ حِينَهَا: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي لَا أَرَى غَيْرَهُ.

تَفَرَّقَ الْقَوْمُ وَهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ أَبَى إِلَّا أَنْ يَحْفَظَ نَبِيَّهُ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، وَمُؤَامَرَةِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ حَيْثُ أَتَى جِبْرِيلُ عليه السلام وَأَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي فِرَاشِهِ، وَأَمَرَ عَلِيًّا رضي الله عنه أَنْ يَنَامَ فِيهِ، فَفَدَى عَلِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ وَالْفِتْيَةُ يَنْتَظِرُونَهُ عَلَى الْبَابِ، وَأَخَذَ ﷺ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ، وَصَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَبْصَارَهُمْ عَنْهُ فَلَمْ يَرَوْهُ، فَجَعَلَ يَنْثُرُ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو أَوَائِلَ سُورَةِ يس، حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ

تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩][(١)].

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالْهِجْرَةِ، فَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالهِجْرَةِ**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الصُّحْبَةَ**»[(٢)].

قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: «فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ»[(٣)].

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ عَلَى رَاحِلَتَيْنِ كَانَ قَدْ أَعَدَّهُمَا لِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، وَسَارَ الْمُشْرِكُونَ فِي طَلَبِهِمَا، وَجَعَلُوا مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ ظَفِرَ بِهِمَا، فَلَجَأَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ لَيْلًا، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَسَ الْغَارَ لِيَنْظُرَ: أَفِيهِ سَبُعٌ أَوْ حَيَّةٌ؟ يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، وَاشْتَدَّ طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ، وَوَصَلُوا إِلَى الْغَارِ، حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»[(٤)].

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩١)، وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٢٩)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﷺ: البخاري في البيوع، باب إذا اشترى متاعًا أو دابة، فوضعه عند البائع أو مات قبل أن يقبض (٢١٣٨).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١١)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٦٩).

(٤) أخرجه من حديث أنس عن أبي بكر ﷺ: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم(٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر ﷺ (٢٣٨١).

وَمَكَثَا فِي الْغَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى هَدَأَ الطَّلَبُ عَنْهُمَا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَا المَسِيرَ وَمَعَهُمَا دَلِيلُهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ ﷺ لَمَّا سَمِعُوا بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ يَخْرُجُونَ إِذَا صَلَّوُا الْفَجْرَ إِلَى ظَاهِرِ حَرَّةِ المَدِينَةِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: فَوَاللَّهِ مَا نَبْرَحُ حَتَّى تَغْلِبَنَا الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ ظِلًّا دَخَلْنَا وَذَلِكَ فِي أَيَّامٍ حَارَّةٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَلَسْنَا كَمَا كُنَّا نَجْلِسُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ رَأَى مَا كُنَّا نَصْنَعُ، وَأَنَّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا بَنِي قَيْلَةَ، هَذَا جَدُّكُمْ -أَيْ: حَظُّكُمْ- قَدْ جَاءَ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﵁ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، وَأَكْثَرُنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَكِبَهُ النَّاسُ وَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ(٥).

وَهَكَذَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ- وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ سَالِمًا مَحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِعَايَتِهِ، رَغْمَ مُؤَامَرَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَمَكَائِدِهِمْ، وَاسْتَبْشَرَ بِهِ الْأَنْصَارُ أَيَّمَا اسْتِبْشَارٍ، وَفَرِحُوا بِهِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ.

هَذَا مُوجَزُ هِجْرَةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَجُزْءٌ مِنْ تَضْحِيَاتِهِ لِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، فَتَرَكَ وَطَنَهُ، وَتَغَرَّبَ عَنْ بَلَدِهِ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ ﷿، وَمَا وَطِئَتِ الْأَرْضَ قَدَمٌ أَفْضَلُ مِنْ قَدَمِهِ ﷺ، لَكِنَّهُ رَغْمَ ذَلِكَ أُوذِيَ وَغُرِّبَ، وَأُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ؛ لِيُقِيمَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، وَيَعُودَ إِلَيْهَا فَاتِحًا مَنْصُورًا، حَتَّى وَصَلَنَا الدِّينُ نَقِيًّا مَحْفُوظًا، فَنُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى بَلَاغِهِ، وَجَزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنَّا

---

(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠)، وتاريخ خليفة (٥٥).

وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَلَئِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ مَوْلِدِهِ وَمَنْشَئِهِ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْبِقَاعِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ﷻ فِي الْأَرْضِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى عَادَ إِلَى بَلَدِهِ فَاتِحًا مُحَطِّمًا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَمُطَهِّرًا بَيْتَ اللَّهِ ﷻ مِنْ رِجْسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَادَاتِهَا، فَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهَا أَصْبَحَتْ بَلَدًا إِسْلَامِيًّا، بَلْ هِيَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ، وَمَنْبَعُ الرِّسَالَةِ، وَقِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ.

إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُهَاجِرُونَ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي شَرُفَتْ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ إِلَى دِيَارِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْكَافِرَةِ، بِحُجَّةِ التَّرْوِيحِ وَالتَّرْفِيهِ عَنِ النَّفْسِ؟! وَيَمْكُثُونَ أَشْهُرًا عِدَّةً بِنِسَائِهِمْ

وَأَوْلَادِهِمْ، وَقَدْ يَقَعُونَ فِي المُحَرَّمَاتِ، وَتُغْوِيهِمُ المُغْرِيَاتُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ إِثْمِ ذَلِكَ إِلَّا الْإِقَامَةُ بَيْنَ ظَهَرَانَي المُشْرِكِينَ، وَعَدَمُ سَمَاعِ الْأَذَانِ يُجْهَرُ بِهِ فِي المَآذِنِ، وَرُؤْيَةُ الْحَرَامِ الَّتِي لَا يَكَادُ يَنْفَكُّ مِنْهَا أَحَدٌ بِسَبَبِ انْتِشَارِ الْعُرْيِ فِي الْبِلَادِ الْكَافِرَةِ.

حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَتِ الْإِجَازَةُ وَقَدْ صَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَقَدْ كَانَ الْأَوْلَى أَنْ تَسُدَّ جَوْعَةَ مُؤْمِنٍ، أَوْ تَكْسُوَ عَوْرَتَهُ، عَادُوا بِجَرَاثِيمِ تِلْكَ الْبِلَادِ، جَرَاثِيمَ حِسِّيَّةٍ أَنْتَجَتْهَا الشَّهَوَاتُ لِمَنْ وَقَعَ فِي المُحَرَّمَاتِ، فَنَقَلُوا أَمْرَاضَهَا إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَنَشَرُوهَا فِي مُجْتَمَعِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَجَرَاثِيمَ مَعْنَوِيَّةٍ تَتَمَثَّلُ فِي مَبَادِئَ سَاقِطَةٍ، وَأَفْكَارٍ مُنْحَرِفَةٍ، مُسْتَقَاةٍ مِنْ فِكْرِ الْغَرْبِيِّينَ وَثَقَافَتِهِمْ، يُعْجَبُ بِهَا الْأَبُ فَيَلُوكُهَا بِلِسَانِهِ، وَيَدْعُو إِلَيْهَا وَهِيَ تُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ وَالشَّرِيعَةَ، وَلَكِنَّهُ الانْبِهَارُ بِمَا عِنْدَ الْآخَرِينَ.

وَتَتَأَثَّرُ النِّسَاءُ بِالتَّهَتُّكِ فِي اللِّبَاسِ، وَمَا نُقِلَتْ مُوضَاتُ الْعُرْيِ إِلَّا بِسَبَبِ الْإِعْجَابِ بِأَلْبِسَةِ الْكَافِرَاتِ وَالْفَاسِقَاتِ.

وَيَتَأَثَّرُ الْأَوْلَادُ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِحَيَاةِ الانْفِلَاتِ الَّتِي يَعِيشُهَا أَوْلَادُ الْغَرْبِ بَعِيدًا عَنْ رِقَابَةِ الْأُسْرَةِ وَصِيَانَتِهَا، وَهَذَا يُوجِدُ فِي نُفُوسِهِمُ التَّمَرُّدَ عَلَى أُسَرِهِمْ، وَعَلَى قُيُودِ الشَّرِيعَةِ، وَعَلَى أَنْظِمَةِ بُلْدَانِهِمْ.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَدْمَنُوا السَّفَرَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ وَالْعُهْرِ ضَجِرُوا مِنْ بُلْدَانِهِمْ فِي تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ فِيهَا، وَصَارَ مِنْهُمْ أُنَاسٌ يُطَالِبُونَ بِنَقْلِ مَبَادِئِ الْكَافِرِينَ وَقَوَانِينِهِمْ إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَهَلْ هَذِهِ دُرُوسُ الْهِجْرَةِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا المُسْلِمُونَ وَدَرَسُوهَا مِنْ كُتُبِ السِّيرَةِ؟ أَهَكَذَا يَنْقَلِبُ مَفْهُومُ الْهِجْرَةِ عِنْدَ بَعْضِ المُسْلِمِينَ حَتَّى تُصْبِحَ مِنْ بَلَدِ الْإِسْلَامِ إِلَى بَلَدِ الشِّرْكِ؟

وَأَضْرَارُ سَفَرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ -بِلَا حَاجَةٍ تَدْعُو لِذَلِكَ- كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَالْأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ فِي الْمُجْتَمَعِ صَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْقَادِمِينَ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ وَالْخَنَا نَظْرَةَ إِعْجَابٍ وَتَقْدِيرٍ، وَاحْتِرَامٍ وَتَوْقِيرٍ، تَقُودُ إِلَى تَقْلِيدِهِمْ فِيمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ طَرَائِقِ الْكُفَّارِ وَعَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَلْبِسَتِهِمْ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاحْذَرُوا كُلَّ سَفَرٍ يَكُونُ سَبَبًا فِي انْحِرَافٍ، وَلَا تَسْتَمِعُوا لِكُلِّ نَاعِقٍ مُتَفَرْنِجٍ، وَخُذُوا مِنْ هِجْرَةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَسِيرَتِهِ الْعِبَرَ وَالْعِظَاتِ؛ فَإِنَّ النَّصْرَ يَكُونُ بِالسَّيْرِ عَلَى طَرِيقِهِ، وَاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ، وَعَدَمِ الْحَيْدَةِ عَنْهُ أَبَدًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٣١٣- الغزو في رمضان (١)

١٥/ ٩/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ جَعَلَ رَمَضَانَ لِلْخَيْرَاتِ مَوْسِمًا، وَلِلنَّصْرِ وَالْفُتُوحِ مَوْقِعًا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، لَمْ يَزَلْ غَفُورًا رَحِيمًا، وَكَانَ بِعِبَادِهِ لَطِيفًا خَبِيرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَلِلنَّاسِ هَادِيًا وَبَشِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ لَيْلُهُمْ قِيَامٌ وَسُجُودٌ، وَنَهَارُهُمْ جِهَادٌ وَفُتُوحٌ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَأَنْتُمْ فِي شَهْرِ التَّقْوَى، وَلَا سَبِيلَ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا التَّقْوَى، وَلَا فِكَاكَ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، اتَّقُوا اللَّهَ ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَذَلَّ فِيهِ الْكَافِرِينَ، أَعَزَّ فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ، وَبِالْفُتُوحِ وَالِانْتِصَارَاتِ، وَأَذَلَّ الْكَافِرِينَ بِالْبُعْدِ عَنْهُ وَمُقَارَفَةِ السَّيِّئَاتِ، وَالْهَزَائِمِ الْمُتَتَابِعَاتِ.

لَمْ تُوجَدْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَعَلَى مَرِّ التَّارِيخِ أُمَّةٌ سَعِدَتْ بِرَمَضَانَ كَمَا سَعِدَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ؛ فَرَمَضَانُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ يُحَرِّكُ فِي نُفُوسِهِمْ كَوَامِنَ الذِّكْرَيَاتِ، وَيُشَوِّقُهُمْ لِلذِّكْرِ وَالْعِبَادَاتِ؛ فَأَيَّامُهُ أَيَّامُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالْفَخَارِ، وَلَيَالِيهِ لَيَالِي

اسْتِجْلَابِ الرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ.

إِنَّ أَوَّلَ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ نُصِرَ فِيهَا الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ كَانَتْ فِي رَمَضَانَ، وَإِنَّ أَعْظَمَ فَتْحٍ أُكْرِمَ بِهِ المُسْلِمُونَ وَذُلَّ بِهِ الْكَافِرُونَ كَانَ فِي رَمَضَانَ.

وَإِنَّ اسْتِعْرَاضَ غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى، وَدِرَاسَةَ أَحْدَاثِهَا لَيَأْخُذُ مِنَ الْوَقْتِ الْكَثِيرَ، وَحَسْبُنَا مُرُورًا عَابِرًا عَلَى أَهَمِّ أَحْدَاثِهَا، وَأَعْظَمِ أَخْبَارِهَا؛ لِإِحْيَاءِ الْقُلُوبِ بِذِكْرَيَاتِهَا، وَحَشْدِ الْهِمَمِ بِأَخْبَارِ رِجَالَاتِهَا، فَالنُّفُوسُ الْأَبِيَّةُ تَفْرَحُ بِذِكْرِ الْجِهَادِ وَالمُجَاهِدِينَ، وَتَتَرَنَّمُ بِتَفَاصِيلِ الْغَزْوِ وَالْفُتُوحِ.

وَفِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ[1] خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، بِفَرَسَيْنِ وَسَبْعِينَ بَعِيرًا[2]، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَلْفِ مُقَاتِلٍ بِمِائَةِ فَرَسٍ وَسِتِّمِائَةِ دِرْعٍ، وَجِمَالٍ كَثِيرَةٍ يَقُودُهَا أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ فِي غُرُورٍ[3]، ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي مُقَارَعَةِ المُشْرِكِينَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَقَالَ وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: «يَا رَسُولَ

(١) اتفق أهل السير على أنها في رمضان، والجمهور على أنها يوم الجمعة السابع عشر. ينظر: مصنف عبد الرزاق (٧٦٩٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٧٥)، وسنن أبي داود في الصلاة، باب من روى أنها ليلة سبع عشرة (١٣٨٤)، وسنن البيهقي (٤/ ٣١٠)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٢٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: مسند الإمام أحمد (٦/ ٣) بتحقيق: أحمد شاكر وصححه، ومستدرك الحاكم (٣/ ٢٠)، ومجمع الزوائد (٦/ ٦٨)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٨٦)، وفتح الباري (١٥/ ١٥٥).

(٣) ينظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤).

اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ ورَبُّكَ فقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ[٤].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرِيدُ رَأْيَ الْأَنْصَارِ؛ لِأَنَّهُمُ الْأَغْلَبِيَّةُ؛ وَلِأَنَّ بُنُودَ اتِّفَاقِ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ لَا تُلْزِمُهُمْ بِالْقِتَالِ خَارِجَ المَدِينَةِ[٥]، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**»، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، فَفَطِنَ لِذَلِكَ قَائِدُ الْأَنْصَارِ وَحَامِلُ لِوَائِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ**»، قَالَ رضي الله عنه: «فَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوًّا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدَّقٌ فِي اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ»، فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، ونشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «**سِيرُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»[٦].

---

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨)، ونحوه عند أحمد في المسند وصححه الشيخ أحمد شاكر (٥/ ٢٥٩)، والبخاري كما في الفتح (١٥/ ١٥١) برقم (٣٩٥٢).

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢٤)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية (٣٤١).

(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨).وجاء في رواية مسلم أن المتكلم سعد بن عبادة (٣/ ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩)، وعزاه الحافظ في الفتح لابن أبي شيبة (١٥/ ١٥١)، وينظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٥١)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٣٤٢).

عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ فِي جَيْشِ المُشْرِكِينَ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَقَالَ: **«هَذِهِ مَكَّةُ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا»**(٧)، فَخَرَجَ المُسْلِمُونَ حَتَّى بَلَغُوا بَدْرًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَطَرًا وَاحِدًا، كَانَ عَلَى المُشْرِكِينَ وَابِلًا شَدِيدًا مَنَعَهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ، وَكَانَ عَلَى المُسْلِمِينَ طَلًّا طَهَّرَهُمْ بِهِ، وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَوَطَّأَ بِهِ الْأَرْضَ، وَثَبَّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، وَرَبَطَ بِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَيْشِ حَتَّى أَتَى أَقْرَبَ مَاءٍ مِنَ الْعَدُوِّ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ شَطْرَ اللَّيْلِ، ثُمَّ صَنَعُوا الْحِيَاضَ وَغَوَّرُوا مَا عَدَاهَا مِنَ الْقُلُبِ؛ لِيَمْنَعُوا المُشْرِكِينَ مِنَ المَاءِ، وَبُنِيَ عَرِيشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَاخْتِيرَ عَدَدٌ مِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ لِحِرَاسَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَقَرِّ قِيَادَتِهِ، ثُمَّ عَبَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَيْشَ(٨)، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ المَعْرَكَةِ، وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: **«هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ»**(٩)، ثُمَّ بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ يُصَلِّي إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ، وَبَاتَ المُسْلِمُونَ لَيْلَهُمْ هَادِئِي الْأَنْفَاسِ، مُنِيرِي الْآفَاقِ، غَمَرَتِ الثِّقَةُ بِاللَّهِ قُلُوبَهُمْ، وَأَخَذُوا مِنَ الرَّاحَةِ قِسْطَهُمْ، يَأْمُلُونَ أَنْ يَرَوْا بَشَائِرَ رَبِّهِمْ بِعُيُونِهِمْ صَبَاحًا(١٠).

---

(٧) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨).

(٨) عن عبد الرحمن بن عوف قال: «عبأنا النبي ﷺ ببدر ليلًا» أخرجه الترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة وقال: وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وسألت محمد ابن إسماعيل عن هذا الحديث؟ فلم يعرفه، وقال: محمد بن إسحاق سمع من عكرمة وحين رأيته كان حسن الرأي في محمد بن حميد الرازي، ثم ضعفه بعد (١٦٧٧).

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٣)، والنسائي في الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨).

(١٠) الرحيق المختوم (٢١٢).

أَمَّا قُرَيْشٌ فَقَضَتْ لَيْلَتَهَا فِي مُعَسْكَرِهَا بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى، وَبَعَثَتْ عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ الْجُمَحِيَّ يَسْتَطْلِعُ لِيَعْرِفَ مَدَى قُوَّةِ جَيْشِ المَدِينَةِ، فَأَخْبَرَ قُرَيْشًا أَنَّ المُسْلِمِينَ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ يَزِيدُونَ قَلِيلًا أَوْ يَنْقُصُونَ، وَقَالَ: وَلَكِنِّي رَأَيْتُ مَعْشَرَ قُرَيْشٍ الْبَلَايَا تَحْمِلُ المَنَايَا، نَوَاضِحُ يَثْرِبَ تَحْمِلُ المَوْتَ النَّاقِعَ، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفُهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَادَكُمْ فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَ ذَلِكَ؟! فَرُوا رَأْيَكُمْ، فَوَقَعَ الْخِلَافُ وَالشِّقَاقُ بَيْنَ المُشْرِكِينَ فِي مُقَابَلَةِ المُسْلِمِينَ(١١)، لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ أَصَرَّ عَلَى الْحَرْبِ.

وَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تَحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ**»(١٢)، وَعَدَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صُفُوفَ المُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ الصَّحَابَةَ ﷺ أَنْ لَا يَبْدَءُوا الْقِتَالَ حَتَّى يَأْمُرَهُمْ بِهِ، ثُمَّ وَجَّهَ أَصْحَابَهُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَقَالَ: «**إِذَا أَكْثَبُوكُمْ** -يعني: كَثَرُوكُمْ- **فَارْمُوهُمْ، واسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ**(١٣)، **وَلَا تَسُلُّوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشُوكُمْ**»(١٤).

أَمَّا المُشْرِكُونَ فَقَدِ اسْتَفْتَحَ أَبُو جَهْلٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِقَوْلِهِ: اللَّهُمَّ أَقْطَعُنَا لِلرَّحِمِ،

---

(١١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٣).

(١٢) المغازي للواقدي (١/ ٧٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٩٢).

(١٣) أخرجه أحمد كما في الفتح الرباني (٢١/ ٤٢)، والبخاري في المغازي، باب من شهد بدرًا (٣٩٨٤-٣٩٨٥).

(١٤) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب سل السيوف عند اللقاء (٢٦٦٤)، وباب في الصفوف (٢٦٦٣).

وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ، فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ[١٥]، اللَّهُمَّ أَيُّنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، وَأَرْضَى عِنْدَكَ، فَانْصُرْهُ الْيَوْمَ[١٦].

وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ، وَبَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِالمُبَارَزَةِ الَّتِي تَفَوَّقَ فِيهَا أَنْصَارُ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَافِعًا يَدَيْهِ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ**»، حَتَّى إِذَا الْتَحَمَ الْفَرِيقَانِ، وَحَمِيَ الْوَطِيسُ، وَاسْتَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ بِشِدَّةٍ، وَاحْتَدَمَ الْقِتَالُ، وَبَلَغَتِ المَعْرَكَةُ ذِرْوَتَهَا، قَالَ: «**اللَّهُمَّ وَإِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا**» وَبَالَغَ فِي الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وَأَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][١٧].

وَأَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاءَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ**» ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، وَيَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][١٨]، وَأَخَذَ حَفْنَةً مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قُرَيْشًا، وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ، وَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَحَدٌ إِلَّا

(١٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤).

(١٦) هذه الزيادة للطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٨) وينظر: الرحيق المختوم (٢١٦).

(١٧) أخرجه أحمد (١/ ٣٠-٣٢)، ومسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

(١٨) ينظر هامش (١٥) وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب إذ تستغيثون ربكم .. (٣٩٥٣).

أَصَابَ عَيْنَهُ وَمِنْخَرَيْهِ وَفَمَهُ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧](١٩).

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: «**شُدُّوا**»، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ قَائِلًا: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ، فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ**»(٢٠).

وَقَالَ وَهُوَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ أَيْضًا: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، وَحِينَئِذٍ شَدَّ الْمُسْلِمُونَ فِي الْقِتَالِ، وَحَمَلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَاخْتَرَقُوا صُفُوفَهُمْ، وَبَعْثَرُوا نِظَامَهُمْ حَتَّى قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: «بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(٢١).

فَفَتَرَ حَمَاسُ الْمُشْرِكِينَ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُمْ، وَتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ، وَهَرَبَ إِبْلِيسُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨](٢٢)، فَبَدَأَتْ أَمَارَاتُ الْفَشَلِ وَالِاضْطِرَابِ فِي صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَتْ تَتَهَدَّمُ أَمَامَ حَمَلَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَاقْتَرَبَتِ الْمَعْرَكَةُ مِنْ نِهَايَتِهَا، وَأَخَذَتْ جُمُوعُ الْمُشْرِكِينَ فِي

---

(١٩) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٣)، والواحدي في أسباب النزول (٢٣٧)، وابن جرير في تفسيره (٩/ ١٣٦)، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٤).

(٢٠) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٣٣).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، والحاكم (٣/ ٤٢٦)، وابن سعد (٢/ ٢٥)، والبيهقي (٩/ ٤٣).

(٢٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٦)، وسيرة ابن كثير (٢/ ٤٢٧).

الْفِرَارِ وَالِانْسِحَابِ الْمُبَدِّدِ، وَرَكِبَ الْمُسْلِمُونَ ظُهُورَهُمْ يَأْسِرُونَ وَيَقْتُلُونَ، حَتَّى هُزِمُوا شَرَّ هَزِيمَةٍ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ يَنْظُرُ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ؟»** فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي طَلَبِهِ، فَوَجَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَبِهِ آخِرُ رَمَقٍ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ، وَأَخَذَ لِحْيَتَهُ لِيَحْتَزَّ رَأْسَهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًى صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَّ الْغَنَمِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رُعَاةِ الْغَنَمِ بِمَكَّةَ، فَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ: **«آللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟»** فَرَدَّدَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: **«اللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، انْطَلِقْ أَرِنِيهِ»**، فَأَرَاهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»**(٢٣).

وَقَدْ أَبْلَى الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ بَلَاءً حَسَنًا، وَعَلَى رَأْسِهِمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، حَتَّى إِنَّ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ لَمَّا أَسَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ سَأَلَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ مِنْكُمُ الْمُعَلَّمُ بِرِيشَةِ النَّعَامَةِ فِي صَدْرِهِ؟ قُلْتُ: ذَاكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الْأَفَاعِيلَ(٢٤).

انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ بِهَزِيمَةٍ سَاحِقَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَبِفَتْحٍ وَنَصْرٍ مُبِينٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدِ

---

(٢٣) أخرجه الطيالسي (٣٢٨)، وأحمد (١/ ٤٤٤) وفيه انقطاع بين أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود وأبيه، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٩). وروى أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: **«مَنْ ينظُرُ ما فعَلَ أبو جَهْلٍ؟»** فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه. أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٦٣)، ومسلم في الجهاد، باب قتل أبي جهل (١٨٠٠).

(٢٤) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم (٢/ ١٢٨) وينظر: مغازي الواقدي (١/ ٨٩).

اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا : سِتَّةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ(٢٥)؛ أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ لَحِقَتْهُمْ خَسَائِرُ فَادِحَةٌ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَأُسِرَ سَبْعُونَ، مِنْهُمُ الْقَادَةُ وَالزُّعَمَاءُ وَالصَّنَادِيدُ(٢٦).

وَلَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَتْلَى فَقَالَ: «**بِئْسَ الْعَشِيرَةُ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ، كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَخَذَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ**»(٢٧)، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا إِلَى قَلِيبٍ مِنْ قُلُبِ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا فِيهِ(٢٨).

وَتَلَقَّى الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ نَبَأَ الْهَزِيمَةِ بِأَسًى شَدِيدٍ، وَحُزْنٍ عَظِيمٍ عَلَى قَتْلَاهُمْ وَأَسْرَاهُمْ، بَيْنَمَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَدْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّام بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ، ثُمَّ تَحَرَّكَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مُظَفَّرًا مَنْصُورًا قَدْ خَافَهُ كُلُّ عَدُوٍّ لَهُ بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَهَنَّأَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ بِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ، وَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَقَسَّمَ الْأَسْرَى عَلَى أَصْحَابِهِ لِإِطْعَامِهِمْ وَإِيوَائِهِمْ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَوْصَى أَصْحَابَهُ بِالْأَسْرَى خَيْرًا، فَكَانَ الصَّحَابَةُ يَأْكُلُونَ التَّمْرَ، وَيُقَدِّمُونَ لِأَسْرَاهُمُ الْخُبْزَ؛ عَمَلًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَسْرَى(٢٩).

---

(٢٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٧)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٧).

(٢٦) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٦)، والمنتظم (٣/ ١٠٩).

(٢٧) زاد المعاد (٣/ ١٨٧).

(٢٨) كما في حديث ابن مسعود ﷺ عند البخاري في الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى (٥٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٤).

(٢٩) قال أبو عزيز أخو مصعب بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحيي فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٣٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٩١٨).

وَهَذِهِ أَخْلَاقٌ عَالِيَةٌ، وَصِفَاتٌ حَمِيدَةٌ فِي مُعَامَلَةِ الْأَسْرَى، لَمْ تُوجَدْ إِلَّا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُرَاقَبَةٍ دَوْلِيَّةٍ، وَلَا إِلَى مُنَظَّمَاتٍ عَالَمِيَّةٍ فِي مُعَامَلَةِ الْأَسْرَى، فَدِينُهُمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِيذَاءِ الْأَسِيرِ وَتَعْذِيبِهِ، بَلْ يَأْمُرُهُمْ بِتَقْدِيمِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَدِينُ بِالدِّينِ، وَيُطَبِّقُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَسْرَى.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ مَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ عَظِيمٍ، وَفَتْحٍ مُبِينٍ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَصَفِيُّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي النُّهَى وَالْعِرْفَانِ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ التَّقْوَى، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى عِزٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرِفْعَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَالتَّقْوَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْمُبِينِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: فِي قِرَاءَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَدِرَاسَةِ أَحْدَاثِهَا عِبَرٌ

وَعِظَاتٌ. وَمَعْرَكَةُ التَّوْحِيدِ الْأُولَى غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَيَكْفِي فِيهَا أَنَّ المُهَاجِرِينَ الْتَقَوْا بِعَشِيرَتِهِمْ فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ، فَرَفَعُوا فِيهَا السُّيُوفَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ؛ وَلَاءً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصًا لِدِينِهِ.

وَكَمْ هُوَ عَزِيزٌ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُشْهِرَ السَّيْفَ فِي وُجُوهِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَةِ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَزُولُ الْعَوَاطِفُ، وَتَذْهَبُ وَشَائِجُ الْقُرْبَى، وَيُقْطَعُ حَبْلُ المَوَدَّةِ.

إِنَّهَا مَعْرَكَةُ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ، إِنَّهَا سَاحَةُ شِرْكٍ وَتَوْحِيدٍ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّضْحِيَاتِ، وَقَدْ ضَحَّى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِكُلِّ شَيْءٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

وَفِي بَدْرٍ تَتَجَلَّى الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أُخُوَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى تَبَادُلِ المَصَالِحِ، وَاسْتِجْلَابِ المَنَافِعِ، وَلَكِنَّهَا مَحَبَّةٌ خَالِصَةٌ فَاقَتْ أُخُوَّةَ النَّسَبِ، وَرَابِطَةَ الْقَرَابَةِ. وَإِلَيْكُمْ هَذَا المَوْقِفَ الْعَجِيبَ؛ فَبَعْدَ انْتِهَاءِ المَعْرَكَةِ مَرَّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ الْعَبْدَرِيُّ بِأَخِيهِ أَبِي عَزِيزِ بْنِ عُمَيْرٍ الَّذِي خَاضَ المَعْرَكَةَ ضِدَّ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَسَرَهُ أَحَدُ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ مُصْعَبٌ لِلْأَنْصَارِيِّ: شُدَّ يَدَيْكَ بِهِ؛ فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ مَتَاعٍ، لَعَلَّهَا تُفْدِيهِ مِنْكَ، فَقَالَ أَبُو عَزِيزٍ لِأَخِيهِ مُصْعَبٍ: أَهَذِهِ وَصَاتُكَ بِي؟ فَقَالَ مُصْعَبٌ: إِنَّهُ -أَيِ: الْأَنْصَارِيَّ- أَخِي دُونَكَ(٣٠). رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى مُصْعَبًا وَرَضِيَ عَنْهُ؛ فَلَقَدْ قَدَّمَ أَخَاهُ فِي الدِّينِ عَلَى أَخِيهِ فِي النَّسَبِ.

وَغَزْوَةُ بَدْرٍ تُصَادِفُ أَوَّلَ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ عَلَى المُسْلِمِينَ وَيَصُومُونَهُ؛ فَرَمَضَانُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَفْتَتِحُهُ مُحَمَّدٌ وَصَحْبُهُ بِأَعْظَمِ مَعْرَكَةٍ تَارِيخِيَّةٍ حَاسِمَةٍ، فَمَا أَجْمَلَهُ

---

(٣٠) مغازي الواقدي (١/ ١٣٤)، وأنساب الأشراف (١/ ١٣١)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٩).

مِنْ رَمَضَانَ! وَمَا أَلَذَّهُ مِنْ صِيَامٍ وَقِيَامٍ بَعْدَ نَصْرٍ مُبِينٍ!

وَمِنْ أَحْسَنِ المَوَاقِعِ وَأَرْوَعِ المُوَافَقَاتِ أَنَّ أَوَّلَ عِيدٍ عَيَّدَهُ المُسْلِمُونَ فِي حَيَاتِهِمْ هُوَ الْعِيدُ الَّذِي يَلِي غَزْوَةَ بَدْرٍ مُبَاشَرَةً، فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، فَمَا أَرْوَعَ ذَلِكُمُ الْعِيدَ بَعْدَ أَنْ تَوَّجَ اللَّهُ تَعَالَى هَامَتَهُمْ بِتَاجِ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ! وَمَا أَرْوَعَ تِلْكَ الصَّلَاةَ الَّتِي صَلَّوْهَا حِينَ خَرَجُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّحْمِيدِ وَهُمْ يَسْتَحْضِرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ! وَقَدْ فَاضَتْ قُلُوبُهُمْ رَغْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحَنِينًا إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ بَعْدَ مَا أَوْلَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَأَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ، وَذَكَّرَهُمْ بِذَلِكَ قَائِلًا عَلِيمًا حَكِيمًا: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

٣١٤- الغزو في رمضان (٢)

١٨/ ٩/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ رَمَضَانَ شَهْرُ الْجِهَادِ وَالْمُجَاهَدَةِ، شَهْرٌ يَشْحَذُ الْعَزِيمَةَ، وَيَرْفَعُ الْهِمَّةَ، وَيُقَوِّي الْإِرَادَةَ. يَكْبَحُ فِيهِ الصَّائِمُ حَقًّا جِمَاحَ شَهَوَاتِهِ، وَيَسْتَعْلِي عَلَى نَزَوَاتِهِ، وَيَتَأَبَّى عَلَى كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَحَبَائِلِ الْهَوَى. هَذَا فِي جِهَادِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ.

وَأَمَّا جِهَادُ الْأَعْدَاءِ فَشَهْرُنَا هَذَا هُوَ شَهْرُ الْمَعَارِكِ وَالْفُتُوحِ، فَاضَتْ مِنْهُ أَنْبَاءُ الْجِهَادِ، وَزَخَرَتْ فِيهِ الْمَلَاحِمُ، وَلَبِسَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدِّرْعَ وَحَمَلَ السِّلَاحَ، وَخَاضَ مَعَامِعَ الْقِتَالِ، وَقَادَ الْجُيُوشَ. وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فِيهِمْ صَائِمُونَ وَفِيهِمْ مُفْطِرُونَ، وَقَائِمُونَ وَمُسْتَغْفِرُونَ وَمُكَبِّرُونَ.

وَهَذَا حَدِيثٌ عَنْ مَعْرَكَةٍ كَانَتْ فَاصِلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفُرْقَانًا بَيْنَ الْإِيمَانِ

وَالْكُفْرِ، وَمَهْمَا طَالَ الْحَدِيثُ عَنْهَا فَإِنَّهُ لَا يَرْوِي الظَّامِئَ، وَلَا يُذْهِبُ شَوْقَ الْمُتَلَهِّفِ، لَكِنَّ هَذَا عَرْضٌ عَامٌّ لِلْغَزْوَةِ، وَوَقَفَاتٌ مِنْهَا.

كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ مُبَارَكٍ مِثْلِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُوَافِقُ سَابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ الْمُبَارَكَةِ[1]، وَمَعَ أَنَّ الْعُدَّةَ وَالْعَتَادَ كَانَ قَلِيلًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ حَاسِمَةٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ.

كَانَ النَّصْرُ فِيهَا سَبَبًا لِلْبَقَاءِ وَالرُّسُوخِ، كَمَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ فِيهَا سَبَبًا لِلانْتِكَاسِ وَرُبَّمَا الْفَنَاءُ، وَإِلَّا لمَا أَلَحَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَبِّهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالمَلَائِكَةِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[2].

مَنْ حَضَرَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ كَمَنْ لَمْ يَحْضُرْهَا فِي الْفَضْلِ وَالْمَنْقَبَةِ، «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[3]، وَيَكْتَسِبُ رَمَضَانُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْجِهَادِ وَالْمَعَارِكِ

---

(١) نقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، وقاله أيضًا عروة بن الزبير وقتادة وإسماعيل والسدى الكبير وأبو جعفر الباقر. ونقل البيهقي أقوالًا في ذلك ثم قال: والمشهور عن أهل المغازي أن ذلك لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان. السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

(٣) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب (٢٤٩٤).

أَهَمِّيَّةً كُبْرَى، حِينَمَا يَكُونُ أَوَّلُ نَصْرٍ فِي أَوَّلِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ، فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ، إِنَّهُ تَوَافُقٌ عَجِيبٌ يُوحِي بِأَنَّ رَمَضَانَ كَمَا أَنَّهُ جِهَادٌ لِلنَّفْسِ، فَيَتَأَكَّدُ فِيهِ جِهَادُ الْكُفَّارِ.

كَانَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَسِيرُونَ مَعَهُ، يُؤَاكِلُهُمْ وَيُشَارِبُهُمْ وَيُشَاوِرُهُمْ، وَيَعِيشُ هُمُومَهُمْ، وَقَدْ مَلَكَ حُبُّهُ ﷺ قُلُوبَهُمْ.

كَانَ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ ﭫ لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ؛ بَعِيدًا عَنْ كِبْرِيَاءِ الْقَادَةِ، وَغُرُورِ السَّادَةِ، وَكَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ بَعِيرًا يَتَعَاقَبُونَ رُكُوبَهَا[٤]، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَتَعَاقَبُونَ بَعِيرًا وَاحِدًا، فَأَرَادَا ﭭ أَنْ يُؤْثِرَاهُ بِالرُّكُوبِ، فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ[٥]، مَعَ أَنَّ أَبَا لُبَابَةَ وَعَلِيًّا كَانَا شَابَّيْنِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فَيَا لَرَوْعَةِ هَذَا الْمَوْقِفِ حِينَمَا يَسْتَوِي الْقَائِدُ وَالْجُنْدُ فِي تَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ وَالصِّعَابِ!

وَمَع هَذَا التَّوَاضُعِ الْعَظِيمِ كَانَ ﷺ يُشَارِكُ الْجُنْدَ فِي الْحَرْبِ، وَيُبَاشِرُ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، حَتَّى قَالَ عَلِيٌّ ﭬ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ[٦].

بِهَذِهِ الرُّوحِ الْمُتَوَاضِعَةِ مَعَ الْخَلْقِ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، يَدْخُلُ الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ، وَيُقَابِلُهُمْ فِي الصَّفِّ صَنَادِيدُ الْكُفْرِ، وَأَئِمَّةُ الضَّلَالِ فِي كِبْرِيَاءٍ وَعَظَمَةٍ،

---

(٤) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٤٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦).

(٥) أخرجه من حديث ابن مسعود ﭬ: أحمد (١/ ٤١١)، وأبو يعلى (٥٣٥٩)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨٦)، وصححه ابن حبان (٤٧٣٣)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٣).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٥١).

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَصِفُهُمْ: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، يَقُولُ قَائِلُهُمْ: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ، وَنَنْحَرَ الْجُزُرَ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا(٧).

دَخَلُوا المَعْرَكَةَ بِنُفُوسِ المُتَغَطْرِسِينَ، وَعُقُولِ المَغْرُورِينَ. يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ وَالنَّصْرِ، وَهُمْ يَرْزَحُونَ تَحْتَ وَطْأَةِ الْبَاطِلِ، وَجَهَالَةِ الشِّرْكِ. كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِاحْتِقَارٍ وَازْدِرَاءٍ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وَمَا بَلَغُوا هَذَا المَبْلَغَ مِنَ الْعَنْجَهِيَّةِ وَالْكِبْرِ وَالْغُرُورِ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ قَدْ عَمِلَ فِيهِمْ عَمَلَهُ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَايَتِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ»(٨).

فَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ بِهَذَا التَّبَايُنِ الْكَبِيرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاشِدُ رَبَّهُ، فَيُجِيبُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ، وَيُرْسِلُ مَدَدَهُ، وَيُنْزِلُ نَصْرَهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وَتَكْتَسِبُ بَدْرٌ شَرَفًا، وَيَعْظُمُ قَدْرُ مَنْ حَضَرَهَا حِينَ نَعْلَمُ أَنَّ المَلَائِكَةَ نَزَلَتْ تُقَاتِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ -اسْمُ فَرَسِ المَلَكِ- فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ

---

(٧) سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٩).

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩).

مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**»(٩) هَذَا مَوْقِفٌ.

وَمَوْقِفٌ آخَرُ: أَسَرَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسَرَنِي، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «**اسْكُتْ؛ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(١٠).

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ قَتْلَى النَّاسِ بِضَرْبٍ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، وَعَلَى الْبَنَانِ، مِثْلَ وَسْمِ النَّارِ(١١).

وَفِي مَغَازِي الْأُمَوِيِّ: خَفَقَ النَّبِيُّ ﷺ خَفْقَةً فِي الْعَرِيشِ ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَان فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَتُهُ**»(١٢). وَقَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٣).

---

(٩) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: أحمد (١/ ١١٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٧)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (٦/ ٧٦).

(١١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٥٦)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٣١٢).

(١٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٥٤)، وعزاه ابن كثير للأموي في مغازيه، وساق سنده في البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤).

(١٣) أخرجه من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٢).

وَلمَّا رَأَى إِبْلِيسُ مَدَدَ المَلَائِكَةِ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وَجَاءَ فِي المُوَطَّإِ مُرْسَلًا: «**مَا رُؤِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ**، قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ المَلَائِكَةَ**»(١٤).

وَأَمَّا التَّضْحِيَةُ وَالْفِدَاءُ فَمِثَالُهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ؛ حَيْثُ جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ يَتَصَدَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ قَصَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ

---

(١٤) أخرجه مرسلًا من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز: مالك في الموطأ (٩٤٤)، وعبد الرزاق (٨١٢٥)، والبغوي في شرح السنة (١٩٣٠). قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: «وطلحة بن عبيد الله بن كريز هذا خزاعي من أنفسهم، تابعي، مدني، ثقة، سمع من ابن عمر وغيره، وقال البخاري: طلحة بن عبيد الله بن كريز الكعبي الخزاعي المدني، سمع أم الدرداء. قال أبو عمر: ... وفيه أن شهود بدر أفضل من كل عمل يعمله الإنسان بعده إلى يوم القيامة نفلًا كان أو فرضًا؛ لأن هذا القول كان منه ﷺ في حجة الوداع، وفيه الخبر عن حسد إبليس وعداوته لعنه الله، وفيه دليل على أن الحسود يجد في ذلة لعدمه ما أوتيه المحسود، ... وأما قوله (أدحر) فمعناه: أبعد من الخير وأهون، والأدحر المطرود المبعد من الخير المهان، يقال: أدحره عنك، أي: أطرده وأبعده. وأما قوله: (يزع الملائكة) فقال أهل اللغة: معنى يزع يكف ويمنع، إلا أنها ها هنا بمعنى يعبيهم ويرتبهم للقتال ويصفهم، وفيه معنى الكف؛ لأنه يمنعهم عن الكلام من أن يشف بعضهم على بعض، ويخرج بعضهم عن بعض في الترتيب، قالوا: ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]» التمهيد (١/ ١١٥، ١١٦).

أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ . . . الآيَةَ [المجادلة: ٢٢] أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ(١٥).

وَهَكَذَا تَنْتَهِي المَعْرَكَةُ بِنَصْرٍ عَظِيمٍ لِجُنْدِ الرَّحْمَنِ، وَقَتْلٍ شَنِيعٍ لِجُنْدِ الشَّيْطَانِ. قُتِلُوا شَرَّ قِتْلَةٍ، وَخُتِمُوا بِأَسْوَإِ خَاتِمَةٍ، وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِذَا أَقْبَلَ المُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى المُسْلِمِينَ ضَرَبُوا وُجُوهَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَدْرَكَتْهُمُ المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ أَدْبَارَهُمْ»(١٦).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَالْحَدِيثُ عَنِ الْجِهَادِ فِي رَمَضَانَ، وَاسْتِعْرَاضُ أَوَّلِ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ يَقُودُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ المُجَاهِدِينَ المُسْلِمِينَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ الْيَوْمَ.

صَامُوا قَبْلَ المَعْرَكَةِ فَأَمْكَنَهُمْ أَنْ يَخُوضُوهَا فِي رَمَضَانَ صَائِمِينَ، إِنَّهُمْ فِي الْبُوسْنَةِ مَا زَالُوا صَامِدِينَ مُنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ. وَفِي الشِّيشَانِ يَتَكَرَّرُ حَدَثُ الْبُوسْنَةِ، وَقَبْلَهَا فِلَسْطِينُ الْعَزِيزَةُ؛ إِذْ تَرْزَحُ تَحْتَ حُكْمِ الْيَهُودِ عُقُودًا مِنَ السِّنِينَ، وَفِي الْفِلِبِّينَ وَكَشْمِيرَ وَالْهِنْدِ وَبُورْمَا، وَغَيْرِهَا مِنْ مَآسِي المُسْلِمِينَ فِي بِلَادٍ مِنَ الْأَرْضِ كَثِيرَةٍ.

هَؤُلَاءِ المُسْلِمُونَ الصَّائِمُونَ الصَّامِدُونَ، قَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْعَدُوُّ إِحَاطَةَ السِّوَارِ

---

(١٥) أخرجه من حديث عبد الله بن شوذب: الطبراني في الكبير (١/ ١٥٤) رقم (٣٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠١)، وفي معرفة الصحابة (٥٧٩)، والحاكم (٣/ ٣٢١)، وساقه الحافظ في الإصابة فقال: أخرجه الطبراني بسند جيد (٣/ ٥٨٧)، لكنه قال في التلخيص الحبير: وهذا معضل، وكان الواقدي ينكره ويقول: مات والد أبي عبيدة قبل الإسلام (٤/ ١٩٢).

(١٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢).

بِالمِعْصَمِ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ الْأَرْضِ فِي حُرُوبٍ عَقَائِدِيَّةٍ، وَتَخَلَّى عَنْ نَجْدَتِهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْقَادِرِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ. هَذَا إِذَا لَمْ يَكُونُوا بِأَمْوَالِهِمْ يُعِينُونَ الْعَدُوَّ عَلَى إِخْوَانِهِمْ، وَبَعْضٌ مِنَ المُسْلِمِينَ كَذَلِكَ.

هَؤُلَاءِ المُسْتَضْعَفُونَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ، هَلْ هُمْ إِلَّا صَائِمُونَ عَنِ الرَّاحَةِ؟! فَلَا يَعْرِفُونَ هُدُوءًا وَلَا اسْتِقْرَارًا، صَائِمُونَ عَنِ التَّرَفِ فَلَا يَعْرِفُونَ فِرَاشًا وَثِيرًا، أَوْ قُعُودًا مُرِيحًا، صَائِمُونَ عَنِ النَّوْمِ فَلَا يَعْرِفُونَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، صَائِمُونَ عَنْ طُولِ الْأَمَلِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا، فَلَا يَرَوْنَ أَلَذَّ مِنَ المَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى طَعْمًا، وَلَا أَحْلَى مِنَ الشَّهَادَةِ مَوْرِدًا، حَتَّى عَجِبَ الْأَعْدَاءُ مِنْ ثَبَاتِ المُسْلِمِينَ وَتَضْحِيَاتِهِمْ رَغْمَ قِلَّةِ المُعِينِ وَالنَّصِيرِ، وَرَغْمَ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ الْعَظِيمِ، وَالْأَعْدَاءُ يُكَابِدُونَ ضَرَبَاتِ المُجَاهِدِينَ المُوْجِعَةَ عَلَى قِلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعَتَادِ، يَقُولُ قَائِلُهُمْ وَقَدْ شَابَتْ ذَوَائِبُهُمْ مِنْ بُطُولَاتِ المُسْلِمِينَ الْعُزَّلِ: مَنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ؟! أَهُمْ جِنٌّ أَمْ شَيَاطِينُ أَمْ قَوْمٌ خُلِقَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْحَدِيدِ، فَلَا تَعْرِفُ الْخَوْفَ أَوِ الْهَلَعَ، وَلَا يُرْهِبُهُمُ الدَّمَارُ وَلَا النَّارُ؟!

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ أَنَّ نَفْسًا لَهَا أَخْلَاقُ المُفْطِرِينَ المُنْهَزِمِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَعْبِدُهُمُ الطَّعَامُ، وَيَسْتَذِلُّهُمُ الشَّرَابُ، لَنْ تَنْتَصِرَ بِحَالٍ عَلَى نَفْسٍ لَهَا أَخْلَاقُ الصَّائِمِينَ المُنْتَصِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَعْبِدُهُمْ رَبٌّ قَاهِرٌ، وَيُوَجِّهُهُمْ قَلْبٌ مُشْرِقٌ طَاهِرٌ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَاهُمْ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ، وَكَثْرَةِ المِحَنِ، ثَبَّتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَوَّى عَزَائِمَهُمْ. اللَّهُمَّ انْصُرْ إِخْوَانَنَا المُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ يُفِيضُ مِنْ جُودِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَزِيدُ حَسَنَاتِهِمْ، وَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَشَهْرُ التَّقْوَى آخِذٌ فِي النُّقْصَانِ، وَذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الْأَعْمَارِ وَقُرْبِ الْآجَالِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: عَلَى الْأَبْوَابِ عَشْرُ رَمَضَانَ الْفَاضِلَةُ، فُضِّلَتْ عَلَى غَيْرِهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ «**مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(١٧)، وَرَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَمْ يَجْتَهِدْ فِي غَيْرِهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(١٨).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ**»(١٩).

بَلْ كَانَ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا بُدَّ مِنْ عِمَارَتِهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْمَغْبُونَ مَنْ غُبِنَ فِيهَا وَصَرَفَهَا فِي غَيْرِ الْعِبَادَةِ

(١٧) أخرجه البخاري في الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ونية (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

(١٨) أخرجه مسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(١٩) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

وَالطَّاعَةِ، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَ فَلْيَتُبْ وَلْيُقْبِلْ عَلَى اللَّهِ قُبَالَةَ هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَيَغْفِرَ لَهُ، وَيُوَفِّقَهُ لِلطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ؟

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: أَقْبِلُوا عَلَى رَبِّكُمْ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ، وَاجْتَهِدُوا فِيهَا بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ، فَفِيها يُعْتِقُ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ النَّارِ، وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ، أَمِدُّوهُمْ بِالْمَالِ وَالدُّعَاءِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٥- غزوة بدر (٢) (*)
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾

١٥/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ قُدْرَةٍ، وَعَظَمَتُهُ لَا تُدَانِيهَا عَظَمَةٌ.. خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ.

يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَكْبِتُ أَعْدَاءَهُ.. يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.. يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وَمَنِ

(*) غزوة بدر (١) تجدها في (٣/ ٢٢٩).

ابْتَغَى الْعِزَّةَ فِي غَيْرِ دِينِهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ أَعَزَّ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ مُبِينٍ، وَأَذَلَّ الْمُشْرِكِينَ بِهَزِيمَةٍ لَمْ يَتَوَقَّعُوهَا، وَنِهَايَةٍ لَمْ يَنْتَظِرُوهَا، وَتِلْكَ سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ، وَنَامُوسٌ كَوْنِيٌّ إِلَهِيٌّ؛ يَقْضِي بِأَنَّ مَرْتَعَ الظُّلْمِ وَخِيمٌ، وَنِهَايَةَ الْكُفْرِ وَالِاسْتِكْبَارِ أَلِيمَةٌ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ الْإِيمَانِ مَعَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ حَمِيدَةٌ.

خَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِفَخْرِهَا وَخُيَلَائِهَا تَحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وَخَرَجَتِ الطَّائِفَةُ الْمُؤْمِنَةُ تُرِيدُ الْعِيرَ وَلَا تَوَدُّ الْقِتَالَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَدَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ نَصْرًا عَزِيزًا، وَظُهُورًا مُبِينًا، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ تَدْبِيرَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ!!

خَرَجَتِ الطَّائِفَتَانِ: الْمُؤْمِنَةُ وَالْكَافِرَةُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خُطَّتُهَا الَّتِي رَسَمَتْهَا، وَأَهْدَافُهَا الَّتِي تُرِيدُ تَحْقِيقَهَا، وَلَا مِيعَادَ لِلْقِتَالِ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ بِتَدْبِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ، وَيَسَّرَ طُرُقَهُ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

لَقَدْ أَتَتْ سَاعَةُ انْتِقَامِ اللَّهِ ﷻ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ، وَصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وَأَذِنَ سُبْحَانَهُ بِفَرَجٍ لِعِبَادِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ.

إِنَّهَا السَّاعَةُ الَّتِي مِنْ عَلَامَاتِهَا: اشْتِدَادُ الْكَرْبِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبُلُوغُ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْتَهَى فِي الِاسْتِكْبَارِ وَالْعُلُوِّ وَالطُّغْيَانِ، وَالْإِعْجَابِ بِالْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][1].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٢/ ٤٥٤): «وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفر الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدَّره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدًا وهدى، ونصرًا وفتحًا» اهـ. =

نَعَمْ، إِنَّ هَذَا الْفَرِيقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَرِهُوا لِقَاءَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَضَعْفِهِمْ وَقُوَّةِ عَدُوِّهِمْ، بَلْ فَضَّلُوا الظَّفَرَ بِالْعِيرِ عَلَى لِقَاءِ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وَلَكِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ إِرَادَةِ الْبَشَرِ، وَتَقْدِيرُهُ عَلَى خِلَافِ حِسَابَاتِهِمْ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

وَنَتِيجَةً لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ: الْتَقَى الْجَمْعَانِ بِلَا مِيعَادٍ، وَاصْطَفَّ الْفَرِيقَانِ لِلْقِتَالِ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَظُمَ طُغْيَانُ الْمُشْرِكِينَ، وَازْدَادَ غُرُورُهُمْ، وَلَا مَلْجَأَ لِلطَّائِفَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ فَاسْتَغَاثُوا بِهِ -وَنِعْمَ الْمُغِيثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وَكَانَ مِنْ شِدَّةِ اسْتِغَاثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِرَبِّهِ، وَاجْتِهَادِهِ فِي دُعَائِهِ: أَنْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِ أَخَصُّ أَصْحَابِهِ ﷺ.

وَمَا لَهُ لَا يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ بَلَغُوا أَلْفَ مُقَاتِلٍ وَأَصْحَابُهُ لَا يَبْلُغُونَ ثُلُثَهُمْ؟! فَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِمْ إِلَّا بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَمَدَّ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ**»[٢].

= وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٤): «المعنى أن الله تعالى أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة، في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج» اهـ.

(٢) أخرجه من حديث عمر ﷺ: أحمد (١/ ٣٠-٣٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وعبد بن حميد (٣١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٥)، وابن حبان (٤٧٩٣).

نَظَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يَجِدُونَ الطَّعَامَ، وَيَنْتَعِلُونَ الْحِذَاءَ، وَيَرْكَبُونَ المَرَاكِبَ، وَقَدْ دُجِّجُوا بِالسِّلَاحِ .. وَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَرَأَى مَا بِهِمْ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ، وَالضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ .. قَدْ أَنْهَكَهُمُ الْجُوعُ، وَقَلَّتْ مَرَاكِبُهُمْ، وَحَفِيَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَقَصُرَتْ ثِيَابُهُمْ عَنْ أَبْدَانِهِمْ؛ فَاسْتَغَاثَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَدَعَاهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ**»(٣).

لَمْ يَزَلْ ﷺ مُسْتَغِيثًا رَبَّهُ، رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَيْهِ، مُلِحًّا عَلَيْهِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ»(٤) «حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ»(٥).

لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسْتَغِيثًا بِرَبِّهِ، مُشْتَدًّا فِي إِلْحَاحِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْجَهْدُ مَا بَلَغَ، وَأَعْيَاهُ التَّعَبُ، فَخَفَقَ خَفْقَةً، وَأَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنْ نَوْمٍ، وَيَا لَهَا مِنْ خَفْقَةٍ جَاءَتْ مَعَهَا الْبُشْرَى!!

لَقَدْ أَزَالَتِ الْكَرْبَ، وَذَهَبَ مَعَهَا التَّعَبُ، وَرَأَى فِيهَا الْفَرَجَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .. انْتَبَهَ مِنْ نَوْمَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ مُعْتَجِرٌ**

---

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أبو داود في الجهاد، باب في نفل السرية تخرج من العسكر(٢٧٤٧)، والبيهقي (٦/ ٣٠٥ و٩/ ٥٧)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٤٤).

(٤) انظر تخريجه في حاشية (٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٧٥٨)، وأحمد (١/ ٣٢٩)، والنسائي في الكبرى (١١٥٥٧)، والبيهقي (٩/ ٤٦).

بِعِمَامَتِهِ، آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَتُهُ»(٦).

خَرَجَ مِنْ عَرِيشِهِ الَّذِي اسْتَغَاثَ فِيهِ رَبَّهُ؛ لِيُبَشِّرَ أَصْحَابَهُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥](٧).

وَحَرَّضَ أَصْحَابَهُ عَلَى الْقِتَالِ؛ أَخْذًا بِالْأَسْبَابِ، وَدَفْعًا لِلاتِّكَالِ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: **«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»**(٨)، فَعَانَقُوا الْمَنَايَا، وَخَاضُوا حِمَامَ الْمَوْتِ؛ يَطْلُبُونَ رِضَا رَبِّهِمْ، وَيَنْصُرُونَ دِينَهُمْ، وَيَتَسَابَقُونَ إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

وَهُنَا ظَهَرَتْ نَتِيجَةُ اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ فَكَانَ جَوَابُ اسْتِغَاثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِرَبِّهِ، وَإِلْحَاحِهِ عَلَيْهِ فِي دُعَائِهِ:

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ٩-١٤].

---

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤)، ونقله عن الأموي بسنده، وسيرة ابن هشام (٢/ ٣٢١-٣٢٢)، ودلائل النبوة للبيهقي(٧/ ٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة للغزالي (٢٢٦).

(٧) انظر تخريجه في حاشية (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وعبد بن حميد (١٢٧٢)، والبيهقي (٩/ ٤٣)، ووهم الحاكم فاستدركه (٣/ ٤٨١).

لَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةً شَدِيدَةً، وَلَهَا نِهَايَةٌ عَجِيبَةٌ .. فَأَهْلُ الْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ، وَالطُّغْيَانِ وَالْكَثْرَةِ، بَيْنَ مُجَنْدَلٍ فِي التُّرَابِ، وَمُقَرَّنٍ بِالْحِبَالِ! وَأَهْلُ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَأَعَزَّهُمْ وَنَصَرَهُمْ؛ فَانْقَلَبُوا حِينَ انْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ، وَاكْتَسَوْا وَشَبِعُوا(٩).

إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ فَاصِلَةٌ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِ الْبَاطِلِ، وَهِيَ أَوَّلُ مُنَازَلَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَلِأَنْصَارِ الْحَقِّ عَلَى أَتْبَاعِ الْبَاطِلِ، وَزَادَهَا شَرَفًا إِلَى شَرَفِهَا أَنَّهَا حَدَثَتْ فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

(٩) جاء ذلك في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما المخرج في حاشية (٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُدِيمُ نِعْمَتَهُ، وَيَزِيدُ فَضْلَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، ﷻ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَكْثَرُ الْخَلْقِ إِيمَانًا بِرَبِّهِ، وَأَعْظَمُهُمْ يَقِينًا بِوَعْدِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتَدَى بِسُنَّتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرِ التَّقْوَى، وَقَدْ مَضَى شَطْرُهُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ، وَمَا عَمِلُوا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَلْيَكُنْ مَا بَقِيَ مِنْهُ خَيْرًا مِمَّا مَضَى؛ بِاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ فَإِنَّ فِيمَا بَقِيَ عَشْرًا مُبَارَكَةً، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْيِيهَا بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ، مُنْقَطِعًا لِعِبَادَةِ رَبِّهِ.

وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ . . مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ آيَةً بَيِّنَةً، وَبُرْهَانًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ، وَمَنْ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْعِزَّةَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَمَا أَحْوَجَ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ إِلَى فَهْمِ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النَّصْرِ، فِي وَقْتٍ اشْتَدَّ فِيهِ كَرْبُهَا، وَكَثُرَتْ أَحْزَانُهَا، وَتَكَالَبَ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهَا، يُفْسِدُونَ فِي أَرَاضِيهَا، وَيَنْهَبُونَ خَيْرَاتِهَا، وَيَسُومُونَ أَبْنَاءَهَا، وَيُرِيدُونَ تَبْدِيلَ دِينِهَا، أَوِ الْقَضَاءَ عَلَيْهَا.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَرْبٌ شَدِيدٌ، قَدْ مَرَّ مِثْلُهُ وَأَعْظَمُ مِنْهُ بِخِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَحَابَتِهِ ﷺ، وَلَا يَسَعُ الْمُسْلِمِينَ إِنْ أَرَادُوا كَشْفَ كُرُوبِهِمْ، وَتَفْرِيجَ هُمُومِهِمْ، وَكَسْرَ أَعْدَائِهِمْ، وَحِمَايَةَ أَنْفُسِهِمْ؛ إِلَّا السَّيْرُ عَلَى خُطَى أَسْلَافِهِمْ، وَاسْتِلْهَامُ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَأَخَوَاتِهَا.

لَقَدْ كَانَ اللَّهُ ﷻ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُهْلِكَ الْمُشْرِكِينَ بِلَا غَزْوَةٍ وَلَا قِتَالٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خُرُوجٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلَا عُدَّةٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ؛ كَمَا أَهْلَكَ عَادًا بِالرِّيحِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَفِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا.

وَلَكِنْ سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ تَأْبَى ذَلِكَ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا بِأَنْ يَفْتَقِرَ عِبَادُهُ إِلَيْهِ، وَيُلِحُّوا عَلَيْهِ، وَيَسْتَغِيثُوا بِهِ، يَطْلُبُونَ مَدَدَهُ وَنَصْرَهُ، مَعَ أَخْذِهِمْ بِالْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ، مِنَ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوَةِ، وَالتَّخْطِيطِ لِلْمَعْرَكَةِ، وَمُشَاوَرَةِ الْأَصْحَابِ، وَمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ، وَعَدَمِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، فَلَا اعْتِمَادَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﷻ وَحدَهُ.

فَلَمَّا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ فِي بَدْرٍ مَا ضَرَّتْهُمْ قِلَّتُهُمْ، وَلَا نَفَعَ أَعْدَاءَهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَجَاءَ الْمَدَدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَتْبَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا.. جَيْشٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقُودُهُ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ ﷺ، مَعَهُمْ أَوَامِرُ الرَّبِّ جَلَّ فِي عُلَاهُ بِضَرْبِ الْمُشْرِكِينَ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، وَتَعْطِيلِ كُلِّ بَنَانٍ.. إِلَى إِلْقَاءِ النُّعَاسِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ رَبْطًا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِخَوْفِهِمْ، وَتَنْشِيطًا لِأَجْسَادِهِمْ، وَمَنْ يَنَامُ وَهُوَ يُقَابِلُ أَعْدَاءَهُ؟! وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَمَّنَهُمْ بِهِ.. إِلَى إِنْزَالِ الْمَطَرِ؛ تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَثْبِيتًا لِأَقْدَامِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِرِجْزِ الشَّيْطَانِ.. إِلَى إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.

فَالْمَلَائِكَةُ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنُّعَاسُ جُنْدُهُ، وَالْمَطَرُ جُنْدُهُ، وَالرُّعْبُ جُنْدُهُ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ الْجُنْدِ كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، أَفَلَا يَنْتَصِرُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ؟! بَلَى وَرَبِّنَا الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ.

إِنَّ جُنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُونَ مَعَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]؛ وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُونَ بِأَسْبَابِ إِمْدَادِهِمْ بِهَذَا الْجُنْدِ الْكَثِيرِ، وَيُحَقِّقُوا شَرْطَ النَّصْرِ الْمُبِينِ، الْمُتَمَثِّلِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إِنَّهُ شَرْطٌ وَاضِحٌ، وَمُعَادَلَةٌ مَعْقُولَةٌ، وَطَلَبٌ عَادِلٌ، لَا اسْتِحَالَةَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ .. وَنَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْتِزَامِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

وَمَنْ رَأَى وَاقِعَ الْمُسْلِمِينَ دُوَلًا وَأُمَمًا، حُكُومَاتٍ وَشُعُوبًا؛ يَجِدُ أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا هَذَا الشَّرْطَ؛ وَلِذَلِكَ تَخَلَّفَ النَّصْرُ.

وَلَوْ فَتَّشَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فِي نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ لَرَأَى أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَالذُّنُوبِ مَا يُوجِبُ الْعَذَابَ، وَيَحْجُبُ النَّصْرَ.

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَامَ نَصْرَ الْأُمَّةِ وَعِزَّهَا؛ فَلْيُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ الْفَوَاتِ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ، وَلَا طَرِيقَ غَيْرُهُ، وَلَنْ تُجْدِيَ الْحُلُولُ السِّيَاسِيَّةُ وَالِاقْتِصَادِيَّةُ وَالْعَسْكَرِيَّةُ وَغَيْرُهَا، مَا دَامَ النَّاسُ يَعْصُونَ رَبَّهُمْ؛ بَلْ سَيَتَجَرَّعُونَ مَزِيدًا مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَسَيَجِدُونَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ كُلَّ أَلْوَانِ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَمَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى هَانَ عَلَى الله تَعَالَى.

فَتُوبُوا -عِبَادَ اللَّهِ- تُوبُوا؛ نَجَاةً لِأَنْفُسِكُمْ، وَنُصْرَةً لِإِخْوَانِكُمْ، وَرَدًّا لِعُدْوَانِ أَعْدَائِكُمْ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...

❀ ❀ ❀

٣١٦- غزوة بدر (٣)
البطولات والتضحيات

١٨/ ٩/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَظْهَرَ دِينَهُ، وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ، وَنَصر عَبْدَهُ، وَأَعزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَوْلَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالتُّقَى؛ فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَجَزَاؤُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْفُورًا. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَيَّدَهُ رَبُّهُ فِي بَدْرٍ بِالمَلَائِكَةِ وَالمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ، فَهُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَهُوَ الدِّينُ الظَّاهِرُ المَنْصُورُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، رَغْمَ أُنُوفِ الْكَارِهِينَ مِنَ المُشْرِكِينَ وَالمُنَافِقِينَ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا وَاتَّقَوْا، وَبَذَلُوا فِي سَبِيلِ إِيمَانِهِمْ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ، ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ سِرَاعٌ بِكُمْ إِلَى قُبُورِكُمْ، وَإِنَّ الدُّنْيَا لَنْ تَكُونَ دَارَكُمْ، وَهَا هُو ذَا رَمَضَانُ شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي نِصْفِهِ الْأَخِيرِ، فَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنْهُ قَبْلَ الرَّحِيلِ؛ فَإِنَّ صَفَحَاتِهِ إِنْ طُوِيَتْ لَا تُفَضُّ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْإِيمَانُ كَمَا هُوَ عَقِيدَةُ الْقَلْبِ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ، فَهُوَ كَذَلِكَ عَمَلُ

الْأَرْكَانِ. وَالْأَفْعَالُ هِيَ بَرَاهِينُ الْأَقْوَالِ، وَلَا خَيْرَ فِي أَقْوَالٍ جُرِّدَتْ عَنْ بَرَاهِينِهَا.

وَبَرَاهِينُ الْإِيمَانِ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ؛ فَالصَّلَاةُ بُرْهَانُهُ، وَالزَّكَاةُ بُرْهَانُهُ، وَالصِّيَامُ بُرْهَانُهُ، وَالْحَجُّ بُرْهَانُهُ، وَالْبَذْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالى بُرْهَانُهُ.

وَمِنْ بَرَاهِينِهِ كَذَلِكَ: تَقْدِيمُ مَا يُرضِي اللَّهَ تَعَالَى عَلَى حُظُوظِ النُّفُوسِ وَمُشْتَهَيَاتِهَا، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وَمَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ سُمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ[(١)].

وَلَقَدْ بَرْهَنَ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ، وَحُسْنِ إِسْلَامِهِمْ، وَكَمَالِ إِحْسَانِهِمْ، بِأَفْعَالِهِمْ وَتَضْحِيَاتِهِمْ؛ أُوذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا لَانُوا، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ فَمَا وَهَنُوا، وَسَاوَمَهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ، أَوْ يَنْخَلِعُوا مِنْ أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَانْخَلَعُوا، وَهَامُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي أَرْضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فِرَارًا بِدِينِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى تَوْحِيدِهِمْ، وَلَوْ فَقَدُوا فِي سَبِيلِهِ كُلَّ عَزِيزٍ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَلَوِ اغْتَرَبُوا بِسَبَبِهِ عَنِ الدِّيَارِ وَالْبَلَدِ.

ثُمَّ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأُبِيحَ لَهُم قِتَالُ الْكُفَّارِ، بَرْهَنُوا مَرَّةً أُخْرَى فِي غَزْوَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، فَخَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ صَامُوهُ، وَهُمْ لَا يَبْلُغُونَ ثُلُثَ عَدُوِّهِمْ، وَلَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْعَتَادِ مَا يَمْلِكُ، وَلَكِنَّ إِيمَانَهُمْ فَوْقَ الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ بُطُولَاتِهِمْ وَتَضْحِيَاتِهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَقَدْ بَانَتْ نِيَّتُهُمْ وَعَزِيمَتُهُمْ عَلَى التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ فِي

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٨).

جَوَابِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا شَاوَرَهُمْ فِي التَّعَرُّضِ لِعِيرِ قُرَيْشٍ، وَاحْتِمَالِ الْوُصُولِ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ.

وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا»[٢].

وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه قَامَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِهِ.

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ يُرِيدُ الْأَنْصَارَ؛ لِأَنَّهُمْ عُدَدُ النَّاسِ؛ وَلِأَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دِيَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا، نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّطُ أَلَّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نَصْرَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ لَيْسَ مِنْ بِلَادِهِمْ.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **أَجَلْ**. قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ

---

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة بدر (١٧٧٩)، وأحمد (٣/ ٢١٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٢).

هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ، لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدَّقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: **سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»[٣].

إِنَّهَا عَزِيمَةٌ عَلَى التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَمُنَازَلَةِ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، فَالثَّمَنُ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

لَقَدْ بَرْهَنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ، وَصِدْقِ بَذْلِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَغْلَى مَا يَمْلِكُونَ، فَقَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ لَمَّا تَقَابَلَ الْجَمْعَانِ، وَالْتَحَمَ الصَّفَّانِ، صَدَّقَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم أَقْوَالَهُمْ بِالْأَفْعَالِ، وَنُقِلَتْ بَعْضُ تَضْحِيَاتِهِمْ إِلَيْنَا شَاهِدَةً عَلَى إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ، وَمُحَفِّزَةً لَنَا لِلتَّأَسِّي بِهِمْ، وَقَفْوِ أَثَرِهِم.

وَكَانَ قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ الَّذِي كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَأَكْمَلَهُمْ إِيمَانًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا، وَأَكْثَرَهُمْ تَوَكُّلًا، حَتَّى قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه يَصِفُهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٤].

---

(٣) أخرجه من حديث محمد بن إسحاق عن أشياخه عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٥) وفي تاريخه (٢/ ٢٦)، وابن هشام في سيرته (٣/ ١٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٦)، وأبو يعلى (١/ ٣٢٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٢٥٦١)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٩٣٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٦٥٤).

بَلْ بَلَغَ مِنْ شَجَاعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ نَهَى أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمُتَقَدِّمَ أَمَامَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «**لَا يُقْدِمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَلَمَّا بَرَزَ ثَلَاثَةٌ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَشُجْعَانِهِمْ يَطْلُبُونَ الْمُبَارَزَةَ؛ اسْتَبَقَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي عَمِّهِمُ الْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَمَا تَوَانَوْا عَنِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، بَلْ بَرَزُوا لِمُبَارَزَتِهِمْ مِنْ فَوْرِهِمْ.

كَمَا رَوَى عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَ: «تَقَدَّمَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ فَنَادَى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَانْتُدِبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ، إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الحَارِثِ**، فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ، وَاخْتَلَفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

---

(٥) هذا جزء من حديث طويل رواه أنس ﷺ قال: «بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان .... الحديث» أخرجه مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١).
وفي شرح هذا الحديث ذكر الأبي في شرحه أن المراد: لا يتقدم في الرأي، ولا يريد حتى أكون أمامه في القتال؛ لأنه لم يقاتل يوم بدر، وإنما كان في العريش ... كذا قال، وتبعه السنوسي في ذلك. ينظر شرحهما على صحيح مسلم (٦/ ٦٣٥).
قلت: حديث علي ﷺ المذكور آنفًا يرد ما قالا، فهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام كان أقربهم إلى العدو وكانوا يلوذون به، ولا مانع أنه عليه الصلاة والسلام أراد الأمرين، التقدم في القتال وفي الرأي. والله أعلم.

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في المبارزة واللفظ له (٢٦٦٥)، وأحمد (١/ ١١٧)، والبيهقي (٣/ ٢٧٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٩٥)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد =

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ هَؤُلَاءِ السِّتَّةَ الَّذِينَ افْتَتَحُوا غَزْوَةَ بَدْرٍ بِالمُبَارَزَةِ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَجْلِسُ لِلْخُصُومَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِيهِم أُنْزِلَتْ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، قَالَ: هُمُ الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَعُبَيْدَةُ أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْحَارِثِ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

إِنَّ قُوَّةَ إِيمَانِ أَهْلِ بَدْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَقِينَهُمْ بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَتَصْدِيقَهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ جعَلَ بَعْضَهُمْ يَسْتَطِيلُ حَيَاتَهُ الْبَاقِيَةَ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا لَحَظَاتٌ يَسِيرَةٌ؛ كَمَا وَقَعَ لِعُمَيْرِ بْنِ الْحُمَامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

دَنَا الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟! قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: بَخٍ بَخٍ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ**؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: **فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

= رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (٦/ ٧٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٩٤٨)، والألباني في صحيح أبي داود.

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٧٤٧).
وجاء من حديث قيس بن عباد -رحمه الله تعالى- عن أبي ذر ﷺ بنحوه عند: البخاري (٣٧٤٨)، ومسلم (٣٠٣٣).

(٨) هذا جزء من حديث أنس ﷺ المخرج في حاشية (٥).

إِنَّهُ إِيمَانٌ عَجِيبٌ، وَمُسَابَقَةٌ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجَنَّةِ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ، فَلَا تَأَمُّلَ وَلَا مُشَاوَرَةَ وَلَا تَوَانِيَ، وَلَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَلَا تَفْكِيرَ فِي الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَالدَّارُ الْآخِرةُ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا الشُّعُورُ جَمَاعِيًّا، أَتَى عَلَى صِغَارِهِمْ كَمَا مَلَأَ قُلُوبَ كِبَارِهِمْ.

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى لِبَعْضِ صِبْيَةِ الْأَنْصَارِ أَنْ يَشْفُوا قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُذِلَّ أَبَا جَهْلٍ وَهُوَ الْقَائِدُ الْمُسْتَكْبِرُ الْمُتَجَبِّرُ بِأَنْ يَكُونَ حَتْفُهُ عَلَى أَيْدِي غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- مَا فَعَلَ الْإِيمَانُ بِقُلُوبِ الصِّبْيَةِ حَتَّى يَبْحَثُوا عَنِ الْقَائِدِ الْمُهَابِ الْمُتَجَبِّرِ لِمُنَازَلَتِهِ، فَيُذِلُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، أَوَلَيْسَ هَذَا أَثَرَ الْإِيمَانِ، وَبُرْهَانًا مِنْ بَرَاهِينِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ لِلْإِسْلَامِ؟! بَلَى وَاللَّهِ! إِنَّ الْأَمْرَ لَكَذَلِكَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ -حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا- فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**»، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**»، قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ**»، وَكَانَا

مُعاذُ بْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ»(٩).

وَقَدْ حَكَى مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ رضي الله عنه كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ لِعَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ الْقَوْمَ وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ -وَالْحَرَجَةُ هِيَ: الشَّجَرَةُ بَيْنَ الشَّجَرِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا مِنْ مَنَعَتِهَا وَإِحَاطَةِ الشَّجَرِ بِهَا(١٠)- وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي فَصَمَدْتُ نَحْوَهُ، فَلَمَّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ فَضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً أَطَنَّتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَوَاللَّهِ مَا شَبَّهْتُهَا حِينَ طَاحَتْ إِلَّا بِالنَّوَاةِ تَطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النَّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا.

قَالَ: وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي، فَطَرَحَ يَدِي، فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي، وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ، فَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي، وَإِنِّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي، فَلَمَّا آذَتْنِي جَعَلْتُ عَلَيْهَا رِجْلِي، ثُمَّ تَمَطَّيْتُ بِهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا. وَعَاشَ مُعَاذٌ رضي الله عنه بِلَا يَدٍ وَلَا ذِرَاعٍ إِلَى زَمَنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه(١١).

وَإِنَّهَا لَآيَةٌ عَجِيبَةٌ، وَشَجَاعَةٌ نَادِرَةٌ أَنْ يُكْمِلَ الْقِتَالَ وَيَدُهُ مَقْطُوعَةٌ، ثُمَّ يَطَؤُهَا بِقَدَمِهِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْهَا لِمَّا آذَتْهُ؛ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ لَوْلَا مَعُونَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَثْبِيتُهُ وَتَأْيِيدُهُ لَهُ، وَقَدْ بَهَرَ هَذَا المَوْقِفُ الْحَافِظَ الذَّهَبِيَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ الْقِصَّةَ: هَذِهِ وَاللَّهِ الشَّجَاعَةُ، لَا كَآخَرَ مِنْ خَدْشٍ بِسَهْمٍ يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ وَتَخُورُ قِوَاهُ(١٢).

---

(٩) أخرجه البخاري في أبواب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب (٢٩٧٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

(١٠) ينظر: النهاية (١/ ٣٦٢)، واللسان (٢/ ٢٣٦) مادة (حرج).

(١١) أخرجه من حديث ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر بن حزم رضي الله عنهم: ابن هشام في السيرة (٣/ ١٨٢-١٨٣)، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٦)، وعزاه الحافظ في الفتح للحاكم (٧/ ٢٩٦).

(١٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥١).

وَمِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ مَنْ ضَحَّى فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ بِنَفْسِهِ؛ فِدَاءً لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ؛ فَكَانَ الْجَزَاءُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه فَقَالَ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**وَيْحَكِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٣).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَذِهِ بَعْضٌ مِنْ تَضْحِيَاتِ الْقَوْمِ فِي أَوْلِ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمَا اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ لِصُحْبَةِ أَفْضَلِ خَلْقِهِ، وَخَاتَمِ رُسُلِهِ إِلَّا وَهُمْ أَكْثَرُ إِيمَانًا وَيَقِينًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ، وَرِضًا بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، فَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

وَإِنَّنَا إِذْ لَمْ نَحُزْ فَضْلَهُمْ، فَقَدْ سَبَقُونَا بِإِسْلَامِهِمْ وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَصُحْبَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّنَا نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ جَزَاءَ مَحَبَّتِنَا لَهُمْ، وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَنُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّا نُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَنَبْرَأُ مِمَّنْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَنَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَكَفَى بِاللَّهِ تَعَالَى شَهِيدًا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ...

❀ ❀ ❀

---

(١٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٧٦١)، وأحمد (٣/ ٢٦٤)، والطيالسي (٢٠٢٩)، وأبو يعلى (٣٥٠٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَخُذُوا مِنْ صِحَّتِكُمْ لِسَقَمِكُمْ، وَمِنْ شَبَابِكُمْ لِهَرَمِكُمْ، وَمِنْ فَرَاغِكُمْ لِشُغْلِكُمْ، وَمِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَجَلَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ مَحْدُودَةً فِي مَكَانِهَا وَزَمَانِهَا؛ إِذْ لَمْ تَتَعَدَّ مَوْقِعَ بَدْرٍ، وَلَا جَاوَزَ زَمَنُهَا ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ ثُمَّ انْتَهَتْ، وَالْجَيْشَانِ الْمُتَقَابِلَانِ قَلِيلَا الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالْقَتْلَى وَالْأَسْرَى قَلِيلٌ أَيْضًا، وَقَدْ سَبَقَهَا مَعَارِكُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَامَتْ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، وَأَفْنَتْ قَبَائِلَ كَامِلَةً، وَوَقَعَ بَعْدَهَا مَعَارِكُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ لَا تُحْصَى هِيَ أَعْتَى مِنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ حَظِيَتْ بَدْرٌ بِمَا لَمْ تَحْظَ بِهِ مَعْرَكَةٌ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا؛ فَأَهْلُ بَدْرٍ مَغْفُورٌ لَهُمْ، «**وَمَا يُدْرِيكَ؟! لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٤].

وَأَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ هُمْ خِيَارُ أَهْلِ السَّمَاءِ.

---

(١٤) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس (٢٨٤٥)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم (٢٤٩٤).

وَفِي الْعَطَاءِ فَضَّل عُمَرُ رضي الله عنه الْبَدْرِيِّينَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَأَعْظَمُ مَنْقَبَةٍ يُصَدِّرُهَا مَنْ كَتَبُوا عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَرْجَمَ لَهُ بَدْرِيٌّ.

فَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا الاِحْتِفَاءِ بِمَنْ شَهِدُوا هَذِهِ الْغَزْوَةَ، وَقَدْ أَتَى بَعْدَهَا غَزَوَاتٌ أَكْبَرُ مِنْهَا فِي الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، وَشِدَّةِ الْقِتَالِ؟!

إِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كَوْنُهَا فُرْقَانًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فُرْقَانًا؛ فَمَا انْكَسَرَ الشِّرْكُ إِلَّا فِيهَا، وَلَا وُلِدَ النِّفَاقُ إِلَّا بَعْدَهَا، وَلَا عَزَّ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهَا، كَيْفَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي مُنَاشَدَتِهِ لِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١٥)، فَعَزَّ بِهَا الْإِسْلَامُ، فَهُوَ عَزِيزٌ ظَاهِرٌ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

إِنَّ الدَّعَوَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةَ فِي بِدَايَاتِ ظُهُورِهَا تَكُونُ ضَعِيفَةً مُسْتَضَامَةً، لَا يَنْتَظِمُ فِي سِلْكِهَا وَلَا يُضَحِّي مِنْ أَجْلِهَا إِلَّا أَهْلُ الْقَنَاعَةِ بِهَا، الصَّادِقُونَ لَهَا، الْمُتَفَانُونَ فِي سَبِيلِهَا، وَمِنْ هُنَا اكْتَسَبَ أَهْلُ بَدْرٍ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ شَهِدُوا الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا غَيْرَهَا، فَهِيَ رَاجِحَةٌ بِهَا.

وَإِذَا مَا انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ، وَعَظُمَ أَمْرُهَا، وَقَوِيَ أَنْصَارُهَا؛ كَثُرَ أَتْبَاعُهَا، فَاخْتَلَطَ صَادِقُهُمْ بِكَاذِبِهِمْ، وَقَوِيُّهُمْ بِخَائِرِهِمْ، وَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُمَحِّصَاتِ الَّتِي تَمِيزُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَأَعْظَمُ ابْتِلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ فِي بَدْرٍ الْكُبْرَى، فَاسْتَحَقَّتْ مَا اسْتَحَقَّتْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ.

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا تَعْصِفُ بِالْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ مِحَنٌ شَدِيدَةٌ، وَابْتِلَاءَاتٌ مُمَحِّصَةٌ،

---

(١٥) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨١).

يَظْهَرُ فِيهَا النَّاجِي مِنَ الْهَالِكِ، وَالمُؤْمِنُ مِنَ المُنَافِقِ، وَالثَّابِتُ مِنَ النَّاكِصِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، ابْتِلاءَاتٌ يَنْجُو فِيهَا مَنْ يَنْجُو، وَيَغْرَقُ فِي لُجَّتِهَا مَنْ يَغْرَقُ.

وَمَعَ شِدَّةِ هَذِهِ الابْتِلَاءَاتِ، رَأَيْنَا فِيمَا رَأَيْنَا تَحَوُّلَاتٍ مِنَ الْغُلُوِّ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنَ الْيَقِينِ إِلَى الشَّكِّ، وَمِنَ التَّشَدُّدِ إِلَى التَّفَلُّتِ، وَمِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ؛ وَرَأَيْنَا انْتِقَالَاتٍ مِنْ أَقْصَى الْيَمِينِ إِلَى أَقْصَى الْيَسَارِ، وَشَاهَدْنَا ثَوَابِتَ زُعْزِعَتْ مِنْ بَعْضِ الْقُلُوبِ المَرِيضَةِ، ومُسَلَّمَاتٍ أَضْحَتْ مَحَلَّ نَظَرٍ عِنْدَ المَفْتُونِينَ، وَلَا عَاصِمَ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى!

فَلُوذُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ، وَأَنِيبُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ وَلَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ تَجَبُّرِ المُشْرِكِينَ، وَتَسَلُّطِ المُلْحِدِينَ، وَاسْتِهْزَاءِ المُسْتَهْزِئِينَ؛ فَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ عَلَى الْحَقِّ المُبِينِ. وَمَا عَظُمَ أَذَاهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِشَعَائِرِهِ، وَدَنَّسُوا كِتَابَهُ، وَشَتَمُوا نَبِيَّهُ، إِلَّا لِأَنَّ المُسْلِمِينَ يَمْلِكُونَ حَقًّا هُوَ أَقْوَى مِنْ بَاطِلِهِمْ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَتَخَلَّوْا عَمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ إِلَى بَاطِلِهِمُ المُهِينِ! وَمَا ظَفِرَ أَهْلُ بَدْرٍ بِمَا ظَفِرُوا إِلَّا بِثَبَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ قَلِيلٌ، فَاثْبُتُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- كَمَا ثَبَتُوا؛ فَإِنَّكُمْ كَثِيرٌ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى ثَبَاتِ الْقَلْبِ وَقُوَّتِهِ: كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَأَنْتُمْ مُقْبِلُونَ عَلَى عَشْرٍ مُبَارَكَاتٍ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْلُو فِيهَا بِرَبِّهِ، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَجْتَهِدُ فِيهَا مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(١٦).

---

(١٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

فَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَأَكْثِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّمَا يُنَالُ عَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدُهُ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .





٣١٧- غزوة بدر (٤)
﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

١٤/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ كَتَبَ النَّصْرَ وَالْعِزَّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَضَى بِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ عَلَى الْكَافِرِينَ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ فِي بَدْرٍ أَهْلَ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ، وَدَحَرَ ذَوِي الشَّوْكَةِ وَالْكَثْرَةِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَعْظَمُ النَّاسِ خَشْيَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَشَدُّهُمْ خَوْفًا مِنْهُ، وَأَكْثَرُهُمْ رَجَاءً فِيهِ، وَأَصْدَقُهُمْ دُعَاءً لَهُ، كَانَ فِي بَدْرٍ رَافِعًا يَدَيْهِ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ هَاجَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَفَارَقُوا أَوْلَادَهُمْ؛ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِعْزَازًا لِدِينِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِعْلَاءً لِكَلِمَتِهِ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاغْتَنِمُوا مَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَعْمَارَكُمْ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِكُمْ، وَأَنَّهَا مِثْلُ رَمَضَانَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، تَبْتَدِئُ بِالتَّكْلِيفِ

---

(١) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

كَمَا يَبْدَأُ الشَّهْرُ بِإِهْلَالِ هِلَالِهِ، ثُمَّ تَتَوَسَّطُ كَمَا يَتَوَسَّطُ الشَّهْرُ، ثُمَّ تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ كَمَا يَنْتَهِي الشَّهْرُ بِخُرُوجِهِ، وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَظَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ عَظَمَةٍ، وَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ قُدْرَةٍ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، يَقْضِي الْقَضَاءَ فَيَظُنُّ الْخَلْقُ أَنَّهُ شَرٌّ لَهُمْ فَإِذَا فِي طَيَّاتِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَمْ يُدْرِكُوهُ، وَحَادِثَةُ الْإِفْكِ الَّتِي أُوذِيَ فِيهَا أَفَاضِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ الصِّدِّيقُ وَابْنَتُهُ عَائِشَةُ رضي الله عنهما كَانَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١١]. وَهَكَذَا أَيْضًا فِي فَرْضِ الْجِهَادِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الرَّهَقِ وَالشِّدَّةِ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٦].

وَوَقَعَ ذَلِكَ عَمَلِيًّا فِي أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ بَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ مَسِيرُ قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ يَقُودُهَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَقْصِدُ مَكَّةَ، وَتَمُرُّ بِقُرْبِ الْمَدِينَةِ، فَشَاوَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ رضي الله عنهم فِيهَا كَمَا رَوَى أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ: «**إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِمُنَاهَا؟** فَقُلْنَا: نَعَمْ»[٢].

فَانْتَدَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النَّاسَ لِلْخُرُوجِ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضٌ؛

---

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٨٠٥)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٤) رقم (٤٠٥٦)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٤).

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَلْقَى حَرْبًا»[٣].

عَلِمَ قَائِدُ الْقَافِلَةِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَسِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ لِأَخْذِ قَافِلَتِهِ؛ فَأَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَبَلَغَ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ مَكَّةَ، وَأَتَى الْأَبْطَحَ مُسْتَصْرِخًا مُسْتَنْفِرًا، وَعَمِلَ مَا يَعْمَلُهُ النَّذِيرُ بِخَطَرٍ وَشِيكٍ؛ فَوَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَجَدَعَ بَعِيرَهُ، يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمَةَ، أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ وَتِجَارَتُكُمْ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، فَالْغَوْثَ الْغَوْثَ»[٤].

وَعَلَى إِثْرِ هَذَا الْإِنْذَارِ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مُسْرِعَةً لِإِنْقَاذِ عِيرِهَا وَرِجَالِهَا، وَاسْتِعَادَةِ هَيْبَتِهَا، وَالنَّيْلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقُودُهُمْ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ.

وَلَكِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رضي الله عنه كَانَ مِنْ دُهَاةِ الْعَرَبِ، وَأَفْذَاذِ الرِّجَالِ؛ إِذْ غَيَّرَ طَرِيقَ الْقَافِلَةِ، وَنَجَا بِهَا مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ يُطَمْئِنُهُمْ عَلَى عِيرِهِمْ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمُ الْعَوْدَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَهُنَا تَخَلَّفَ مَقْصُودُ كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَالْمُسْلِمُونَ خَرَجُوا لِطَلَبِ الْعِيرِ، وَالْعِيرُ فَاتَتْهُمْ، وَالْمُشْرِكُونَ خَرَجُوا لِنَجْدَتِهَا، وَقَدْ نَجَتْ مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي كُلِّ الْحِسَابَاتِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تَرْجِعُ إِلَى بَلَدِهَا، وَلَا سِيَّمَا مَعَ عَدَمِ وُجُودِ التَّكَافُؤِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَالْمُسْلِمُونَ مَا خَرَجُوا لِلْقِتَالِ وَإِنَّمَا لِلْعِيرِ فَحَسْبُ،

---

(٣) أخرجه في سياق قصة بدر من حديث ابن إسحاق عن جمع من شيوخه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: ابن هشام في السيرة (٣/ ١٥٢)، والطبري في تفسيره (٩/ ٢٨٢)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٥٣)، والحاكم (٣/ ٢١)، وابن حبان في ثقاته (١/ ١٥٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣١)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٠).

(٤) هذا جزء من سياق قصة غزوة بدر المخرج في حاشية (٣).

وقوله: «اللطيمة»: اللطيمة هي الجمال التي تحمل العطر والمسك والبز غير الميرة، ينظر: النهاية (٤/ ٢٥١)، واللسان (١٢/ ٥٤٣) مادة (لطم).

وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ تَدْبِيرٌ آخَرُ غَيْرُ تَدْبِيرِ الْبَشَرِ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ؛ فَسَلَّطَ ﷻ أَبَا جَهْلٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ الْخُرُوجِ، فَرَفَضَ رُجُوعَهُمْ رَغْمَ نَجَاةِ الْقَافِلَةِ، وَرَغْمَ رُجُوعِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ كَبَنِي زُهْرَةَ لَمَّا زَالَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ.

وَمَا إِصْرَارُ أَبِي جَهْلٍ عَلَى الْمُضِيِّ فِي هَذَا السَّبِيلِ الْمَجْهُولِ إِلَّا لِيُحَقِّقَ بِزَعْمِهِ مَجْدًا لِقُرَيْشٍ أَمَامَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلِيَسْتَعِيدَ هَيْبَةَ أَهْلِ مَكَّةَ الَّتِي تَضَعْضَعَتْ بِهِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ مُعَلِّلًا عَدَمَ رُجُوعِهِمْ إِلَى مَكَّةَ: «وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ- فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ جَمِيعُ الْعَرَبِ بِمَخْرَجِنَا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُصِبِ الْعِيرَ، وَأَنَّا قَدْ أَعْضَضْنَاهُ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا»[٥].

هَكَذَا سُلِّطَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِيَحِقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِيَنْفُذَ فِيهِمْ أَمْرُهُ، وَلِيُصِيبَهُمْ قَدَرُهُ الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَيْهِمْ، إِنَّهَا آيَةٌ وَأَيُّ آيَةٍ!!

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَشَارَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ جِبْرِيلُ ﵇ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَقَالَ لَهُمْ: «**مَا تَقُولُونَ؟ إِنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَالْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمِ النَّفِيرُ؟** قَالُوا: بَلِ الْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَدَّدَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: **إِنَّ الْعِيرَ قَدْ مَضَتْ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيْكَ بِالْعِيرِ وَدَعِ الْعَدُوَّ، فَقَامَ عِنْدَ غَضَبِ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَا

(٥) جزء من حديث قصة بدر المخرج في حاشية (٣).

فَأَحْسَنَا، ثُمَّ قَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: انْظُرْ أَمْرَكَ فَوَاللَّهِ لَوْ سِرْتَ إِلَى عَدَنَ مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ»[٦].

ثُمَّ تَتَابَعَ الصَّحَابَةُ ﷺ عَلَى مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ.

وَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنُ لِهَذَا الْفَصْلِ الْعَظِيمِ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَالْمُجَادَلَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَهُمْ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْعِيرَ، وَلَا يُرِيدُونَ مُنَازَلَةَ جَيْشٍ لَمْ يَتَهَيَّئُوا لِمُنَازَلَتِهِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى -وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ- أَنْ تَكُونَ مَلْحَمَةً لَا غَنِيمَةً، وَأَنْ تَكُونَ مَوْقِعَةً بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُثْبِتَهُ، وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَيُزْهِقَهُ، وَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ؛ فَيُقْتَلَ مِنْهُمْ مَنْ يُقْتَلُ، وَيُؤْسَرَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْسَرُ، وَتُذَلَّ كِبْرِيَاؤُهُمْ، وَتُخْضَدَ شَوْكَتُهُمْ، وَتَعْلُوَ رَايَةُ الْإِسْلَامِ، وَيُمَكَّنَ لِلْعُصْبَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي الْأَرْضِ، وَلَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْكِينُ إِلَّا بِجُهْدٍ وَعَمَلٍ، وَمُنَازَلَةٍ وَجِهَادٍ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْوَثَنِيَّةِ[٧].

لَقَدْ خَبَّأَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الْعِيرِ وَالْغَنِيمَةِ، فَهَيَّأَ أَسْبَابَ الْمَعْرَكَةِ بِلَا سَابِقِ إِنْذَارٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ، وَهُنَا تَظْهَرُ التَّضْحِيَاتُ، وَتَبْرُزُ

(٦) جزء من حديث قصة بدر المخرج في حاشية (٣).

(٧) ينظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٨١).

الْبُطُولَاتُ، وَيَسْتَعْلِي الْإِيمَانُ، وَيَتَحَقَّقُ التَّوَكُّلُ، وَعِنْدَهَا لَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْإِيمَانِ إِلَى قِلَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَلَا إِلَى قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ الصَّحَابَةُ ﷺ مَا قَالُوا لمَّا رَأَوْا عَزْمَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مُقَاتَلَةِ الْجَيْشِ الْمُشْرِكِ بَعْدَ أَنْ فَاتَتِ الْعِيرُ، وَأَعْلَنُوا لَهُ أَنَّهُ مَهْمَا سَارَ بِهِمْ فَهُمْ مَاضُونَ مَعَهُ، وَلَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ ذَهَابُ نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ اتَّفَقُوا عَلَى الْمُنَازَلَةِ لَرُبَّمَا لَمْ يَتَهَيَّأْ ذَلِكَ لَهُمْ بِسَبَبِ بُعْدِ مَكَّةَ عَنِ المَدِينَةِ، وَلِلْفَارِقِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَمِيلُ إِلَى التَّسْوِيفِ بِحُجَّةِ الِاسْتِعْدَادِ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. أَيْ: لِيَقْضِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلَالِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ مَلَإٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَدْبِيرٍ ولَا تَخْطِيطٍ، فَفَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ(٨). قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: «إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

وَمِنْ عَجِيبِ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَوَّى قَلْبَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى خَوْضِ المَعْرَكَةِ بِرُؤْيَا رَآهَا، ثُمَّ عِنْدَ الْتِقَاءِ الطَّائِفَتَيْنِ أَرَى كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا قِلَّةَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى، وَأَطْمَعَهَا فِيهَا، فَلَا المُسْلِمِينَ هَابُوا المُشْرِكِينَ وَهُمْ ثَلَاثَةُ أَضْعَافِهِمْ، وَلَا كَفَّ المُشْرِكُونَ عَنِ المُؤْمِنِينَ خَوْفًا مِنْهُمْ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

---

(٨) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٩) أخرجه البخاري في المغازي، باب قصة غزوة بدر (٣٧٣٥)، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩).

ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤]، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ هُمْ مِئَةٌ، حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا»(١٠).

فَأَيْنَ مَا أَرَادَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُجَرَّدِ الظَّفَرِ بِالْعِيرِ مِمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ، مِنْ كَسْرِ شَوْكَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَظُهُورِ الْحَقِّ وَعُلُوِّهِ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ وَسُفُولِهِ؟!

وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ظَفِرُوا بِالْقَافِلَةِ لَكَانَتْ مُجَرَّدَ غَنِيمَةٍ لَا تَكَادُ تُذْكَرُ، فَأَيْنَ ذِكْرُهَا مِنْ ذِكْرِ بَدْرٍ الَّتِي لَا يُذْكَرُ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهَا، حِينَ جَسَّدَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِدُعَائِهِ «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١١).

لَقَدْ غَدَتْ بَدْرٌ بَعْدَ النَّصْرِ الْمُبِينِ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَلَكَمْ تَمَنَّى مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ إِدْرَاكَهَا! وَلَكَمْ يَغْبِطُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ مَنْ حَضَرَهَا! وَأَهْلُ بَدْرٍ مَغْفُورٌ لَهُمْ، وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ﷺ كَفَضْلِ مَنْ شَهِدَهَا مِنَ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَبَعْدَ بَدْرٍ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ، وَعُرِفَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ الْعَرَبِ، بَلْ تَسَامَعَ بِهِمُ الْعَجَمُ.

وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ بَدْرٍ أَنَّ النِّفَاقَ كَانَ بَعْدَهَا؛ إِذْ كَانَ أَهْلُ

---

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٩٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٧) رقم (١٠٢٦٩).

(١١) مضى تخريجه في حاشية (١).

الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا يُعْلِنُونَ كُفْرَهُمْ وَعَدَاءَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ أَظْهَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الْإِيمَانَ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ، فَهَذَا هُوَ أَوَّلُ تَارِيخِ النِّفَاقِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «أَنَّ رَأْسَ النِّفَاقِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ قَالُوا بَعْدَ بَدْرٍ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا»(١٢).

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَرَكَاتِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَرِهَ الْمُوَاجَهَةَ فِيهَا بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذٌ، وَحُكْمَهُ قَاهِرٌ، وَكَانَ مَا اخْتَارَهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا مِمَّا اخْتَارُوهُ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَصَدَقَ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا تَدَبُّرَ كِتَابِهِ، وَالْفِقْهَ فِي دِينِهِ، وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ...

❁ ❁ ❁

---

(١٢) أخرجه في حديث طويل من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: البخاري في الأدب، باب كنية المشرك (٥٨٥٤)، والبيهقي (٩/ ١٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٦١) رقم (٣٨٩) وتمام في فوائده (٤٢٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٤٢)، وابن شبة في أخبار المدينة (٧١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا وَنَصِيرًا، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الْفُرْقَان: ٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ وَقَنَتَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رَمَضَانَ يَشُدُّ مِئْزَرَهُ، وَيُحْيِي لَيْلَهُ، وَيُوقِظُ أَهْلَهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَعَرَّضُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ لِنَفَحَاتِهِ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ خَيْرَاتِهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَا بُدَّ مِنْ إِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْيَقِينِ بِأَنَّ قَضَاءَهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَخْتَارُونَهُ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ بَدَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّ مَا قَضَاهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ عَنَتٌ وَمَشَقَّةٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُقَدِّرُ شَرًّا مَحْضًا، وَسَيَظْهَرُ بِجَلَاءٍ بَعْدَ اسْتِبَانَةِ الْأَمْرِ أَنَّ قَضَاءَهُ سُبْحَانَهُ كَانَ خَيْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا اسْتَبَانَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ بَعْدَ أَنْ كَرِهُوا مُقَاتَلَةَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالْمُسْلِمُ يَحْتَاجُ لِأَنْ يَمْلَأَ قَلْبَهُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ الْمَصَائِبُ، وَتَعَدَّدَتِ الْمُشْكِلَاتُ، وَتَنَوَّعَتِ الِابْتِلَاءَاتُ؛ فَقَدْ يَضْجَرُ الْمُسْلِمُ مِنْ خَسَارَةٍ مَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، أَوْ مِنْ مُشْكِلَةٍ أُسَرِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ، أَوْ مِنِ ابْتِلَاءٍ عَظِيمٍ حَاقَ بِهِ، وَلَا يُثَبِّتُهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ إِلَّا إِحْسَانُهُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ ﷻ، وَثِقَتُهُ

بِهِ، وَتَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ، وَيَقِينُهُ بِأَنَّ فِي مُصَابِهِ خَيْرًا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، لَا يُدْرِكُهُ هُوَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ؛ فَلْيَرْضَ بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيُسَلِّمِ الْأَمْرَ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَسَيَنَالُ بِذَلِكَ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَعَلَى مُسْتَوَى الْجَمَاعَةِ وَالْأُمَّةِ؛ فَكَمْ يُعَانِي الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ بِالْإِفْسَادِ فِي دِيَارِهِمْ، وَالسُّخْرِيَةِ بِدِينِهِمْ، وَتَدْنِيسِ قُرْآنِهِمْ، وَشَتِيمَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَمُحَاوَلَةِ قَهْرِهِمْ عَلَى مَنَاهِجِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ! وَأَهْلُ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يَرَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى مُنَازَلَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَرَدِّ عُدْوَانِهِمْ، وَإِزَاءَ ذَلِكَ كَمْ تَخَلَّى أُنَاسٌ عَنْ عَقَائِدِهِمْ، وَانْحَازُوا بِعُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ إِلَى طَوَائِفِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَزَادُوا الْفِتْنَةَ فِتْنَةً، وَعَظُمَ الِابْتِلَاءُ بِهِمْ، وَكَانَ مَا فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ مِمَّا فَعَلَهُ الْأَعْدَاءُ!

وَلَكِنْ فِي هَذِهِ التَّقَلُّبَاتِ وَالِابْتِلَاءَاتِ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يَثْبُتُ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا مَنِ اقْتَنَعَ بِهِ، وَضَحَّى فِي سَبِيلِهِ، وَرَجَا أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ، يَتَّبِعُ الْحَقَّ لِأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ لِدُنْيَا يُرِيدُهَا، أَوْ لِنَصْرٍ يَنْتَظِرُهُ؛ حَتَّى إِذَا مَا اسْتَبْطَأَ نَصْرَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْحَقِّ انْسَلَخَ مِنْ جِلْدِهِ، وَانْحَازَ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْوَى!

وَكَمْ كَشَفَتْ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ فَسَادِ الْعُقُولِ، وَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، وَأَظْهَرَتْ أَهْوَاءَ ذَوِي الْهَوَى وَالنِّفَاقِ، وَفَضَحَتْ مَنِ اتَّخَذُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى مَطِيَّةً لِتَحْقِيقِ مَصَالِحَ آنِيَةٍ، وَإِشْبَاعِ طُمُوحَاتٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَهَذَا مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الِابْتِلَاءَاتِ؛ حَتَّى لَا يُخْدَعُوا بِكُلِّ دَعِيٍّ، وَلَا يُصْغُوا لِكُلِّ رُوَيْبِضَةٍ.

وَفِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ بَدْرٍ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ

لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِعَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، ثُمَّ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ؛ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ عَلَى تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٢].
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَيْ: لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبْرَةِ، وَيُؤْمِنَ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ»(١٣).

وَلَئِنْ كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ قَدْ سَاقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى حَتْفِهِمْ بِعُلُوِّهِ وَاسْتِكْبَارِهِ، وَزَعْمِهِ إِعَادَةَ هَيْبَةِ قُرَيْشٍ وَمَجْدِهَا؛ فَإِنَّنَا نَرَى قَادَةَ الدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ أَبِي جَهْلٍ، فَسُلِّطُوا عَلَى دُوَلِهِمْ، بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَغَزَوْا بِجَحَافِلِهِمْ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِبَسْطِ نُفُوذِهِمْ، وَاسْتِعَادَةِ هَيْبَتِهِمْ، فَغَرِقَ جُنُودُهُمْ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ بِلَادِ الْأَفْغَانِ وَالْعِرَاقِ، كَمَا غَرِقَ أَبُو جَهْلٍ وَجُنْدُهُ فِي بَدْرٍ، وَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ كَمَا كُسِرَتْ شَوْكَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ، وَزَالَتْ هَيْبَتُهُمْ مِنَ الْقُلُوبِ، وَصَغُرَ أَمْرُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ، وَاسْتَأْسَدَتْ عَلَيْهِمُ الدُّوَلُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَخَافُهُمْ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ(١٤).

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ قَدْ كَرِهُوا تَسَلُّطَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى بُلْدَانِهِمْ، كَمَا كَرِهَ أَهْلُ بَدْرٍ مُنَازَلَةَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ اسْتَبَانَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ فِي هَذَا التَّسَلُّطِ وَالِاسْتِكْبَارِ الْعَالَمِيِّ خَيْرًا كَثِيرًا لَمْ يَعْلَمُوهُ هُمْ مِنْ قَبْلُ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

---

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩١١٦)، وعزاه ابن كثير في تفسيره لابن إسحاق من قوله (٢/ ٣١٦)، وهو في سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٧).

(١٤) هذا إشارة إلى ما فعله رئيس أمريكا بوش وعصابته من المحافظين بالكذب والتدليس على شعبهم، حتى غزوا أفغانستان والعراق بحجج واهية، وكانت مستنقعًا يقتل فيه جنودهم، ولم يحققوا مرادهم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَثِقُوا بِهِ سُبْحَانَهُ، وَاثْبُتُوا عَلَى دِينِهِ إِلَى أَنْ تَلْقَوْهُ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ، فَهُوَ وَاللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ . . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣١٨- غزوة بدر (٥)
﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

١٦/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؛ يَنْصُرُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَقْصِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ إِلَى أَنْ نَلْقَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَبِيرٌ فِي حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَكِيمٌ فِي تَقْدِيرِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَمْ يَزَلْ يَوْمَ بَدْرٍ مُنْطَرِحًا عَلَى بَابِ رَبِّهِ، رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُو، حَتَّى جَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَثْمِرُوا مَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمْ؛ فَبِالْأَمْسِ بَدَأْتُمُوهُ، وَهَا أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ مِنْ نِصْفِهِ الْآخَرِ، وَقَرِيبًا يُفَارِقُكُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُمْ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاعْمَلُوا الْيَوْمَ صَالِحًا تَجِدُوا خَيْرًا فِي غَدِكُمْ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧، ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُكَذِّبِينَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُرَغِّبَهُمْ وَيُرَهِّبَهُمْ، وَيُمْهِلَهُمْ وَيُمْلِيَ لَهُمْ، وَيُحَذِّرَهُمْ عِقَابَهُ، وَيُخَوِّفَهُمْ بِآيَاتِهِ، وَيُرْسِلَ لَهُمُ النُّذُرَ تِلْوَ النُّذُرِ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ النِّعَمِ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ؛ حَتَّى إِذَا اسْتَوْجَبُوا الْعِقَابَ؛

قَطَعَ دَابِرَهُمْ، وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ، وَأَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ؛ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وَسَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ عليهم السلام فِي شَتَّى الْأَزْمَانِ وَالْأُمَمِ؛ فَهَذِهِ عَادٌ لَمَّا كَذَّبَتْ هُودًا عليه السلام قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَهُمْ، وَأَنْجَى هُودًا وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ؛ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وَقَضَى ﷻ فِي قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام لَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَتَوُا الْفَوَاحِشَ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ؛ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

وَذَكَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِعَاقِبَةِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ؛ لِئَلَّا يَقْطَعَ دَابِرَهُمْ كَمَا قَطَعَ دَابِرَ مَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

غَيْرَ أَنَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمْ، فَيَأْتُوا أَسْبَابَهُ، وَلَا يَنْفَكُّوا عَنْ عَمَلِ أَهْلِهِ حَتَّى تُرْدِيَهُمْ شِقْوَتُهُمْ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاتَهُمْ أَدْرَكَتْهُمْ رَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ، وَأَسْعَفَتْهُمْ هِدَايَتُهُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ؛ إِذْ سَارَتْ جَحَافِلُ الشِّرْكِ وَجُنْدُ الْبَاطِلِ تَجُرُّ أَذْيَالَهَا بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِتُنْقِذَ قَوَافِلَهَا مِنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَحْبِهِ رضي الله عنهم، وَتَضْرِبَ أَقْبِيَتَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ؛ تَحَدِّيًا لَهُمْ، وَاسْتِعَادَةً لِهَيْبَةٍ تَضَعْضَعَتْ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ،

وَكَادَ اللِّقَاءُ أَنْ لَا يَتِمَّ بِنَجَاةِ الْقَافِلَةِ مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَضَى -وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ- بِقَطْعِ دَابِرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ، وَصَنَادِيدِ مَكَّةَ؛ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

لَقَدْ قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ قَضَاءَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِمْ حُكْمُهُ، وَأَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ مُرَادُهُ، فَكَانَ اللِّقَاءُ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمُونَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ قَبْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشِيرُ إِلَى مَصَارِعِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَرْضِ، رَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بَدْرًا قَالَ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ.** قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَقَالَ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَؤُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ، وَكَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُشِيرُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَرْجِعُوا، وَلَكِنَّ كِبْرِيَاءَ أَبِي جَهْلٍ تَأْبَى ذَلِكَ، فَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى عَزَمُوا عَلَى الْحَرْبِ، وَوَقَفُوا لَهَا، وَخَرَجَ الْمُبَارِزُونَ مِنْهُمْ لِلْمُبَارَزَةِ، وَوَقَعَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحَقَّقَ وَعْدُهُ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ؛ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

---

(١) أخرجه مسلم في المغازي والسير، باب غزوة بدر (١٧٧٩)، وأحمد (٣/ ٢١٩)، وابن حبان (٤٧٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٣)، والطيالسي (٤٠)، وأبو يعلى (١٤٠).

فَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنْهُمْ، وَأُسِرَ سَبْعُونَ، وَكَانَ فِي الْقَتْلَى جُمْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ وَكِبَارِهِمْ، وَصَنَادِيدِ الْكُفْرِ وَشُجْعَانِهِمْ، أَخَذَتْ مِنْهُمْ سُيُوفُ الْحَقِّ حَظَّهَا، وَارْتَوَتْ أَرْضُ بَدْرٍ بِدِمَائِهِمْ، وَدَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْتَصَرَتِ الْفِئَةُ الْمُؤْمِنَةُ الْمُسْتَضْعَفَةُ، وَنَالَ الْمُعَذَّبُونَ مِمَّنْ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ فِي رَمْضَاءِ مَكَّةَ، وَانْتَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْهُمْ، وَأَبْصَرَ بِلَالٌ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ -وَقَدْ كَانَ يُعَذِّبُهُ بِمَكَّةَ- فَقَالَ: «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ! لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ فَرِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَتَخَلَّلُوهُ بِسُيُوفِهِم حَتَّى قَتَلُوهُ»، وَقِصَّةُ قَتْلِهِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[٣].

وَكَانَ أُمَيَّةُ صَدِيقًا لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَإِذَا ذَهَبَ سَعْدٌ إِلَى مَكَّةَ نَزَلَ عِنْدَ أُمَيَّةَ، وَإِذَا ذَهَبَ أُمَيَّةُ إِلَى الْمَدِينَةِ نَزَلَ عِنْدَ سَعْدٍ، وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا فَأَجَارَهُ أُمَيَّةُ وَضَيَّفَهُ، وَأَخْبَرَهُ سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَخْبَرَ بِمَقْتَلِهِ، فَقَالَ: «بِمَكَّةَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَفَزِعَ لِذَلِكَ أُمَيَّةُ فَزَعًا شَدِيدًا، فَأَخْبَرَ أَهْلَهُ بِذَلِكَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ»[٤]، وَلَكِنَّ الشَّقِيَّ سَيُدْرِكُهُ شَقَاؤُهُ وَلَوِ احْتَرَزَ، وَأَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَمْضَى مِنْ عَزْمِهِ وَيَمِينِهِ، وَرُفْقَةُ السُّوءِ لَنْ تَزَالَ بِهِ حَتَّى تُورِدَهُ حَتْفَهُ.

«فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ، قَالَ: أَدْرِكُوا عِيرَكُمْ، فَكَرِهَ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي تَخَلَّفُوا مَعَكَ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى

---

(٣) في كتاب الوكالة، باب إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب أو في دار الإسلام جاز (٢١٧٩) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مطولًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن سعد بن معاذ رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر (٣٧٣٤)، وأحمد (١/ ٤٠٠).

قَالَ: أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِي فَوَاللَّهِ لَأَشْتَرِيَنَّ أَجْوَدَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ، ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ: يَا أُمَّ صَفْوَانَ جَهِّزِينِي، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: لَا، مَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيبًا، فَلَمَّا خَرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لَا يَنْزِلُ مَنْزِلًا إِلَّا عَقَلَ بَعِيرَهُ، فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ ﷻ بِبَدْرٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥).

لَقَدْ قُتِلَ فِي بَدْرٍ رُؤَسَاءُ الْكُفْرِ، وَأَئِمَّةُ الشِّرْكِ، وَقَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَهُمْ، وَشَفَى صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَكَانَتْ نِهَايَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا شَرَّ نِهَايَةٍ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقَتْلَى أَنْ يُطْرَحُوا فِي الْقَلِيبِ، فَطُرِحُوا فِيهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ فَإِنَّهُ انْتَفَخَ فِي دِرْعِهِ فَمَلَأَهَا فَذَهَبُوا يُحَرِّكُوهُ فَتَزَايَلَ، فَأَقَرُّوهُ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مَا غَيَّبَهُ مِنَ التُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا أَلْقَاهُمْ فِي الْقَلِيبِ وَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**، فَقَالَ لَهُ: أَصْحَابُهُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى، فَقَالَ لَهُمْ: **لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدْتُهُمْ حَقٌّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: «**جَزَاكُمُ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ**»(٧).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ ﵁: «فَجَعَلَ ﷺ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: **يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ**

(٥) قطعة من الحديث السابق المخرج في حاشية (٤).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦).

(٧) هذه الرواية لأحمد من حديث عائشة ﵂، وفيها انقطاع (٦/ ١٧٠).

أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَنَادَاهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»(٨).

وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ! كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، فَبِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ»(٩).

هَكَذَا كَانَتْ نِهَايَةُ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ، وَكَذَلِكَ يَقْطَعُ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَ كُلِّ مُسْتَكْبِرٍ جَبَّارٍ، كَمَا قَطَعَ سُبْحَانَهُ دَابِرَ قَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَقَوْمِ شُعَيْبٍ، وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ، وَحَقَّ فِي كُفَّارِ مَكَّةَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، وَمُحَمَّدٌ النِّعْمَةُ، وَدَارُ الْبَوَارِ النَّارُ يَوْمَ بَدْرٍ»(١٠).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَنَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ

---

(٨) أخرجه من حديث أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما: البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٧٥٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (٢٨٧٤)، ولم يذكر مسلم في روايته عن أبي طلحة به، وإنما جعله عن أنس رضي الله عنه، وأحمد (٤/ ٢٩)، وابن حبان (٤٧٧٨).

(٩) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٠٢).

(١٠) علقه البخاري مجزومًا به في المغازي، باب قتل أبي جهل (٤/ ١٤٦٢)، وذكر الحافظ في الفتح أنه موصول (٧/ ٣٠٣).

وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المُجَادَلَة: ٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٠، ٢١].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ، فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاثْبُتُوا عَلَى دِينِكُمْ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ؛ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الْحِجْر: ٩٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَهْلُ الْخَيْرِ يَنْفَعُونَ إِخْوَانَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَرَاقِي الْعِزِّ وَالسَّعَادَةِ، وَأَهْلُ الشَّرِّ يُرْدُونَ أَقْرَانَهُمْ، وَيَكُونُونَ سَبَبًا فِي هَلَاكِ أَصْحَابِهِمْ، وَلَا يَدُلُّونَهُمْ إِلَّا عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ، وَظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ أَغْرَى أَبُو جَهْلٍ صَاحِبَهُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ بِالْخُرُوجِ مَعَ يَقِينِهِ أَنَّهُ مَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ، فَمَا زَالَ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَى الْقَتْلِ وَالنَّارِ.

وَفِي زَمَنِنَا هَذَا رَأَيْنَا فَرَاعِنَةَ الدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ يَجُرُّونَ مَعَهُمْ إِلَى الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ وَالنَّارِ مَنْ يُوَافِقُهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الدُّوَلِ الْأُخْرَى لِيُغْرِقُوهُمْ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ الدَّمِ وَالدَّمَارِ وَالْإِثْمِ وَالْعَارِ فِي الْعِرَاقِ وَالصُّومَالِ وَأَفْغَانِسْتَانَ، فَمَتَى يَتَّعِظُ الطُّغَاةُ؟

وَمَتَى يَعْتَبِرُ الْأَتْبَاعُ؟ وَهَلَّا كَانَ لَهُمْ فِيمَنْ مَضَوْا مِنْ طُغَاةِ التَّارِيخِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ؟!

هَذَا؛ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَصَارِعَ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ عَلِمَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ فِيهِمْ؛ فَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَوْ آمَنُوا -وَهُمْ سَادَةُ مَكَّةَ وَأَشْرَافُ قُرَيْشٍ- لَسَادُوا النَّاسَ كَمَا سَادَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَسَائِرُ الْأَشْرَافِ مِنْ قُرَيْشٍ ﷺ، وَلَكَانَتْ هَذِهِ عَاجِلَ بُشْرَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ مَنْ حُجِبَ قَلْبُهُ عَمَّا يَنْفَعُهُ فَلَنْ تَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، وَلَنْ تُجْدِيَ فِيهِ الْمَوَاعِظُ، وَلَوْ جَاءَتْهُ النُّذُرُ، وَأَبْصَرَ الْآيَاتِ؛ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٦].

وَمِنْ عَجِيبِ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنَّ أَبْنَاءً لِهَؤُلَاءِ الصَّنَادِيدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَإِخْوَانًا وَأَقْرَانًا وَأَصْحَابًا حَضَرُوا بَدْرًا عَلَى الشِّرْكِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقْتَلُوا، وَبَقِيَ مِنْهُمْ عَلَى الشِّرْكِ مَنْ بَقِيَ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، وَلَكِنَّهُمْ مَكْتُوبُونَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنْ أَهْلِ الْهِدَايَةِ وَالسَّعَادَةِ وَلَوْ رَفَعُوا سُيُوفَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَالْخَنْدَقِ وَغَيْرِهَا، وَمَنْ كُتِبَ سَعِيدًا فَلَنْ تَسْتَمِرَّ مَعَهُ شِقْوَتُهُ، وَلَنْ يَبْقَى عَلَى كُفْرِهِ، وَلَنْ يَمُوتَ إِلَّا مُؤْمِنًا، فَمَا أَعْظَمَ مَقَادِيرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ! وَمَا أَحْكَمَ قَضَاءَهُ سُبْحَانَهُ فِي عِبَادِهِ! ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٤٩].

كَانَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ حَكِيمُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ رضي الله عنه الَّذِي رَأَى الْمَوْتَ فِي بَدْرٍ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى شَمِلَتْهُ فَنَجَا وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ سَيِّدًا فِي الْإِسْلَامِ كَمَا كَانَ سَيِّدًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ إِذَا حَلَفَ بِيَمِينٍ قَالَ: لَا وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ[(١١)].

---

(١١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٥/ ١١٨)، وينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤).

وَكَانَ مِنْهُمْ عِكْرِمَةُ رضي الله عنه ابْنُ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبِي جَهْلٍ، قُتِلَ أَبُوهُ عَلَى الشِّرْكِ فِي بَدْرٍ، وَنَجَّى اللَّهُ تَعَالَى عِكْرِمَةَ رضي الله عنه لِخَيْرٍ أَرَادَهُ بِهِ، فَأَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ رضي الله عنه إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ: وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ(١٢).

وَإِذَا كَانَتِ الْهِدَايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَحَرِيٌّ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْهَجَ بِدُعَائِهِ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْ يَهْدِيَهُ وَيُثَبِّتَهُ. كَيْفَ؟ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْفَاتِحَة: ٦، ٧].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرُهُ، وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ مَعَ الْإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِدَايَةِ الْقُلُوبِ وَصَلَاحِهَا وَثَبَاتِهَا عَلَى الْحَقِّ، وَإِنْ كَثُرَتِ الْمُلْهِيَاتُ وَالصَّوَارِفُ، وَقَوِيَتِ الضُّغُوطُ وَالْمُضَايَقَاتُ.

وَعَنْ قَرِيبٍ تَحُلُّ بِكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- عَشْرُ لَيَالٍ مُبَارَكَاتٌ، هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي وَأَكْثَرُهَا بَرَكَةً، جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ كُلَّهَا الْتِمَاسًا لِهَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَيَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ تَحَرِّيًا لَهَا؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣)، وَقَالَتْ رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤).

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن أبي مليكة -رحمه الله تعالى-: الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٧١) رقم (١٠١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤١/ ٥٨).

(١٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

(١٤) أخرجه مسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

فَشَمِّرُوا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ الْمُبَارَكَاتِ، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَنَافِسُوا أَهْلَ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَيْهَا غَالِبٌ؛ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ شَغَلَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَهُوَ قَانِتٌ لِلَّهِ تَعَالَى قَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، قَارِئًا بَاكِيًا مُتَضَرِّعًا، وَالْخَاسِرَ مَنْ ضَيَّعَهَا فِيمَا لَا طَائِلَ مِنْهُ.

أَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِي عَشْرِكُمْ تَجِدُوا خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا فَلَعَلَّهُ لَا يُدْرِكُهَا مِنْ قَابِلٍ، فَكَمْ وُسِّدَ فِي الْقُبُورِ مِنْ أُنَاسٍ أَدْرَكُوهَا فِي الْأَعْوَامِ الْمَاضِيَةِ، فَخُذُوا مِنْ مَصِيرِهِمْ عِبْرَةً لِأَنْفُسِكُمْ، وَاعْمَلُوا لِمَا عَلَيْهِ قَدْ قَدِمُوا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٩- إجلاء بني قينقاع

١٩/ ١٠/ ١٤١٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَلَا دِينَ أَكْمَلُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَرِيعَةَ أَوْفَى مِنْ شَرِيعَتِهِ، وَالصِّدْقُ كُلُّ الصِّدْقِ فِي أَخْبَارِهِ، وَالْحقُّ كُلُّ الْحَقِّ فِي أَحْكَامِهِ. فَالْحُكْمُ الْمُحْكَمُ، وَالْخَبَرُ الْمَوْثُوقُ هُوَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَحِيحِ سُنَّةِ وَسِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَمَا عَدَا الْإِسْلَامَ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ فَهُوَ مُحَرَّفٌ أَوْ مُبَدَّلٌ أَوْ مَنْسُوخٌ، وَلَنْ يَكُونَ دِينًا صَحِيحًا؛ لِلْكَذِبِ فِي نَقْلِهِ، وَلِأَنَّ الْإِسْلَامَ نَسَخَ مَا كَانَ قَبْلَهُ.

بَلْ إِنَّ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّابِقِينَ، الصِّدْقُ مِنْهَا وَالْحَقُّ مَا كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَأَهْلُ الْإِسْلَامِ بِالْوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِكُتُبِهِمْ، وَبِأَحْوَالِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَقْوَمُ طَرِيقًا، وَأَهْدَى سَبِيلًا.

وَنَفَاسَةُ الْخَبَرِ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي صِدْقِهِ وَثُبُوتِهِ، وَلَا مَصْدَرَ أَصَحُّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ فَأَهْلُ الْكِتَابِ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ لَأَخَذُوا أَخْبَارَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَحْوَالَ سَابِقِيهِمْ مِنْهُمَا، وَلَكِنْ كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ قَدْ زَهِدُوا فِيهِمَا وَضَيَّعُوهُمَا وَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي وَقَلِيلٌ مَا هُمْ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَعْتَنِي أَهْلُ الْكِتَابِ بِكُتُبِهِمْ وَقَدْ مُلِئَتْ زُورًا وَظُلْمًا مِمَّا لَا يَصِحُّ عَقْلًا وَنَقْلًا، وَيُهْمِلُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مَصَادِرَهُمُ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ صِدْقًا وَعَدْلًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنْهَا الدُّرُوسُ، وَتُؤْخَذُ مِنْهَا الْعِبَرُ، مِنْ سِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ: حَادِثَةٌ وَقَعَتْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ .. إِنَّهَا حَادِثَةُ إِجْلَاءِ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَنِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ حِينَمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ(١).

وَكَمْ نَحْتَاجُ إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَإِمْعَانِ النَّظَرِ فِي تَفَاصِيلِهَا فِي زَمَنٍ يُشَاهِدُ فِيهِ الْمُسْلِمُ الْحَقَائِقَ تُبَدَّلُ، وَالثَّوَابِتَ تُغَيَّرُ، وَالتَّارِيخَ يُزَوَّرُ.

كَانَ بَنُو قَيْنُقَاعَ صَاغَةً وَحَدَّادِينَ، وَيَمْلِكُونَ الْكَثِيرَ مِنَ السِّلَاحِ، كَمَا كَانُوا أَوَّلَ مَنْ نَكَثَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا أَشْجَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ وَحِقْدَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم، فَلَمَّا انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ اشْتَدَّ غَضَبُهُمْ وَحِقْدُهُمْ، وَازْدَادَتْ سُخْرِيَتُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّحَرُّشِ بِهِمْ، وَعِنْدَمَا تَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ بَغْيُهُمْ، نَفَذَ صَبْرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ

(١) قال الواقدي: غزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال، على رأس عشرين شهرًا، حاصرهم النبي ﷺ إلى هلال ذي القعدة. المغازي (١/ ١٦٥)، ومثله في طبقات ابن سعد (٢/ ٢١)، ونقله عن الواقدي البيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٣).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ المُعَلِّمُ وَالْقُدْوَةُ لَمْ يَسْتَعْجِلْ فِي أَمْرِهِمْ، بَلْ رَأَى أَنْ يَعِظَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ.

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا**»، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣](٢).

فَكَانَ ظَاهِرًا مِنْ جَوَابِ الْيَهُودِ الْإِعْلَانُ السَّافِرُ بِالْحَرْبِ، وَاقْتِرَابُ نَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ، لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَصَبَرَ عَلَيْهِمْ.

وَيَذْكُرُ أَهْلُ السِّيَرِ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ -وَهُوَ مِنْ صِغَارِ التَّابِعِينَ- أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ، فَجَعَلَ الْيَهُودُ يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ، فَعَمَدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرْفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ، فَلَمَّا قَامَتِ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ، فَشَدَّتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ(٣).

---

(٢) أخرجه أبو داود في الإمارة والخراج والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة؟ (٣٠٠١)، وابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٩٤)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٩٢)، والبيهقي (٩/ ١٨٣)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٤)، وعنه ابن كثير في السيرة (٣/ ٦).

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ إِلَى بَنِي قَيْنُقَاعَ يَحْمِلُ لِوَاءَهُ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه وَلَمَّا رَأَوْهُ تَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ أَشَدَّ حِصَارٍ مِنْ نِصْفِ شَوَّالٍ إِلَى هِلَالِ ذِي الْقِعْدَةِ، فَقَذَفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحِينَئِذٍ قَامَ كَبِيرُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ بِدَوْرِهِ النِّفَاقِيِّ؛ فَأَلَحَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ؛ حَتَّى إِنَّهُ -أَخْزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَرْسِلْنِي**»، وَغَضِبَ حَتَّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ظُلَلًا، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَرْسِلْنِي**»، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقَ مَضَى عَلَى إِصْرَارِهِ وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ، أَرْبَعُمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثُمِائَةِ دَارِعٍ قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَتَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنِّي وَاللَّهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَوَهَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ(٤)، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَا يُجَاوِرُوهُ بِهَا، فَخَرَجُوا إِلَى أَذْرِعَاتِ الشَّامِ، فَقَلَّ أَنْ لَبِثُوا فِيهَا حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ أَكْثَرَهُمْ(٥). وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ، وَنَاصَبَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَتُظْهِرُ هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْفَرْقَ الْوَاضِحَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ، وَالْمُنَافِقِ الْكَذَّابِ؛ فَقُدْوَةُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ كَانَ مُوَالِيًا لِلْيَهُودِ، وَشَفَعَ فِيهِمْ لَدَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَغْمَ عَدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِيذَائِهِمْ، وَرَغْمَ نَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَيُلِحُّ فِي شَفَاعَتِهِ وَيَقُولُ: أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَيُنْزِلُ اللَّهُ ﷻ فِيهِ وَفِي أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

(٤) أخرجه ابن إسحاق (٣/ ٢٩٥)، وعنه ابن هشام (٣/ ٣١٥)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٤).

(٥) أخرجه الواقدي في المغازي (١/ ١٦٧-١٦٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩).

﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

بَيْنَمَا يَقِفُ مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ، وَيَتَبَرَّأُ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه؛ حَيْثُ أَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنْ حُلَفَائِهِ الْيَهُودِ؛ مُظَاهَرَةً لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودَ كَثِيرٍ عَدَدُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَنِعْمَ مَا تَوَلَّى عُبَادَةُ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦][٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَقِفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ هَذَا الْمَوْقِفَ الْفَاضِحَ مِنْ تَوَلِّي إِخْوَانِهِ الْيَهُودِ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يَغْتَمُّ لِأَيِّ حَسَنَةٍ تُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَفْرَحُ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ تَضُرُّهُمْ.

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٧٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٦٥)، والدر المنثور (٣/ ٩٩)

كَذَلِكَ لَنْ يَكُونَ غَرِيبًا عِنْدَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَلَّى مُنَافِقُو هَذَا الْعَصْرِ أَعْدَاءَ الدِّينِ مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِ يَهُودٍ، وَلَنْ يَكُونَ غَرِيبًا أَنْ يُسَلِّطُوا أَلْسِنَتَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ ضِدَّ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَعُلَمَائِهِ وَدُعَاتِهِ وَاصِفِينَ إِيَّاهُمْ بِالتَّطَرُّفِ وَالْأُصُولِيَّةِ، مُلْصِقِينَ بِهِمْ كُلَّ تُهْمَةٍ هُمْ مِنْهَا بُرَءَاءُ؛ فَقَدْ كَانَ أَسْلَافُهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِسْلَامِ:

أَلَمْ يَنْسَحِبْ مِنْهُمْ ثُلُثُ الْجَيْشِ فِي أُحُدٍ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ؟[٧].

أَلَمْ يَرْمُوا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَزَوْجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الطَّاهِرَةَ الْمُطَهَّرَةَ عَائِشَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما بِالْإِفْكِ؟[٨].

ثُمَّ أَلَمْ يُوقِعُوا الْفِتْنَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا؟[٩].

فَهَلْ نَسْتَغْرِبُ أَفْعَالَهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟

أَمَّا الْيَهُودُ فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَلِيئَانِ بِأَخْبَارِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَصِفَاتِهِمُ الذَّمِيمَةِ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يُدْخِلُوا مَوَدَّتَهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا، مَا دَامَ الْمُسْلِمُونَ يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ وَيَعْمَلُونَ بِهِمَا؛ فَالْحَقَائِقُ الْفَاضِحَةُ الْوَاضِحَةُ لِلْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ ثَابِتَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ تَغَيَّرُوا، فَالْقُرْآنُ يُكَذِّبُ زَعْمَ الْمُنَافِقِينَ هَذَا مَا دَامَ الْيَهُودُ عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ.

---

(٧) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٧٣٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٢١)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٠١).

(٨) أخرج حديث الإفك مطولًا: البخاري في المغازي، باب حديث الإفك (٤١٤١)، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول الله توبة القاذف (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٩) وذلك ما فعله عبد الله بن سبأ اليهودي حين أظهر الإيمان، وحرض على قتل عثمان رضي الله عنه، وأشعل الفتنة بين المسلمين.

تَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مُخَاطِبًا الْيَهُودَ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، ثُمَّ بَيَّنَ الْقُرْآنُ حَقِيقَةَ زَعْمِهِمْ هَذَا ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يُفْرَضُ فِي هَذَا الْمَقَامِ: هَلْ قَتَلَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبِيًّا وَاحِدًا، أَوْ شَارَكُوا فِي قَتْلِ نَبِيٍّ؟ بَلْ هَلْ أَدْرَكُوا زَمَنَ قَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ كَلَّا، لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يُخَاطِبُهُمُ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

إِنَّ فِي هَذَا إِيمَاءً إِلَى أَنَّ أَخْلَاقَ الْيَهُودِ وَطِبَاعَهُمْ لَا تَتَغَيَّرُ، وَأَنَّهُمْ يَسْلُكُونَ مَسْلَكَ أَجْدَادِهِمْ قَتَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ثُمَّ تَأْتِي الْحَوَادِثُ لِتُؤَكِّدَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَوْمَأَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ؛ حَيْثُ سَمَّ يَهُودُ الْمَدِينَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ(١٠)، وَسَحَرُوهُ(١١)،

---

(١٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ. أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧)، ومسلم في السلام، باب السم (٢١٩٠).

(١١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «**أَشَعَرْتِ أن الله أفتاني فيما فيه شِفَائي، أتاني رَجُلَانِ: فقَعَدَ أحدُهُمَا عند رأسِي والآخر عند رِجلي، فقال أحَدُهما للآخَرِ: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطْبُوب، قال: ومَنْ طبَّه؟ قال: لَبِيد بن الأعْصَمِ، قال: فيما ذا؟ قال: في مشْطٍ ومُشَاطَة وجفّ طلعَةٍ ذَكَر، قال: فأين هُوَ؟ قال: في بئر ذرْوان**» فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: «**نخلها كأنه رءوس الشياطين**» فقلت: استخرجته؟ فقال: «**لا، أمَّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا**» ثم دفنت البئر. أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٦٨)، ومسلم في الآداب، باب السحر (٢١٨٩).

وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ(١٢)، فَأَخْلَاقُ سَابِقِيهِمُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ﷺ أَتَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَالْيَهُودُ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِين نَاصَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ الْعَدَاءَ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ حَاكُوا الْمُؤَامَرَاتِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِين يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَفِي كُلِّ عَصْرٍ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ الدَّجَّالَ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَخْتَبِئُونَ خَلْفَ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَنْطِقُ يُخْبِرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ(١٣).

وَلَا يُوجَدُ نَصٌّ شَرْعِيٌّ وَلَا حَقِيقَةٌ تَارِيخِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ يَخْتَلِفُونَ مِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْرٍ، وَلَوْ أَرَادَ الْمُنَافِقُونَ مُخَالَفَةَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّطْبِيعِ مَعَهُمْ، وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا نُصُوصُ عَدَاءٍ لَا تُنَاسِبُ حَضَارَةَ الْيَوْمِ، وَالنِّظَامَ الْعَالَمِيَّ الْجَدِيدَ؛ فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يُكَذِّبَانِ ذَلِكَ، وَالتَّارِيخُ يُكَذِّبُهُ، وَالْوَاقِعُ يُكَذِّبُهُ.

أَمَا يَسْتَحِيي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ حِينَ يُخَادِعُونَ عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّطْبِيعِ مَعَ الْيَهُودِ، وَيُخَالِفُونَ قَوَاطِعَ النُّصُوصِ، وَوَقَائِعَ التَّارِيخِ، وَدَلَائِلَ الْوَاقِعِ؟! وَلَكِنْ لَا عَجَبَ؛ فَالْقُرْآنُ قَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ

(١٢) كما فعل بنو النضير حين حاولوا قتله غدرًا، ينظر: خطبة إجلاء بني النضير (٣/ ٣٢٥).

(١٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقْتُلهم المسْلِمُون حتى يختبئ اليهودي مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خَلْفِي، فتعال فاقتله، إلا الغَرْقَد، فإنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ**» أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢).

قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنْ كَانَ الْيَهُودُ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَقْوَى سِلَاحًا، وَأَمْضَى قَرَارًا، فَإِنَّ عَقِيدَةَ الْمُؤْمِنِ كَرَاهِيَتُهُمْ وَبُغْضُهُمْ، هُمْ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ الثَّابِتَةُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْمُنَافِقُونَ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْيَهُودُ أَنْ يُزِيلُوهَا مِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مَا دَامَ يَقْرَأُ الْوَحْيَ وَيَعْمَلُ بِمَا فِيهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.

فَلْتَسْتَقِرَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، يَشِبُّ عَلَيْهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَيَمُوتُ عَلَيْهَا كُلُّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِهَا فِي الْقِيَامَةِ، أَوْ يَعِيشَ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَيَتَحَقَّقَ نَصْرُهُ، وَيُخْذَلَ الْأَعْدَاءُ، وَيُفْضَحَ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]..

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...





٣٢٠- غزوة أحد (٣) (*)
التضحيات والبطولات

١٤/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: الْجَنَّةُ سِلْعَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْغَالِيَةُ، لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. وَلَيْسَ الْإِيمَانُ أَمْرًا هَيِّنًا؛ فَهُوَ مِنَ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَبَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ حَمْلَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا! وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، مِنْ فِعْلٍ لِلْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابٍ لِلنَّوَاهِي؛ ثَقِيلٌ عَلَى نُفُوسٍ رُكِّبَتْ فِيهَا الشَّهَوَاتُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(*) غزوة أحد (١) تجدها في (٣/ ٢٤٦)، وغزوة أحد (٢) تجدها في (٣/ ٢٥٨).

بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يُعِينُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْمُؤْمِنُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَسْأَلُهُ الْإِعَانَةَ عَلَى عِبَادَتِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَمِنَ الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

بَيْدَ أَنَّ الْإِيمَانَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الْقُلُوبِ عَمِلَ عَمَلَهُ فِيهَا، فَتَعِبَتْ فِي مُرَادِهِ الْأَجْسَادُ، وَخَاضَتِ الصِّعَابَ، لَا تَهِنُ لَهَا عَزِيمَةٌ، وَلَا تَلِينُ لَهَا شَكِيمَةٌ، تُضَحِّي بِالنَّفْسِ وَبِالْمَالِ وَبِالْوَلَدِ، وَبِكُلِّ مَا يُمْكِنُ التَّضْحِيَةُ بِهِ؛ حِفَاظًا عَلَى الدِّينِ، وَثَبَاتًا عَلَى الْحَقِّ، وَإِرْضَاءً لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَهَكَذَا فَعَلَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ الَّتِي كَانَتْ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

لَقَدْ كَانَتْ تَضْحِيَاتُهُمْ فِيهَا كَبِيرَةً، وَبُطُولَاتُهُمْ فِيهَا عَظِيمَةً، بَرْهَنُوا بِهَا عَلَى إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ مَعَ اللَّهِ ﷻ، حَتَّى نَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وَإِذَا كَانَ صِبْيَانُهُمْ يَتَطَاوَلُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ لِيُجِيزَهُمْ لِلْغَزْوِ فَكَيْفَ إِذًا بِرِجَالِهِمْ؟!

رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ صَبِيًّا لَمْ يَبْلُغُوا الْخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَجَمَاعَةٌ

---

(١) أخرجه من حديث معاذ ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وعبد بن حميد (١٢٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠-٢٠٢١)، والحاكم ووافقه الذهبي (٣/ ٣٠٧).

آخَرُونَ(٢)، وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ مَاهِرٌ فِي الرِّمَايَةِ، فَأَجَازَهُ وَهُوَ صَبِيٌّ(٣)، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ بِأَنَّهُ أَقْوَى مِنْ رَافِعٍ وَيَصْرَعُهُ، فَأَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَذَلِكَ(٤).

وَفِي الطَّرِيقِ لِلْمَعْرَكَةِ طَلَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَخِيهِ زَيْدٍ رضي الله عنه أَنْ يَأْخُذَ دِرْعَهُ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: «لَا، إِنِّي أُرِيدُ مِنَ الشَّهَادَةِ مِثْلَ مَا تُرِيدُ، فَتَرَكَهُ كِلَاهُمَا»(٥).

وَهَذَا عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ خَرَجَ مَعَ أَبْنَائِهِ الْأَرْبَعَةِ لِلْغَزْوَةِ، أُسْرَةٌ كَامِلَةٌ خَرَجَتْ مَا وَفَّرَ مِنْهُمَ أَحَدًا، وَلَا اسْتَبْقَاهُ احْتِيَاطًا لِشَيْءٍ، وَكَانَ رضي الله عنه مَعْذُورًا لَوْ قَعَدَ؛ لِأَنَّهُ أَعْرَجُ شَدِيدُ الْعَرَجِ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَبْنَاؤُهُ الْأَرْبَعَةُ يُحَاوِلُونَ ثَنْيَهُ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ وَهُوَ بِهَذَا الْعُذْرِ وَالضَّعْفِ؛ وَلَكِنَّ إِيمَانَهُ كَانَ أَقْوَى، فَأَصَرَّ عَلَى الْخُرُوجِ، وَاشْتَكَى أَبْنَاءَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَسْتَشْهِدَ فَأَطَأَ بِعَرَجَتِي هَذِهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ»**، وَقَالَ لِبَنِيهِ: **«وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدَعُوهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ»**.

فَلَمَّا الْتَقَى النَّاسُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ الْيَوْمَ أَطَأُ بِعَرَجَتِي

---

(٢) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٢١٦)، والبداية والنهاية (٤/ ١٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٣٩)، وقال الهيثمي في الزوائد: «وفيه من لم أعرفهم» (٦/ ١٠٨)، وذكر خبره أيضًا: أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٩٥)، وهو في السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٣).

(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٩٦)، وينظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٢/ ٤٦٧).

(٥) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٥٣٠٠)، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح» (٥/ ٢٩٨)، وهو في الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٥٥٠)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٠)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨).

هَذِه الْجَنَّة؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَطَأَنَّ بِهَا الْجَنَّةَ الْيَوْمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ.

فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ»**(٦).

إِنَّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ ﷺ قَبْلَ المَعْرَكَةِ لَتَدُلُّ دِلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَزَمُوا عَلَى التَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ بَاعُوا الدُّنْيَا، وَاشْتَرَوُا الآخِرَةَ.

وَلَمَّا انْسَحَبَ المُنَافِقُونَ مِنَ الْجَيْشِ وَكَانُوا ثُلُثَهُ، مَا تَرَدَّدَ المُؤْمِنُونَ فِي أَمْرِ الْغَزْوِ، وَلَا تَكَاسَلُوا عَنِ التَّضْحِيَةِ.

ثُمَّ بَرْهَنُوا عَلَى ذَلِكَ فَوْرَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ؛ فَأَبُو دُجَانَةَ أَخَذَ السَّيْفَ بِحَقِّهِ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفَلَقَ بِهِ هَامَ المُشْرِكِينَ، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَثْخَنَ فِي صُفُوفِ المُشْرِكِينَ يَهُدُّهَا وَيُبَعْثِرُهَا، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَارَزَ حَامِلَ لِوَاءِ المُشْرِكِينَ فَصَرَعَهُ، وَاقْتَرَبَ المُسْلِمُونَ مِنَ النَّصْرِ، بَلِ انْتَصَرُوا؛ لَوْلَا أَنَّ الرُّمَاةَ بَارَحُوا أَمَاكِنَهُمْ، وَاشْتَغَلُوا بِجَمْعِ الْغَنَائِمِ عَنْ حِمَايَةِ ظُهُورِ المُسْلِمِينَ؛ فَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ!!

---

(٦) أخرجه من حديث أبي قتادة ﷺ: أحمد (٥/ ٢٩٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٢٤٠)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن شبَّة في أخبار المدينة (٤/٦١٦)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة» (٩/ ٣١٥).

وأخرجه من حديث ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة: البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٤).

وأخرجه مرسلًا من حديث عكرمة مولى ابن عباس ﷺ: ابن المبارك في الجهاد (٧٨).

والرواية الأولى للبيهقي، والثانية لابن المبارك، والثالثة لأحمد.

وَإِذْ ذَاكَ كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ أَكْثَرَ تَضْحِيَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَفِدَاءً بِأَرْوَاحِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ فَأَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ﷺ فَاتَتْهُ بَدْرٌ، فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَيَفْعَلَنَّ الْأَفَاعِيلَ فِي أُحُدٍ؛ فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، وَرَزَقَهُ الثَّبَاتَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ .. رَأَى ﷺ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قُعُودًا إِثْرَ الْهَزِيمَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: أَصْحَابَهُ-، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ-، ثُمَّ تَقَدَّمَ يُرِيدُ الِانْغِمَاسَ فِي جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ يُجَالِدُهُمْ وَحْدَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ -وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُحُدٍ- قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ!! وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ جَسَدَهُ مُزِّقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِبِضْعٍ وَثَمَانِينَ؛ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ وَطَعْنَةٍ، وَمَا عَرَفَتْهُ إِلَّا أُخْتُهُ الرُّبَيِّعُ بِبَنَانِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَرَجُلٌ آخَرُ أَحْيَا سِيرَةَ عُمَيْرِ بْنِ الْحُمَامِ ﷺ حِينَ قَالَ: «لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ»(٨)، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ .. هَذَا الرَّجُلُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ؛ فَلَمْ يَذْكُرِ الرُّوَاةُ اسْمَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْرِفُهُ .. جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ**»؛ فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] (٢٦٥١)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣).

(٨) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٦٣)، وعبد بن حميد (١٢٧٢)، والبيهقي (٩/ ٤٣)، والحاكم (٣/ ٣٨١).

(٩) أخرجه من حديث جابر بن عبدالله ﷺ: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٢٠)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوب الجنة للشهيد (١٨٩٩).

وَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ﷺ رَبَّهُ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْتَلَ فِي أُحُدٍ، وَأَنْ يُبْقَرَ بَطْنُهُ، وَيُجْدَعَ أَنْفُهُ وَأُذُنُهُ، وَيُمَثَّلَ بِهِ، حَتَّى إِذَا سَأَلَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: فِيمَ هَذَا؟ قَالَ: فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِكَ. فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، حَتَّى قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقَانِ فِي خَيْطٍ»، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبَرَّ اللَّهُ آخِرَ قَسَمِهِ كَمَا بَرَّ أَوَّلَهُ»رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ مُرْسَلٌ[10].

وَحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ ﷺ زُفَّ إِلَى عَرُوسِهِ لَيْلَةَ أُحُدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ انْخَلَعَ مِنْ أَحْضَانِ زَوْجَتِهِ، وَهَرِعَ إِلَى سَاحَةِ الْوَغَى؛ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ شَرَفُ الْجِهَادِ، فَكَانَ حَادِيَ التَّضْحِيَةِ أَمْلَكَ لِنَفْسِهِ، وَأَمْلَأَ لِحِسِّهِ مِنْ دَاعِي اللَّذَّةِ[11]، فَاسْتُشْهِدَ وَهُوَ جُنُبٌ، فَغَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى عُرِفَ بِغَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ[12].

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَيْرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ نَالَهُ بِأَسْرَعَ مِمَّا يَظُنُّ الْبَشَرُ، فَانْتَقَلَ مِمَّا يُوجِبُ لَهُ دَرَكَ النَّارِ إِلَى أَعْلَى الْجِنَانِ؛ كَمَا حَدَثَ لِأُصَيْرِمِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ

---

(١٠) أخرجه مرسلًا من حديث سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى-: ابن المبارك في الجهاد (٨٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٥٥٢)، والحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه» ووافقه الذهبي (٢/ ٨٦) و(٣/ ٢٢٠)، والبيهقي (٦/ ٣٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٩)، وعزاه الهيثمي في الزوائد (٩/ ٣٠١-٣٠٢) للطبراني، وقال: «رجاله رجال صحيح».

(١١) ينظر: فقه السيرة للغزالي (٢٥٣).

(١٢) أخرجه من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ: ابن إسحاق في السيرة (٣١٢)، والبيهقي في السنن (٤/ ١٥)، وفي الدلائل (٣/ ٢٤٦)، وصححه ابن حبان (٧٠٢٥)، والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٢٥)، وحسنه الهيثمي في الزوائد بعد أن عزاه للطبراني في الكبير(٣/ ٢٣).

عَمْرو بْنِ أُقَيْشٍ ﷺ، فَقَدْ كَانَ كَارِهًا لِلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أُحُدٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ، وَمَلَأَهُ بِالْإِيمَانِ؛ فَأَسْلَمَ، وَلَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ فَقُتِلَ وَنَالَ شَرَفَ الْجِهَادِ، وَمَنْزِلَةَ الشَّهَادَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَى سَجْدَةً وَاحِدَةً!![١٣].

وَالنُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ ﷺ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، قَالَ وَهُوَ فِي سَاحَةِ الْوَغَى: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ أَنْ لَا تَغِيبَ الشَّمْسُ حَتَّى أَطَأَ بِعَرْجَتِي فِي خُضَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِيهَا وَمَا بِهِ مِنْ عَرَجٍ»**[١٤].

وَلَمَّا وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَحَاطُوا بِهِ وَجَرَحُوهُ؛ اسْتَمَاتَ جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَجُرِحَ مِنْهُمْ مَنْ جُرِحَ .. كَانُوا سَبْعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ: **«مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»**[١٥]. أَمَّا الْمُهَاجِرَانِ فَهُمَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ؛ فَأَمَّا طَلْحَةُ فَقَاتَلَ قِتَالًا عَنِيفًا يُدَافِعُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى شُلَّتْ يَدُهُ[١٦]، وَأَمَّا سَعْدٌ

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله ﷻ (٢٥٣٧)، وأحمد (٥/ ٤٢٨)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٦٧) وفي الدلائل (٣/ ٢٤٧) وفي الشعب (٤٣١٦)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (٢/ ١٢٤)، وحسنه الحافظ في الإصابة (٤/ ٦٠٩).

(١٤) أخرجه البغوي من طريق مالك بن خالد الجعدي، قال: وجدت في كتاب أبي ... فذكره؛ كما في الإصابة لابن حجر، وسكت عنه الحافظ (٦/ ٤٥١).

وأخرجه ابن قانع في معجمه بنحوه من حديث أبي ثابت بن شداد بن أوس (٣/ ١٤٦)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن منده أيضًا.

(١٥) أخرجه من حديث أنس ﷺ: مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٨٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٣٣١٩)، وأحمد (٣/ ٢٨٦)، وعبد بن حميد (١٣٨٧)، وابن حبان (٤٧١٨)، وأبو عوانة (٦٨٧١).

(١٦) كما في حديث قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- قال: «رأيت يد طلحة شلاَّء وقى =

فَكَانَ يَدْفَعُ الْمُشْرِكِينَ بِالنِّبَالِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يُنَاوِلُهُ السِّهَامَ، وَيَقُولُ لَهُ: «**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»، وَلَمْ يَجْمَعِ النَّبِيُّ ﷺ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدٍ ﷺ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٧).

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ أَمْهَرِ الرُّمَاةِ، وَأَشَدِّ النَّاسِ صَوْتًا، فَكَانَ يَرْمِي وَيَصِيحُ فِي الْمُشْرِكِينَ يُفْزِعُهُمْ بِصَوْتِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِ أَحَدٌ بِجُعْبَتِهِ نَبْلٌ يَقُولُ لَهُ: «**انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ**»، وَعِنْدَمَا يُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْقَوْمِ يَنْظُرُ إِلَى مَوَاقِعِ النَّبْلِ، كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَقِيهِ بِصَدْرِهِ وَيَقُولُ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٨).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَوْتِهِ مُعْجَبًا بِشِدَّتِهِ: «**لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ أَشَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ فِئَةٍ**»(١٩).

= بها النبي ﷺ يوم أحد» أخرجه البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٣٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل طلحة بن عبيد الله (١٢٨)، وأحمد (١/ ١٦١)، وجاء تفصيل ذلك في حديث جابر بن عبد الله ﷺ عند النسائي في الجهاد، باب ما يقول من يطعنه العدو (٦/ ٢٩-٣٠)، وقال الذهبي في السير: رواته ثقات (١/ ٢٧).

(١٧) أخرجه من حديث علي ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه (٢٧٤٩)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ (٢٤١١).

وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص: البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٢٩)، ومسلم في الكتاب والباب السابقين (٢٤١٢).

(١٨) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال (١٨١١).

(١٩) أخرجه من حديث أنس ﷺ: أحمد (٣/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٥١٣)، وعبد بن حميد (١٣٨٤)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (١٠٢٢)، =

وَمِنْ عَجَائِبِ التَّضْحِيَةِ: مَا فَعَلَهُ أَبُو دُجَانَةَ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَعْطَى سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقَّهُ مِنَ الْقِتَالِ؛ إِذِ انْحَنَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقِيهِ سِهَامَ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى كَثُرَ النَّبْلُ فِي ظَهْرِهِ، وَهُوَ لَا يَتَحَرَّكُ[٢٠]، إِلَى أَنِ انْجَلَتِ الْغُمَّةُ، وَزَالَ الْكَرْبُ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَإِنَّ أَبَا دُجَانَةَ لَمْ تُكْتَبْ لَهُ الشَّهَادَةُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ.

إِنَّهَا بُطُولَاتٌ فَذَّةٌ، وَتَضْحِيَاتٌ عَجِيبَةٌ، بَذَلَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ؛ فِدَاءً لِدِينِهِمْ، وَحِمَايَةً لِنَبِيِّهِمْ ﷺ. قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الَّذِي قَاوَمَ مُقَاوَمَةً شَدِيدَةً، وَأُصِيبَ إِصَابَاتٍ كَثِيرَةً، وَدَفَعَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ حَتَّى كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي جَبْهَتِهِ، وَانْكَسَرَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ دَمُهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُهُ وَيَقُولُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ؟!**»، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][٢١].

فَلَمَّا طَمِعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إِسْلَامِهِمْ قَالَ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٢].

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شُهَدَاءِ أُحُدٍ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ،

= والضياء المقدسي في المختارة (١٦٥٧)، وعزاه الهيثمي في الزوائد لأحمد وأبي يعلى وقال: «ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح» (٩/ ٣١٢).

(٢٠) سيرة ابن إسحاق (٣٠٧)، وعنه ابن هشام (٤/ ٣١)، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٦)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥١٠).

(٢١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في التفسير، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] معلقًا مجزومًا به (٤/ ١٤٩٣)، ووصله مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩١) واللفظ له.

(٢٢) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩٢).

اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ..

❁ ❁ ❁

الخُطبَة الثّانِيَة

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ، وَاثْبُتُوا عَلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ ﷺ أُسْوَةً حَسَنَةً؛ إِذْ ثَبَتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ حَتَّى لَقُوا اللَّهَ ﷻ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: غَزْوَةُ أُحُدٍ فَيَّاضَةٌ بِالْعِظَاتِ الْغَوَالِي، وَالدُّرُوسِ الْعَوَالِي، وَقَدْ نَزَلَتْ فِي أَدْوَارِهَا وَحَوَادِثِهَا وَنَتَائِجِهَا آيَاتٌ طِوَالٌ، اسْتَغْرَقَتْ أَكْثَرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَكَانَ لَهَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَثَرٌ عَمِيقٌ ظَلَّ يَذْكُرُهُ إِلَى قُبَيْلِ وَفَاتِهِ، رَغْمَ تَعَدُّدِ الْغَزَوَاتِ بَعْدَهَا، وَكَثْرَةِ الْفُتُوحِ.

لَقَدْ كَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ امْتِحَانًا ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ، عَظِيمَ الْمَنْفَعَةِ، مَحَّصَ السَّرَائِرَ، وَمَزَّقَ النِّقَابَ عَنْ مَخْبُوئِهَا؛ فَامْتَازَ النِّفَاقُ عَنِ الْإِيمَانِ، وَبَانَ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ، بَلْ تَمَيَّزَتْ أَيْضًا مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ، وَبَانَتْ مَقَادِيرُ التَّضْحِيَاتِ فِي الرِّجَالِ، فَعُرِفَ الَّذِينَ رَكَلُوا الدُّنْيَا بِنِعَالِهِمْ فَلَمْ يُعَرِّجُوا عَلَى مَطْمَعٍ مِنْ مَطَامِعِهَا، وَالَّذِينَ مَالُوا إِلَيْهَا بَعْضَ المَيْلِ فِي حَالَةِ ضَعْفٍ بَشَرِيٍّ، فَنَشَأَ عَنْ مَيْلِهِمْ إِلَيْهَا مَا يَنْشَأُ عَنِ الشَّرَرِ الْمُسْتَصْغَرِ مِنْ حَرَائِقَ مُرَوِّعَةٍ.

بَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِانْسِحَابِ المُنَافِقِينَ، وَهُوَ انْسِحَابٌ يَنْطَوِي عَلَى اسْتِهَانَةٍ بِمُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ، وَغَدْرٍ بِهِ فِي أَحْرَجِ الظُّرُوفِ، وَأَحْلَكِ السَّاعَاتِ، وَتِلْكَ أَبْرَزُ خَسَائِسِ النِّفَاقِ(٢٣).

وَهَذَا المَشْهَدُ النِّفَاقِيُّ فِي أُحُدٍ يَتَكَرَّرُ كُلَّمَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ صَوْلَةٌ، أَوْ كَسَبُوا جَوْلَةً، وَمَنِ اسْتَحْيَا مِنْ إِسْلَامِهِ، أَوِ انْسَحَبَ عَنْ إِيمَانِهِ، أَوْ نَقَدَ شَرِيعَةَ رَبِّهِ؛ دَفْعًا لِضَرَرٍ مُتَوَهَّمٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ، أَوْ حِمَايَةً لِدُنْيَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مَسَالِكَ المُنَافِقِينَ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِهِمْ، وَلَوْ كَانَ مِنَ المُصَلِّينَ!!

إِنَّ الدَّعَوَاتِ إِبَّانَ امْتِدَادِهَا وَانْتِصَارِهَا لَتُغْرِي الْكَثِيرِينَ بِالِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَائِهَا، فَيَخْتَلِطُ المُخْلِصُ بِالمُغْرِضِ، وَالْأَصِيلُ بِالدَّخِيلِ، وَهَذَا الِاخْتِلَاطُ مُضِرٌّ أَكْبَرَ الضَّرَرِ بِسَيْرِ الرِّسَالَاتِ الْكَبِيرَةِ وَإِنْتَاجِهَا، وَمِنْ مَصْلَحَتِهَا الْأُولَى أَنْ تُصَابَ بِرَجَّاتٍ عَنِيفَةٍ تَعْزِلُ خَبَثَهَا عَنْهَا، وَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَقَعَ هَذَا التَّمْحِيصُ فِي أُحُدٍ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فَالْجُبْنُ وَالنُّكُوصُ، وَتَوْفِيرُ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ هِيَ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ طَوِيَّةِ المُنَافِقِينَ فِي أُحُدٍ، فَافْتُضِحُوا أَمَامَ أَنْفُسِهِمْ وَأَمَامَ النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَفْضَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٢٤).

وَرَأْسُ المُنَافِقِينَ ابْنُ سَلُولٍ حِينَ انْسَحَبَ بِقَوْمِهِ مِنَ الْجَيْشِ مَا عَلَّلَ ذَلِكَ الِانْسِحَابَ إِلَّا بِأَنَّ رَأْيَهُ لَمْ يُطَعْ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ اسْتِبْقَاءَ نَفْسِهِ، فَقَالَ: «أَطَاعَ الْوِلْدَانَ وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ، أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي، عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا؟!»(٢٥).

---

(٢٣) ينظر: فقه السيرة لمحمد الغزالي (٢٦٠).

(٢٤) المصدر السابق (٢٦١).

(٢٥) أخرجه عن ابن إسحاق: الطبري في تفسيره (٤/ ١٦٨) وفي تاريخه (٢/ ٦٠)، وابن هشام في السيرة (٤/ ١٠)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٦) وفي تاريخه (٤/ ١٣)، وعزاه الحافظ في الفتح لموسى بن عقبة في مغازيه (٧/ ٣٥٦).

وَمقُولتُهُ تِلْكَ يُرَدِّدُهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِعِبَارَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، يُعَلِّلُونَ بِهَا تَخلِّيهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَتَبْدِيلِ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

وَلمَّا عَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى مَقُولَةِ ابْنِ سَلُولٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ؛ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ هَذَا الِانْكِسَارِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ: بَيَانُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَتَمْيِيزُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إِنَّهُ ابْتِلَاءُ التَّمْحِيصِ وَالتَّمْيِيزِ، يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ لِيَظْهَرَ بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ؛ وَلِيَبِينَ قَوِيُّ الْإِيمَانِ مِنْ ضَعِيفِهِ، فَاسْتَمْسِكُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِدِينِكُمْ، وَعَضُّوا بِالنَّوَاجِذِ عَلَى شَرِيعَتِكُمْ؛ حِفَاظًا عَلَى إِيمَانِكُمْ، وَإِرْضَاءً لِرَبِّكُمْ، وَلَوْ تَكَاثَرَ عَلَيْكُمُ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الْجَاهِلِينَ وَالظَّالِمِينَ؛ فَلَنْ يُصِيبَكُمْ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَقَدَّرَ لَكُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.

❀ ❀ ❀

٣٢١- غزوة أحد (٤)
فقه السنن الربانية

٢٦/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَبَانَ الْحَقَّ لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ بِرَحْمَتِهِ، وَأَزَاغَ مَنْ زَاغَ قَلْبُهُ بِحِكْمَتِهِ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: ٥] نَحْمَدُهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى الْإِمْدَادِ وَالرِّعَايَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَلِيمٌ حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التَّحْرِيم: ٢]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا، وَأَعْظَمُهُمْ يَقِينًا، أَحَاطَتْ بِهِ الْمِحَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ، فَمَا زَادَتْهُ إِلَّا قُوَّةً فِي الْحَقِّ، وَصَلَابَةً فِي الدِّينِ، وَلَا زَادَهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ إِلَّا صَبْرًا وَحِلْمًا، وَفِي أُحُدٍ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟!**»(١)، وَلَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(٢) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩١).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩٢).

وأخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ: الطبراني في الكبير (٦/ ١٢٠) رقم (٥٦٩٤)، وصححه ابن حبان (٩٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١١٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨] فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعْرِفَةُ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْبَشَرِ تُقَوِّي إِيمَانَ الْعِبَادِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتُعِينُهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِمْ، وَتُزِيلُ الْحَيْرَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ. وَهَذِهِ السُّنَنُ الرَّبَّانِيَّةُ تُؤْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَتُعْرَفُ مِنْ أَخْبَارِ السَّابِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ؛ فَفِيهِمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، كَمَا أَنَّ فِيهِمُ النَّاكِصِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ.

وَفِي أَحْوَالِ الشِّدَّةِ وَالْبَأْسَاءِ تَكُونُ الْحَاجَةُ مُلِحَّةً لِفَهْمِ هَذِهِ السُّنَنِ؛ تَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ، وَتَقْوِيَةً لِلْإِيمَانِ، وَتَرْسِيخًا لِلْيَقِينِ، وَتِلْكَ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ؛ فَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ الَّتِي وَقَعَتْ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، وَأُصِيبَ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ بِمَا لَمْ يُصَابُوا قَبْلَهَا؛ نَجِدُ أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي عَالَجَتْ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ قَدْ عَرَضَتْ لِكَثِيرٍ مِنَ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَشَارَتْ إِلَى أَحْوَالِ السَّابِقِينَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٧-١٣٩].

إِنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ الْأَيَّامَ دُوَلًا بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ فَفِي أَزْمَانٍ تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْحَقِّ أَزْمَانًا أُخْرَى. وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ بَاقِيَانِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ وَامْتِحَانًا. فَأَهْلُ الْحَقِّ قَدْ يَخْسَرُونَ بَعْضَ الْمَعَارِكِ، وَلَا يَعْنِي انْهِزَامُهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ انْتِصَارَ أَهْلِ الْبَاطِلِ لَا يَقْلِبُ

بَاطِلَهُمْ إِلَى حَقٍّ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ فِي الِابْتِلَاءِ قَلَّ فِي الْبَشَرِ مَنْ يَفْهَمُهَا؛ وَلِذَلِكَ يَتَخَلَّى كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنِ الْحَقِّ إِنِ اسْتَبْطَئُوا النَّصْرَ، وَرَأَوْا غَلَبَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَقُوَّتَهُمْ. وَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ وَمَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا قَدْ نَصَّتْ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وبَيَّنَتِ الْحِكْمَةَ مِنْهَا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٠].

وَمِنْ حِكَمِ تِلْكَ الْمُدَاوَلَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ: تَمْيِيزُ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَإِظْهَارُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَعْرِفَةُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ؛ فَإِنَّ الصُّفُوفَ لَا تَتَمَايَزُ، وَلَا تُصْقَلُ الْقُلُوبُ، وَلَا تُعْرَفُ أَقْدَارُ الرِّجَالِ إِلَّا بِمَوْجَاتِ الْبَلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَفِي أَحْوَالِ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ كَلٌّ يَدَّعِي الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٧٩].

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْحَازُ إِلَى مَنْ هُمْ أَقْوَى وَلَوْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يَتْبَعُ الْحَقَّ إِنْ كَانَ أَهْلُهُ أَضْعَفَ. بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ هُمْ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ انْتَصَرُوا دَائِمًا لَانْحَازَ لَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الِابْتِلَاءَاتِ وَالْهَزَائِمَ مَحَطَّاتِ تَصْفِيَةٍ وَتَمْحِيصٍ؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى الشِّرْكِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَقَوِيَ الْمُسْلِمُونَ قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدَّرَ فِي أُحُدٍ؛ ابْتِلَاءً لَهُمْ وَامْتِحَانًا؛ لِيَثْبُتَ عَلَى الْإِيمَانِ -وَإِنِ انْهَزَمَ أَهْلُهُ- مَنْ صَدَقَ إِيمَانُهُ، وَلِيَنْحَازَ إِلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ مَنْ كَذَبَ فِي إِيمَانِهِ، وَالْجَنَّةُ سِلْعَةٌ غَالِيَةٌ، لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ فِي إِيمَانِهِمْ، الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، الْمُضَحُّونَ فِي سَبِيلِهِ بِالْغَالِي وَالنَّفِيسِ، فَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ فِي أُحُدٍ مَنِ اصْطَفَى فَكَانُوا مِنْ شُهَدَائِهَا، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٠].

ثُمَّ إِنَّ هَزِيمَةَ أَهْلِ الْحَقِّ ابْتِلَاءٌ يُكَفِّرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي تَوْبَتِهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَإِيَابِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، كَمَا أَنَّ انْتِصَارَ أَهْلِ الْبَاطِلِ سَبَبٌ لِمَحْقِهِمْ بِمَا يُدَاخِلُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْحَقِّ، وَالْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ، وَالْإِمْعَانِ فِي الظُّلْمِ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لِتَكُونَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلَاكَ وَالمَحْقَ.

وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ زُعَمَاءَ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدِ انْتَشَوْا بِقُوَّتِهِمْ، وَاغْتَرُّوا بِحَضَارَتِهِمْ، وَسَعَوْا فِي فَرْضِ بَاطِلِهِمْ وَلَكِنَّ غُرُورَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ، كَانَ سَبَبًا فِي جَرِّهِمْ إِلَى مُسْتَنْقَعَاتٍ غَرِقَ فِيهَا جُنْدُهُمْ، وَكَانَتْ سَبَبَ ذُلِّهِمْ وَانْكِسَارِهِمْ، وَظُهُورِ أَهْلِ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ نَجِدُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤١، ١٤٢].

وَمِنَ الصِّدْقِ فِي الْإِيمَانِ: الثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ مَهْمَا عَظُمَتِ المَصَائِبُ، وَعَدَمُ رَبْطِ الدِّينِ بِالرِّجَالِ، وَلَا مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِالْأَشْخَاصِ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَمُوتُونَ وَيَبْقَى الدِّينُ، بَلْ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَنْتَكِسُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَيُبَدِّلُونَ دِينَهُمْ، فَهَلْ يَنْتَكِسُ أَهْلُ الْحَقِّ بِانْتِكَاسِهِمْ؟!

وَهَذِهِ السُّنَّةُ الْعَظِيمَةُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤].

---

(٣) هذا إشارة إلى غزو الأمريكان لأفغانستان والعراق والإفساد فيها وظلم العباد ونهب الثروات بغير حق، وقد بدت بوادر هزيمتهم ولله الحمد والفضل.

فَإِذَا كَانَ مَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ قَتْلُهُ لَا يُسَوِّغُ لِأَتْبَاعِهِ التَّخَلِّي عَنْ لُزُومِ الْحَقِّ، وَنُصْرَةِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لَا يَكُونَ مُسَوِّغًا صَحِيحًا لِذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ إِنَّمَا عَرَضَتْ لِإِشَاعَةِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي سَرَتْ فِي المُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ يُبَيِّنُ أَنَّ شَرَفَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعُلُوَّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاخْتِصَاصَهُ بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ لَنْ يَمْنَعَ المَوْتَ عَنْهُ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ سَتَجْرِي عَلَيْهِ، فَيَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِ الْحَقِّ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ مَاتَ دَاعِيَةُ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ تَبِعُوا الْحَقَّ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ عِبَادَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم فَهْمَ هَذِهِ السُّنَّةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَهَذَا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَرْمِي بِهَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أَوْسَاطِ المُسْلِمِينَ وَقَدْ ذُهِلُوا مِنْ هَوْلِ الْفَاجِعَةِ بِوَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ نَالَتْهُمْ، وَأَكْبَرُ فَاجِعَةٍ أَصَابَتْهُمْ، وَأَفْقَدَتْهُمْ صَوَابَهُمْ، فَكَانَ لَهَا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه؛ إِذْ حَضَرَ النَّاسُ وَعُمَرُ رضي الله عنه يَخْطُبُ فِيهِمْ وَيَحْلِفُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا مَاتَ فَخَاطَبَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤] فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

---

(٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو =

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ الْعِتَابِ مَعَ الْمُنْهَزِمِينَ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الِانْهِزَامُ وَإِنْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ، وَالنُّبُوَّةُ لَا تَدْرَأُ الْمَوْتَ، وَالْأَدْيَانُ لَا تَزُولُ بِمَوْتِ الْأَنْبِيَاءِ»(٥).

وَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى فَهْمِ هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ حَتَّى لَا يُغَيِّرُوا دِينَهُمْ، وَلَا يُبَدِّلُوا شَرِيعَةَ رَبِّهِمْ بِزَعْمِ الِانْفِتَاحِ عَلَى الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ، أَوْ بِدَعْوَى اللِّحَاقِ بِرِكَابِ الْأُمَمِ الْمُتَطَوِّرَةِ أَوْ بِحُجَّةِ تَخْفِيفِ ضُغُوطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَإِنَّ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَيْفَ وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَعَارِكِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهِ، وَيَسْتَجْلِبُونَ النَّصْرَ بِدُعَائِهِ، وَقَدِ اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَمَّا مَاتَ ارْتَدَّتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ، وَاشْرَأَبَّتْ أَعْنَاقُ الْمُنَافِقِينَ، وَطَمِعَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ فَهْمُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لِهَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ سَبَبًا فِي

= كنت متخذًا خليلًا» (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٢٧)، وأحمد (٦/ ٢١٩).

والرواية الثانية للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (١١٨٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عليًّا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت. والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه، ومن أحق به مني؟!» أخرجه النسائي في الكبرى (٨٤٥٠)، وفي خصائص علي رضي الله عنه (٦٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١١١٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٠٧) رقم (١٧٦)، والضياء في المختارة (٦١٢)، والحاكم (٣/ ١٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

قلت: في سنده عمرو بن حماد القناد، نقل الذهبي في الميزان (٥/ ٣٠٩) عن أبي داود قوله: كان عمرو بن حماد من الرافضة، ثم ساق الذهبي الحديث، وقال: هذا منكر.

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

ثَبَاتِهِ وَتَثْبِيتِ الصَّحَابَةِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُقَاتَلَةِ الْمُرْتَدِّينَ.

أَفَإِنْ طَعَنَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فِي دِينِنَا، وَاسْتَخَفُّوا بِقُرْآنِنَا وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَالَبُونَا بِتَغْيِيرِ شَعَائِرِنَا، وَالتَّخَلِّي عَنْ أَوَامِرِ رَبِّنَا، وَاتِّبَاعِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَسَاوَمُونَا عَلَى ذَلِكَ، أَفَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِنَا يَرْتَدُّ أَقْوَامٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَيَنْبَرُونَ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، فَيَصِيحُونَ فِي النَّاسِ إِنْ أَرَادُوا النَّجَاةَ مِنْ كَلَبِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فِيمَا أَرَادُوا، وَيُطِيعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوا؟! وَاللهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤]، وَالشَّاكِرُونَ هُمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ وَإِنْ غَيَّرَ الْمُغَيِّرُونَ، وَحَرَّفَ الْمُحَرِّفُونَ، وَبَدَّلَ الْمُبَدِّلُونَ.

وَجَزَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّاكِرِينَ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ تَكُونَ الْغَلَبَةُ فِي آخِرِ المَطَافِ مِنْ نَصِيبِهِمْ، وَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الِابْتِلَاءَ بِالْهَزِيمَةِ فَقُتِلُوا وَهُمْ يَدْرَءُونَ عَنْ دِينِهِمْ فَقَدِ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ، كَمَا اصْطَفَى سَبْعِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ فِي أُحُدٍ شُهَدَاءَ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ حَتْفَ أَنْفِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَنَزَّلَ النَّصْرُ فَقَدْ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ ثَابِتًا عَلَى دِينِهِ، لَمْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ.

وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ ثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَوَاجَهُوا الْمِحَنَ وَالْبَلَايَا بِقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، مُوقِنَةٍ بِوَعْدِهِ، صَابِرَةٍ عَلَى ابْتِلَائِهِ، رَاضِيَةٍ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. وَجَزَاءُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ وَالرِّضَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ عَظِيمٌ؛ وَلِذَا سَمَّى أَهْلَهُ شَاكِرِينَ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ سَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ، وَجَزَاءُ الْكَرِيمِ عَظِيمٌ، وَاللهُ ﷻ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَاثْبُتُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- عَلَى دِينِكُمْ مَهْمَا كَانَتِ الِابْتِلَاءَاتُ، وَثِقُوا بِوَعْدِ رَبِّكُمْ لَكُمْ؛ فَإِنَّ الدِّينَ دِينُهُ، وَالْعِزَّ وَالنَّصْرَ

يُسْتَجْلَبُ بِطَاعَتِهِ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنَ السُّنَنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَتَوَلَّوْنَ حَالَ الْمِحَنِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْحَازُونَ إِلَى الْكَافِرِينَ، وَيَشْتَغِلُونَ عَنْ نَصْرِ الْأُمَّةِ وَتَأْيِيدِهَا بِاللَّوْمِ وَالنَّقْدِ، وَالتَّخْذِيلِ وَالْإِرْجَافِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَمَّا انْخَذَلَ الْمُنَافِقُونَ فِي أُحُدٍ وَكَانُوا ثُلُثَ الْجَيْشِ، ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْهَزِيمَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ وَتَشَفَّوْا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالُوا: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٥٦]، فَعَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَفَضَحَهُمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٦-١٦٨].

وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً، أَوْ تَوْلِيَتِهِمْ وِلَايَةً؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَزَالُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ، وَيَحِيكُونَ لَهُمُ الْمَكَائِدَ، وَظَهَرَتْ أَفْعَالُهُمُ الْقَبِيحَةُ الشَّنِيعَةُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ إِذْ خَذَلُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَمَالَئُوا الْكَافِرِينَ؛ وَلِذَا حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تَقُصُّ خَبَرَ غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْمُنَافِقِينَ لَا تَتَغَيَّرُ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ، وَلَا تَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ؛ فَهُمْ كَارِهُونَ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، رَافِضُونَ لِشَرِيعَتِهِ. فَأَيُّ خَيْرٍ أَوْ صَلَاحٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يُرْتَجَى مِنْهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٨-١٢٠].

كَمَا أَنَّ مِنَ السُّنَنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بَانَتْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ: أَنَّ طَاعَةَ الْكَافِرِينَ سَبَبٌ لِلْهَزِيمَةِ وَالضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ وَالتَّبَعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يُرِيدُونَ الْخَيْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ النَّصْرَ لَا يُسْتَجْلَبُ مِنَ الْكَافِرِينَ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ وَغَلَبَتُهُمْ، بَلْ يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي سِيَاقِ آيَاتِ غَزْوَةِ أُحُدٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَذِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩، ١٥٠].

وَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ السُّنَّةَ الْعَظِيمَةَ مَاثِلَةً لِلْعِيَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا الْمُعَاصِرَةِ، فَلَا يَزَالُ الْكَافِرُونَ يَغْدِرُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَفُونَ لَهُمْ، وَفِي أَكْبَرِ قَضَايَاهُمْ وَهِيَ قَضِيَّةُ بَيْتِ المَقْدِسِ؛ رَأَيْنَا المُسْلِمِينَ لمَّا أَطَاعُوا الْكَافِرِينَ فِيهَا مَا زَادُوهُمْ إِلَّا وَهْنًا عَلَى وَهْنِهِمْ، وَتَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهِمْ، وَمَا حُلَّتْ قَضِيَّتُهُمْ، بَلْ جَرَّأَتِ الْيَهُودَ عَلَيْهِمْ، وَأَطْمَعَتْهُمْ فِي بَقِيَّةِ بُلْدَانِهِمْ، وَمَا نَفَعَتْهُمْ وُعُودُ الْكَافِرِينَ لَهُمْ، إِنْ هِيَ إِلَّا قَرَارَاتٌ يَمْتَصُّونَ بِهَا غَضَبَهُمْ، وَمُبَادَرَاتٌ يُمِيتُونَ بِهَا إِحْسَاسَهُمْ، حَتَّى بَلَغَ عُتُوُّ الْيَهُودِ وَظُلْمُهُمْ أَنْ قَتَلُوا الْأَطْفَالَ وَالنِّسَاءَ، وَدَمَّرُوا الْبُيُوتَ عَلَى سَاكِنِيهَا، وَخَرَّبُوا الزَّرْعَ وَالثِّمَارَ، وَجَوَّعُوا أُمَّةً كَامِلَةً مِنَ المُسْلِمِينَ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي المُسْلِمِينَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمْ أَوْ نَجْدَتِهِمْ، وَلَوْ بِرَغِيفِ خُبْزٍ يُرْسِلُونَهُ إِلَيْهِمْ، أَوْ دَوَاءٍ يُعَالِجُونَ بِهِ جَرْحَاهُمْ(٦).

وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ المُسْلِمِينَ مُنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ وَهُمْ يُطِيعُونَ الْكَافِرِينَ فِي قَضِيَّتِهِمْ تِلْكَ؛ وَلِذَلِكَ خَسِرُوهَا، وَلَا يَزَالُونَ يَخْسَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ جُزْءًا مِنْهَا، وَلَا تَزِيدُهُمُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَنَازُلَاتٍ مَا كَانُوا يَرْضَوْنَهَا مِنْ قَبْلُ، وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ حَذَّرَنَا مِنْ ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩].

لَقَدْ كَانَتِ الْآيَاتُ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ زَاخِرَةً بِالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَوْ فَقِهَهَا المُسْلِمُونَ، وَأَحْسَنُوا التَّلَقِّيَ عَنِ الْقُرْآنِ؛ لَتَبَدَّلَ حَالُهُمْ مِنْ ضَعْفٍ إِلَى قُوَّةٍ، وَمِنْ ذُلٍّ إِلَى عِزَّةٍ، وَمِنْ هَزِيمَةٍ إِلَى نَصْرٍ، فَهَلْ يَفْعَلُ المُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَقَدْ خَسِرُوا كَثِيرًا بِالتَّفْرِيطِ فِي دِينِهِمْ، وَتَقْصِيرِهِمْ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّ

(٦) لا يزال الحصار مضروبًا على إخواننا في فلسطين إلى لحظة كتابة هذه الخطبة، ويحاصرونهم في بيت حانون، ويدكونهم بالطائرات، فرج الله تعالى عنهم، وأذل اليهود وأعوانهم.

جَلَالُهُ، وَطَاعَتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَفْتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ فَتْحًا مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى دِينِهِمْ رَدًّا جَمِيلًا، وَأَنْ يَجْمَعَ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنْ يَكْبِتَ أَعْدَاءَهُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...





٣٢٢- غزوة الأحزاب (١)
شدة البلاء والمحنة

٩/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَجْزَلَ الْمَثُوبَةَ لِلصَّابِرِينَ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا قَدَّرَ مِنَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ الْمِنَحِ وَالْعَطَاءِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ الذُّنُوبِ وَالْأَخْطَاءِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَنُزِّهَ عَنِ الْأَنْدَادِ وَالْأَمْثَالِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَسَّتْهُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ، وَأَحَاطَتْ بِهِ الْمَصَائِبُ وَاللَّأْوَاءُ، فَصَبَرَ عَلَى عَظِيمِ الْأَذَى، وَاحْتَمَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى شِدَّةَ الِابْتِلَاءِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أُولِي الصِّدْقِ وَالنَّقَاءِ، وَأَهْلِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَلَنِعْمَ زَادُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى سَبَبَانِ لِلْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ، وَثَمَنُ الثَّبَاتِ عَلَيْهِمَا جَنَّةٌ عَرْضُهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَقَدْ حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ كَمَا حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ. وَأَفَاضِلُ الْخَلْقِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا أَعْظَمَ النَّاسِ بَلَاءً، وَأَشَدَّهُمُ امْتِحَانًا، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ لَا يُطِيقُهُ سِوَاهُمْ، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤].

وَلمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: **الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ؛ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[1].

وَفِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ[2] وَقَعَ ابْتِلَاءٌ شَدِيدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ؛ إِذْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ جُمُوعُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ غَدْرِ الْيَهُودِ وَتَخْذِيلِ الْمُنَافِقِينَ، فِي وَاقِعَةٍ سُمِّيَتْ بِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَنَزَلَ فِي وَصْفِ شِدَّتِهَا وَمِحْنَتِهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ تُتْلَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

كَانَتْ قُرَيْشٌ تُرِيدُ الثَّأْرَ لِأَسْيَادِهَا الَّذِينَ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ، وَشَجَّعَهُمْ عَلَى حَشْدِ الْحُشُودِ، وَتَحْزِيبِ الْأَحْزَابِ جَمَاعَةٌ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الْمَوْتُورِينَ بِالْجَلَاءِ عَنِ

---

(١) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: الترمذي في الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء وقال: حسن صحيح (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٨١)، والدارمي (٢٧٨٣)، وأحمد (١/ ١٧٢)، والطيالسي (٢١٥)، وأبو يعلى (٨٣٠)، وعبد بن حميد (١٤٦)، وصححه ابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٩٩).

(٢) هذا هو قول الجمهور، وهو الراجح أنها كانت في شوال من السنه الخامسة.
وذكر الواقدي في المغازي (٢/ ٤٤٠)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٥) أنها كانت في ذي القعدة من سنه خمس.
ونُقل عن الأئمة: مالك والزهري وموسى بن عقبة وابن حزم في جوامع السيرة (١٨٥) بأنها كانت سنه أربع.
وقد أطال ابن حجر في الفتح في مناقشة هذا القول، ورجح ما رجَّحَهُ الجمهور (٧/ ٣٩٣)، وينظر في ذلك: زاد المعاد (٣/ ٢٦٩)، والسيرة النبويه في ضوء المصادر الأصلية (١/ ٥٤٦) وصحيح السيرة النبوية للعلي (٢٦٤)، والسيرة النبوية للصلابي (٢/ ٢٧٣).

المَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ بَعْدَ نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ مَعَ المُسْلِمِينَ، فَوَفَدَ مِنْهُمْ وَفْدٌ إِلَى مَكَّةَ شَجَّعُوا المُشْرِكِينَ عَلَى غَزْوِ المَدِينَةِ، وَأَفْتَوْهُمْ بِأَنَّ دِينَ المُشْرِكِينَ خَيْرٌ مِنْ دِينِ المُسْلِمِينَ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ الَّذِينَ حَزَّبُوا الأَحْزَابَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَسَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَأَبو رَافِعٍ . . . وَذَكَرَ جَمَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ قَالُوا: هَؤُلَاءِ أَحْبَارُ يَهُودٍ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالْكُتُبِ الأُوَلِ فَاسْأَلُوهُمْ: أَدِينُكُمْ خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥١، ٥٢]»[٣].

ثُمَّ انْتَقَلَ وَفْدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ إِلَى قَبِيلَةِ غَطَفَانَ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ قَبَائِلِ نَجْدٍ آنَذَاكَ، فَأَغْرَوْهَا بِالتَّحَالُفِ مَعَ المُشْرِكِينَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ خَيْبَرَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْجَعَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَبَنِي مُرَّةَ، وَبَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ[٤]، سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى: الأَحْزَابَ، قَاصِدِينَ المَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ، فَلَمَّا عَلِمَ

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (٥/ ١٣٥)، وينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٤-٢١٥)، ومغازي الواقدي (٢/ ٤٤٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه، فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل يثرب، فنحن خير أم هذا الصنيبير المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ فقال: أنتم خير منه، فنزل على رسول الله ﷺ: «﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]» أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٣٠)، وصححه ابن حبان (٦٥٧٢)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٨).

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١/ ٥٤٩).

النَّبِيُّ ﷺ بِقُدُومِهِمْ شَاوَرَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رضي الله عنه بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ لِمَنْعِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَحَفَرَهُ الْمُسْلِمُونَ.

وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَعَ خَوْفِ عَدُوِّهِمْ، وَتَكَالُبَ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، مَا يَجِدُونَهُ مِنَ الْمَخْمَصَةِ الشَّدِيدَةِ، وَالْجُوعِ الْمُؤْذِي، وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، وَالشِّتَاءُ لَا يُخَفِّفُ بَرْدَهُ إِلَّا الطَّعَامُ وَلَا طَعَامَ، وَالْحَفْرُ شَاقٌّ وَمُرْهِقٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ جَائِعٌ، وَالْمُسْلِمُونَ جَوْعَى، فَتَكَالَبَ عَلَيْهِمْ قِلَّةُ ذَاتِ يَدٍ، وَشِدَّةُ جُوعٍ، مَعَ خَوْفِ عَدُوٍّ. قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه يَصِفُ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ: «يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥). وَالْإِهَالَةُ: هِيَ الدُّهْنُ الَّذِي يُؤْتَدَمُ بِهِ، سَوَاءٌ كَانَ زَيْتًا أَوْ سَمْنًا أَوْ شَحْمًا، وَقَوْلُهُ: «سَنِخَةٍ» أَيْ: تَغَيَّرَ طَعْمُهَا وَلَوْنُهَا مِنْ قِدَمِهَا؛ وَلِهَذَا وَصَفَهَا بِكَوْنِهَا بَشِعَةً(٦).

وَهَذَا الطَّعَامُ -عَلَى رَدَاءَتِهِ- وُجُودُهُ أَحْسَنُ مِنْ عَدَمِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ قَدْ يُعْدَمُونَهُ فَلَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَيَسْتَمِرُّ بِهِمُ الْجَهْدُ وَالْجُوعُ أَيَّامًا تِبَاعًا لَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ حَتَّى يَبْلُغَ بِهِمْ إِلَى عَصْبِ بُطُونِهِمْ بِالْحِجَارَةِ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: «إِنَّا يَوْمَ

---

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٤)، وأحمد (٣/ ٢٨٨)، وعبد بن حميد (١٣١٩)، وأبو يعلى (٣٩١٣)، والنسائي في الكبرى (٦٦٣٦).

(٦) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٦)، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك وبتحققه تحققًا تامًّا (٢٠٣٩).

الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: **أَنَا نَازِلٌ**، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا . . .»[٨]. وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «أَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الْجُوعِ»[٩].

وَهَذِهِ الْحَالُ الَّتِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ جَعَلَتْ جَابِرًا ﵁ يَسْتَأْذِنُ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَغْدُو إِلَى امْرَأَتِهِ فَيَقُولُ لَهَا، فَلَمَّا أَصَابَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﵃ مِنْ طَعَامِ جَابِرٍ ﵁ بَعْدَ أَنْ بَارَكَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِامْرَأَةِ جَابِرٍ: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»[١٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْمَسْغَبَةِ.

وَتَتَوَاصَلُ الْمِحَنُ عَلَيْهِمْ، وَيَعْظُمُ الْبَلَاءُ بِهِمْ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَصِيبِ؛ إِذْ سَرَتْ فِي النَّاسِ شَائِعَةٌ: أَنَّ الْيَهُودَ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُمْ سَيُحَالِفُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الْخَطَرَ قَدْ أَحَاطَ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ دَاخِلَ حُصُونِ الْمَدِينَةِ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟** -يَعْنِي: بَنِي قُرَيْظَةَ- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: **مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟** قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١١].

فَأَخْبَرَ الزُّبَيْرُ ﵁ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِبَوَادِرِ نَقْضِ قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(٨) هذه الرواية للبخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٥).

(٩) هذه الرواية لأحمد (٣/ ٣٠١).

(١٠) هذه الألفاظ جزء من حديث جابر المخرج في حاشيتي (٧-٨).

(١١) أخرجه من حديث جابر ﵁: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الطليعة (٢٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابه ﵃، باب من فضائل طلحه والزبير (٢٤١٥).

وَفْدًا مِنْ سَادَةِ الْأَنْصَارِ لِمُحَاوَرَتِهِمْ وَاسْتِظْهَارِ خَبَرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**»، فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَالُوا: لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ؛ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنَ الْمُشَاتَمَةِ».

ثُمَّ أَقْبَلَ السَّعْدَانِ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالُوا: «عَضَلٌ وَالْقَارَةُ» أَيْ: كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ أَصْحَابِ الرَّجِيعِ خُبَيْبِ ابْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ -أَرَادُوا أَلَّا يَعْلَمَ النَّاسُ بِالْأَمْرِ كَمَا أَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ- عِنْدَهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ**»(١٢).

إِنَّهَا بِشَارَةٌ فِي شِدَّةِ الْمِحْنَةِ، وَتَفَاؤُلٌ بِقُرْبِ مَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ عِظَمِ الْكَرْبِ، وَاسْتِحْكَامِ الْأَمْرِ، فَيَا لَهُ مِنْ يَقِينٍ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَزَحْزَحُ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مَهْمَا عَظُمَتِ الْمِحْنَةُ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَاسْتَحْكَمَ الْبَلَاءُ!

مِحَنٌ وَشَدَائِدُ تَتَابَعَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شِدَّةٌ فِي إِثْرِ شِدَّةٍ، وَمِحْنَةٌ تُنْسِي الْأَخِيرَةُ مِنْهَا مَا قَبْلَهَا، انْضَمَّ إِلَيْهَا ظُهُورُ النِّفَاقِ، وَتَخْذِيلُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِضْعَافُ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ بِبَثِّ الشَّائِعَاتِ وَالْأَرَاجِيفِ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ قُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ الِانْسِحَابِ مِنَ الْجَيْشِ عَلَى مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى قَالَ قَائِلُ الْمُنَافِقِينَ: «كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ

(١٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١) وفي تاريخه (٢/ ٩٣)، وينظر: السيرة الحلبية (٢/ ٦٣٨)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٣).

يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ»(١٣)، وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّ بُيُوتَنَا لَعَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ -وَذَلِكَ عَنْ مَلَإٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ- فَائْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَى دَارِنَا»(١٤).

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَرْبٌ شَدِيدٌ، لَا يَصْمُدُ أَمَامَهُ إِلَّا مَنْ كَانَ قَوِيَّ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، مَعَ تَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَبْطِهِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَإِلَّا فَمَا ظَنُّكُمْ بِاجْتِمَاعِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّعِيفَةِ؟!

عَدُوٌّ شَرِسٌ قَدْ حَاصَرَ الْمَدِينَةَ يَرُومُ اسْتِئْصَالَ الْمُسْلِمِينَ، فِي أَعْدَادٍ كَثِيفَةٍ لَا يَبْلُغُ الْمُسْلِمُونَ الثُّلُثَ مِنْهَا، وَعَدُوٌّ فِي الدَّاخِلِ قَدْ عَزَمَ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ، وَخِيَانَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَخَفْرَهُمْ فِي نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَمُنَافِقُونَ مُرْجِفُونَ قَدْ فَرِحُوا بِمُصَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارُوا يُظْهِرُونَ مَا يُخْفُونَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَثْبُتُ أَمَامَ هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ، وَيُوَاجِهُ تِلْكَ الْمِحَنَ الْمُتَلَاحِقَةَ بِثَبَاتٍ وَيَقِينٍ؟!

لَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ هَذَا الْبَلَاءَ بِأَدَقِّ وَصْفٍ وَأَبْلَغِهِ، وَأَفْصَحَ عَمَّا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَظِيمِ الشِّدَّةِ وَالْكَرْبِ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

نَعَمْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ وَالْكَرْبِ، وَنَبَتِ الْقُلُوبُ عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ فَبَلَغَتِ الْحَنَاجِرَ، وَهُوَ خَوْفٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ مَهْمَا كَانُوا، وَيُبَيِّنُ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه مَا أَصَابَهُمْ آنَذَاكَ، فَيَقُولُ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ**

---

(١٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١)، وابن هشام (٣/ ٥٥) من حديث ابن إسحاق.

(١٤) المصدران السابقان.

يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: **قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ -أَيْ لَا تُفْزِعْهُمْ حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بِكَ- فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ -أَيْ: لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ- حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**. وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ -أَيْ: أَصَابَهُ الْبَرْدُ بَعْدَ انْتِهَاءِ مُهِمَّتِهِ، وَتِلْكَ كَرَامَةٌ عَجِيبَةٌ- فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: **قُمْ يَا نَوْمَانُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٥)].

وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مَقُولَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي أَرَادُوا بِهَا الْإِرْجَافَ، وَإِضْعَافَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْوِيَةَ الْكَافِرِينَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

لَقَدْ ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُسْتَأْصَلُونَ، وَأَيْقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَقٌّ وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

---

(١٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣٨٨)، وابن حبان (٧١٢٥)، وأبو عوانة (٦٨٣٩)، والبيهقي (٩/ ١٤٨)، وما بين الحواصر من كلامي إيضاحًا للمعنى.

وَعِنْدَ اسْتِحْكَامِ الْبَلَاءِ، وَشِدَّةِ الْكَرْبِ يَأْتِي الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ أَرْسَلَ جُنْدَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَخَالَفَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ بِخُدْعَةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه الَّذِي أَسْلَمَ حِينَئِذٍ، وَسَعَى بِالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِسْلَامَهُ، وَرَأَى الْمُنَافِقُونَ مَا يَسُوءُهُمْ مِنْ بَقَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وَبَعْدَ رَحِيلِ الْمُشْرِكِينَ أُمِرَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْخَوَنَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ نَاقِضِي الْعَهْدِ وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي نَطَقَ بِهِ حَلِيفُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ: «أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ، رَمَاهُ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ يَعُودُهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلَاحَ فَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ؟** فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى سَعْدٍ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقَسَّمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ** عز وجل. وَفِي رِوَايَةٍ: **لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[١٦].

وَبَعْدَ أَنْ حَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى دَعَا وَهُوَ جَرِيحٌ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ

(١٦) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظه (٣٨٩٦)، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٩).

تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي أُجَاهِدْهُمْ فِيكَ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا. فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَلَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَالدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ، فَإِذَا سَعْدٌ جُرْحُهُ يَغِذُّ دَمًا فَمَاتَ مِنْهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٧).

وَلَمَّا وُضِعَتْ جِنَازَتُهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٨).

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَعْدٍ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَبَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١٧) قطعة من حديث عائشه رضي الله عنها السابق المخرج في حاشية (١٦).

(١٨) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٥٩٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٦)، والرواية الأولى لمسلم والثانيه لهما.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ مَوْطِنًا عَصِيبًا مِنْ مَوَاطِنِ الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ، اجْتَازَهُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ بِاقْتِدَارٍ، وَأَخْفَقَ فِيهِ الْمُنَافِقُونَ، وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ يَفْضَحُهُمْ، وَيُبْدِي مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَسَاوِئِهِمْ، وَيَمْدَحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ، وَمُوَاجَهَتِهِمْ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَاللَّافِتُ لِلنَّظَرِ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْآيَةَ الْآمِرَةَ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ جَاءَتْ مُتَخَلِّلَةً الْآيَاتِ الَّتِي عَرَضَتْ لِهَذِهِ الْغَزْوَةِ وَتَفْصِيلَاتِهَا ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ .... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ، وَجَعْلِهِ الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤]» اهـ[١٩].

---

(١٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٥-٤٧٦).

وَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى مُطَالَعَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْيَقِينِ بِأَنَّ مَا يُعَانُونَهُ مِنْ أَذَى الْكَافِرِينَ، وَتَسَلُّطِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِرْجَافِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، قَدْ وَقَعَ مِثْلُهُ وَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ لِأَهْلِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ! فَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى، وَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَلَمْ يُغَيِّرُوا أَوْ يُبَدِّلُوا إِرْضَاءً لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ، وَمَهْمَا بَلَغَ مَكْرُهُ وَتَخْوِيفُهُ؛ فَأَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَرَضِيَ فِعْلَهُمْ فَأَرْضَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَمَا نَالَ أَعْدَاؤُهُمْ إِلَّا الْهَزِيمَةَ وَالْحَسْرَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْخَسَارَةَ فِي الْآخِرَةِ.

وَهُؤَلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ رَغْمَ مَا مَرَّ بِهِمْ مِنِ ابْتِلَاءَاتٍ قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا أُسْوَةً، وَأَمَرَنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي إِيمَانِهِمْ وَيَقِينِهِمْ، وَثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِمَوْعُودِهِ.

فَمَا أَحْوَجَنَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- إِلَى التَّأَسِّي بِهِمْ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ كَمَا ثَبَتُوا، إِلَى أَنْ نَلْقَى اللَّهَ ﷻ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ. وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي زَمَنٍ اشْتَدَّتْ فِيهِ الْمِحْنَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَزَادَتِ الضُّغُوطُ وَالْمُضَايَقَاتُ وَالتَّسَلُّطُ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ دِينِهِمْ، وَصَرْفَهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ، وَلَا ثَبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا بِتَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْأَلُوهُ سُبْحَانَهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❁ ❁ ❁

٣٢٣- غزوة الأحزاب (٢)
بين المؤمنين والمنافقين

٦/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُثَبِّتُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ؛ فَلَا تُزَعْزِعُهُمُ الْمِحَنُ وَالشَّدَائِدُ، وَلَا تَمِيدُ بِهِمُ الْفِتَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ، وَيُضِلُّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فَتَتَقَاذَفُهُمُ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ، وَتَحْرِفُهُمُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى اجْتِبَائِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ، وَجَاهَدُوا أَعْدَاءَهُمْ، وَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، حَتَّى لَقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ طَاعَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ بِالتَّقْوَى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَا يُعْرَفُ الصَّادِقُ فِي إِيمَانِهِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ إِلَّا بِالِاخْتِبَارِ وَالِابْتِلَاءِ؛ وَلِذَا كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالْبَأْسَاءِ حَتَّى يَتَمَيَّزَ صَادِقُهُمْ مِنْ كَاذِبِهِمْ، وَمُؤْمِنُهُمْ مِنْ

مُنَافِقِهِمْ، وَطَيِّبُهُمْ مِنْ خَبِيثِهِمْ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣].

وَقَدِ ابْتُلِيَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتُهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- أَعْظَمَ الِابْتِلَاءِ، فَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ فَنَالُوا الْحُسْنَيَيْنِ: الظَّفَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَالْأَجْرَ الْكَبِيرَ مِنْ رَبِّهِمْ ﷻ.

وَكَانَ مِنْ مَوَاطِنِ الِابْتِلَاءِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ؛ حَيْثُ تَحَزَّبَتْ أَحْزَابُ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، وَنَقَضَ الْيَهُودُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ، وَطَعَنُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَأَظْهَرَ الْمُنَافِقُونَ نِفَاقَهُمْ، وَبَثُّوا أَرَاجِيفَهُمْ فَكَانَ مَوْقِفًا عَسِيرًا لَا يَثْبُتُ فِيهِ إِلَّا مَنْ رَبَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِوَعْدِهِ، وَيَكْفِي فِي وَصْفِهِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٠، ١١].

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفًا عَظِيمًا بَانَ فِيهِ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ:

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَبَرُوا عَلَى عَظِيمِ الْبَلَاءِ، وَقَابَلُوهُ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ.

جَاعُوا أَشَدَّ الْجُوعِ فَمَا ضَجِرُوا، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ فَمَا انْخَذَلُوا وَلَا تَرَاجَعُوا، وَأَرْجَفَ فِيهِمْ أَهْلُ النِّفَاقِ فَلَمْ يُطِيعُوهُمْ، وَلَمْ يُصْغُوا لِأَقَاوِيلِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ هُوَ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤][1]. وَلِذَا لمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا فِي الْأَحْزَابِ مَا زَادُوا عَلَى أَنْ قَالُوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٢].

إِنَّهُ إِيمَانٌ فِي أَوْجِ الْمِحْنَةِ، وَيَقِينٌ حَالَ الِابْتِلَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَتَصْدِيقٌ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ، وَتَوَكُّلٌ عَلَيْهِ فِي أَصْعَبِ السَّاعَاتِ، فَكَانُوا جَدِيرِينَ بِتَزْكِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، حَقِيقِينَ بِثَنَائِهِ ﷻ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٣].

إِنَّهُمْ مَا بَدَّلُوا دِينَهُمْ لِرَدِّ عَدُوِّهِمْ، وَلَا نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمُ اسْتِبْقَاءً لِأَرْوَاحِهِمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّوْا عَنْ نَبِيِّهِمْ لِلدِّفَاعِ عَنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَالْيَهُودُ قَدْ خَفَرَتْهُمْ فِيهِمْ؛ بَلْ قَدَّمُوا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَالثَّبَاتَ مَعَ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَصَدَقُوا فِي عَهْدِهِمْ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالنِّفَاقِ فَارْتَابُوا فِي وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ، وَشَكُّوا فِي دِينِهِ، وَتَبِعَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ وَشَكِّهِمْ ضِعَافُ الْإِيمَانِ

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ ... الآية قال: ذلك أن الله قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ ...، إلى قوله: ﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قال: فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأوّل المؤمنون ذلك، ولم يزدهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا» أخرجه الطبري في تفسيره، وساق مثله عن قتادة رحمه الله تعالى (٢٠/ ٢٣٦).

الَّذِينَ مَرِضَتْ قُلُوبُهُمْ بِأَدْوَاءِ الشُّبُهَاتِ أَوِ الشَّهَوَاتِ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ، وَاجْتَمَعَتِ الْجُمُوعُ الَّتِي لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهَا، وَطَوَّقَتِ المَدِينَةَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٢].

فَانْقَسَمَ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إِلَى طَائِفَتَيْنِ:

فَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَخَذُوا يُخَذِّلُونَ فِي المُؤْمِنِينَ، وَيَبُثُّونَ الْأَرَاجِيفَ فِيهِمْ، وَيُخَوِّفُونَهُمْ بِأَعْدَائِهِمْ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الْأَحْزَاب: ١٣]؛ أَيْ: لَا مُقَامَ لَكُمْ فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ؛ لِكَثْرَةِ عَدُوِّكُمْ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّخَلِّي عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَخِذْلَانِهِ وَإِسْلَامِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ.

وَرُبَّمَا أَرَادُوا: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَارْجِعُوا إِلَى دِينِ الشِّرْكِ؛ لِتَسْلَمَ لَكُمْ أَرْوَاحُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ.

وَرُبَّمَا أَرَادُوا: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ فَارْجِعُوا إِلَى الِاسْتِئْمَانِ وَالِاسْتِجَارَةِ، فَاسْتَجِيرُوا بِالمُشْرِكِينَ، وَاطْلُبُوا مِنْهُمُ الْأَمَانَ لَكُمْ بِمَا يُرِيدُونَ[٢].

وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ كُلُّ هَذِهِ المَعَانِي قَدْ أَرَادَهَا المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؛ لِأَنَّ تِلْكَ المَطَالِبَ هِيَ مَطَالِبُ المُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي كُلِّ شِدَّةٍ تُصِيبُ المُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي الْكَافِرِينَ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهِيَ تَتَكَرَّرُ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَلَئِنْ كَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ المُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ تَبُثُّ أَرَاجِيفَهَا بِالْقَوْلِ؛ فَإِنَّ طَائِفَةً أُخْرَى طَبَّقَتْ ذَلِكَ عَمَلِيًّا حِينَ اخْتَلَقَتِ المَعَاذِيرَ لِتُغَادِرَ أَرْضَ المَعْرَكَةِ؛ فَتَفُتَّ فِي عَضُدِ المُؤْمِنِينَ، وَتُوهِنَ قُوَّتَهُمْ، وَتُزَلْزِلَ قُلُوبَهُمْ، وَتُصَدِّعَ ثَبَاتَهُمْ، وَهِيَ

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٤٥٠).

الطَّائِفَةُ الَّتِي عَنَاهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٣].

إِنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِخُلُوِّ بُيُوتِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ مِنْ أَحَدٍ يُدَافِعُ عَنْهُمْ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ سَيَطَؤُهُمْ، مَعَ أَنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ كَحَالِهِمْ فَلَمْ يَعْتَذِرُوا وَلَمْ يَفِرُّوا، فَفَضَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ سِرَاعٌ إِلَى الْفِتْنَةِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَوْ دَخَلُوا الْمَدِينَةَ لَانْحَازُوا هُمْ إِلَيْهِمْ، وَقَبِلُوا شِرْكَهُمْ؛ لِنِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٤]. فَمَا أَسْرَعَهُمْ إِلَى فِتْنَةِ الشِّرْكِ وَمُوَافَقَةِ الْمُشْرِكِينَ!!

كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ لَمَّا رَأَوُا الْمُؤْمِنِينَ قَدْ غَنِمُوا فِي بَدْرٍ مَا غَنِمُوا عَاهَدُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَثْبُتُوا فِي الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا، وَلَا يَفِرُّوا مِنْ غَزْوَةٍ أَبَدًا، فَنَكَثُوا عَهْدَهُمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لِلْغَنِيمَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يُعَاهِدُ لِلدُّنْيَا وَمَنْ يُعَاهِدُ لِلْآخِرَةِ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٥].

فَهُمُ الْمُعَوِّقُونَ عَنِ النَّفِيرِ، الْمُخَذِّلُونَ فِي صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَصَّ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ خَبَرَهُمْ ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الْأَحْزَاب: ١٩]؛ أَيْ: بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ بِالْقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ بِالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشِحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ، وَأَقْوَامًا يَشِحُّونَ بِمَعْرُوفِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ وَهُمُ الْحُسَّادُ(٣).

وَمِنْ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ أَنَّهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٦).

خَوْفًا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، وَأَشَدُّ سَلَاطَةً وَبَذَاءَةً إِذَا أَمِنُوا، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مُطَالَبَةً بِغَنَائِمَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا السَّلْقُ بِالْأَلْسِنَةِ الْحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ:

تَارَةً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ دَعَوْتُمُ النَّاسَ إِلَى هَذَا الدِّينِ، وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا . . .، وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ -مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ- تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا الْعَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ مَجَانِينُ لَا عَقْلَ لَكُمْ؛ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسَ مَعَكُمْ. وَتَارَةً يَقُولُونَ أَنْوَاعًا مِنَ الْكَلَامِ الْمُؤْذِي الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ، أَيْ: حُرَّاصٌ عَلَى الْغَنِيمَةِ وَالْمَالِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ» اهـ(٤).

وَكُلُّ هَذِهِ الْمَقُولَاتِ الَّتِي حَكَاهَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَحْزَابِ، وَذَكَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي زَمَنِهِ يُرَدِّدُونَهَا، هِيَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ مِمَّا يُرَدِّدُهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فِي عَصْرِنَا هَذَا، وَسَتَبْقَى مُلَازِمَةً لِلْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

---

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٧-٤٥٨).

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ المُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ بِأَوْصَافٍ ثَلاثَةٍ تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنِ الْبَلَدِ، وَهَذِهِ حَالُ الْجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ؛ فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إِلَى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ المَخُوفِ، وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الْأَمْنِ.

وَالْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا جَاءُوا تَمَنَّوْا أَلَّا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ، بَلْ يَكُونُوا فِي الْبَادِيَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ: مَا خَبَرُ المَدِينَةِ؟ وَمَاذَا جَرَى لِلنَّاسِ؟

وَالْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَحْزَابَ إِذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا؛ لِجُبْنِهِمْ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ، وَتَقْدِيمِهِمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِمْ لِجَمَاعَةِ المُؤْمِنِينَ، بَلْ هُمْ شَرٌّ وَبَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ لِلنَّاسِ(٥).

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٠].

جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَكَفَانَا شَرَّ النِّفَاقِ وَالمُنَافِقِينَ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِنَا بِالتَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.



(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٩).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُلَاحَظُ أَنَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ لَمْ يَأْتِ فِيهَا تَفْصِيلٌ لِهَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا جَرَى فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ، بِقَدْرِ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ وَأَفْعَالِهِمْ، ثُمَّ وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَفْعَالِهِمْ.

وَمَجْمُوعُ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي غَزْوَتَيِ الْأَحْزَابِ وَقُرَيْظَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً، مِنْهَا تِسْعُ آيَاتٍ فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَحِكَايَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَأَرْبَعُ آيَاتٍ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِكَايَةِ أَقْوَالِهِمْ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا سِتُّ آيَاتٍ فِيهَا وَصْفُ الْمَعْرَكَتَيْنِ، وَمَا جَرَى عَلَى أَحْزَابِ الْمُشْرِكِينَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ لِلْحَذَرِ مِنْهُمْ، وَمَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ لِلتَّأَسِّي بِهِمْ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ مَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ الْمَعْرَكَتَيْنِ وَأَحْدَاثِهِمَا.

وَمَا كَانَ ذَلِكَ -وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَّا لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ، يُخْفُونَ كُفْرَهُمْ إِنْ رَأَوْا فِي الْمُؤْمِنِينَ قُوَّةً، وَيُظْهِرُونَهُ إِنْ رَأَوْا فِيهِمْ ضَعْفًا، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ كِتَابُ بَيَانٍ وَهِدَايَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ هِدَايَتِهِ ذِكْرُ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَكَشْفُ حَقِيقَتِهِمُ الَّتِي يُخْفُونَهَا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَخْذِ الْحَذَرِ وَالْحِيطَةِ مِنْهُمْ.

كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِذَلِكَ سَبَبٌ لِثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَزَمَاتِ، وَفِي حَالِ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ، وَظُهُورِ الْمُنَافِقِينَ؛ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ، وَتَخْذِيلِ الْمُنَافِقِينَ قَدْ أُصِيبَ بِمِثْلِهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَيَصْبِرُونَ كَمَا صَبَرُوا؛ فَإِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ نَصْرٌ وَتَمْكِينٌ لَهُمْ؛ وَلِذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَوْصَافَ الْمُنَافِقِينَ وَأَفْعَالَهُمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ذَيَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١].

وَالمَعْنَى: كُونُوا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتُهُ ﷺ فِي ثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَقِينِهِمْ بِظَفَرِهِمْ وَعُلُوِّهِمْ، مَهْمَا كَانَ ضَعْفُكُمْ وَقُوَّةُ أَعْدَائِكُمْ، وَلَا تُصْغُوا لِأَرَاجِيفِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَخْذِيلِ الْمُخَذِّلِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِمَّنْ فَرُّوا يَوْمَ الْأَحْزَابِ؛ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَاسْتِبْقَاءً لِدُنْيَاهُمْ بِبَذْلِ دِينِهِمْ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا بِالظَّفَرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَفِي زَمَنِنَا هَذَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ تَسَلُّطُ قُوَى الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالِاسْتِكْبَارِ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِاحْتِلَالِ دِيَارِهِمْ، وَفَرْضِ أَفْكَارِهِمْ، وَإِهَانَةِ دِينِهِمْ، وَتَدْنِيسِ قُرْآنِهِمْ، وَالسُّخْرِيَةِ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَضْطَلِعُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِذَاتِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَسْلَافُهُمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ بِالتَّخْذِيلِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَخْوِيفِهِمْ بِالْكَافِرِينَ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى نَبْذِ دِينِهِمْ، وَالدُّخُولِ فِي مَشَارِيعِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِكْبَارِ؛ حَتَّى آلَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ وَالضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ.

فَمَنْ بَذَلَ دِينَهُ لِأَجْلِ دُنْيَاهُ، وَحَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى إِرْضَاءً لِلْكَافِرِينَ، وَطَاعَةً

لِلْمُنَافِقِينَ فقَدْ أَوْبَقَ نَفْسَهُ وَخَسِرَ دِينَهُ، وَلَنْ يَكُونَ حَظُّهُ إِلَّا كَحَظِّ المُخَذِّلِينَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ.

وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى الْحَقِّ؛ فَلَمْ يُبَدِّلْ دِينَهُ، وَلَا انْحَازَ إِلَى الْكَافِرِينَ وَمَا يُرِيدُونَ، وَلَا اسْتَمَعَ إِلَى أَرَاجِيفِ المُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؛ فَقَدْ تَأَسَّى بِخِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ المُبَارَكَةِ، وَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَنْتَظِمَ فِي سِلْكِ مَنْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم ..



٣٢٤- غزوة الأحزاب (٣)
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾

٢٩/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ؛ نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يُقْضَى قَضَاءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائِدَة: ١٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ وَإِنْ ضَلَّ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفِي التَّدَافُعِ بَيْنَ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ حِكَمٌ وَأَسْرَارٌ لَا يُحِيطُ بِجَمِيعِهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الَّذِي جَعَلَ التَّدَافُعَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ فِي الْبَشَرِ لِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١].

وَكُلُّ مَا جَرَى وَيَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ الْمَعَارِكِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ هُوَ مِنْ هَذَا التَّدَافُعِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى

قَدرًا؛ فَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطِّيبِ، وَلِيُظْهِرَ المُنَافِقَ مِنَ المُؤْمِنِ، وَحَتَّى يَبِينَ الْكَاذِبُ مِنَ الصَّادِقِ.

وَلِلَّهِ ﷻ جُنْدٌ لَا يَعْلَمُهُمُ الْبَشَرُ وَلَا يَرَوْنَهُمْ، يُسَخِّرُهُمْ ﷻ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَيُؤَيِّدُونَهُمْ وَيَنْصُرُونَهُمْ؛ لِتَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ، وَهُمْ جُنُودٌ فِي السَّمَاءِ وَجُنُودٌ عَلَى الْأَرْضِ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الْفَتْح: ٧]، لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١].

وَمِنْ جُنْدِهِ ﷻ مَا هُوَ حِسِّيٌّ وَمِنْهَا المَعْنَوِيُّ، وَفِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُطَارَدَةِ المُشْرِكِينَ لَهُ كَانَتْ جُنُودُ اللَّهِ تَعَالَى حَاضِرَةً لِحِفْظِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَعُيُونِهِمْ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

وَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ أَيَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَةٍ مِنَ السَّمَاءِ مُرْدِفِينَ يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ، وَأَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ المُشْرِكِينَ، وَأَنْزَلَ المَطَرَ تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِيُذْهِبَ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، وَأَلْقَى النُّعَاسَ تَأْمِينًا لِعِبَادِهِ وَتَنْشِيطًا لَهُمْ، وَكُلُّ أُولَئِكَ مِنْ جُنْدِهِ ﷻ.

وَمَا مِنْ مُوَاجَهَةٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا جُنْدٌ حَاضِرَةٌ لِنُصْرَةِ المُؤْمِنِينَ أَوْ حِمَايَتِهِمْ مِنَ الِاسْتِئْصَالِ.

وَفِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ كَانَ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ هَذَا الصُّلْحِ الَّذِي سَمَّاهُ فَتْحًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا

مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الْفَتْح: ٤].

وَلمَّا أُعْجِبَ المُؤْمِنُونَ فِي حُنَيْنٍ بِكَثْرَتِهِمْ، وَبَغَتَهُمُ الْعَدُوُّ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَاخْتَلَطَ حَابِلُهُمْ بِنَابِلِهِمْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِجُنْدِهِ، وَأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمْ ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التَّوْبَة: ٢٥، ٢٦].

وَفِي الْأَحْزَابِ حِينَ اجْتَمَعَتْ جُمُوعُ المُشْرِكِينَ، وَحَاصَرُوا المَدِينَةَ، وَغَدَرَتِ الْيَهُودُ، وَخَذَّلَ المُنَافِقُونَ وَأَرْجَفُوا، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، وَزُلْزِلَ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ الْعَصِيبِ الرَّهِيبِ كَانَ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ المُؤْمِنِينَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٩].

وَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

فَهُزِمَتْ جُمُوعُ الشِّرْكِ فِي الْأَحْزَابِ بِالرِّيحِ وَهِيَ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالمَلَائِكَةِ عليهم السلام، وَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُنْدِهِ عز وجل، وَهُمُ المُرَادُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾.

وَهَذِهِ الرِّيحُ تَهُبُّ مِنَ الْغَرْبِ، وَتُسَمَّى الصَّبَا، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)]. قَالَ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠٥)، ومسلم في الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «رِيحُ الصَّبَا أُرْسِلَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(٣).

وَمَعَ تَأْيِيدِ اللَّهِ ﷻ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَحْزَابِ بِالرِّيحِ وَالْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّهُ ﷻ أَكْرَمَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ؛ تَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ، وَشَدًّا لِلْعَزَائِمِ، وَحَفْزًا لِلْهِمَمِ؛ لِتَمْضِيَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَصْبِرَ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

وَمِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ مَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مُبَارَكَةِ طَعَامٍ قَلِيلٍ لَا يُشْبِعُ رَهْطًا، فَيَدْعُو فِيهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشْبِعَ الْجَيْشَ كُلَّهُ وَيَبْقَى مِنْهُ بَقِيَّةٌ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄ قَالَ: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ -أَيْ: سَمِينَةٌ- فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ.** فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي

(٣) تفسير مجاهد (٢/ ٥١٥)، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٢٨).

قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ؛ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ: كُلِي هَذَا وَأَهْدِي؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٤].

وَمِنَ الْكَرَامَاتِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرْسَلَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه لِيَسْتَطْلِعَ خَبَرَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ آذَتْهُمُ الرِّيحُ، وَأَصَابَهُمْ بَرْدٌ شَدِيدٌ كَانَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه يَنْعَمُ دُونَهُمْ بِالدِّفْءِ، وَلَا يَجِدُ أَثَرَ الرِّيحِ وَالْبَرْدِ لَا فِي ذَهَابِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَا فِي رُجُوعِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَالَ رضي الله عنه: «فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ -أَيْ: مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ . . . وَفِي عَوْدَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَى مُهِمَّتَهُ قَالَ رضي الله عنه: فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٥].

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَيَّدَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِكَرَامَاتِهِ، وَأَعَانَهُمْ بِجُنْدِهِ، وَكَتَبَ لَهُمْ نَصْرَهُ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . . .

❀ ❀ ❀

---

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٦)، ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩). والرواية الثانية للبخاري (٣٨٧٥).

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَقِيمُوا عَلَى دِينِكُمْ، وَثِقُوا بِوَعْدِ رَبِّكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلَا يَخْذُلُ عِبَادَهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ امْتِحَانًا صَعْبًا نَجَحَ فِيهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَأَخْفَقَ فِيهِ أَهْلُ النِّفَاقِ.

كَانَ امْتِحَانًا ابْتُلِيَ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ثَبَّتَ الْمُؤْمِنِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيَقِينِهِمْ، وَخَذَلَ الْمُنَافِقِينَ بِشَكِّهِمْ وَارْتِيَابِهِمْ، وَرَدَّ الْكَافِرِينَ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَصْرًا وَلَا غَنِيمَةً ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٥].

وَفِي أَثْنَاءِ حِصَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَدِينَةِ، وَخِيَانَةِ الْيَهُودِ، وَتَخْذِيلِ الْمُنَافِقِينَ وَإِرْجَافِهِمْ، وَاشْتِدَادِ الْكَرْبِ، وَعِظَمِ الْبَلَاءِ؛ كَانَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى يَمْلَأُ قَلْبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخَذَ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ ﷺ بِمَا سَيَفْتَحُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ عَوَاصِمِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى آنَذَاكَ، وَهَذَا الْيَقِينُ هُوَ مِنْ تَأْيِيدِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَثْبِيتِهِ لَهُمْ، وَرَبْطِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ فَالْفَضْلُ لِلَّهِ تَعَالَى، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا،** ثُمَّ قَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ،** وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَتْ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا،** ثُمَّ قَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ،** وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى اسْتِلْهَامِ هَذَا الدَّرْسِ الْعَظِيمِ مِنْ تِلْكَ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ! فَنَزْدَادُ بِاللَّهِ تَعَالَى إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَنُصَدِّقُ بِوَعْدِهِ، وَنَثْبُتُ عَلَى دِينِهِ، فَلَا نُبَدِّلُ وَلَا نُغَيِّرُ مَهْمَا عَظُمَ الْكَرْبُ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ، مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، خَاصَّةً وَقَدِ اشْتَدَّتْ حَمَلَاتُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي تَنَاوَلَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الْعَظِيمَةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ قَدْ أَثْنَتْ عَلَى ثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ وَأَصْعَبِ السَّاعَاتِ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٣].

إِنَّهُمْ رِجَالٌ قَابَلُوا الْبَلَاءَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، وَتَسَلَّحُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَلَمْ

---

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣)، وأبو يعلى (١٦٨٥)، والنسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقة ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات (٦/ ١٣١)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧).

يُبَدِّلُوا دِينَهُمْ أَوْ يَتَنَازَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا بِتَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ وَمَعُونَتِهِ ﷻ لَهُمْ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يُنَالُ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ، وَلَا تُغَيِّرُوا دِينَكُمْ، أَوْ تَتَخَلَّوْا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ؛ إِرْضَاءً لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا إِلَّا بِكُفْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النِّسَاء: ٨٩].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٢٥- غزوة بني قريظة
الغدر والعقوبة

٢٤/ ١١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَالِكِ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الْإِيمَانَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَكَتَبَ الْبَقَاءَ لِشَرِيعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَدَّمُوا وَلَاءَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ عَلَى وَلَائِهِمْ لِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المُجَادلَة: ٢٢]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْغَدْرُ وَالْخِيَانَةُ مِنْ أَحَطِّ الصِّفَاتِ، وَأَسْوَإِ الْأَخْلَاقِ، وَلَا تَسُودُ الْخِيَانَةُ فِي النَّاسِ إِلَّا انْتَشَرَ فِيهِمُ الْخَوْفُ، فَلَا يَأْمَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَلِذَا جَاءَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى آمِرَةً بِالْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ، نَاهِيَةً عَنِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المَائِدَة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنْفَال: ٢٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٧].

وَلَمَّا كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِمُ الْخَوَنَةُ الْغَدَّارُونَ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَبَيَّنَ كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنْفَال: ٥٨].

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ أَشْهَرُ الْأُمَمِ فِي الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ؛ فَلَا يُعَاهِدُونَ عَهْدًا إِلَّا نَقَضُوهُ، وَلَا يُسَالِمُهُمْ قَوْمٌ إِلَّا غَدَرُوا بِهِمْ، وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا أَسَاءُوا إِلَيْهِ، وَيَرَوْنَ ذَلِكَ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَفَرْضًا مِنْ فُرُوضِ دِينِهِمْ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٠]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ﴾ [المَائِدَة: ١٣]، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنْفَال: ٥٦].

وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ أَغْدَرُ النَّاسِ وَأَخْوَنُهُمْ: أَنَّ كُلَّ قَبَائِلِهِمْ فِي المَدِينَةِ نَقَضَتْ عُهُودَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ مَنْ هُجِّرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِّلُوا وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ.

وَفِي آخِرِ ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ[(١)]، نَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمْكَنَ اللَّهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، فَقَضَوْا فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَهُ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ هِجْرَتِهِ لِلْمَدِينَةِ أَنْ وَادَعَ الْيَهُودَ فِيهَا،

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٧٤)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٧١٥).

وَعَاهَدَهُمْ بِمِيثَاقٍ بَيَّنَ فِيهِ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ بُنُودِ ذَلِكَ الْمِيثَاقِ: أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ، وَلِلْيَهُودِ دِينَهُمْ، وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ[٢].

وَالْتَزَمَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ؛ لِأَنَّ مِنْ شِيمَتِهِمُ الْوَفَاءَ وَالْأَمَانَةَ، فَدِينُهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَدْرَ وَالْخِيَانَةَ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ نَقَضُوا الْعَهْدَ قَبِيلَةً قَبِيلَةً، وَأَخْطَرُ مَا نَقَضَتِ الْيَهُودُ مِنَ الْعُهُودِ، وَأَشَدُّهُ ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرُهُ خِسَّةً وَدَنَاءَةً وَغَدْرًا فِعْلَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ؛ إِذْ إِنَّ مُقْتَضَى الْمُعَاهَدَةِ مَعَهُمْ أَنْ يُشَارِكُوا الْمُسْلِمِينَ فِي دَفْعِ خَطَرِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ حَاصَرُوهَا بِأَعْدَادٍ كَثِيفَةٍ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَلَمْ يَكْتَفِ الْيَهُودُ بِخِذْلَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ، وَالتَّخَلِّي عَنْهُمْ فِي هَذَا الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ، بَلْ دَعَتْهُمْ نُفُوسُهُمُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي تَنْضَحُ بِالْغَدْرِ، وَتَقْطُرُ بِالْخِيَانَةِ، دَعَتْهُمْ إِلَى طَعْنِ الْمُسْلِمِينَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَخَفْرِهِمْ فِي نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَمُمَالَأَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، وَيَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ عَصِيبٍ! وَيَا لَهَا مِنْ خِيَانَةٍ لَا نَظِيرَ لَهَا الْبَتَّةَ!

وَلَمَّا تَسَامَعَ بَعْضُ النَّاسِ بِخَبَرِ الْغَدْرِ هَذَا، وَخَافُوا عَلَى مَنْ فِي الْحُصُونِ مِنَ

---

(٢) هذه الوثيقة المهمة مشهورة في كتب السيرة والتاريخ، وجاءت من طرق عدة، وبعض ما جاء فيها ثبت في أحاديث صحيحة، وذكر الدكتور صالح العلي في كتابه: «تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة» أنها كانت عقب غزوة بدر (ص: ٦).
بينما رَجَّحَ الدكتور أكرم ضياء العمري في «السيرة النبوية الصحيحة» أنها كتبت قبل بدر (١/ ٢٧٦).
وينظر فيها: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٨٦)، والأموال لأبي عبيد بن سلام (٥١٨)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٧٩)، والبداية والنهاية (٣/ ١٠٣).

النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ مِنْ غَدْرِ الْيَهُودِ؛ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ الِاسْتِيثَاقَ مِنْ غَدْرِهِمْ، فَأَرْسَلَ الزُّبَيْرَ وَالسَّعْدَيْنِ ابْنَ مُعَاذٍ وَابْنَ عُبَادَةَ ﷺ(٣)، فَرَجَعُوا مُؤَكِّدِينَ خَبَرَ نَقْضِ قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ، وَعَظُمَ بَلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَاشْتَدَّتْ مِحْنَتُهُمْ، وَأَصْبَحُوا يُوَاجِهُونَ عَدُوًّا شَرِسًا يُحَاصِرُ الْمَدِينَةَ فِي عَدَدٍ كَثِيفٍ يَبْلُغُ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَيُعَالِجُونَ مُنَافِقِينَ يُخَذِّلُونَ وَيُرْجِفُونَ، وَيَبُثُّونَ الشَّائِعَاتِ وَالْأَكَاذِيبَ، وَلَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ بِالْيَهُودِ وَهُمْ دَاخِلُ الْحُصُونِ عِنْدَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَقَدْ تَنَكَّرُوا لِلْمُسْلِمِينَ، وَانْحَازُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١١].

وَحَمَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي قَلْبِهِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِسَبَبِ خِيَانَتِهِمُ الْقَبِيحَةِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُ وَأَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمَّا جُرِحَ ﷺ فِي الْأَحْزَابِ وَنَزَفَ، وَخَشِيَ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، دَعَا اللَّهَ تَعَالَى قَائِلًا: «اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ» فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ، فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً(٤).

اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَضَرُّعِهِمْ، وَخَذَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَرَدَّ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَصَدَعَ تَحَالُفَ الْيَهُودِ مَعَهُمْ بِشُكُوكٍ أَلْقَاهَا فِي قُلُوبِ الْفَرِيقَيْنِ، وَتَوْفِيقٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِنُعَيْمِ بْنِ

---

(٣) ينظر: حديث جابر ﷺ عند: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الطليعة (٢٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابه ﷺ، باب من فضائل طلحه والزبير (٢٤١٥)، وتفسير الطبري (٢١/ ١٣١) وتاريخه (٢/ ٩٣)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٣). ومضى سياق الأحاديث في ذلك في خطبة: غزوة الأحزاب (١) خطبة رقم (٣٢٢).

(٤) أخرجه من حديث جابر ﷺ: الترمذي في السير، باب ما جاء في النزول على الحكم وقال: حسن صحيح (١٥٨٢)، والنسائي في الكبرى (٨٦٧٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، والدارمي (٢٥٠٩)، وصححه ابن حبان (٤٧٨٤).

مَسْعُودٍ ﷺ فِي الْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ أَسْلَمَ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِهِ[٥].

فَعَادَتْ أَحْزَابُ الْمُشْرِكِينَ خَاسِرَةً خَائِبَةً إِلَى مَكَّةَ، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ فَقَالَ: «وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟! فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ**؟ قَالَ: هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ»[٦]، فَأَذَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّاسِ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[٧].

---

(٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦٩)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١٩٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١١١).

(٦) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في الجهاد والسير، باب الغسل بعد الحرب والغبار (٢٦٥٨)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٩).

(٧) أخرجه من حديث ابن عمر ﵄: البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء (٩٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (١٧٧٠) إلا أن في رواية مسلم: «**لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة**».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٠٨-٤٠٩) قوله: «**لا يصلين أحد العصر**» كذا وقع في جميع النسخ عند البخاري، ووقع في جميع النسخ عند مسلم: (الظهر) مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد، وقد وافق مسلمًا أبو يعلى وآخرون، وكذلك أخرجه ابن سعد عن أبي عتبان مالك بن إسماعيل عن جويرية بلفظ: (الظهر) وابن حبان من طريق أبي عتبان كذلك، ولم أره من رواية جويرية إلا بلفظ (الظهر)، غير أن أبا نعيم في المستخرج أخرجه من طريق أبي حفص السلمي عن جويرية فقال: (العصر)، وأما أصحاب المغازي فاتفقوا على أنها (العصر)، قال ابن إسحاق: لما انصرف النبي ﷺ من الخندق راجعًا إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال: «إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فأمر بلالًا فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب «أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب، وجمع عليه اللأمة، واغتسل واستجمر؛ تبدى له جبريل فقال: عذيرك من محارب، فوثب فزعًا، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا =

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَاسْتِئْصَالَ شَأْفَتِهِمْ جَاءَ الْأَمْرُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ عَنْ طَرِيقِ جِبْرِيلَ عليه السلام، وَلَيْسَ فِعْلًا فَعَلَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَقَرَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ. بَلْ إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَضْعَ السِّلَاحِ وَالِاغْتِسَالَ قَبْلَ إِيقَاعِ الْعُقُوبَةِ بِالْخَوَنَةِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عليهم السلام لَمْ يَضَعُوا أَسْلِحَتَهُمْ.

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَقَدْ بَعَثَ عَلِيًّا رضي الله عنه عَلَى مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ وَمَعَهُ اللِّوَاءُ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ

= بني قريظة، قال: فلبس الناس السلاح فلم يأتوا، قال النبي ﷺ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم»، ولفظ مسلم وسائر من رواه: «نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب أن لا يُصَلِّيَنَّ أحد الظهر إلا في بني قريظة، فتخوف ناس فَوْتَ الوَقْتِ، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّفَ وَاحِدًا من الفريقين».

فالذي يظهر من تغاير اللفظين أن عبد الله بن محمد بن أسماء شيخ الشيخين فيه لما حدث به البخاري حدث به على هذا اللفظ، ولما حدث به الباقين حدثهم به على اللفظ الأخير وهو اللفظ الذي حدث به جويرية، بدليل موافقة أبي عتبان له عليه، بخلاف اللفظ الذي حدث به البخاري، أو أن البخاري كتبه من حفظه ولم يراع اللفظ كما عرف من مذهبه في تجويز ذلك بخلاف مسلم فإنه يحافظ على اللفظ كثيرًا، وإنما لم أجوز عكسه لموافقة من وافق مسلمًا على لفظه بخلاف البخاري، لكن موافقة أبي حفص السلمي له تؤيد الاحتمال الأول، وهذا كله من حيث حديث ابن عمر.

أما بالنظر إلى حديث غيره فالاحتمالان المتقدمان في كونه قال: (الظهر) لطائفة، و(العصر) لطائفة متجه، فيحتمل أن تكون رواية (الظهر) هي التي سمعها ابن عمر، ورواية (العصر) هي التي سمعها كعب بن مالك وعائشة، والله أعلم.

الذَّبْحُ، قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ -وَكَانَ رضي الله عنه حَلِيفًا لَهُمْ، فَظَنُّوا أَنْ يُحَابِيَهُمْ وَيُخَفِّفَ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» فَنَزَلُوا، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، يُحَاوِلُونَ الشَّفَاعَةَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، وَهُوَ رضي الله عنه سَاكِتٌ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمُ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «قَدْ آنَ لِي أَنْ لَا أُبَالِيَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»(٨). وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ رضي الله عنه: «قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ»(٩).

فَجِيءَ بِسَعْدٍ رضي الله عنه وَهُوَ جَرِيحٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْزِلُوهُ**، فَأَنْزَلُوهُ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**. قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ(١٠). قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ** عز وجل» فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ سِتِّمِائَةٍ وَتِسْعِمِائَةٍ(١١).

---

(٨) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ١٤١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٢١)، وصححه ابن حبان (٧٠٢٨).

(٩) هذه الرواية للطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٣).

(١٠) هذا جزء من حديث عائشة المخرج في حاشية (٨). وجاء نحوه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند: البخاري في الاستئذان، باب قول النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**» (٥٩٠٧) ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٨).

(١١) ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. السيرة النبوية (٤/ ٢٠١)، وينظر: تاريخ الطبري (٢/ ١٠١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣١٧)، وسيرة ابن كثير (٣/ ٢٣٩).

وجاء من حديث جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا أربعمائة، أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، وقال حسن صحيح (١٥٨٢)، والدارمي (٢٥٥١)، وصححه ابن حبان (٤٧٨٤)

إِلَّا مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ حَقَنَ إِسْلَامُهُ دَمَهُ(١٢)، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذُرِّيَّاتُهُمْ، وَقُسِّمَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ.

فَكَانَ هَذَا الْعِقَابُ الشَّدِيدُ مُنَاسِبًا لِجُرْمِهِمُ الشَّنِيعِ، وَقَدْ وَجَدَ بَعْضُ الْمُعَاصِرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي نُفُوسِهِمْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْحُكْمِ الشَّدِيدِ، مَعَ أَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَلِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ: كَيْفَ تُفْنَى قَبِيلَةٌ كَامِلَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ خِيَانَتِهِمْ، وَالْإِسْلَامُ دِينُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالسَّمَاحَةِ وَالْمُسَامَحَةِ؟! وَيَزْدَادُ حَرَجُهُمْ حِينَ يَسْتَغِلُّ الْأَعْدَاءُ هَذِهِ الْمَوَاقِفَ مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِيُشَغِّبُوا بِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَتَّهِمُوهُ بِالْفَاشِيَّةِ وَالدَّمَوِيَّةِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْحَرَجَ الَّذِي يَجِدُهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَمَثِيلَاتِهَا يَنْطَوِي عَلَى عَدَمِ اسْتِسْلَامٍ كَامِلٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَدُلُّ عَلَى شَكٍّ دَاخِلَ تِلْكَ الْقُلُوبِ فِي حُكْمِهِ ﷺ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

---

(١٢) روى ابن إسحاق عن أيوب بن عبد الرحمن، أن سلمى بنت قيس أم المنذر استطلقت من رسول الله ﷺ رفاعة بن شموال، وكان قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فأطلقه لها، وكانت قالت: يا رسول الله إن رفاعة يزعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل. فأجابها إلى ذلك فأطلقه. سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٣).

ولم يقتل منهم إلا امرأة واحدة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك، وما لك؟ قالت: أقتل. قالت: قلت: ولم؟ قالت: حدث أحدثته. قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود في الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١).

قال ابن هشام في سيرته: وهي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته (٤/ ٢٠٢).

قال ابن كثير في السيرة: يعنى: فقتلها رسول الله ﷺ به (٣/ ٢٤٢).

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، فَلَا يَسَعُ مُسْلِمًا إِلَّا الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّهُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ، وَأَنَّ مَا عَارَضَهُ هُوَ الْبَاطِلُ وَالظُّلْمُ.

وَسَبَبُ هَذَا الضَّعْفِ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ الْخَطَأَ قَدْ سَلَّمَ بِحُكْمِ الطَّاغُوتِ الْمُتَمَثِّلِ فِيمَا يُسَمَّى بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ جَعَلَهُ حَاكِمًا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا وَافَقَ قَوَانِينَهُمُ الْوَضْعِيَّةَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَضِيَهُ وَصَاحَ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ سَبَقَ إِلَيْهِ، وَمَا خَالَفَ قَوَانِينَهُمْ طَعَنَ فِيهِ وَتَأَوَّلَهُ، وَفِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ يَقْبَلُهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَيُخْفِيهِ كَأَنَّمَا هُوَ عَارٌ وَنَقْصٌ وَخَلَلٌ فِي الْإِسْلَامِ.

وَقَوَانِينُهُمُ الدَّوْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالسِّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَالْمَرْأَةِ وَالطِّفْلِ، وَحُقُوقِ الْأَسْرَى وَغَيْرِهَا، فِيهَا مَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَكْتَسِبُ شَرَفًا بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِوَاضِعِيهِ فِيهِ نِيَّةٌ وَلَا احْتِسَابٌ، كَمَا أَنَّ فِي قَوَانِينِهِمْ مَا يُعَارِضُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ تَحْتَ الْأَقْدَامِ وَإِنْ زَمَّرَ لَهُ الْمُزَمِّرُونَ، وَطَبَّلَ لَهُ الْمُطَبِّلُونَ، وَجَعَلَهُ الْمُنَافِقُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ شَرِيعَتَهُمُ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ، وَكُلُّ مَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَهُوَ الْبَاطِلُ وَالظُّلْمُ، وَلَا يُحِقُّ الْحَقَّ، وَلَا يَقْضِي بِالْعَدْلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُوقِنَ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَا صَارَ مُسْلِمًا إِلَّا لِقَنَاعَتِهِ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتِسْلَامِهِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَغَالِبُ الَّذِينَ يُدَاخِلُهُمْ شَكٌّ فِي بَعْضِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجِدُونَ حَرَجًا مِنْ قَضَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ إِنَّمَا نَظَرُوا إِلَى الْمُجْرِمِ حَالَ سَفْكِ دَمِهِ، وَلَمْ يَسْتَحْضِرُوا جَرِيمَتَهُ الشَّنْعَاءَ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ

فَزَعَمُوا حِفْظَ حُقُوقِهِمْ، وَنَسُوا مَنْ ظَلَمَهُمْ وَغَدَرَ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدُّوَلَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُجْمِعَةٌ عَلَى قَتْلِ الْجَاسُوسِ الَّذِي يَنْقُلُ الْأَخْبَارَ لِلدُّوَلِ الْمُعَادِيَةِ، وَيُعِينُهَا عَلَى دَوْلَتِهِ، وَأَيْنَ فِعْلُ جَاسُوسٍ وَاحِدٍ خَانَ وَطَنَهُ مِنْ نَقْضِ الْيَهُودِ لِلْعَهْدِ وَهُمْ أُمَّةٌ كَامِلَةٌ تَتَطَلَّعُ لِإِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُقَابِلُ عَظِيمَ إِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِمْ بِحِفْظِ الْعَهْدِ مَعَهُمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِ جِوَارِهِمْ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُمْ، تُقَابِلُ أُمَّةُ الْيَهُودِ ذَلِكَ بِأَعْظَمِ الْإِسَاءَةِ، وَأَشَدِّ دَرَجَاتِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ.

لَقَدْ نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ عَهْدَهَا فِي أَصْعَبِ مَوْقِفٍ، وَأَشَدِّ سَاعَةٍ، وَلَوْ أَنَّ مُظَاهَرَةَ الْيَهُودِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَخِيَانَتَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ تَمَّتْ عَلَى مَا أَرَادُوا، وَدَخَلَ الْمُشْرِكُونَ الْمَدِينَةَ، وَتَمَكَّنَ الْيَهُودُ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَطْفَالِهِمْ لَأَبَادُوهُمْ جَمِيعًا، أَفَإِنْ سَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، وَرَدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَأُنْزِلَتِ الْعُقُوبَةُ الشَّرْعِيَّةُ بِالْخَوَنَةِ الْغَادِرِينَ يَجِدُ الْمُسْلِمُ حَرَجًا فِي نَفْسِهِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَتَذَكَّرُ حَالَ الْيَهُودِ وَهُمْ يُقْتَلُونَ، وَلَا يَسْتَحْضِرُ حَالَ الْمُسْلِمِينَ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِسَبَبِ خِيَانَةِ الْيَهُودِ.

وَلِمَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَرَجٍ مِنْ ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ الْيَهُودُ فِي أَهْلِ فِلَسْطِينَ، مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَنَقْضِ الْعَهْدِ، وَقَصْدِ الْآمِنِينَ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَهَدْمِ الدُّورِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَلَا يَكَادُ يَمُرُّ يَوْمٌ دُونَ أَنْ يَقْتُلُوا نِسَاءً وَأَطْفَالًا، فَتَبًّا لِقَوَانِينَ وَضْعِيَّةٍ تُوجِدُ حَرَجًا فِي قُلُوبِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، وَمِنَ الِاسْتِدْرَاكِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا وَالْإِذْعَانَ وَالْقَبُولَ وَالتَّسْلِيمَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . .

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَمَلِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَجَلَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ الْحِسَابَ عَسِيرٌ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الْكَهْف: ٤٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي غَدْرِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَخِيَانَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّوَائِفَ وَالْأَقَلِّيَّاتِ الَّتِي لَيْسَتْ عَلَى دِينِ أَهْلِ الْبَلَدِ هِيَ أَقْرَبُ لِلْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ مِنَ الْأَدَاءِ وَالْوَفَاءِ مَتَى مَا رَأَتِ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِذَلِكَ، وَأَنَّ إِحْسَانَ أَهْلِ الْبَلَدِ إِلَيْهِمْ سَنَوَاتٍ مُتَتَابِعَةً، وَحِمَايَتَهُمْ لَهُمْ، وَحِفْظَ حُقُوقِهِمْ، لَا يَمْنَعُهُمْ أَبَدًا مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَمُمَالَأَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَى أَبْنَاءِ أَوْطَانِهِمْ، وَأَنَّ زَعْمَهُمْ أَنَّهُمْ وَطَنِيُّونَ، وَأَنَّ مَصْلَحَةَ الْأَوْطَانِ فَوْقَ أَدْيَانِهِمْ وَطَوَائِفِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ مَا هُوَ إِلَّا شِعَارٌ يُخَدِّرُونَ بِهِ أَهْلَ الْغَفْلَةِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَئِنْ كَانَتْ خِيَانَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ شَاهِدَةً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ التَّارِيخَ مَلِيءٌ بِالنَّمَاذِجِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ، وَتُؤَكِّدُ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ، وَفِي أَثْنَاءِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ أَسَّسَ نَصَارَى الشَّرْقِ مِنَ الْأَقْبَاطِ وَالْمَوَارِنَةِ لِوَاءً كَامِلًا يُعِينُ نَصَارَى الْغَرْبِ عَلَى إِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، رَغْمَ الْعَدَاوَةِ الشَّدِيدَةِ بَيْنَ نَصَارَى الشَّرْقِ وَهُمُ الْأُرْثُوذُكْسُ، وَنَصَارَى الْغَرْبِ وَهُمُ الْكَاثُولِيكُ.

وَفِي اجْتِيَاحِ التَّتَارِ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَضَائِهِمْ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ انْحَازَ

ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيُّ الْبَاطِنِيُّ إِلَى المَغُولِ ضِدَّ المُسْلِمِينَ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ وَزِيرًا لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ، فَمَا رَدَّهُ عَنْ خِيَانَتِهِ تَوْزِيرُ الْعَبَّاسِيِّينَ لَهُ، وَإِغْدَاقُهُمُ الْأَمْوَالَ عَلَيْهِ، وَتَمْكِينُهُ مِنْ مَفَاصِلِ الدَّوْلَةِ وَثَرَوَاتِهَا وَقَرَارَاتِهَا، بَلِ اسْتَغَلَّ ذَلِكَ فِي نَسْجِ المُؤَامَرَاتِ الَّتِي قَضَى بِهَا عَلَى مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ، وَهَذِهِ النَّمَاذِجُ الْخَائِنَةُ تَتَكَرَّرُ عَبْرَ الْعُصُورِ وَالدُّوَلِ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ!

وَلَئِنْ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ فِي وَاقِعِنَا المُعَاصِرِ نَمَاذِجَ مِنْهَا، فَفِي اجْتِيَاحِ الصِّرْبِ لِلْبُوسْنَةِ كَانَ صِرْبُ الْبُوسْنَةِ يَدُلُّونَ المُحَارِبِينَ مِنْ صِرْبِيَا عَلَى جِيرَانِهِمْ وَأَبْنَاءِ وَطَنِهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَيُشَارِكُونَ الْعَدُوَّ الْغَاشِمَ فِي إِبَادَةِ أَبْنَاءِ وَطَنِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلُوا فِي كُوسُوفَا.

وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ الْبَاطِنِيُّونَ الصَّفَوِيُّونَ وَالْعَلْمَانِيُّونَ فِي أَفْغَانِسْتَانَ، كَمَا فَعَلُوهُ فِي الْعِرَاقِ -وَلَا زَالُوا- وَمَذَابِحُهُمْ ضِدَّ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَشُدِّهَا، وَلَا زَالَتِ الْأَقَلِّيَّاتُ النَّصْرَانِيَّةُ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ تُحَرِّضُ الْغَرْبَ عَلَى دُوَلِهَا، وَتَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ، وَتُسَرِّبُ الْأَخْبَارَ وَالمَعْلُومَاتِ لِلدُّوَلِ المُسْتَكْبِرَةِ، وَتَسْتَنْجِدُ بِهَا عَلَى أَوْطَانِهِمْ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ ذَلِكَ مَا حَصَلَ وَمَا يَحْصُلُ فِي السُّودَانِ وَالصُّومَالِ وَإِرِتْرِيَا وَغَيْرِهَا.

وَرَأَيْنَا فِي حَرْبِ لِبْنَانَ الْقَرِيبَةِ أَصْحَابَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ قَدْ رَكَلُوا وَطَنِيَّتَهُمْ بِأَقْدَامِهِمْ، وَانْحَازُوا بِوَلَائِهِمْ لِلدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الطَّامِعَةِ فِي إِعَادَةِ أَمْجَادِ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَنُو شِرْوَانَ، رَغْمَ إِحْسَانِ دُوَلِهِمْ إِلَيْهِمْ.

كَمَا رَأَيْنَا أَنَّ أَتْبَاعَ التَّيَّارَاتِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ قَدْ أَجَّرُوا أَنْفُسَهُمْ لِمَا يَخْدِمُ مَصَالِحَ الدُّوَلِ الَّتِي تَسْتَأْجِرُهُمْ، وَتَأْمُرُهُمْ وَتَنْهَاهُمْ، بَعِيدًا عَنْ مَصَالِحِ أَوْطَانِهِمْ.

وَكُلُّ هَذِهِ النَّمَاذِجِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مَا هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مَكْرُورَةٌ مِنْ خِيَانَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَإِذَا مَا أَلَمَّتْ بِأَهْلِ أَيِّ بِلَادٍ مُلِمَّةٌ، وَدَهَمَهَا عَدُوُّهَا ظَهَرَ هَؤُلَاءِ الْخَوَنَةُ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ، وَخَرَجُوا مِنْ تَقِيَّتِهِمْ، وَرَكَلُوا وَطَنِيَّتَهُمْ، وَأَعْلَنُوا الْعَدَاءَ السَّافِرَ لِمَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ، وَحَفِظُوا لَهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَلَمْ يُكْرِهُوهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

وَالتَّارِيخُ وَالْوَاقِعُ الْمُعَاصِرُ مَلِيئَانِ بِالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْكَيِّسُ الْفَطِنُ لَا يَنْخَدِعُ بِالشِّعَارَاتِ دُونَ الْحَقَائِقِ، وَلَا يَغْشَى عَلَى بَصَرِهِ لَحْنُ الْقَوْلِ، وَكَثْرَةُ الْوُعُودِ وَالْعُهُودِ؛ فَكَمْ مِنْ وَعْدٍ أُخْلِفَ، وَكَمْ مِنْ مُعَاهِدٍ غَدَرَ، وَلَا قُوَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْ غَدْرِ الْغَادِرِينَ، وَخِيَانَةِ الْخَائِنِينَ، وَرَدِّ كَيْدِ الْكَائِدِينَ إِلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِ رَبِّهِمْ، وَمُخَالَفَةِ مَنْ يُرِيدُونَ إِضْعَافَ الْمُسْلِمِينَ بِتَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَتَغْيِيرِ مَنَاهِجِهِمْ، وَحَرْفِهِمْ عَنْ مَنْهَجِهِمْ، مَعَ أَخْذِ الْحِيطَةِ وَالْحَذَرِ مِنَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ، وَعَدَمِ تَمْكِينِهِمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ خَائِنٍ وَغَادِرٍ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِإِرْهَابِ أَعْدَاءِ الْخَارِجِ، وَتَخْوِيفِ أَهْلِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ أَعْدَاءِ الدَّاخِلِ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❁ ❁ ❁



٣٢٦- صلح الحديبية
بين الصلح والفتح

٢٤/ ١١/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى: الْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ فَاللهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

هُوَ الْقَادِرُ سُبْحَانَهُ عَلَى تَحْوِيلِ الْمِحَنِ إِلَى مِنَحٍ، وَقَلْبِ الْعُسْرِ إِلَى يُسْرٍ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ سَبَبًا لِفَتْحِ مَكَّةَ، مَعَ أَنَّ الصُّلْحَ يَمْنَعُ الْفَتْحَ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ جعَلَهُ سَبَبًا لِلْفَتْحِ، عَلَى خِلَافِ رُؤْيَةِ الْبَشَرِ وَحِسَابَاتِهِمْ وَدِرَاسَاتِهِمْ.

فِي ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ مِنَ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم(٢)، فَأَحْرَمَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَقَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ، وَعَدَدُهُ سَبْعُونَ بَدَنَةً، وَسَارَ قَاصِدًا مَكَّةَ.

عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ فَخَرَجَتْ تُرِيدُ صَدَّهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَجَاءَ بُسْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعُوذُ المَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدِمُوا كُرَاعَ الْغَمِيمِ . . .» فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي الْإِغَارَةِ عَلَى مَنْ عَاوَنُوا قُرَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى سَلَامَةِ قُرَيْشٍ وَإِسْلَامِهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَسَادَةُ الْعَرَبِ، وَمَعَ حِرْصِهِ هَذَا مَا كَانَ عليه السلام لِيُهَادِنَهُمْ عَلَى مَا فِيهِ نَيْلٌ مِنَ الدِّينِ،

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٥٧٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٩٥)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٤٢٦)، وسيرة ابن كثير (٣/ ٣١٢)، وزاد المعاد (٣/ ٢٨٧).

(٢) اختلفت الروايات في عدد مَنْ كانوا معه عليه الصلاة والسلام، وتراوحوا بين ألف وثلاث مئة وبين ألف وخمس مئة، والراجح أنهم ألف وأربع مئة، وقد جمع بين الروايات الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٩٢٠)، وأحمد (٤/ ٣٢٨-٣٣١)، والبخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٤-٣٩٤٥)، وأبو داود في الجهاد، باب صلح العدو (٢٧٦٠).

أَوْ يُسَاوِمَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنْ عَلَى مَا فِيهِ إِيقَافُ الْحَرْبِ، وَبَسْطُ الْأَمْنِ، وَحِفْظُ الْأَرْوَاحِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**»(٤)، يَعْنِي: عُنُقَهُ الشَّرِيفَةَ ﷺ.

لَقَدْ بَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ لَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ يُقْتَلَ دُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ سَيُصَالِحُهُمْ عَلَى هُدْنَةٍ يَسْتَرِيحُ فِيهَا الْفَرِيقَانِ مِنَ الْحَرْبِ، وَيَأْمَنُ النَّاسُ، وَأَكَّدَ هَذِهِ الرَّغْبَةَ فِي الصُّلْحِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»(٥).

وَرَغْمَ أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ مُعْتَمِرًا، وَلَمْ يَأْتِ مُحَارِبًا فَإِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى صَدِّهِ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَقَالُوا لِلسَّفِيرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ: «وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عُنْوَةً أَبَدًا، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

---

(٤) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أحمد في المسند مطولًا واللفظ له (٤/ ٣٢٣)، وأخرجه مختصرًا البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٤)، وأبو داود في الجهاد، باب في صلح العدو (٢٧٦٦)، وابن خزيمة (٢٩٠٦)، والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/ ٤٥٩).

(٥) قطعة من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم المخرج في حاشية (٤).

(٦) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (٤).

أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُؤَكِّدَ لِقُرَيْشٍ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ الْحَرْبَ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ﷺ بِرِسَالَةٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَنَزَلَ عُثْمَانُ فِي جِوَارِ أَبَانَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حَتَّى أَدَّى رِسَالَتَهُ(٧)، وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ لِلْبَيْعَةِ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرَةٍ، فَبَايَعُوهُ جَمِيعًا عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا سِوَى الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ(٨)، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ الْبَيْعَةَ كَانَتْ عَلَى الْمَوْتِ(٩)، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى الصَّبْرِ(١٠)، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ؛ فَإِنَّ الْمُبَايَعَةَ عَلَى الْمَوْتِ تَعْنِي: الصَّبْرَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَعَدَمَ الْفِرَارِ(١١).

كَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الْأَسَدِيُّ(١٢)، فَخَرَجَ النَّاسُ بَعْدَهُ يُبَايِعُونَ

---

(٧) ورد ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٤).

(٨) جاء ذلك في حديث جابر ﷺ قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فبايعناه ... وقال: بايعنا على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت» أخرجه مسلم في الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

(٩) جاء ذلك في حديث سلمة بن الأكوع ﷺ سئل: «على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت» أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٣٦).

(١٠) جاء ذلك في حديث نافع عن ابن عمر ﷺ قال: «رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله، فسألنا نافعًا: على أي شيء بايعهم، على الموت؟ قال: لا، بايعهم على الصبر» أخرجه البخاري في الجهاد، باب البيعة في الحرب على أن لا يفروا (٢٧٩٨).

(١١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٥): «وحاصل الجمع أن من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها؛ لأنه إذا بايع أنه لا يفر لزم من ذلك أن يثبت، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر، والذي يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت، ولما كان الموت لا يؤمن في مثل ذلك أطلقه الراوي، وحاصله: أن أحدهما حكى صورة البيعة، والآخر حكى ما تئول إليه، وجمع الترمذي بأن بعضًا بايع على الموت وبعضًا بايع على أن لا يفر» اهـ.

(١٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٨)، وزاد المعاد (٣/ ٢٩١).

عَلَى بَيْعَتِهِ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ فَقَالَ: «**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ**»[١٣]، وَقَالَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»[١٤]، وَبَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُثْمَانَ ﷺ فَأَشَارَ إِلَى يَدِهِ الْيُسْرَى، وَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**»[١٥]، فَنَالَ عُثْمَانُ بِذَلِكَ فَضْلَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَهُوَ فِي مَكَّةَ يُفَاوِضُ قُرَيْشًا.

وَعُرِفَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ بِبَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِذِكْرِهَا يُخْبِرُ عَنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَهْلِهَا.

وَقَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْقِتَالُ رَجَعَ عُثْمَانُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ الْمُرَاسَلَاتُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ حَتَّى تَمَّ الصُّلْحُ، وَكَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّ الْحَرْبِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي شَأْنِ هَذَا الصُّلْحِ سُورَةَ الْفَتْحِ، وَسَمَّاهُ فَتْحًا مُبِينًا.

كَانَ هَذَا الصُّلْحُ هُوَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَهُ وَرَضِيَهُ لِلْمُسْلِمِينَ، رَغْمَ أَنَّ بُنُودَ بَعْضِ الصُّلْحِ كَانَ ظَاهِرُهَا إِجْحَافًا بِالْمُسْلِمِينَ؛ وَذَلِكَ كَرُجُوعِهِمْ عَنْ عُمْرَتِهِمُ الَّتِي أَحْرَمُوا بِهَا، وَرَدِّ مَنْ أَسْلَمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَعَدَمِ رَدِّ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ

---

(١٣) أخرجه من حديث جابر ﷺ: البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٢٣)، ومسلم في الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

(١٤) أخرجه من حديث جابر ﷺ: مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان ﷺ (٢٤٩٦)، وأبو داود في السنة، باب في الخلفاء (٤٦٥٣)، والترمذي في المناقب، باب فضل من بايع تحت الشجرة (٣٨٦٠)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر البعث (٤٢٨١)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، وابن حبان (٤٨٠٢).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ (٣٤٩٥)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ (٣٧٦٠)، وأحمد (٢/ ١٢٠).

الْإِسْلَامِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، بَلْ حَتَّى صِيَاغَةُ الصُّلْحِ أَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُكْتَبَ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ وَجَدَ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ فِي صُدُورِهِمْ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ عُمَرُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ عُمَرُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**، قَالَ عُمَرُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: **بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ**؟ قَالَ عُمَرُ: لَا، قَالَ: **فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**، فَأَتَى عُمَرُ أَبَا بَكْرٍ وَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٦).

وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَا وَجَدَ عُمَرُ ﷺ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْحَرُوا هَدْيَهُمْ، وَيَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ لِلْحِلِّ مِنْ إِحْرَامِهِمْ، فَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سَلَمَةَ ﷺ بِأَنْ يَبْدَأَ هُوَ بِمَا يُرِيدُ، فَفَعَلَ، فَقَامُوا وَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا(١٧).

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ وَهُمْ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(١٨)، فَقَالَ عُمَرُ مُتَعَجِّبًا: «أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١٦) جاء ذلك في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم المخرج في حاشية (٣)، و(٤) وهذا اللفظ للبخاري.

(١٧) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٣)، و(٤).

(١٨) أخرجه من حديث زيد بن أسلم عن أبيه: مالك في الموطأ (١/٢٠٣)، ومن طريقه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٣).

نَعَمْ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ»[١٩]، وَفِي رِوَايَةٍ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»[٢٠]، وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَانْجَلَى عَنْهُمُ الْغَمُّ، وَأَدْرَكُوا قُصُورَهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ الْأَسْبَابِ وَالنَّتَائِجِ، وَأَيْقَنُوا بِأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي التَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا»[٢١].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١٩) هذه الزيادة للبخاري في الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠١١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢٠) هذه الرواية للحاكم من حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي فقال: لم يرو مسلم لمجمع شيئًا ولا لأبيه وهما ثقتان (٢/ ٤٥٩).

(٢١) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٣)، و(٤).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ قَبْلَ اتِّهَامِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، قَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ يَوْمَ صِفِّينَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ، رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ»(٢٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ حَدَثًا فَاصِلًا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، اسْتَرَاحَ الْمُسْلِمُونَ عَقِبَهُ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ وَأَذَاهَا، وَتَفَرَّغَ النَّبِيُّ ﷺ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُرَاسَلَةِ مُلُوكِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ كَمَا سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾؛ إِذْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَهَا قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ سَنَتَيْنِ مِنْ تَوْقِيعِهِ؛ فَكَانَ الْفَتْحُ الْعَظِيمُ لِمَكَّةَ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ.

كَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا الصُّلْحِ أَنْ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْوَاجًا؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ بَلَغَتْهُمْ؛ وَلِأَنَّهُمْ أَمِنُوا مِنْ غَضْبَةِ قُرَيْشٍ عَلَيْهِمْ؛ فَهِيَ مَا صَالَحَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ إِلَّا وَهِيَ تَعْتَرِفُ بِظُهُورِهِ، وَعُلُوِّ دِينِهِ، وَقُوَّةِ شَوْكَتِهِ، وَهَذَا نَصْرٌ عَظِيمٌ فِي هَذَا الصُّلْحِ مَا فَطِنَتْ لَهُ قُرَيْشٌ، وَلَا فَطِنَ لَهُ مَنِ اعْتَرَضَ عَلَى الصُّلْحِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَكْفِي دِلَالَةً عَلَى أَثَرِ هَذَا الصُّلْحِ فِي دُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْرَمَ الصُّلْحَ وَمَعَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَقَلَّ مِنْ سَنَتَيْنِ سَارَ إِلَى مَكَّةَ بِعَشَرَةِ آلَافِ مُسْلِمٍ، أَيْ: مَا يُقَارِبُ سَبْعَةَ أَضْعَافِهِمْ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا تَدْبِيرًا مِنَ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وَتَقْدِيرًا مِنَ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَبْرَمَ الصُّلْحَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُوَالِهِمْ أَوْ يَوَادَّهُمْ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ

---

(٢٢) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (١٩).

عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ لِأَجْلِهِمْ، وَلَا غَيَّرَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُ صَالَحَهُمْ عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ مُدَّةً زَمَنِيَّةً مُحَدَّدَةً، فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا الصُّلْحِ عَلَى انْتِقَاصِ شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، أَوِ التَّنَازُلِ عَنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ تَغْيِيرِهَا فَهُوَ مُخْطِئٌ، كَيْفَ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ يَعْرِضُ الصُّلْحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: «**مَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**» يَعْنِي: صَفْحَةَ عُنُقِهِ، فَهَلْ فِي هَذَا تَنَازُلٌ عَنِ الْمَبْدَإِ أَمْ تَأْكِيدٌ عَلَيْهِ؟!

بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا تَرَكَ إِغَاظَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّكْدِيرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَمَّ التَّوْقِيعُ عَلَى الصُّلْحِ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَ الْهَدْيَ لِلْحِلِّ مِنْ إِحْرَامِهِ نَحَرَ عَنْ نَفْسِهِ جَمَلًا كَانَ لِأَبِي جَهْلٍ غَنِيمَةً مِنْ غَنَائِمِ بَدْرٍ؛ لِيَغِيظَ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ[٢٣].

فَأَيْنَ هَذَا مِمَّنْ يَسْتَدِلُّ بِهَذَا الصُّلْحِ عَلَى التَّنَازُلِ عَنِ الدِّينِ، وَتَغْيِيرِ أَحْكَامِ الْمِلَّةِ، وَاتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؟! هَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ تَلْبِيسًا وَتَزْوِيرًا وَخِدَاعًا.

قَالَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَصِفُ مَنَافِعَ هَذَا الصُّلْحِ: «فَمَا فُتِحَ فِي

---

(٢٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: أحمد (١/ ٢٦١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٣٩)، برقم (٣٨١٦)، وأبو داود في المناسك، باب في الهدي (١٧٤٩)، وابن ماجه في المناسك، باب الهدي من الإناث والذكور (٣١٠٠)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٩٧)، والحاكم (١/ ٦٣٩).

وأخرجه مالك في الموطأ من حديث عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (١/ ٣٧٧).

قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٦١): «وقوله: «يغيظ بذلك المشركين» معناه: أن هذا الجمل كان معروفًا بأبي جهل فحازه النبي ﷺ في سلبه، فكان يغيظهم أن يروه في يده وصاحبه قتيل سليب» اهـ.

الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَآمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي هاتين السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»(٢٤).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَيُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَلَاءَنَا لَهُ وَلِدِينِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



(٢٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤٧)، وينظر: فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٤٨).

المواعظ والرقائق

٣٢٧- عظمة الله تعالى.

٣٢٨- تعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره.

٣٢٩- الرعد والبرق والغيث.

٣٣٠- الرياح آية من آيات الله تعالى.

٣٣١- إعصار جونو.

٣٣٢- حدثان كبيران.

٣٣٣- حقيقة الزمن (١) الزمن من خلق الله تعالىٰ.

٣٣٤- حقيقة الزمن (٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾.

٣٣٥- سنن الله تعالى في التدافع.

٣٣٦- الاستغفار (١) استغفار الأنبياء عليهم السلام.

٣٣٧- الاستغفـــار (٢) جلب الأرزاق ورفع العذاب.

٣٣٨- الاستغفار (٣) استغفار الملائكة للمؤمنين.

٣٢٧- عظمة الله تعالى

١٩/ ٤/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَظِيمِ؛ تَعَاظَمَ فِي ذَاتِهِ عَنِ الْإِحَاطَةِ وَالتَّكْيِيفِ، وَجَلَّ فِي صِفَاتِهِ عَنِ النَّقَائِصِ وَالتَّشْبِيهِ، وَتَعَالَى فِي مُلْكِهِ وَمَجْدِهِ فَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُشْكَرَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ فَهُوَ الَّذِي يُسْتَغْفَرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ، وَتَلَاشَتْ عَظَمَةُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النَّمل: ٢٥، ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**» صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى.

اتَّقُوا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَاتَّقُوا مَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠].

اتَّقُوا مَنْ ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى: اسْمُ الْعَظِيمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَى: صِفَةُ

الْعَظَمَةِ؛ فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَمْرِهِ، وَدَانَ لِحُكْمِهِ، وَالْكُلُّ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ، وَهُوَ ذُو الْعَظَمَةِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، فَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥].

وَكُرْسِيُّهُ الَّذِي وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِيهِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَعَظَمَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ كَعَظَمَةِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ(١)، وَاللهُ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ. ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّورى: ٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «يَعْنِي مِنْ ثِقَلِ الرَّحْمَنِ وَعَظَمَتِهِ تبَارَكَ وَتَعَالَى»(٢).

عَلِمَ مَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبُونَ عَظَمَتَهُ فَخَافُوهُ وَأَذْعَنُوا، وَعَظَّمُوهُ وَسَبَّحُوا، وَلَمْ يَسْتَنْكِفُوا عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَسْتَكْبِرُوا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٩، ٢٠].

وَهُمْ عليهم السلام مَاضُونَ فِي تَنْفِيذِ أَمْرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ وَجِلُونَ مُشْفِقُونَ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٧، ٢٨].

إِنَّ عُظَمَاءَ الدُّنْيَا مَهْمَا عَلَوْا وَبَلَغُوا فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا يُشَاهِدُونَ أَوْ يُنْقَلُ إِلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى خِدْمَةِ رَعَايَاهُمْ، وَمَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ مَمَالِكِهِمْ

---

(١) جاء مرفوعًا، وجاء موقوفًا، والمرفوع جاء من حديث أبي ذر رضي الله عنه عند: ابن أبي شيبة في العرش (٥٨)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٠) وأخرجه مطولًا ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وسنده ضعيف، وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٩)، وقال: «واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث ...» اهـ من السلسلة الصحيحة (١/ ١٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ٧).

أَكْثَرُ مِمَّا يَظْهَرُ لَهُمْ، وَقَدْ يَخْدَعُهُمْ بَعْضُ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَخَافُهُمْ رَعِيَّتُهُمْ فِي السِّرِّ وَلَوْ أَظْهَرُوا الْخُضُوعَ لَهُمْ فِي الْعَلَنِ. وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ كَلَّفَ الْمَلَائِكَةَ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ خَلْقِهِ وَلَوْ لَمْ يُنْقَلْ إِلَيْهِ؛ بَلْ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُخْبِرُونَهُ الْخَبَرَ وَهُوَ ﷻ أَعْلَمُ مِنْهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا، وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَالْخَلْقُ يَفِرُّونَ مِنْ عُظَمَاءِ الْخَلْقِ فَيَطْلُبُونَهُمْ وَلَا يَجِدُونَهُمْ، وَيُسَخِّرُونَ مَا يَمْلِكُونَ فَيَعْجَزُونَ فِي طَلَبِهِمْ، وَأَمَّا ذُو الْعَظَمَةِ فَلَا فِرَارَ لِلْخَلْقِ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا مَعَاذَ مِنْهُ إِلَّا بِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٨].

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْأَصْبَهَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْعَظَمَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَقُومُ لَهَا خَلْقٌ، وَاللهُ تَعَالَى خَلَقَ بَيْنَ الْخَلْقِ عَظَمَةً يُعَظِّمُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَظَّمُ لِمَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِفَضْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِعِلْمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِسُلْطَانٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِجَاهٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا يُعَظَّمُ بِمَعْنًى دُونَ مَعْنًى. وَاللهُ ﷻ يُعَظَّمُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ حَقَّ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَكْرَهُهَا اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَرْتَكِبَ مَعْصِيَةً لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ ﷻ؛ إِذْ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»(٣).

عَلِمَتِ الرُّسُلُ عليهم السلام عَظَمَةَ الْعَظِيمِ؛ فَنَصَبُوا فِي عِبَادَتِهِ، وَدَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى خَشْيَتِهِ، وَخَوَّفُوهُمْ مِنْ نِقْمَتِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عليه السلام قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نُوح: ١٣، ١٤].

---

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٣٠).

أَيْ: مَا لَكَمَ لَا تَرَوْنَ لِلَّهِ تَعَالَى عَظَمَةً(٤).

وَخَاتَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاطَبَهُ رَبُّهُ ﷻ فَقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٧٤]. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»(٥).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُكْثِرُ مِنْ تَعْظِيمِ رَبِّهِ ﷻ وَتَسْبِيحِهِ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَفِي كُلِّ أَحْيَانِهِ وَيَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(٦).

وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَيْئًا مِنْ عَظَمَةِ رَبِّهِ فِيمَا خَلَقَ فَقَالَ ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

فَإِذَا كَانَتْ صَفْحَةُ عُنُقِ هَذَا الْمَلَكِ الْكَرِيمِ بِهَذَا الْحَجْمِ فَمَا حَجْمُهُ كَامِلًا، وَهُوَ خَلْقٌ وَاحِدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ؟! فَكَيْفَ إِذًا بِمَخْلُوقَاتِهِ الْأُخْرَى؟!

---

(٤) جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، ينظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٧٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٧٢٩).

(٥) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، وابن ماجه في الإقامة، باب التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، والدارمي (١٣٠٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٥٣)، وأبو يعلى (١٧٣٨)، والروياني (٢٦٤)، والطبراني في الدعاء (٥٣٢)، والبيهقي (٢/ ٨٦)، وصححه ابن خزيمة (٦٠٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥١٩).

(٦) أخرجه من حديث عائشة ﷺ: البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع (٧٦١)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٧) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٤٧٦)، والطبراني في الأوسط (١٧٠٩)، وقال ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات (٤/ ٤١٥). وقال الحافظ في الفتح: وإسناده على شرط الصحيح (٨/ ٦٦٥). وصححه المناوي في التيسير كما في عون المعبود (١٣/ ٢٦-٢٧).

فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ!

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ، وَالْعَرْشُ عَلَى مَنْكِبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ أَيْنَ كُنْتَ وَأَيْنَ تَكُونُ**» رَوَاهُ أَبُو يُعْلَى(٨).

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ يَقْطُرُ دَمْعُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ مَلَكًا قَائِمًا يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، لَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ كَمَا يَنْبَغِي لَكَ**»(٩).

وَسُئِلَ بَعْضُ السَّلَفِ عَنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لِلسَّائِلِ: «مَا تَقُولُ فِيمَنْ لَهُ عَبْدٌ وَاحِدٌ يُسَمَّى جِبْرِيلُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، لَوْ نَشَرَ مِنْهَا جَنَاحَيْنِ لَسَتَرَ الْخَافِقَيْنِ»(١٠)، فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ!

وَالْمُؤْمِنُونَ بِرَبِّهِمُ، الْمُتَفَكِّرُونَ فِي خَلْقِهِ؛ يُدْرِكُونَ عَظَمَتَهُ، فَيُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ،

---

(٨) أخرجه أبو يعلى (٩/ ٦٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (١/ ٨٠)، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٤٣٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٧٤).

(٩) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢٦٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٥١٥)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٤٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٦)، وابن عساكر (٤٠/ ٦١)، وساقه ابن كثير في التفسير بسنده وقال: وهذا إسناد لا بأس به (٤/ ٤٤٧) لكن ضعفه الألباني بعباد بن منصور، فقال: وهذا إسناد ضعيف من أجل عباد بن منصور، قال الحافظ: «صدوق وكان يدلس، وتغير بأخرة» سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٩٨٨).

(١٠) شرح أسماء الله الحسنى للقشيري (٢٤٨).

وَيَخْضَعُونَ لِأُلُوهِيَّتِهِ، وَيُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِ، وَلَا يُشْرِكُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، لَا فِي مَحَبَّةٍ وَلَا رَجَاءٍ وَلَا خَوْفٍ، يَتَأَمَّلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، فَتَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، وَتَفِيضُ بِالدَّمْعِ عُيُونُهُمْ؛ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا وَإِخْلَاصًا، وَتَلْهَجُ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِهِ ﷻ وَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَحَمْدِهِ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٩١].

لَقَدْ دَلَّتْ دَلَائِلُ الْوُجُودِ عَلَى عَظَمَةِ رَبِّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْمَخْلُوقَاتُ، وَبِهَذَا الْخُضُوعِ انْتَظَمَ الْعَالَمُ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُ الْخَلْقِ، فَقُنُوتُ الْكُلِّ لَهُ ﷻ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [الْبَقَرَة: ١١٦، ١١٧]. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٣].

وَلَمَّا أَشْرَكَ بَعْضُ عِبَادِهِ بِهِ، وَادَّعَوْا لَهُ الْوَلَدَ؛ فَزِعَتِ الْمَوْجُودَاتُ مِنْ هَذَا الْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَأَوْشَكَ الْكَوْنُ أَنْ يَضْطَرِبَ وَيَخْتَلِطَ؛ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَفَرَقًا مِنْهُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ بَعْضُ خَلْقِهِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَسْكُنَ وَيَنْتَظِمَ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مَرْيَم: ٩٠-٩٢][11].

وَمِنْ عَظَمَتِهِ ﷻ: أَنَّهُ لَا قِيَامَ لِلْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٥، ٢٦].

وَمَا يَجْرِي فِي الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالٍ وَأَحْوَالٍ، وَأَوْصَافِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كُلُّ ذَلِكَ

---

(١١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٠).

مِنْ دَلَائِلِ عَظَمَةِ الْكَبِيرِ المُتَعَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى سَلْمَانُ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ! وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ المُوسَى فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ ﷻ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ!**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(١٢).

فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَظِيمٌ فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ، عَظِيمٌ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَظِيمٌ فِي افْتِقَارِ خَلْقِهِ إِلَيْهِ وَغِنَاهُ هُوَ عَنْهُمْ، عَظِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ شُؤُونَ خَلْقِهِ، عَظِيمٌ فِي الْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَكُلُّ عَظَمَةٍ فِي الْوُجُودِ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا؛ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَتَعَاظَمَ فِي مَجْدِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ عَلِمَ أَنَّهَا قَدْ جَمَعَتْ أَوْجُهَ الْعَظَمَةِ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كَلَامِهِ ﷻ، كَمَا اسْتَحَقَّتِ الْفَاتِحَةُ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ سُورَةٍ؛ لِأَنَّهَا دَلَّتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَظَمَةِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ..

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١٢) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٦٢٩).
وأخرجه موقوفًا على سلمان رضي الله عنه: ابن المبارك في الزهد (١٣٥٧)، والآجري في الشريعة (٨٩٥)، واللالكائي في السنة (٢٢٠٨)، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٧): ولكن الموقوف هو المشهور. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: وإسناده صحيح، وله حكم المرفوع، لأنه لا يقال من قبل الرأي (٩٤١).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢-٧]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

آمَنَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: عَظَمَةُ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ يُقِرُّ بِهَا كُلُّ مُسْلِمٍ، وَلَا يُمَارِي فِيهَا إِلَّا زِنْدِيقٌ أَوْ مُلْحِدٌ، وَقُدَمَاءُ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي الْبَشَرِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِعَظَمَتِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ، بَلْ يُشْرِكُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى.

وَالْإِيمَانُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ ثِمَارٌ يَجْنِيهَا الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﷻ، وَلَهُ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ مُعَظِّمٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ أَعْظَمِ ثِمَارِ الْإِيمَانِ بِعَظَمَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ وَتَعْظِيمِهِ ﷻ: فَرَحُ الْقَلْبِ وَسُرُورُهُ وَطُمَأْنِينَتُهُ؛ لِأَنَّهُ صَرَفَ التَّعْظِيمَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ، وَتِلْكَ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الَّتِي مَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ ﷻ وَصَفَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْأَوْصَافِ، وَأَقَرَّ بِأَفْعَالِهِ، وَنَسَبَ النِّعَمَ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣].

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى؛ خَضَعَ لِهَيْبَتِهِ، وَرَضِيَ بِقِسْمَتِهِ، وَلَمْ يَرْضَ بِدُونِهِ عِوَضًا، وَلَمْ يُنَازِعْ لَهُ اخْتِيَارًا، وَلَمْ يَرُدَّ لَهُ دِينًا ... وَتَحَمَّلَ فِي طَاعَتِهِ كُلَّ مَقْدُورٍ، وَبَذَلَ فِي مَرْضَاتِهِ كُلَّ مَيْسُورٍ.

وَكُلَّمَا قَوِيَ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ اسْتَصْغَرَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، وَاسْتَقَلَّ عَمَلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ؛ وَلِأَنَّ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ.

إِنَّ مَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَ شَرِيعَتَهُ، وَأَجَلَّ أَهْلَهَا وَحَمَلَتَهَا وَالْعَامِلِينَ بِهَا؛ إِذْ إِنَّ إِجْلَالَهُمْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَامْتَثَلَ أَوَامِرَهُ، وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ، وَعَظَّمَ شَعَائِرَهُ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الْحَجّ: ٣٠]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ وَكُلِّ مَحْبُوبٍ؛ لِأَنَّ مَا قَامَ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى قَضَى عَلَى كُلِّ الْمَحْبُوبَاتِ سِوَاهُ ﷻ، فَإِذَا دَعَتْهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ مَحْبُوبٍ يُحِبُّهُ، وَشَيْءٍ يَطْلُبُهُ،

رَدَعَهُ تَعْظِيمُهُ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّ الْبَشَرَ لَا يَزَالُونَ يَذْكُرُونَ مَنْ يُعَظِّمُونَ، فَكَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّهُ مُعَظِّمٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ لَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ إِلَّا لَمَمًا.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَلَمْ يَخَفْ عُظَمَاءَ الْخَلْقِ؛ فَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ ﷻ أَقْوَى وَأَمْكَنُ مِنَ المَخْلُوقِينَ، مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّمْ عَلَى كَلَامِهِ أَيَّ كَلَامٍ، بَلْ هُوَ مُسْتَدِيمُ النَّظَرِ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، تِلَاوَةً وَحِفْظًا وَتَدَبُّرًا وَعَمَلًا، يَتَأَمَّلُ بِقِرَاءَتِهِ صِفَاتِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَيَتَلَمَّسُ حِكَمَهُ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَيَلْحَظُ رَحْمَتَهُ وَعَدْلَهُ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَهْجُرُ كِتَابَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ حَتَّى يَقْرَأَ وِرْدَهُ، وَيُرَتِّلَ جُزْءَهُ، وَاضِعًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحُجُرَات: ١].

وَمَهْمَا عَمِلَ الْخَلْقُ مِنْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَتَعْظِيمِهِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَظَّمَ؛ فَحَقُّهُ ﷻ أَعْظَمُ، وَقَدْرُهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْعَوْنَ فِي ذَلِكَ جُهْدَهُمْ، وَيَبْذُلُونَ فِيهِ وُسْعَهُمْ؛ وَالْعَظِيمُ لَا يُخَيِّبُ سَعْيَهُمْ، وَلَا يُضِيِّعُ عَمَلَهُمْ، وَلَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ؛ رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَيَجْزِيهِمْ عَلَى قَلِيلِ سَعْيِهِمْ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ، وَأَجْزَلَ الْمَثُوبَةِ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

٣٢٨- تعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره (*)

٦/٦/١٤١٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ -مَعَ كَثْرَةِ الصَّوَارِفِ، وَالِانْغِمَاسِ فِي الْمَادِّيَّاتِ، وَتَنَوُّعِ الْمُغْرِيَاتِ- يَتَنَاسَى عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ، وَيَغْفُلُ عَنْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، فَلَا يَتَأَمَّلُ خَلْقَهُ، وَلَا يَتَدَبَّرُ كِتَابَهُ، وَيُقَصِّرُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

يَتَّاقَلُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَيُسَارِعُ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَدْ خَشَعَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ لِعَظَمَةِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذَلَّتْ لِقُدْرَتِهِ ﷻ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّ الشِّرْكَ فَزِعَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ

(*) هذه الخطبة مستفادة من مقالة نفيسة جدًّا، بعنوان: تعظيم الله تعالى وشعائره، لفضيلة الشيخ د.عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مجلة البيان، عدد (١٠١) ص (٨).

وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى»[(١)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[(٢)].

وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ قَالَ: «يَتَشَقَّقْنَ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ ﷻ»[(٣)].

وَكَانَ دَأْبُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْظِيمَ اللَّهِ ﷻ وَتَذْكِيرَ أَقْوَامِهِمْ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ، قَالَ نُوحٌ ﷺ مُخَاطِبًا قَوْمَهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «مَا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ للَّهِ تعالَى عَظَمَةً؟»[(٤)].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَا تَرَوْنَ للَّهِ تَعالَى عَظَمَةً»[(٥)].

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا لَكُمْ لَا تُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ عَظَمَتِهِ؟!»[(٦)].

لَقَدْ كَانَ نُوحٌ يُحَرِّكُ عُقُولَ قَوْمِهِ لِإِدْرَاكِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَضْرِبُ لَهُمُ الدَّلَائِلَ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] (٧٣٧٨)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (٢٨٠٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٧٤)، وأورده عنه وعن السدي: القرطبي في تفسيره (١٦/ ٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الزهد (١/ ٣٦٨).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٤).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٥).

إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٥-٢٠].

وَنَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»(٧).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَمَا فِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِمَّا وَصَفَ ذَلِكَ الْحَبْرُ؛ فَإِنَّ الَّذِي فِي الْآيَةِ أَبْلَغُ»(٨).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ»(٩).

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟**» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا**»،

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، بَابُ قَوْلِه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١] (٤٨١١)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٨) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٢).

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤١).

وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

وَسَارَ عَلَى نَهْجِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى صَحَابَةُ رَسُولِهِ ﷺ، فَعَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَعُمِرَتْ قُلُوبُهُمْ بِإِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْقِيرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِبَعْضِ أَصْحَابِ المِرَاءِ وَالْجَدَلِ: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا

---

(١٠) أخرجه من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤٧٢٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥)، وابن أبي شيبة في العرش (١١)، وابن خزيمة في التوحيد (١٧٥)، والآجري في الشريعة (٦٦٧)، والدارقطني في الصفات (٣٨)، وصححه ابن منده في التوحيد، فقال: وهذا الحديث رواه بكر بن سليمان وغيره، وهو إسناد صحيح متصل من رسم أبي عيسى والنسائي (٣/ ١٨٨) رقم (٦٤٤)، فتعقبه الألباني في السلسلة الضعيفة فقال: قلت: كلا؛ فإن ابن سليمان مدلس وقد عنعنه، وبكر بن سليمان الذي ذكر ابن منده أنه روى هذا الحديث هو من الرواة عن ابن إسحاق، فمدار الحديث عليه، ولم يصرح بسماعه فيه، فهو علة الحديث؛ ولذلك استغربه الحافظ ابن كثير في تفسيره لآية الكرسي (٢٦٣٩).

فائدة: قال ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: وهذا الحديث قد يطعن فيه بعض المشتغلين بالحديث؛ انتصارًا للجهمية وإن كان لا يفقه حقيقة قولهم، وما فيه من التعطيل، أو استبشاعًا لما فيه من ذكر الأطيط، كما فعل أبو القاسم المؤرخ، ويحتجون بأنه تفرد به محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن جبير، ثم يقول بعضهم: ولم يقل ابن إسحاق: حدثني، فيُحْتَمل أن يكون منقطعًا، وبعضهم يتعلل بكلام بعضهم في ابن إسحاق، مع أن هذا الحديث وأمثاله وفيما يشبهه في اللفظ والمعنى لم يزل متداولًا بين أهل العلم خالفًا عن سالف، ولم يزل سلف الأمة وأئمتها يَرْوون ذلك رواية مصدق به راد به على مَنْ خالفه من الجهمية، متلقين لذلك بالقبول، حتى قد رواه الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه في التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بأحاديث الثقات المتصلة الإسناد، رواه عن بندار، كما رواه الدارمي وأبو داود سواء، وكذلك رواه عن أبي موسى محمد بن المثنى بهذا الإسناد مثله سواء... إلى أن قال: وممن احتج به الحافظ أبو محمد بن حزم، في مسألة استدارة الأفلاك، مع أن أبا محمد هذا من أعلم الناس، لا يقلد غيره، ولا يحتج إلا بما تثبت عنده صحته. بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٠-٥٧١).

أَصَمَّتْهُمْ خَشْيَةُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ وَلَا بُكْمٍ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُصَمَاءُ، النُّبَلَاءُ الطُّلَقَاءُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ انْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حتَّى إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ؛ فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ؟»[١١].

وَجَاءَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ»[١٢].

وَسَارَ عَلَى تِلْكَ الطَّرِيقَةِ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ، قَادَهُمْ عِلْمُهُمْ وَمَعْرِفَتُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى إِلَى تَعْظِيمِهِ وَخَشْيَتِهِ، قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لِيُعَظِّمْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَقُولَ: أَخْزَى اللَّهُ الْكَلْبَ، وَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ كَذَا»[١٣].

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ مَشَايِخِنَا قَلَّ مَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا فِيمَا يَتَّصِلُ بِالطَّاعَةِ»[١٤].

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الشَّاشِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَعِيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ خَوْضِهِمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: «هَؤُلَاءِ يَتَمَنْدَلُونَ بِاللَّهِ ﷻ»[١٥].

---

(١١) أخرجه ابن أبي عاصم في الزهد (٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٥)، والبيهقي في الشعب (٥٠٠١)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٧٢١ و٧٢٢)، والآجري في الشريعة (١٢٩ و١٣٠).

(١٢) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٥٣٤)، وابن عساكر في تاريخه (٩/ ٣٦٧).

(١٣) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٢٤٨)، وفتاوى السبكي (٢/ ٥٧٨).

(١٤) نقله عنه القاضي عياض في الشفا (٢/ ٢٤٨).

(١٥) الشفا (٢/ ٢٤٨).

وَجَاءَ فِي سِيرَةِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَانْتَفَضَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَأَطْرَقَ، ثُمَّ قَالَ: «جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، مَا أَحْوَجَ النَّاسَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى مَنْ يَقُولُ لَهُمْ مِثْلَ هَذَا!»(١٦).

وَمِنْ أَرْوَعِ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي دَوَّنَهَا التَّارِيخُ عَنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِي تَعْظِيمِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى: مَا وَقَعَ لِلْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لَمَّا سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ الرَّاوِي يَحْكِي مَوْقِفَ الْإِمَامِ مَالِكٍ إِزَاءَ هَذَا السُّؤَالِ: فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ -أَيْ: غَضِبَ- مِنْ شَيْءٍ كَوَجْدِهِ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ -أَيْ: الْعَرَقُ- وَأَطْرَقَ الْقَوْمُ، فَجَعَلُوا يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِهِ فِيهِ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْ مَالِكٍ، فَقَالَ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ»(١٧).

فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- مَا أَصَابَ الْإِمَامَ مَالِكًا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَتَصَبُّبِ الْعَرَقِ؛ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنْكَارًا لِهَذَا السُّؤَالِ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَيَتَوَاصَلُ الْأَئِمَّةُ إِمَامًا بَعْدَ إِمَامٍ فِي ضَرْبِ الْأَمْثِلَةِ الْعَجِيبَةِ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَتِهِ، فَهَذَا إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَمُرُّ مَعَ ابْنِهِ، فَإِذَا قَاصٌّ يَقُصُّ عَلَى النَّاسِ حَدِيثَ النُّزُولِ، وَيَقُولُ: يَنْزِلُ اللهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا بِلَا زَوَالٍ وَلَا انْتِقَالٍ، وَلَا تَغَيُّرِ حَالٍ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ: «فَارْتَعَدَ أَبِي وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَلَزِمَ يَدِي، وَأَمْسَكْتُهُ حَتَّى سَكَنَ، ثُمَّ قَالَ: قِفْ بِنَا عَلَى هَذَا

---

(١٦) تاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٠)، وسيرة أبي حنيفة وصاحبيه للذهبي أيضًا (٢٣).

(١٧) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (١٠٤).

الْمُتَخَرِّصِ، فَلَمَّا حَاذَاهُ قَالَ: يَا هَذَا، رَسُولُ اللَّهِ أَغْيَرُ عَلَى رَبِّهِ ﷻ مِنْكَ، قُلْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»(١٨).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ مِنْ لَوَازِمِ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]؛ إِذْ مَحَلُّ هَذَا التَّعْظِيمِ هُوَ الْقَلْبُ، وَيَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ؛ فَتَأْتِي مَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى، وَتَنْتَهِي عَمَّا نَهَى عَنْهُ، فَتَعْظِيمُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِمَا، وَالِانْتِهَاءُ إِلَى مَعَالِمِهِمَا هُوَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ مَالِكٌ: «كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ إِلَّا كَانَ يَبْكِي»(١٩).

وَقَالَ مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ: «رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثِ النَّاسِ، وَيُنْشِدُ الشِّعْرَ وَيَضْحَكُ حَتَّى يَمِيلَ، فَإِذَا جَاءَ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْمُسْنَدِ كَلَحَ وَتَقَبَّضَ، وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ حَتَّى تَقُولَ: كَأَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي كَانَ»(٢٠).

وَذَكَرَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ أَنَّ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ إِذَا حَدَّثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ(٢١).

وَقَالَ بَكَّارُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «كَانَ ابْنُ عَوْنٍ إِذَا حَدَّثَ بِالْحَدِيثِ يَخْشَعُ عِنْدَهُ حَتَّى نَرْحَمَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ»(٢٢).

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا التَّعْظِيمُ وَالْخُشُوعُ عِنْدَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ

(١٨) عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني المقدسي (٤٦)، وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات لمرعي الكرمي (٦٢-٦٣)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٢٦١).

(١٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٧).

(٢٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦١٢).

(٢١) تاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ١٥٦).

(٢٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٩).

الْهَوَى، فَتَعْظِيمُهُمْ للَّهِ تَعَالَى جعَلَهُمْ يُعَظِّمُونَ مَا جَاءَ عَنْهُ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا بعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ رَسُولًا فَعَظَّمَهُ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّعْظِيمَ المَشْرُوعَ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْإِطْرَاءِ أَوِ التَّعَدِّي عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَعْظِيمُ حَدِيثِهِ إِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ للَّهِ تَعَالَى.

ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُبَارَكِ الْإِمَامَ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ فَقَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَدغَتْهُ عقْرَبٌ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وَمَالِكٌ يَتغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيصْفَرُّ وَلَا يَقْطَعُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ المَجْلِسِ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكَ عَجَبًا، فَقَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلَالًا لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٢٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ تَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ» اهـ(٢٤).

هَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْظِيمًا للَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَمَا جَاءَ عَنْهُمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ...

* * *

---

(٢٣) أخرجه البيهقي في المدخل للسنن الكبرى (٦٩٨)، وابن عساكر في تاريخه (٣٦/ ٣١٣).

(٢٤) أخرجه البيهقي في الشعب (١٥١٥)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٩٥٩).

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: مَعَ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَدْ خَلَقَ هَذَا الْكَوْنَ وَدَبَّرَهُ وَأَتْقَنَهُ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرَّمَ بَنِي آدَمَ بِعِبَادَتِهِ، وَشَرَّفَهُمْ بِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَالِاسْتِخْلَافِ فِيهَا، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ عُظْمَى، وَمِنَّةٌ كُبْرَى مِنَ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ ﷻ لِهَذَا الْبَشَرِ الضَّعِيفِ، فَهَلْ نَحْنُ أَهْلٌ لِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ؟!

قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْحَيَوَانَ، لَا سِيَّمَا ابْنَ آدَمَ؛ حَيْثُ أَبَاحَهُ الشِّرْكَ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ وَخَوْفِ الضَّرَرِ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. مَنْ قَدَّمَ حُرْمَةَ نَفْسِكَ عَلَى حُرْمَتِهِ حَتَّى أَبَاحَكَ أَنْ تَتَوَقَّى وَتُحَامِي عَنْ نَفْسِكَ بِذِكْرِهِ بِمَا لَا يَنْبَغِي لَهُ سُبْحَانَهُ، لَحَقِيقٌ أَنْ تُعَظِّمَ شَعَائِرَهُ، وَتُوَقِّرَ أَوَامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ. وَعَصَمَ عِرْضَكَ بِإِيجَابِ الْحَدِّ بِقَذْفِكَ، وَعَصَمَ مَالَكَ بِقَطْعِ مُسْلِمٍ فِي سَرِقَتِهِ، وَأَسْقَطَ شَطْرَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ مَشَقَّتِكَ، وَأَبَاحَكَ الْمَيْتَةَ سَدًّا لِرَمَقِكَ وَحِفْظًا لِصِحَّتِكَ، وَزَجَرَكَ عَنْ مَضَارِّكَ بِحَدٍّ عَاجِلٍ، وَوَعِيدٍ آجِلٍ، وَفَرَّقَ الْعَوَائِدَ لِأَجْلِكَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ إِلَيْكَ، أَيَحْسُنُ بِكَ مَعَ هَذَا الْإِكْرَامِ أَنْ تُرَى عَلَى مَا نَهَاكَ

مُنْهَمِكًا، وَعَمَّا أَمَرَكَ مُتَنَكِّبًا، وَعَنْ دَاعِيهِ مُعْرِضًا، وَلِسُنَّتِهِ هَاجِرًا، وَلِدَوَاعِي عَدُوِّكَ فِيهِ مُطِيعًا؟ يُعَظِّمُكَ وَهُوَ هُوَ، وَتُهْمِلُ أَمْرَهُ وَأَنْتَ أَنْتَ، حَطَّ رُتَبَ عِبَادِهِ لِأَجْلِكَ، وَأَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا لَكَ، مَا أَوْحَشَ مَا تَلَاعَبَ الشَّيْطَانُ بِالْإِنْسَانِ! بَيْنَا يَكُونُ بِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ سُجُودٌ لَهُ، تَتَرَامَى بِهِ الْأَحْوَالُ وَالْجَهَالَاتُ بِالمَبْدَإِ وَالمَآلِ، إِلَى أَنْ يُوجَدَ سَاجِدًا لِصُورَةٍ فِي حَجَرٍ، أَوْ لِشَمْسٍ أَوْ لِقَمَرٍ، أَوْ لِشَجَرَةٍ مِنَ الشَّجَرِ، مَا أَوْحَش زَوَالَ النِّعَمِ، وَتَغَيُّرَ الْأَحْوَالِ، وَالْحَوْرَ بَعْدَ الْكَوْرِ!» اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى(٢٥).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُعَظِّمٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَرْهِنَ عَلَى هَذَا التَّعْظِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فِي تَعْظِيمِهِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ، فِي الْخَوْفِ مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِلَا عِلْم. سُئِلَ عَطَاءٌ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ: أَلَا تَقُولُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَسْتَحِيي مِنَ اللَّهِ تَعَالى أَنْ يُدَانَ فِي الْأَرْضِ بِرَأْيِي»(٢٦).

يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ هَذَا التَّعْظِيمُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي تَعْظِيمِ كِتَابِهِ، وَتَعْظِيم سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَعْظِيم حَمَلَتِهِمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ، وَتَعْظِيم مَا عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا عَظَّمَ رَسُولُهُ ﷺ؛ حَتَّى نَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي تَعْظِيمِنَا لِلَّهِ ﷻ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَعَظِّمُوهُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

---

(٢٥) ذكره في كتابه الفنون، ونقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٩).

(٢٦) أخرجه الدارمي في السنن (١٠٧)، والهروي في ذم الكلام (٣٦٤)، وابن عساكر (٤٠/ ٣٩٧).

٣٢٩- الرعد والبرق والغيث (*)

٢٣/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: آيَاتُ الرَّبِّ -جَلَّ جَلَالُهُ- فِي خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ، وَحَاجَةُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ عَظِيمَةٌ.. لَا يَنْفَكُّ الْخَلْقُ عَنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.. وَلَوْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ عَنْهُمْ لَهَلَكُوا. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونُس: ٣١]، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ

(*) هذه الخطبة كانت بمناسبة أمطار غزيرة عمت مناطق المملكة في هذا الأسبوع صاحبها رعد وبرق كثير، فلله الحمد والشكر لا أحصي ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه.

رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وَمِنْ رِزْقِهِ ﷻ: إِنْزَالُ الْغَيْثِ الَّذِي يُغِيثُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْعِبَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ.

وَالْغَيْثُ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى إِثْبَاتِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٤].

إِنَّ مَا يَكُونُ فِي مُقَدِّمَاتِ الْغَيْثِ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ يَطْمَعُ فِيهِ الْبَشَرُ وَيَخَافُونَهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، يَخَافُونَ أَنْ يَكُونَ مُقَدِّمَةَ عَذَابٍ وَهَلَاكٍ، وَيَطْمَعُونَ فِي مَا يَحْوِيهِ مِنَ الْغَيْثِ وَالرَّحْمَةِ.

وَالرَّعْدُ وَالْبَرْقُ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يُسَخِّرُهُ اللَّهُ ﷻ حَيْثُ شَاءَ، فَيَجْعَلُهُ سَبَبَ رَحْمَةٍ أَوْ مُقَدِّمَةَ عَذَابٍ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرَّعد: ١٢-١٣]. قَالَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: وَيُعَظِّمُ اللَّهَ الرَّعْدُ وَيُمَجِّدُهُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ، وَيُنَزِّهُهُ مِمَّا أَضَافَ إِلَيْهِ أَهْلُ الشِّرْكِ بِهِ، وَمِمَّا وَصَفُوهُ بِهِ مِنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، تَعَالَى رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: **مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ**. فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ

(١) جامع البيان (١٣/ ١٢٤).

الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: **زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ**. قَالُوا: صَدَقْتَ»[٢].

وَجَاءَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الرَّعْدُ مَلَكٌ وَالْبَرْقُ مِخْرَاقٌ مِنْ حَدِيدٍ..»[٣]، وَجَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: «أَنَّ المَلَكَ يَزْجُرُ السَّحَابَ بِالمَخَارِيقِ يَسُوقُهُ حَيْثُ يُرِيدُ اللَّهُ ﷻ»[٤].

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ السَّحَابَ يَنْطِقُ وَيَضْحَكُ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ المَنْطِقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ**»[٥].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالمُرَادُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ نُطْقَهَا الرَّعْدُ

---

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الرعد، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢)، وأحمد (١/ ٢٧٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥) رقم (١٢٤٢٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٤٨٣)، والألباني في صحيح الترمذي (٢٤٩٢)، وعزاه الألباني في السلسلة الصحيحة لابن منده في التوحيد وأبي إسحاق الحربي في الغريب، وابن بشران في الأمالي، والضياء في المختارة، ونقل عن ابن منده قوله: «هذا إسناد متصل ورواته ثقات مشاهير أخرجه النسائي»، ثم قال الألباني بعد أن ذكر طرقه: «وجملة القول أن الحديث عندي حسن على أقل الدرجات» اهـ السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٩١-٤٩٣) رقم (١٨٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٥٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٦٧) وأخرجه الطبري في تفسيره مختصرًا بلفظ: «الرعد ملك» (١/ ١٥١).

(٤) أخرجه الطبري (١/ ١٥٢) عن علي وابن عباس وابن جريج ﷺ: أن البرق مخاريق من نار بأيدي الملائكة يزجرون بها السحاب، وعن علي ﷺ: «الرعد الملك، والبرق ضربة السحاب بمخراق من حديد»، وأخرجه عن علي أبو الشيخ في العظمة (٧٦٨).

(٥) أخرجه عن شريح بن غفار ﷺ: أحمد (٥/ ٤٣٥)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٧١)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٢٢٠)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧١٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٥).

وَضَحِكَهَا الْبَرْقُ»(٦)، ثُمَّ نَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «يَبْعَثُ اللَّهُ الْغَيْثَ فَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ مَضْحَكًا! وَلَا آنَسَ مِنْهُ مَنْطِقًا! فَضَحِكُهُ الْبَرْقُ وَمَنْطِقُهُ الرَّعْدُ»(٧).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ يَقُولُونَ: الرَّعْدُ مَلَكٌ يَزْجُرُ السَّحَابَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ زَجْرُهُ لَهَا تَسْبِيحًا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وَالرَّعْدُ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ إِلَّا بِذَلِكَ الصَّوْتِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَسْبِيحَهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أَيْ: سَبِّحِي مَعَهُ» اهـ(٨).

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَفْرَقَ إِذَا أَبْصَرَ تَغَيُّرَ الْأَحْوَالِ الْجَوِّيَّةِ خَشْيَةَ الْعَذَابِ، فَإِذَا بَانَ لَهُ أَنَّهُ رَحْمَةٌ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْغَيْثِ فَلْيَفْرَحْ بِالرَّحْمَةِ، وَلْيَشْكُرِ الْمُنْعِمَ عَلَى النِّعْمَةِ، وَلْيَلْحَظْ حِينَ نُزُولِ الْغَيْثِ، وَسَمَاعِ الرَّعْدِ، وَرُؤْيَةِ الْبَرْقِ: قُدْرَةَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَقُوَّتَهُ، وَكَثْرَةَ جُنْدِهِ، وَعَظِيمَ صُنْعِهِ، وَحُسْنَ تَدْبِيرِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَفْعَلُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَتْ عَائِشَةُ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا رَأَى مَخِيلَةَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ يَتَمَعَّرُ وَجْهُهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَرَحْمَةٌ هِيَ أَمْ عَذَابٌ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ(٩).

---

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٦).

(٧) لم أقف على هذا الأثر إلا عند ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٢/ ٥٠٦).

(٨) الاستذكار (٨/ ٥٨٨).

(٩) أخرجه بلفظ: «إذا رأى مخيلة في السماء» البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] (٣٠٣٤)، والترمذي=

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ، وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ**، فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ حَمِدَ اللهَ، وَإِنْ مَطَرَتْ قَالَ: **اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «أَخَذَتِ النَّاسَ الرِّيحُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَنْ حَوْلَهُ: مَا الرِّيحُ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا، فَبَلَغَنِي الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ؛ فَاسْتَحْثَثْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُخْبِرْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الرِّيحِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﷻ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ؛ فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا وَعُوذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١١).

= في التفسير، باب ومن سورة الأحقاف (٣٢٥٧)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر (٣٨٩١)، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٣١٨).

(١٠) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٥١)، وأحمد واللفظ له (٦/ ١٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٠)، وأورده في الصحيحة (٢٧٥٧).

(١١) أخرجه أبو داود مختصرًا في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٥)، وأحمد (٢/ ٢٦٧-٥١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠٦)، وأبو يعلى (٦١٤٢)، والطبراني في الدعاء (٩٧١)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣١٥)، وصححه ابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣١٨)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (٣٩١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: «حسن صحيح» (٩٦٩)، وأورده في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٧).

وقوله: «من روح الله» قال البغوي في شرح السنة: أي: من رحمته (٤/ ٣٩٣).

وقال شيخ الإسلام: لفظ «الروح» يقتضي اللطف؛ ولهذا تسمى الريح روحًا. وقال النبي ﷺ: **«الرِّيح من روح الله»** أي: من الروح التي خلقها الله، فإضافة الروح إلى الله =

وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- كَانُوا إِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ وَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ يَلْحَظُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَيُسَبِّحُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ ﵄: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ(١٢).

= إضافة ملك لا إضافة وصف؛ إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عينًا قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله:

فالأول: كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]، وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

والثاني: كقولنا: علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياة الله وأمر الله، لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علمًا، والمقدور قدرة، والمأمور به أمرًا، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقًا. كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ومن هذا الباب قوله: «**إِنَّ اللهَ خلقَ الرَّحْمَةَ يوم خلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً وأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَة وتِسْعِين رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ فَرَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ**»، ومنه قوله في الحديث الصحيح للجنة: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**»، كما قال للنار: «**أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِك مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا**» » مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٠-٢٩١).

(١٢) أخرجه موقوفًا على ابن الزبير ﵄: مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأحمد في الزهد (١/ ٢٠١)، وأبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٣٠٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، وصححه النووي في الأذكار (٥٦٦)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٦). =

وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»(١٣).

= وأخرجه مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٤)، وهو ضعيف في سنده رجل مبهم.
وجاء عن الأسود بن يزيد أنه كان يقوله إذا سمع الرعد، عند الطبري (١٣/ ١٢٤)، والطبراني في الدعاء (٩٨٤).
وجاء عن كعب أن من قال ذلك ثلاثًا عوفي من الصواعق، أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٨٤)، والطبراني في الدعاء (٩٨٥) وفي سنده سليمان بن علي لم يوثقه إلا ابن حبان.
وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا «أنَّ مَنْ قاله فأصابته فعليّ ديته» أخرجه سعيد ابن منصور (١١٦٥).
وجاء أيضًا في ذلك: حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: **اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك**» أخرجه أحمد (٢/ ١٠٠)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال: حديث غريب (٣٤٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأبو يعلى (٥٥٠٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٨) رقم (١٣٢٣٠)، وفي الدعاء (٩٨١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣١٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥٧٦٣)، وقواه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات (٤/ ٢٨٤)، لكن ضعفه النووي في الأذكار (١٦٤)، وكذا الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٤٢).
وجاء أيضًا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنها لا تصيب ذاكرًا**» أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٦٤) رقم (١١٣٧١) وأبو الشيخ في العظمة (٧٨٢)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد بيحيى بن كثير أبي النضر (١٠/ ١٣٦) ثم الألباني في ضعيف الجامع (٥٥١) وذكر له علة أخرى وهي عبدالكريم بن أبي المخارق البصري أبو أمية المعلم كما في السلسلة الضعيفة (٢٥٦٨).
وجاء أيضًا من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلًا: «أن قومًا سمعوا الرعد فكبروا فقال رسول الله ﷺ: **إذا سمعتم الرعد فسبحوا ولا تكبروا**» أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٣١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٥٢).

(١٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٧).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: «اللَّهُمَ لَا تُسْقِطْ عَلَيْنَا سَخَطَكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»(١٤).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «قُلْتُ لِابْنِ طَاوُسٍ: مَا كَانَ أَبُوكَ يَقُولُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ؟ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله: كَأَنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ(١٥).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٨، ٤٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

---

(١٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٧٤)، وفي المصنف (٢٠٠٠٦).

(١٥) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٠٠٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٥)، والطبراني في الدعاء (٩٨٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، والطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٤)، وصححه النووي في الأذكار (٥٦٧).

وأخرجه بنحوه الطبري بأسانيده عن ابن عباس وعلي والأسود بن يزيد رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون ذلك إذا سمعوا الرعد.

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ- عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا؛ فَيَحُلُّ الْخَوْفُ مَحَلَّ الْأَمْنِ، وَتَكُونُ الْقِلَّةُ بَعْدَ الْجِدَا، وَيُمْنَعُ الْعِبَادُ أَرْزَاقَ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الْأَرْضِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٧]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

وَاللهُ ﷻ لَا يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الْإِقْرَارَ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ، وَالِاعْتِرَافَ بِفَضْلِهِ عَلَى خَلْقِهِ، ثُمَّ الْعَمَلَ بِذَلِكَ مِنْ حَمْدِهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ: لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ المَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩)، والطيالسي (٢٥٧٦)، وعبد بن حميد (١١٤٢٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٧١٩)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: صدقة ضعفوه (٤/ ٢٨٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٧١)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٨٦٩٣)، لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٦٢).

وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية، ونقل قول الدارقطني: الحديث غير ثابت (١٣٢١).

وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة، وذكر له علتين:

الأولى: ضعف صدقة بن موسى الدقيقي، وهي العلة التي أعل بها الذهبي الحديث في تعقبه على الحاكم، وقد أورد الذهبي صدقة هذا في الضعفاء وفي الميزان، وقال: =

وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الْجِنّ: ١٦].

وَإِنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْغَيْثِ الْمُبَارَكِ: الِاعْتِرَافَ بِفَضْلِهِ، وَنِسْبَةَ أَفْعَالِهِ ﷻ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يُنْشِئُ السَّحَابَ، وَيَسُوقُهُ حَيْثُ شَاءَ، وَيَأْمُرُ الرَّعْدَ بِمَا شَاءَ، وَيُغِيثُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ.

وَنِسْبَةُ هَذِهِ الْحَوَادِثِ إِلَى غَيْرِهِ شِرْكٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ مُتَضَمِّنٌ لِلشِّرْكِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ: كَنِسْبَةِ الْأَمْطَارِ لِلْأَنْوَاءِ، أَوْ نَفْيِ أَنَّ الرَّعْدَ وَالْبَرْقَ تَسُوقُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَصْرِهِ فِي احْتِكَاكِ السُّحُبِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْعَلُهُ بَعْضُ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَوْ أَهْلُ الْفَلَكِ عِلَّةً، فَيَقْصُرُونَ هَذِهِ الْحَوَادِثَ عَلَى عِلَّاتِهَا بَعِيدًا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الْوَاقِعَة: ٨٢] أَيْ: وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ، أَوْ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ جَلَّ جَلَالُهُ(١٧).

= ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما؛ وقال أبو حاتم: يكتب حديثه وليس بالقوي.
الثانية: جهالة شتير بن نهار، قال الذهبي في الميزان (٣/ ٤٢٩) «نكرة»، وينظر: السلسلة الضعيفة (٨٨٣).

وأخرجه الدارقطني في العلل وقال: يرويه محمد بن واسع، واختلف عنه، فقال عبد السلام بن حرب: عن محمد بن واسع عن نهار العبدي عن أبي سعيد، ووهم فيه، وقال حماد بن سلمة عن محمد بن واسع عن شتير بن نهار عن أبي سعيد، وقيل: سمير بن نهار، والحديث غير ثابت» اهـ من العلل (١١/ ٣١٥) رقم (٢٣٠٦).

(١٧) قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في التمهيد (١٦/ ٢٩٢): «وتجعلون شكركم لله تعالى على ما رزقكم من المال أن تنسبوا ذلك الرزق إلى الكوكب».
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «وأما الرعد والبرق ففي الحديث المرفوع في الترمذي وغيره أنه سئل عن الرعد، قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله». وفي مكارم الأخلاق للخرائطي عن علي: «أنه سئل عن الرعد فقال: ملك، وسئل عن البرق فقال: مخاريق بأيدي =

. . . .

= الملائكة»، وفي رواية عنه: «مخاريق من حديد بيده» وروي في ذلك آثار كذلك، وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك كقول من يقول: إنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك؛ فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدًا، وكذلك الراعد يسمى رعدًا كما يسمى العادل عدلًا، والحركة توجب الصوت، والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان، وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة، وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحًا للرب، وآمرًا بمعروف، وناهيًا عن منكر، فالرعد إذًا صوت يزجر السحاب، وكذلك البرق قد قيل: لمعان الماء، أو لمعان النار، وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافي أن يكون اللامع مخراقًا بيد الملك؛ فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجي المطر، والملك يزجي السحاب كما يزجي السائق للمطي» اهـ من مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٦٣-٢٦٤).

وقال أيضًا: «لكن أهل العلم في إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله تعالى ومشيئته وربوبيته أصح عقلًا ودينًا، ومن أدخل في ذلك كل شيء حتى أفعال الحيوان فهو المصيب الموافق للسنة والعقل، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقررون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولدات، وكلاهما باطل كما بين في غير هذا الموضع؛ ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا في الحركات التي بين السماء والأرض مثل: حركة الرياح، والسحاب، والمطر، وحدوث المطر من الهواء الذي بين السماء والأرض تارة، ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة، كما ذكر ذلك أيضًا غير واحد من السلف وهو حق مشهود بالأبصار، كما يُخلق الولد في بطن أمه من المني، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى، فشهدوا بعض الأسباب المرئية، وجهلوا أكثر الأسباب، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله، وعما جاء في ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له الذي هو غاية حكمته؛ فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور.

ومعلوم أن المني جسم صغير مشابه لهذا الذي في الحيوان من الأعضاء المكسوة والمتنوعة في أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها، هل يقول عاقل: إن هذا مضاف إلى عَرَضٍ وصفةٍ حالٌ في جسمٍ صغير أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير؟ هذا مِنْ أَفْسَدِ =

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٨).

= الأمور في بديهة العقل، ومعلوم أنه لا نسبة إلى خلق هذا من هذا، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التي يصنعونها من المداد، مثل: الكتابة بالمداد، ونسيج الثياب من الغزل، وصنعة الأطعمة والبنيان من موادها، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعًا يستجهلونه ويستحمقونه؛ فالذي يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها أو ما في مادتها من الطبع أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر؟! وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار هو كذلك، وإضافة الزلزلة إلى احتقان البخار، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب، إلى غير ذلك من الأسباب التي ضلوا فيها ضلالًا مبينًا؛ حيث جعلوها هي العلة التامة فاعلًا، ولم يعرفوا الغاية، فجهلوا الوضعين. ونازعهم طوائف من الناس فيما يوجد من الأسباب والقوى التي في الطباع، وذلك أيضًا جهل. وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة، وأعظمها في الحق محبة الله وإرادته بعبادته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتخذ الناس من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلًا وشريكًا علم أن المحبة والإرادة أصل كل دين، سواء كان دينًا صالحًا أو دينًا فاسدًا؛ فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة» اهـ من قاعدة في المحبة (٣٠-٣٢).

(١٨) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] (٩٩١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧١). قال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨): «والنوء في كلام العرب واحد أنواء: النجوم، يقال: ناء النجم ينوء، أي: نهض ينهض للطلوع، وقد يكون أن يميل للمغيب، ومما قيل: ناوأت فلانًا بالعداوة، أي: ناهضته، ومنه قولهم: الحمل ينوء بالدابة، =

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ، يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ، فَيَقُولُونَ: الْكَوْكَبُ كَذَا وَكَذَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ** ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٠).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ أَمْسَكَ اللَّهُ الْقَطْرَ عَنِ النَّاسِ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ لَأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ بِهِ كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ الْمِجْدَحِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢١)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَقَالَ: الْمِجْدَحُ هُوَ الدَّبَرَانُ،

= أي: يميل بها، وكل ناهض بثقل وإبطاء فقد ناء.
والأنواء على الحقيقة: النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر منزلًا، ويخفى أربعة عشر، فكلما غاب منها منزل بالمغرب طلع رقيبه من المشرق، فليس يُعْدَم منها أبدًا أربعَةَ عشر للناظرين في السماء، وإذا لم ينزل مع النوء ماء قيل: خوى النجم، وأخوى، وخوى النوء، وأخلف.
وأما العرب فكانت تضيف المطر إلى النوء، وهذا عندهم معروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم، فلما جاء الإسلام نهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وأدبهم، وعرفهم ما يقولون عند نزول الماء؛ وذلك أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، ونحو هذا من الإيمان والتسليم لما نطق به القرآن» اهـ.

(١٩) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٢)، وابن منده في الإيمان (٥٠٧)، والبيهقي (٣/ ٣٥٨).

(٢٠) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧٣)، والبيهقي (٣/ ٣٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٩٨) رقم (١٢٨٨٢).

(٢١) أخرجه الحميدي (٧٥١)، وأحمد (٣/ ٧)، والنسائي في الاستسقاء، باب كراهية الاستمطار بالكوكب (٣/ ١٦٥)، والدارمي (٢/ ٣١٤)، وعبد الرزاق في تفسيره =

وَهُوَ: المَنْزِلُ الرَّابِعُ مِنْ مَنَازِلِ الْقَمَرِ(٢٢).

= (٣/ ٢٧٤)، وأبو يعلى (١٣١٢)، والطحاوي في شرح المشكل (١٣١٢)، والطبراني في الدعاء (٩٦١)، وصححه ابن حبان (٦١٣٠).
وقد جاء في راويات الحميدي وأحمد وابن حبان: «**سبع سنين**» وفي روايتي الطحاوي وأبي يعلى: «**عشر سنين**» وفي رواية النسائي: «**خمس سنين**».

(٢٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٣/ ٥٠٢).
وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٩٢): «وأما المجدح فإن الخليل زعم أنه نجم كانت العرب تزعم أنها تمطر به، قال: ويقال: أرسل السماءَ مجاديحُ الغيث، قال: ويقال: مِجدح ومُجدح بالكسر والضم» اه.
وقال الحافظ في الفتح(٢/ ٥٢٤): «المجدح بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة، ويقال بضم أوله هو: الدَّبَران بفتح المهملة والموحدة بعدها، وقيل: سمي بذلك لاستدباره الثريا، وهو نجم أحمر صغير منير، قال ابن قتيبة: كل النجوم المذكورة لها نوء، غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض، ونوء الدبران غير محمود عندهم. انتهى»اهـ.
وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ١٦٥): «المجدح -بكسر الميم- هو نجم من النجوم الدالة على المطر عند العرب».
أقوال العلماء في حكم نسبة المطر للأنواء:
يظهر من الأحاديث المذكورة في الخطبة أن ذلك كفر؛ ولكنه قد يكون كفرًا أكبر، وقد يكون كفرًا أصغر؛ فإذا اعتقد أن الأنواء هي المؤثرة في الأجواء والأمطار من دون الله ﷻ فهذا كفر أكبر؛ لأن فيه تعطيل قدرة الله ﷻ وإنكارها، وهذا شرك في الربوبية.
وإذا اعتقد أن الله ﷻ هو الفاعل لذلك لكنه نسب ذلك إلى الأنواء على اعتبار اقتران المطر بها؛ فهذا سوء أدب مع الله ﷻ ينافي حمده وشكره، وفيه نسبة الفضل إلى غير أهله؛ ولذلك كان كفر نعمة، وهو ذريعة إلى الكفر الأكبر.
وأقوال العلماء في بيان ذلك متظاهرة:
قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: «وأرى معنى قوله -والله أعلم- أن من قال: «مطرنا بفضل الله ورحمته» فذلك إيمان بالله ﷻ، وأما من قال: «مطرنا بنوء كذا وكذا» على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة **المطر** إلى أنه أمطره نوء كذا؛ فذلك كفر؛ كما قال رسول الله ﷺ؛ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ولا يمطر، ولا يصنع شيئًا. =

. . . .

= فأما من قال: «مطرنا بنوء كذا» على معنى: مطرنا بوقت كذا؛ فإنما ذلك كقوله: مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفرًا، وغيره من الكلام أحب إليّ منه.
وقال أيضًا: أحب أن يقول: «مطرنا في وقت كذا» وقد روي عن عمر أنه قال يوم الجمعة وهو على المنبر: «كم بقي من نوء الثريا؟ فقام العباس فقال: لم يبق منه شيء إلا العواء، فدعا ودعا الناس حتى نزل عن المنبر، فمطر مطرًا حيي الناس منه» وقول عمر هذا يبين ما وصفت؛ لأنه إنما أراد: كم بقي من وقت الثريا؛ ليعرفهم بأن الله ﷻ قدَّر الأمطار في أوقات، فيما جربوا، كما علموا أنه قدَّر الحر والبرد بما جربوا في أوقات، وبلغني أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا أصبح وقد مطر الناس قال: مطرنا بنوء الفتح ثم قرأ: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وبلغني أن عمر بن الخطاب أوجف بشيخ من بني تميم غدًا متكئًا على عكازه وقد مطر الناس فقال: «أجاد ما أقرى المجدح البارحة» فأنكر عمر قوله: «أجاد ما أقرى المجدح»؛ لإضافة المطر إلى المجدح» اهـ من الأم (١/ ٢٥٢).
وقد وجّه الشيخ سليمان بن عبد الله كلام الشافعي هذا في تيسير العزيز الحميد (٤٠٣) فقال رحمه الله تعالى: «قد يقال: إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه، أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز؛ لما تقدم أن معنى الحديث: هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظًا، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن كثيرًا من النعم قد تجرُّ الإنسان إلى شرٍّ كالذين قالوا: «مطرنا بنوء كذا، بسبب نزول النعمة» اهـ.
وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٨٤-٢٨٥): «وفي لفظ هذا الحديث ما يدل على أن الكفر ههنا كفر النعم لا كفر بالله».
وقال أيضًا (١٦/ ٢٨٦-٢٨٧): «وأما قوله حاكيًا عن الله ﷻ: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين:
أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله ﷻ؛ فذلك كافر كفرًا صريحًا يجب استتابته عليه وقتله؛ لنبذه الإسلام ورده القرآن.
والوجه الآخر: أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله، =

. . . .

= وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهًا مباحًا؛ فإن فيه أيضًا كفرًا بنعمة الله ﷻ، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء. وكثيرًا ما يخوى النوء، فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله لا من النوء، وكذلك كان أبو هريرة يقول: إذا أصبح وقد مطر: «مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مطرنا بفضل الله وبرحمته»، ومن هذا قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: «يا عم رسول الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر، ويؤمل، فسأله عنه: أَخَرَجَ أم بقيت منه بقية؟ وروي عن الحسن البصري أنه سمع رجلًا يقول: «طلع سهيل وبرد الليل» فكره ذلك وقال: «إن سهيلًا لم يأت قط بحر ولا برد».

وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: «ما أخلقها للمطر!» وهذا من قول مالك مع روايته «إذا أنشأت بحرية» تدل على أن القوم احتاطوا، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من زمن الجاهلية في قولهم: «مطرنا بنوء كذا وكذا» على ما فسرناه، والله أعلم» اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣): «وهذا كثير جدًّا في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشركه به، قال بعض السلف هو: كقوله: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا؛ ولهذا قرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها، أولها شكر، وأوسطها توحيد، وفي الخطب المشروعة لا بد فيها من تحميد وتوحيد، وهذان هما ركن في كل خطاب، ثم بعد ذلك يذكر المتكلم من مقصوده ما يناسب من الأمر والنهي والترغيب والترهيب وغير ذلك» اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٢٤): «وكأن ذلك ورد في الحديث تنبيهًا على مبالغتهم في نسبة المطر إلى النوء ولو لم يكن محمودًا، أو اتفق وقوع ذلك المطر في ذلك الوقت إن كانت القصة واحدة، وفي مغازي الواقدي أن الذي قال في ذلك الوقت: «مطرنا بنوء الشعرى» هو عبد الله بن أبي المعروف بابن سلول أخرجه من حديث أبي قتادة».

وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ١٦٥): «وهذا فيمن يرى أن الكوكب هو المؤثر، وأما من يراه علامة، ويرى المؤثر هو الله تعالى فليس من الكافرين، لكن مع ذلك الاحتراز عن هذه الكلمة أولى».

وقال الزرقاني في شرحه على الموطأ (١/ ٥٤٨): «فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» يحتمل =

. . . .

= أن المراد كفر الشرك بقرينة مقابلته بالإيمان، ولأحمد عن معاوية الليثي مرفوعًا: «يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقًا من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مطرنا بنوء كذا»، ويحتمل أن المراد كفر النعمة، ويرشد إليه قوله في رواية معمر وسفيان عن صالح عند النسائي والإسماعيلي وغيرهما: «فأما من حمدني على سقياي وأثنى عليَّ فذاك آمن بي»، وقال في آخره: «وكفر بي أو كفر نعمتي» اهـ.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (٤٠٢-٤٠٣): «قوله: مؤمن بي وكافر» المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله تعالى وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر، المنزل له، بدليل قوله في الحديث: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته إلى آخره»، فلو كان المراد هو الأكبر لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية؛ ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سببًا، وفي رواية: «فأما من حمدني على سقياي وأثنى علي فذلك من آمن بي» فلم يقل: فأما من قال: إني المنزل للمطر فذلك من آمن بي؛ لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك، فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله، وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال في آخره: «وكفر بي أو كفر نعمتي»، وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم: «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين»، وله من حديث ابن عباس: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر» الحديث، وفي حديث معاوية الليثي مرفوعًا: «يكون الناس مجدبين، فينزل الله تبارك وتعالى عليهم رزقًا من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مطرنا بنوء كذا» رواه أحمد، فبيّن الكفر والشرك المراد هنا بأنه نسبة ذلك إلى غيره تعالى بأن يقال: «مطرنا بنوء كذا»، قال ابن قتيبة: كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء، إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفرًا؛ فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعًا في ذلك فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه، وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين» اهـ.

وقال الدهلوي في رسالة التوحيد (١٣٠): «ومغزى الحديث: أن من اعتقد للنجوم تأثيرًا في العالم وما يحدث فيه من الحوادث كان عند الله ممن كفر به وعبد النجوم، ومن عزا كل ما يحدث في العالم من خير وشر ومن حوادث وأمور إلى الله وحده، كان عند الله من عباده المقبولين الذين تبرءوا من عبادة النجوم والكواكب». اهـ

وَمِنْ شُكْرِهِ سُبْحَانَهُ تَسْخِيرُ هَذِهِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ فِي طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَعَدَمُ الْفَرَحِ بِهَا فَرَحًا يَسْتَخِفُّ صَاحِبَهُ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

وَمِنْ دَلَائِلِ الشُّكْرِ: اجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْبَرَارِي وَالْمُنْتَزَهَاتِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَإِتْبَاعُهَا بِالْمَنْدُوبَاتِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ اعْتِرَافًا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، وَطَمَعًا فِي إِيصَالِ الْمَزِيدِ إِلَيْنَا.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي مَا رَزَقَنَا، وَأَنْ يُعِينَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ .. آمِينَ آمِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ..



٣٣٠- الرياح آية من آيات الله تعالى

٢٥/ ٣/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ فَأَتْقَنَ خَلْقَهُمْ، وَدَبَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ تَدْبِيرَهُمْ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَاعْتِرَافًا بِأُلُوهِيَّتِهِ، وَإِرْغَامًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ ﷻ، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، يَخْشَى العَذَابَ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ آيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ عَظِيمَةٌ، يَرَاهَا العِبَادُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّهَا دَلَائِلُ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَعَجِيبِ صُنْعِهِ وَتَقْدِيرِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وَذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَشُكْرَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَالحَذَرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: للَّهِ ﷻ فِي خَلْقِهِ آيَاتٌ بَاهِرَةٌ، وَمُعْجِزَاتٌ قَاهِرَةٌ، تُبْهِرُ العُقُولَ، وَتَمْلِكُ النُّفُوسَ، وَتُخَوِّفُ الْعِبَادَ، وَتَقْهَرُ الْأَقْوِيَاءَ. وَلَهُ ﷻ جُنْدٌ فِي الأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، مِنَ المَلَائِكَةِ وَالإِنْسِ وَالجِنِّ، وَمِنَ الحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ، وَمِنَ الزَّوَاحِفِ وَالحَشَرَاتِ وَالطُّفَيْلِيَّاتِ وَالجَمَادَاتِ، وَمِنَ الْكَوَاكِبِ وَالأَنْجُمِ وَالنَّيَازِكِ، وَمِنَ الْبِحَارِ وَالرِّيَاحِ وَالزَّلَازِلِ وَالأَعَاصِيرِ وَالْبَرَاكِينِ وَالأَوْبِئَةِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي الأَرْضِ وَالأَجْوَاءِ، لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يُدْرِكُ قُوَّتَهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ ﷻ، يُسَلِّطُهَا عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ فَلَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ حَتَّى تُنْهِيَ مُهِمَّتَهَا، وَتُؤَدِّيَ وَظِيفَتَهَا ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وَالرِّيَاحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَرَاهَا الْبَشَرُ، وَلَكِنَّهُمْ يُحِسُّونَهَا، وَيَرَوْنَ أَثَرَهَا، تَكُونُ رَحْمَةً وَتَكُونُ عَذَابًا بِأَمْرِ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَوُجُوبِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ: ذِكْرُ الرِّيَاحِ وَتَدْبِيرِهَا ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وَالرِّيحُ آيَةٌ فِي حَالِ كَوْنِهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

كَمَا أَنَّ الرِّيحَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالِ كَوْنِهَا عَذَابًا؛ فَقَدْ عَدَّدَ اللَّهُ ﷻ جُمْلَةً مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَذَكَرَ مِنْهَا آيَةَ إِهْلَاكِ عَادٍ بِالرِّيحِ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وَلِلرِّيَاحِ مَنَافِعُ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ، وَبِفَقْدِهَا تَمُوتُ الأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ فَالرِّيَاحُ هِيَ سَبَبُ الْغَيْثِ الْمُبَارَكِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الْبُشْرَى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]. وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الرُّوم: ٤٨].

فَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِهَا لِمَا يَعْقُبُهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْغَيْثِ الْمُبَارَكِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ حَيَاتُهُمْ، وَحَيَاةُ أَنْعَامِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَزَرْعِهِمْ، وَنَمَاءُ أَمْوَالِهِمْ، وَرَغَدُ عَيْشِهِمْ.

وَالرِّيَاحُ هِيَ الَّتِي تَسُوقُ السُّحُبَ فِي السَّمَاءِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ إِلَى حَيْثُ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَسْقِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٩].

وَالرِّيَاحُ تُلَقِّحُ السُّحُبَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْزِلُ الْمَاءُ[1]، وَتُلَقِّحُ الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ

---

(١) يذكر الفلكيون أن تلقيح السحب على أنواع ثلاثة:
١- تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة مما يزيد عملية التكاثف، وبالتالي نزول المطر.
٢- تلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة، ويحدث تفريغ وشرر كهربائي، فيكون المطر مصحوبًا بالبرق والرعد، وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفريغ. =

فَيَهْتَزُّ خَضِرًا مُثْمِرًا، وَتَنْقُلُ الْبُذُورَ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ حَتَّى إِذَا سُقِيَتِ اكْتَسَتْ خُضْرَةً وَرَبِيعًا، وَمَهْمَا عَمِلَ الْبَشَرُ وَبِكُلِّ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ فَهُمْ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَزْرَعُوا صَحَارَى تَمْتَدُّ مَدَّ النَّاظِرَيْنِ بِسَاطًا أَخْضَرَ بِأَنْوَاعِ النَّبَاتِ الطَّيِّبِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَلَكِنَّ الرِّيَاحَ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُثِيرَةَ فَتَقُمُّ الأَرْضَ قَمًّا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاشِئَةَ فَتُنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤَلِّفَةَ فَتُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى اللَّوَاقِحَ فَتُلَقِّحُ السَّحَابَ»(٢).

وَالرِّيَاحُ سَبَبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لِدَوْرَةِ الْمِيَاهِ حَوْلَ الأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَسِنَ الْمَاءُ، وَلَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ الأَحْيَاءُ، بَلْ إِنَّ كُلَّ الأَحْيَاءِ عَلَى الأَرْضِ لَوْ فُقِدَتِ الرِّيَاحُ لَهَلَكَتْ، يَقُولُ كَعْبُ الأَحْبَارِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْ حُبِسَتِ الرِّيحُ عَنِ النَّاسِ ثَلَاثًا لَأَنْتَنَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»(٣).

= ٣- التلقيح الثالث -وهو أهم أنواع التلقيح جميعًا- هو أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر؛ إذ إن نويات التكاثف -وهي النويات التي يتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطًا من الماء نامية داخل السحب- هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هو أملاح البحار، وما تذروه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للإمطار، وهذه هي فكرة المطر الصناعي عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق وأن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف يتكاثف عليها المطر ويهطل، أي: أن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب وتلقيحها ونزول المطر، ولذلك يربط القرآن بين الرياح والمطر في آيات كثيرة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢١) و(١٨/ ١٣٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٣٨). وعبيد بن عمير من المخضرمين ولد في زمن النبي ﷺ ولم يره على الصحيح من أقوال أهل السير، وذكر بعضهم أن له صحبة.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (٢٤٤).

وَالرِّيَاحُ فِيهَا مَا لَا يُحْصَى مِنْ مَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَتَسِيرُ بِالسُّحُبِ الَّتِي فِيهَا حَيَاةُ الأَرْضِ، وَتَذْرُو البُذُورَ، وَفِيهَا أَرْزَاقُ الْعِبَادِ وَالحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ، وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ١، ٢]، فَالذَّارِيَاتُ هِيَ الرِّيَاحُ، وَالحَامِلَاتُ هِيَ السُّحُبُ، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ [المرسلات: ١، ٢][٤]، وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لمَّا وَصَفَ جُودَ النَّبِيِّ ﷺ اسْتَعَارَ الرِّيَاحَ المُرْسَلَةَ فِي وَصْفِهِ فَقَالَ رضي الله عنه «فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

وَمَا هَذَا الوَصْفُ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما إِلَّا لِأَنَّ الرِّيحَ يَنْتِجُ عَنْهَا خَيْرٌ عَظِيمٌ لِلأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَالرِّيَاحُ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يُسَخِّرُهَا سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ سَاكِنَةً طَيِّبَةً، تَجْرِي بِهَا فُلْكُهُمْ فِي البِحَارِ حَيْثُ يُرِيدُونَ ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ [الشُّورى: ٣٣].

وَفِي لَحْظَةٍ يَأْمُرُهَا اللَّهُ ﷻ، فَتَتَحَرَّكُ بَعْدَ السُّكُونِ، وَتَتَحَوَّلُ مِنْ رِيحٍ طَيِّبَةٍ

---

(٤) المرسلات مختلف فيها على أقوال:
الأول: أنها الرياح، وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة، ورجحه ابن كثير (٤/ ٤٦٠).
الثاني: أنها الملائكة، وهو قول أبي هريرة والربيع بن أنس والفراء، واقتصر عليه السعدي في تفسيره (٩٠٣).
الثالث: أنها الرسل بما يعرفون به من المعجزات، وهو قول أبي صالح.
الرابع: أنها الملائكة والريح، وهو قول أبي عبيدة، ورجحه الطبري (٢٩/ ٢٢٩) وينظر: زاد المسير (٨/ ٤٤٤).

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٣٦١)، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨).

هَادِئَةٍ إِلَى عَاصِفَةٍ تَكَادُ تُغْرِقُهُمْ، فَلَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وَلِذَلِكَ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى العِبَادَ مِنَ الكُفْرِ بِهِ، وَأَمْنِ مَكْرِهِ، وَهَدَّدَهُمْ بِرِيحٍ تُغْرِقُهُمْ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّيحُ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَخَّرَهَا لِبَعْضِ رُسُلِهِ؛ كَمَا سَخَّرَهَا لِسُلَيْمَانَ عليه السلام ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص: ٣٦].

وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالرِّيحِ هُودًا عليه السلام، وَأَهْلَكَ بِهَا عَادًا لَمَّا كَذَّبُوا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]، وَكَانَ مِنْ شِدَّةِ هَذِهِ الرِّيحِ أَنَّهَا تَرْفَعُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تُلْقِيهِ صَرِيعًا عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تُثْلَغَ رَأْسُهُ(٦)، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ فِعْلِهَا بِهِمْ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى العَافِيَةَ مِنْ سَخَطِهِ وَنِقْمَتِهِ.

لَقَدْ فَرِحَتْ عَادٌ بِهَا فِي بَادِئِ الأَمْرِ، يَظُنُّونَ أَنَّهَا مِنَ المُبَشِّرَاتِ فَإِذَا هِيَ مِنَ المُهْلِكَاتِ، وَانْقَلَبَ فَرَحُهُمْ بِهَا إِلَى حُزْنٍ وَعَذَابٍ، فَأَخَذَتْهُمْ وَصَرَعَتْهُمْ، وَدَمَّرَتْ حَضَارَتَهُمْ، وَأَبَادَتْ خَضْرَاءَهُمْ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا

(٦) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٥).

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وَحَاقَتْ بِهِمْ أَيَّامًا عَدَدًا، لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهَا دَفْعًا، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْهَا مَهْرَبًا، وَمَا عَجَزَتِ الرِّيحُ عَنْهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ فَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْهَا، وَأَلْقَتْهُمْ صَرْعَى، فَمَا أَقْوَاهَا مِنْ رِيحٍ! وَمَا أَشَدَّهَا عَلَى الْمُكَذِّبِينَ! وَمَا أَطْوَعَهَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ! ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وَنُصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرِّيحِ فِي أَعْسَرِ مَوْقِفٍ أَحَاطَ بِالْمُسْلِمِينَ، لَمَّا حَاصَرَتْ جُمُوعُ الْمُشْرِكِينَ الْمَدِينَةَ فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ، فَفَرَّقَتِ الرِّيحُ جُمُوعَهُمْ، وَفَكَّتْ تَحَالُفَهُمْ، وَصَدَعَتْ أَحْزَابَهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. قَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سَلَّطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَكَفَأَتْ قُدُورَهُمْ، وَنَزَعَتْ خِيَامَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ»(٧).

وَهِيَ رِيحُ الصَّبَا، كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨). وَالصَّبَا مَهَبُّهَا شَرْقِيٌّ، وَالدَّبُورُ مَهَبُّهَا غَرْبِيٌّ(٩).

وَرَأَيْنَا قَبْلَ سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ مَا فَعَلَتِ الرِّيحُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تُسُونَامِي وَكَاتْرِينَا(١٠)، حِينَ حَرَّكَتِ الْبَحْرَ فَأَخْرَجَتْ أَمْوَاجَهُ الْعَاتِيَةَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ لِتَضْرِبَ

---

(٧) تفسير مجاهد (٢/ ٥١٥)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٤٠٢).

(٨) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا**» (٩٨٨)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

(٩) ينظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ١٩٨)، وفتح الباري (٦/ ٣٠١).

(١٠) ينظر خطبة: حدثان كبيران رقم الخطبة: (٣٣٢).

مُدُنًا سَاحِلِيَّةً فَتُغْرِقُهَا، وَتَطْمُرَ جُزُرًا كَامِلَةً، وَتُهْلِكَ بَشَرًا كَثِيرًا، وَتُتْلِفَ مَالًا كَبِيرًا، وَتُخَلِّفَ خَرَابًا عَظِيمًا.

بُلْدَانٌ كَانَتْ قَبْلَ الرِّيحِ عَامِرَةً مُتَحَرِّكَةً، تَدِبُّ الحَيَاةُ فِي أَرْجَائِهَا، وَيَأْتِيهَا الْبَشَرُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ لِجَمَالِ أَرْضِهَا، وَطِيبِ أَجْوَائِهَا، وَحُسْنِ سَوَاحِلِهَا، وَفِي غَمْضَةٍ وَإِفَاقَتِهَا أَضْحَتْ مُوحِشَةً يَبَابًا، لَا سَاكِنَ فِيهَا وَلَا زَائِرَ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الرِّيحَ لَهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَهَا عَلَيْهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ أَمَرَهَا فَفَعَلَتْ فِعْلَهَا، فَأَهْلَكَتْ مَنْ أَهْلَكَتْ بِأَمْرِ رَبِّهَا، وَنَجَا مَنْ نُجِّيَ مِنْهَا؛ لِيَحْكِيَ لِلنَّاسِ مَا رَأَى، وَمَا نَجَا مِنْهَا بِقُوَّتِهِ وَهُوَ الضَّعِيفُ، وَلَا هَلَكَ القَوِيُّ فِيهَا لِضَعْفِهِ، وَلَكِنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرُهُ، يُصِيبُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

إِنَّ الرِّيحَ أُعْجُوبَةٌ مِنَ الأَعَاجِيبِ يَحْتَاجُ الْبَشَرُ إِلَيْهَا وَلَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْهَا، وَلَوْ عَمِلُوا مَا عَمِلُوا مِنْ وَسَائِلِهِمْ وَمُخْتَرَعَاتِهِمْ لَمَا حَرَّكُوهَا وَهِيَ سَاكِنَةٌ.

وَإِذَا تَحَرَّكَتْ فَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِإِيقَافِهَا أَوْ تَخْفِيفِهَا، أَوْ تَحْوِيلِ مَسَارِهَا. وَغَايَةُ مَا يَفْعَلُونَ هُوَ الهَرَبُ مِنْهَا، وَالِاحْتِمَاءُ بِالمَلَاجِئِ عَنْهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ يُجْلُونَ أَهْلَ المُدُنِ وَالقُرَى الَّتِي فِي طَرِيقِهَا، ثُمَّ يَتَرَبَّصُونَ تَرَبُّصَ الْعَاجِزِ الْبَائِسِ الَّذِي انْقَطَعَتْ حِيلَتُهُ، وَغَلَبَهُ يَأْسُهُ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَهَا، وَيَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِهَا.

ثُمَّ إِذَا سَكَنَتْ دَفَنُوا مَوْتَاهُمْ، وَدَاوَوْا جَرْحَاهُمْ، وَآوَوْا مُشَرَّدِيهِمْ، وَحَسَبُوا خَسَائِرَهُمْ، وَأَصْلَحُوا مَا دُمِّرَ مِنْ عُمْرَانِهِمْ، وَبَكَوْا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ.

وَلَمَّا ضَرَبَ إِعْصَارُ كَاتْرِينَا جُزْءًا مِنَ الدَّوْلَةِ الكُبْرَى فِي الأَرْضِ، ظَهَرَ عَجْزُهَا فَأَعْلَنَتْ حَالَةَ الطَّوارِئِ، وَقَبِلَتِ المُسَاعَدَاتِ مِنَ الدُّوَلِ الفَقِيرَةِ المُعْدَمَةِ، فَمَا أَضْعَفَ البَشَرَ! وَمَا أَعْجَزَهُمْ! وَمَا أَقَلَّ حِيلَتَهُمْ أَمَامَ الرِّيحِ! وَهِيَ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَجُنْدِيٌّ وَاحِدٌ مِنْ جُنُودٍ لَا تُحْصَى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدَّثر: ٣١].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ دَلَّتْ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى أَنَّهُ الرَّبُّ المَعْبُودُ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ عَبِيدٌ مَخْلُوقُونَ، خَلَقَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ عَمَلَكُمْ، وَارْجُوا رَحْمَتَهُ، وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ كَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: الرِّيحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، سَخَّرَهَا لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ وَمَصَالِحِهِمْ، تَكُونُ رَحْمَةً وَتَكُونُ عَذَابًا، وَمَا أُنْزِلَ بِهَا عَلَى الْبَشَرِ مِنْ رَحَمَاتِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَكْثَرُ مِمَّا أَخَذَتْ مِنَ المُكَذِّبِينَ، وَهَذَا مِنْ إِعْذَارِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْبَشَرِ، وَإِمْلَائِهِ لَهُمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ.

وَالمَشْرُوعُ لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ أَنْ يَخَافَ الْعَذَابَ؛ فَقَدْ عُذِّبَ أَقْوَامٌ بِهَا فِي الْقَدِيمِ وَالحَدِيثِ، وَمَا الأَعَاصِيرُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَأَهْلَكَتْ

بَشَرًا كَثِيرًا إِلَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا، رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالغَيْمِ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١١].

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّيحُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ يَتَضَرَّرُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، بِفَسَادِ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، أَوْ نُفُوقِ أَنْعَامِهِمْ وَتَلَفِ أَمْوَالِهِمْ، أَوْ خَرَابِ مُدُنِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ كَمَا فِي العَوَاصِفِ وَالأَعَاصِيرِ الشَّدِيدَةِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ سَبُّهَا؛ فَمَسَبَّتُهَا مَسَبَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ خَالِقُهَا وَآمِرُهَا وَمُدَبِّرُهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، بَلْ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ هُبُوبِهَا أَنْ يَلْحَظَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا، وَيَلْتَزِمَ بِمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ.

رَوَى أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[١٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَخَذَتِ النَّاسَ رِيحٌ بِطَرِيقِ مَكَّةَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ حَاجٌّ فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَنْ حَوْلَهُ: مَنْ يُحَدِّثُنَا عَنِ الرِّيحِ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا

---

(١١) أخرجه مسلم في صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٨٩٩)، وابن حبان (٦٥٨).

(١٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٩)، وأحمد (٥/ ١٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، والضياء في المختارة (١٢٢٣)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٢٩٨).

إِلَيْهِ شَيْئًا، فَبَلَغَنِي الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ عُمَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَاسْتَحْثَثْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُخْبِرْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الرِّيحِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَعَنَهَا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا تَلْعَنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٤).

وَأَمَّا الدُّعَاءُ بِقَوْلِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا، فَلَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٥)، وَالأَوْلَى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى مَا وَرَدَ؛ فَإِنَّهُ أَتْبَعُ لِلسُّنَّةِ، وَأَنْفَعُ لَهُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

---

(١٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٥)، وابن ماجه في الأدب، باب النهي عن سب الريح (٣٧٢٧)، وأحمد والسياق له (٢/ ٢٦٧)، وأبو يعلى (٦١٤٢)، وعبد الرزاق (٢٠٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠٦)، وصححه ابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣١٨).

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في اللعن (٤٩٠٨)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة وقال: حسن غريب (١٩٧٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٠) رقم (١٢٧٥٧)، وفي الصغير (٩٥٧)، وصححه ابن حبان (٥٧٤٥).

(١٥) جاء في ذلك حديث مرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا ثارت الريح استقبلها وجثا على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا ...» الحديث، ولكنه حديث ضعيف، أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣) رقم (١١٥٣٣)، وفي الدعاء (٩٧٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٥٢)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥-١٣٦).



٣٣١- إعصار جونو

٢٢/٥/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ؛ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِقُدْرَتِهِ، وَدَبَّرَهَا بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَلَا تَبْقَى وَلَا تَفْنَى إِلَّا بِأَمْرِهِ؛ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَشَدَّهُمْ خَوْفًا مِنْهُ، شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ مَنَعَ بِهِ الْعَذَابَ، وَرَفَعَ الْعِقَابَ؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَلَمْ يَرْكَنْ لِذَلِكَ، وَلَمْ يَأْمَنْ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاشْكُرُوا نِعَمَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَا يَقْدُرُ الْخَلْقُ رَبَّهُمْ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يُعَظِّمُونَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَظَّمَ، وَالْبَشَرُ كَثِيرًا مَا يَعْصُونَهُ وَلَا يُطِيعُونَهُ؛ وَذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِعَظَمَةِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي نَعْمُرُهَا وَنَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا، فَلَا نُدْرِكُهَا وَلَا نَعْلَمُ كُلَّ مَا فِيهَا، وَمَا نَجْهَلُهُ مِنْ عَجَائِبِهَا وَأَسْرَارِهَا أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ

مَخْلُوقَاتِهَا أَكْثَرُ مِمَّا ظَهَرَ لَنَا، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ وَالْعُمْرَانِ، وَالمَرَاكِبِ وَغَيْرِهَا، كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئًا يُذْكَرُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَطْوِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِهِ، وَيَجْعَلُهُ عَلَى إِصْبِعِهِ، كَمَا يَجْعَلُ السَّمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَعْظَمَهُ!

رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ فَقَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

وَقَدْ كَانَتْ تَعْلُو النَّبِيَّ ﷺ هَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِجْلَالٌ كَبِيرٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَيَحْكِي لَهُمْ شَيْئًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللَّهُ ﷻ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا المَلِكُ**. حَتَّى

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، بَابُ قَوْلِه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (٤٨١٢)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧).

نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(٣).

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ: «وَرَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ هَكَذَا بِإِصْبَعِهِ يُحَرِّكُهَا يُمَجِّدُ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا نَفْسَهُ: **أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ**. فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرُ؛ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ»(٤)، زَادَ أَبُو الشَّيْخِ فِي رِوَايَتِهِ: «أَنَا الَّذِي بَدَأْتُ الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، أَنَا الَّذِي أُعِيدُهَا، أَيْنَ الْمُلُوكُ؟ أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ؟»(٥).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ اللَّهِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٦)، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا كَأَنَّهَا جَوْزَةٌ فِي يَدِهِ»(٧).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ لَنَا مِنْ عَظَمَتِهِ بِقَدْرِ مَا نَعْقِلُهُ، وَإِلَّا فَعَظَمَتُهُ ﷻ فَوْقَ مَا نَتَصَوَّرَ، لَا يَحُدُّهَا حَدٌّ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا عَقْلٌ، وَلَا يُدْرِكُهَا أَحَدٌ، وَمَهْمَا وَصَفُوهُ سُبْحَانَهُ فَلَنْ يَقْدُرُوهُ قَدْرَهُ، وَلَنْ يُعَظِّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ!

---

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٤١٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

(٤) هذه الرواية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما لأحمد (٢/ ٧٢)، والنسائي في الكبرى (٧٦٩٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٩٥)، وصححها ابن حبان (٧٣٢٧)، والحاكم (٢/ ٢٧٧).

(٥) هذه الرواية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما لأبي الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، والإبانة لابن بطة (٢١٦)، والثعلبي في تفسيره (٨/ ٢٥٢).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١٠٩٠)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥)، وابن بطة في الإبانة (٢٣٧)، والذهبي في العلو (٣١٤).

(٧) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٤٤٢)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥).

أَرْزَاقُ الْعِبَادِ وَآجَالُهُمْ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَاسْتِقْرَارُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَعَيْشُهُمْ فِيهَا بِأَمْرِهِ تَعَالَى، لَا بِأَمْرِ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَلَوْ شَاءَ لَأَطْبَقَ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ، فَسَحَقَ مَنْ فِيهَا، وَلَوْ شَاءَ ﷻ لَطَوَى الْأَرْضَ عَلَى مَنْ فِيهَا فَأَهْلَكَهُمْ، كَيْفَ وَهُوَ يَطْوِيهَا بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! وَلَكِنَّهُ ﷻ رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ، يُؤَخِّرُهُمْ وَلَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ، وَلَا يُعَذِّبُهُمْ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَجّ: ٦٥].

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ جُنْدَهُ، فَيُعَذِّبُوهُمْ وَيُهْلِكُوهُمْ، وَلَا يَذَرُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الْفَتْح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٣١].

وَقَادِرٌ ﷻ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْدِثَهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَادِرٌ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ عَذَابَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ؛ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٥].

وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٩٥]، وَفِي الزُّخْرُفِ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٢].

وَقَدْ رَأَى الْعَالَمُ كُلُّهُ مَا تَخَلِّفُهُ الزَّلَازِلُ وَالْأَعَاصِيرُ وَالْفَيَضَانَاتُ مِنْ دَمَارٍ كَبِيرٍ فِي الْأَرْضِ، تَأْتِي بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ فِي ثَوَانٍ أَوْ دَقَائِقَ، وَفِي جُزْءٍ قَلِيلٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى بِالْمِئَاتِ، رَغْمَ الِاحْتِرَازَاتِ وَالِاحْتِيَاطَاتِ، فَمَا أَغْنَتْ عَنِ الْبَشَرِ حَضَارَتُهُمْ وَلَا عُلُومُهُمْ، وَلَا مَنَعَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ حِرْصُهُمْ

وَاحْتِيَاطُهُمْ؛ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطُّور: ٨]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المَعَارِج: ٣].

وَفِي الْإِعْصَارِ الْأَخِيرِ(٨) رَصَدَتِ المَرَاصِدُ سَيْرَهُ، وَرَاقَبَ الْخُبَرَاءُ حَرَكَتَهُ، وَلَا يَقْدِرُونَ لَهُ دَفْعًا وَلَا تَخْفِيفًا وَلَا تَحْوِيلًا، إِنْ هُمْ إِلَّا مُتَرَبِّصُونَ يَنْتَظِرُونَ وُصُولَهُ، وَيَدُوكُونَ فِي آثَارِهِ، وَيُخْلُونَ المُدُنَ مِنْ سَاكِنِيهَا لِأَجْلِهِ، وَيَهْرُبُ النَّاسُ مِنْ طَرِيقِهِ تَارِكِينَ أَمْوَالَهُمْ، وَمَرَاكِبَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ، وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نَفِيسِ أَثَاثِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ، قَدْ رَخصَتْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْعَصِيبَةِ، فَلَمْ تُسَاوِ شَيْئًا، وَحقَّ لِلنَّاسِ أَنْ يَهْرُبُوا مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُطِيقُ عَذَابَهُ؟!

وَعِنْدَ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ وَالِاحْتِرَازَاتِ تَتَوَقَّفُ قُدْرَةُ الْبَشَرِ وَطَاقَتُهُمْ عَلَى مَا بَلَغَتْهُ عُلُومُهُمْ وَمَعَارِفُهُمْ، فَيَضْرِبُ الْإِعْصَارُ مَا أُمِرَ بِضَرْبِهِ مِنَ المُدُنِ، وَيُدَمِّرُ مَا يُدَمِّرُ، وَيَقْتُلُ مَنْ حَانَتْ سَاعَتُهُ، وَلَا تَسَلْ حِينَئِذٍ عَنِ المُدُنِ، وَقَدْ غَمَرَتْهَا الْمِيَاهُ، وَحَدَثَ مَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ خَرَابٍ.

وَقَدْ نُقِلَ لِلنَّاسِ مَا خَلَّفَهُ هَذَا الْإِعْصَارُ مِنْ بَعْضِ الدَّمَارِ، وَرَأَوُا السَّيَارَاتِ كَأَنَّهَا أَكْوَامُ حِجَارَةٍ، قَدْ حُمِلَتْ فَأُلْقِيَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَاخْتَرَقَ بَعْضُهَا الْجُدْرَانَ، فَوَلَجَتْ إِلَى الْبُيُوتِ، فَإِذَا مَا جَاوَزَهُمُ الْإِعْصَارُ، أَحْصَوْا خَسَائِرَهُمْ،

---

(٨) هو إعصار جونو الذي ضرب سواحل عمان الشرقية يومي ٢٠ و٢١/ ٥/ ١٤٢٨هـ وخلف أضرارًا كبيرة في المدن والقرى الساحلية، وامتد إلى سواحل الإمارات الشرقية وسواحل إيران الجنوبية الشرقية، بلغ ارتفاع أمواجه ١٢ مترًا، وسرعته ٢٦٠ كلم، وأغلقت بعض الموانى والمطارات في عمان بسببه، وكانت منطقة القرم في مسقط أكثر المناطق تضررًا به، وبلغ عدد المنكوبين بالإعصار بين قتيل وجريح ومشرد نحو عشرين ألفا، والصور التي بثت لمكان الإعصار تظهر دمارًا شديدًا في المناطق التي ضربها. نسأل الله تعالى السلامة والعافية، وأن يرحم القتلى من المسلمين، ويشفي الجرحى، ويعوض المنكوبين.

وَدَفَنُوا مَوْتَاهُمْ، رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَخَلَفَ عَلَى الْخَاسِرِينَ مَا خَسِرُوا، وَمِنْ ثَمَّ يَعُودُ مَنْ سَلِمَ إِلَى مَسْكَنِهِ؛ لِيَنْظُرَ مَا أَصَابَهُ، وَيُصْلِحَ خَرَابَهُ.

وَمَنْ لَمْ يَصِلْهُمُ الْإِعْصَارُ يَتَرَقَّبُونَ وُصُولَهُ، وَيُصْدِرُونَ التَّعْلِيمَاتِ فِي إِثْرِ التَّعْلِيمَاتِ لِمَنْ كَانُوا فِي طَرِيقِهِ، وَيَلْهَجُونَ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَفْعَلُونَ، وَنِهَايَةُ مَا يَقْدِرُونَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ! وَمَا أَعْجَزَ الْبَشَرَ! وَمَا أَقَلَّ حِيلَتَهُمْ أَمَامَ جُنْدِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ!

إِنَّهَا عِبْرَةٌ يَا عِبَادَ اللَّهِ وَأَيُّ عِبْرَةٍ، تَدُلُّ عَلَى عَجْزِنَا وَضَعْفِنَا وَاسْتِكَانَتِنَا، كَمَا تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، وَعَلَى حَاجَتِنَا إِلَيْهِ وَغِنَاهُ سُبْحَانَهُ عَنَّا، فَلِمَاذَا الِاسْتِكْبَارُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَلِمَاذَا الْعِصْيَانُ؟ وَلِمَاذَا الْغُرُورُ بِمُنْجَزَاتِ الْبَشَرِ وَمُخْتَرَعَاتِهِمْ، وَهِيَ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

إِنَّ هَذِهِ الْكَوَارِثَ وَالنَّكَبَاتِ عُقُوبَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِنْ عُصَاةِ الْبَشَرِ، وَابْتِلَاءٌ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَهِيَ تَخْوِيفٌ وَإِنْذَارٌ لِمَنْ سَلِمُوا مِنْهَا؛ لِيَثُوبُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَيُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتُوبُوا مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِمْ؛ ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وَالنَّاسُ فِيهِمُ الْمُعْتَبِرُ الْمُتَّعِظُ، وَفِيهِمُ الْمُصِرُّ الْمُسْتَكْبِرُ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]، فَكُونُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ؛ فَإِنَّ الْعَذَابَ إِذَا حَلَّ بِدَارِ قَوْمٍ، رَخِصَتْ أَمْوَالُهُمْ وَإِنِ امْتَلَأَتْ بِهَا الْبُنُوكُ، وَهَانَتْ عَلَيْهِمْ مَسَاكِنُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ قُصُورًا، وَتَكَدَّرَ عَيْشُهُمْ وَإِنْ كَانُوا قَبْلَهُ فِي أَعْظَمِ النَّعِيمِ وَالْهَنَاءِ، وَحِينَهَا لَا يَطْلُبُونَ إِلَّا النَّجَاةَ.

فَخُذُوا مِنْ يُسْرِكُمْ مَا يُعِينُكُمْ فِي عُسْرِكُمْ، وَتَعَرَّفُوا إِلَى رَبِّكُمْ فِي رَخَائِكُمْ

تَجِدُوهُ فِي شِدَّتِكُمْ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِدُنْيَاكُمْ، فَإِنَّهَا فِي لَحْظَةٍ تَكُونُ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ، وَسَلُوا مَنْ أُصِيبُوا بِتِلْكَ الْكَوَارِثِ، تَعْلَمُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ ﷺ لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغُوطَةِ مِنَ الْبُنْيَانِ وَنَصْبِ الشَّجَرِ، قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ فَنَادَى: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمُلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ، قَدْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ، وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ، وَيُؤَمِّلُونَ فَيُطِيلُونَ، فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا، وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا، أَلَا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ مَا بَيْنَ عَدَنَ وَعُمَانَ خَيْلًا وَرِكَابًا، مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدِرْهَمَيْنِ؟»(٩).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٧٩٩)، وذكره عنه ابن كثير (٣/ ٣٤٢).

وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَلَّا تَمُرَّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَوَادِثُ الرَّبَّانِيَّةُ الْكَوْنِيَّةُ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهَا؛ فَلَقَدْ تَكَرَّرَتْ وَتَنَوَّعَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَكَانَ ضَحَايَاهَا عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ، وَخَسَائِرُهَا أُلُوفَ الْمَلَايِينِ، فَمِنَ الزَّلَازِلِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي ضَرَبَتْ إِيرَانَ، فَالْبَاكِسْتَانَ، فَالْجَزَائِرَ، إِلَى إِعْصَارَاتِ تُسُونَامِي، فَكَاتْرِينَا، إِلَى إِعْصَارِ جُونُو، وَتَخَلَّلَتْهَا كَثْرَةٌ مَلْحُوظَةٌ فِي الْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ، مَا عَهِدَهَا النَّاسُ مِنْ قَبْلُ.

وَمَعْلُومٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَمَعَ بَالِغِ الْأَسَفِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَمُرُّ بِهِمْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ الْمَخُوفَةُ، فَلَا يَأْبَهُونَ بِهَا، وَلَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ، وَالْمُكَذِّبُونَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَا أُهْلِكُوا إِلَّا لَمَّا أَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَتَّعِظُوا بِآيَاتِهِ الَّتِي خَوَّفَهُمْ بِهَا، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَعُذِّبُوا.

إِنَّ الْعِلْمَ الْمُسْبَقَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَرَصْدَ ظَوَاهِرِهَا بِالْمَرَاصِدِ وَالْمَنَاظِيرِ، قَدْ قَلَّلَ مِنْ هَيْبَتِهَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهَذَا مِنْ مَوْتِ الْقُلُوبِ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ نُزُولُ الْعَذَابِ.

وَزَادَ الْأَمْرَ سُوءًا أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحَلِّلُونَ أَسْبَابَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، وَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا، يُرْجِعُونَهَا إِلَى أَسْبَابٍ أَرْضِيَّةٍ أَوْ جَوِّيَّةٍ بَحْتَةٍ، غَافِلِينَ أَوْ مُتَغَافِلِينَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ مُقَدِّرُهَا وَمُقَدِّرُ أَسْبَابِهَا، بَلْ يَتَعَمَّدُ بَعْضُهُمُ الْإِلْحَادَ بِاللَّهِ تَعَالَى حِينَ يَنْفُونَ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا، وَيَسْخَرُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُونَ أَنَّهَا نُذُرٌ وَعُقُوبَاتٌ، وَلَا يُمَارِي فِي كَوْنِهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

تَعَالَى وَتَقَعُ بِقَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ إِلَّا زِنْدِيقٌ مُلْحِدٌ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ ﷻ يُخَوِّفُنَا بِآيَاتِهِ؛ ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإِسْرَاء: ٥٩].

كَمَا أَخْبَرَنَا ﷻ أَنَّ الْكَوَارِثَ الَّتِي تُصِيبُنَا إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ ذُنُوبِنَا ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠].

إِنَّ الْبَشَرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَحَقِيقُونَ بِالْعُقُوبَةِ، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَعْفُوَ عَنْهُمْ أَوْ يُمْهِلَهُمْ؛ فَكَمْ بَارَزُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالْعِصْيَانِ، وَكَمْ حَارَبُوهُ بِالْمُنْكَرَاتِ عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ وَالدُّوَلِ وَالْأُمَمِ.

أَلَيْسَ أَقْوِيَاءُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَظْلِمُونَ ضُعَفَاءَهُمْ، وَالْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ يَزِيدُونَ فِي فَقْرِ فُقَرَائِهِمْ؟!

أَلَيْسَتِ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ تَتَجَبَّرُ وَتَظْلِمُ، فَتَغْزُو مَا شَاءَتْ، وَتُبِيدُ مِنَ الشُّعُوبِ مَا أَرَادَتْ، وَتُحَاصِرُ مَنْ تَشَاءُ، وَتَمْنَعُ رِزْقَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّنْ تَشَاءُ، وَبَقِيَّةُ الدُّوَلِ إِمَّا مُعِينَةٌ عَلَى هَذَا الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ الْكَبِيرِ، وَإِمَّا خَائِفَةٌ مِنْ بَطْشِ الْأَقْوِيَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ؟!

أَلَيْسَ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْبِيدَ النَّاسِ لِنِظَامِهِمُ الطَّاغُوتِيِّ، وَفَرْضَهُ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ بِدَعَاوَى الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَيُرِيدُونَ إِفْسَادَ الْمَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ؟! وَالْمُوَافِقُونَ لِضَلَالِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ كَثِيرٌ، وَالْمُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ قَلِيلٌ.

أَلَيْسَ النِّظَامُ الرَّأْسِمَالِيُّ الْمُتَوَحِّشُ قَدْ أَغْرَقَ الْأَفْرَادَ وَالدُّوَلَ فِي أَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ حَرْبًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى شَرِيعَتِهِ، وَنَتَجَ عَنْهُ مَا نَتَجَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْأَثَرَةِ، وَالْبَغْيِ وَأَكْلِ الْحُقُوقِ، وَغِيَابِ الْإِحْسَانِ وَالْإِيثَارِ وَالتَّعَاوُنِ؟!

أَلَيْسَ المُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى مَعَانِي الْعِفَّةِ وَالطُّهْرِ وَالنَّقَاءِ فِي المُجْتَمَعَاتِ؛ لِيَخْلُفَهَا الْفَسَادُ وَالِانْحِلَالُ وَالرَّذِيلَةُ، وَيَفْرِضُونَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالْعُقُوبَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالْإِرْهَابِ الْفِكْرِيِّ الْإِعْلَامِيِّ؟! وَمَا يُعْرَضُ فِي الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ مِنْ تَشْرِيعٍ مُقَنَّنٍ لِكُلِّ رَذِيلَةٍ، وَمُحَارَبَةِ كُلِّ فَضِيلَةٍ لَيْسَ يَخْفَى عَلَى المُتَابِعِينَ.

أَوَلَيْسَ المُصْلِحُونَ مِنَ النَّاسِ، وَذَوُو الْغَيْرَةِ عَلَى الْأَعْرَاضِ وَالْأَوْطَانِ يُحَارَبُونَ بِشَرَاسَةٍ مِنَ قِبَلِ المُفْسِدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِفْسَادِهِمْ، وَيَفْضَحُونَ لِلنَّاسِ مَشْرُوعَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ مِنْ إِمْلَاءَاتِ المُؤَسَّسَاتِ الْغَرْبِيَّةِ المُفْسِدَةِ؟! يُرِيدُونَ تَمْرِيرَهَا بِاسْمِ الْإِصْلَاحِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، حَمْلَتُهُمُ الشَّرِسَةُ الظَّالِمَةُ عَلَى هَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، يُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهَا، وَيُؤَلِّبُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَيْهَا، يُرِيدُونَ إِلْغَاءَهَا؛ لِتَسْلَمَ لَهُمْ شَهَوَاتُهُمْ، وَيَمْضِيَ فِي النَّاسِ إِفْسَادُهُمْ، رَغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ هِيَ مِنَ أَكْبَرِ صِمَامَاتِ الْأَمَانِ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَلَكِنْ لَمْ تُعْجِبْهُمْ؛ لِأَنَّهَا تَحُولُ بَيْنَ الشَّهْوَانِيِّينَ وَشَهَوَاتِهِمُ المَسْعُورَةِ، وَتَقِفُ أَمَامَ إِفْسَادِ المُفْسِدِينَ، وَلَا يَسْعَى وَاللَّهِ فِي إِبْطَالِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ إِلَّا مُغْرِضٌ خَبِيثٌ، يُرِيدُ الْإِفْسَادَ، وَلَا يُرِيدُ صَلَاحًا وَلَا إِصْلَاحًا، وَلَوْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.

أَوَلَيْسَ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ مَنِ اعْتَدَوْا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِهَانَةِ وَالتَّمْزِيقِ، وَوَطْئِهِ بِالْأَقْدَامِ، وَاعْتَدَوْا عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالتَّحْقِيرِ وَالِاسْتِصْغَارِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى مُعَاقَبَةِ أُولَئِكَ المُجْرِمِينَ، وَإِيقَافِ إِهَانَاتِهِمُ المُتَكَرِّرَةِ لِلْقُرْآنِ وَلِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ لِضَعْفِ المُسْلِمِينَ، وَلِظُهُورِ النِّفَاقِ وَعُلُوِّ المُنَافِقِينَ؟!

أَلَيْسَتْ هَذِهِ المُوبِقَاتُ وَالْعَظَائِمُ حَقِيقَةً بِاسْتِجْلَابِ غَضَبِ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْبَشَرِ، وَحُرُمَاتُهُ تُنْتَهَكُ جِهَارًا نَهَارًا، وَلَا يُنْكِرُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ؟!

أَيَشُكُّ الْبَشَرُ أَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَوَارِعِ وَالْكَوَارِثِ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَذَابٌ وَعُقُوبَاتٌ وَنُذُرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ، وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْمُزْرِيَةِ مِنِ اسْتِعْلَاءِ الْمُفْسِدِينَ، وَضَعْفِ الْمُصْلِحِينَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هُود: ١١٧]، وَقَالَ فِي الْمُعَذَّبِينَ السَّابِقِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠١، ١٠٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٦].

وَاللهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلْبَشَرِ، وَيُرْسِلُ لَهُمُ الْآيَاتِ تِلْوَ الْآيَاتِ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَّعِظُونَ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ مِنْهُمْ، حَقَّتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ؛ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الْحَجّ: ٤٨].

فَخُذُوا الْعِبْرَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ آيَاتِ إِنْذَارٍ وَتَخْوِيفٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى نُذُرَهُ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ؛ لِئَلَّا يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ غَيْرَكُمْ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.

❁ ❁ ❁



٣٣٢- حدثان كبيران (*)

١٩/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ذِي الْمُلْكِ وَالمَلَكُوتِ وَالْعِزِّ وَالْجَبَرُوتِ، دَائِمٍ لَا يَفُوتُ، حَيٍّ لَا يَمُوتُ، أَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ وَمِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ وَمِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ[1]؛ فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ يُمِيتُ الْخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ عَبْدٍ مُقِرٍّ بِذَنْبِهِ، مُعْتَرِفٍ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ

(*) وقع في هذا الأسبوع حدثان كبيران:

أولهما: وقع يوم الأحد ليلة الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ تسونامي كبير ضَرَبَ قَاعَ المحيط الهندي مِنْ جِهَةِ جزيرة سُومَطْرَة الأندونيسية، وارتفع المَدُّ البَحْرِي مِنْ جَرَّائِهِ، وغمرت مياهه مُدُنًا وقرى وجزرًا كثيرة.

الثاني: وقع يوم الأربعاء ليلة الخميس ١٨/ ١١/ ١٤٢٥هـ في مدينة الرياض، حيث فَجَّرَ بعض الشباب الخارجين على الدولة سَيَّارَتَيْن مُلَغَّمَتَيْن؛ مُسْتَهْدِفين مبنى وزارة الداخلية، ومبنى قوات الطوارئ في شمال الرياض، نسأل الله العافية مِنَ الْفِتَنِ مَا بطن منها وما ظهر.

(١) هذا الحمد بهذه الصيغة جاء في السنة النبوية من حديث أبي أمامة ﷺ، أخرجه النسائي في الكبرى (٩٩٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٤٩)، والسهمي في تاريخ جرجان (١/ ١٥٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٨) برقم (٧٩٣٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥٤)، وابن حبان (٨٣٠)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ٦٩٤)، ولفظه عند النسائي: أن النبي ﷺ مرّ بأبي أمامة وهو يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ: «**مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟**» قال: أذكر ربي، قال: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ ...**» فَذَكَرَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَمْدَ مِثْلَهُ.

وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ حُكْمِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لَهُ، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَهُ، كَانَ يَقُومُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا .. ذَاكِرًا وَدَاعِيًا، يُثْنِي عَلَى رَبِّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَيَعْبُدُهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ، سُمِعَ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّي ذِي المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[٢] صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ وَنِقْمَتَهُ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَدْفَعُوا أَمْرَهُ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِعَذَابِهِ.

اتَّقُوا مَنْ لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، لَا سُلْطَانَ إِلَّا سُلْطَانُهُ، وَلَا قُدْرَةَ إِلَّا قُدْرَتُهُ، وَلَا جَبَرُوتَ إِلَّا جَبَرُوتُهُ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصِّلت: ١١].

فَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ طَوْعُ أَمْرِهِ، وَتَحْتَ حُكْمِهِ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا

---

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: عبد الرزاق في مصنفه (٢٨٨١).

وجاء من حديث حذيفة ﵁ أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الذكر بعد الرَّفْع من الركوع، أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨-٣٩٦)، والبزار (٢٩٣٤)، والطبراني في الأوسط (٥٦٨٩).

وجاء من حديث حذيفة ﵁ أنه عليه الصلاة والسلام قاله في الافتتاح، أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (٢/ ٢٣١)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٠٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٨٧)، وأحمد (٥/ ٣٩٨-٤٠٠)، والطيالسي (٤١٦)، وابن المبارك في الزهد (١٠١)، والترمذي في الشمائل (٢٧٦)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٣١٣)، وقال الهيثمي عن حديث حذيفة: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثوقون».

وَقَدْ شَاءَ وُقُوعَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْوُقُوعِ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ لَمْ يَشَأْ وُقُوعَهُ. يُرِي عِبَادَهُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، وَيُخَوِّفُهُمْ بِبَعْضِ آيَاتِهِ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وَبِدِينِهِمْ يَسْتَمْسِكُونَ.

لَقَدِ اغْتَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ بِقُوَّتِهِمْ، وَفَاخَرُوا بِعُلُومِهِمْ وَتِقْنِيَّاتِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ بِأَقْمَارِهِمْ وَأَرْصَادِهِمْ يَسْتَطِيعُونَ رَصْدَ بَوَادِرِ أَيِّ حَدَثٍ عَلَى الْأَرْضِ فِي بِدَايَاتِهِ، وَأَنَّ إِمْكَانَاتِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ تَسْتَطِيعُ احْتِوَاءَ آثَارِ الْكَوَارِثِ وَالنَّكَبَاتِ؛ فَإِذَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ يُرِيهِمْ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، وَيُثْبِتُ لَهُمْ أَنَّهُمْ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَدْفَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا، أَوْ يُعَطِّلُوا لَهُ حُكْمًا، وَأَنَّ قُوَّتَهُ ﷻ تَتَجَاوَزُ إِمْكَانَاتِهِمْ، وَأَنَّ الْبَشَرَ مَهْمَا بَلَغُوا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يُخَفِّفُوا آثَارَ عَذَابٍ وَقَعَ، أَوِ ابْتِلَاءٍ قُدِّرَ.

وَمِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ: مَا وَقَعَ مِنْ زِلْزَالٍ قَوِيٍّ فِي قَاعِ الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ، وَمَا نَتَجَ عَنْهُ مِنْ فَيَضَانِ الْبَحْرِ وَمَدِّهِ؛ حَتَّى غَمَرَ الْبَحْرُ مَا كَانَ أَمَامَ مَدِّهِ مِنْ سُفُنٍ وَمَرَاكِبَ وَبَوَارِجَ، وَقَطَعَ الْمُحِيطَ كُلَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ بِسُرْعَةٍ تُعَادِلُ سُرْعَةَ الطَّائِرَةِ، وَأَتَى عَلَى الْيَابِسَةِ فَابْتَلَعَ قُرًى كَامِلَةً بِسُكَّانِهَا وَعُمْرَانِهَا، وَامْتَدَّتْ آثَارُهُ لِتَطُولَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دُوَلٍ فِي قَارَّتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، وَجَرَفَ فِي خَطِّ سَيْرِهِ الَّذِي جَاوَزَ سَبْعَةَ آلَافِ كِيلُو مِتْرٍ مَا جَرَفَ مِنْ بَشَرٍ، وَعُمْرَانٍ، وَأَشْجَارٍ، وَمَرَاكِبَ، وَمَتَاعٍ، وَأَلْقَى بِهَا بَعِيدًا عَنْ أَمَاكِنِهَا.

إِنَّهُ حَدَثٌ عَظِيمٌ عِنْدَ الْبَشَرِ، رَوَّعَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَتَدَاعَى لَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنْ كُلِّ فِجَاجِ الْأَرْضِ؛ مُحَاوِلِينَ تَصْوِيرَهُ لِلنَّاسِ، وَرَصْدَ آثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ، وَوَقَفَ الْبَشَرُ بِدُوَلِهِمْ وَأُمَمِهِمْ، وَصِنَاعَاتِهِمْ وَتِقْنِيَّاتِهِمْ أَمَامَهُ عَاجِزِينَ مَذْهُولِينَ، وَلَيْسَ عَجْزُهُمْ عَنْ تَخْفِيفِ آثَارِهِ، وَإِرْجَاعِ الْمُدُنِ وَالْقُرَى الَّتِي جَرَفَهَا فَحَسْبُ، بَلْ هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ دَفْنِ الْمَوْتَى الَّذِينَ خَلَّفَهُمْ، وَإِخْرَاجِ الْجُثَثِ مِنْ تَحْتِ الْأَبْنِيَةِ وَالرُّكَامِ،

وَيُنْذِرُونَ بِتَعَفُّنِ المِيَاهِ، وَانْتِشَارِ الْأَوْبِئَةِ، وَأَنَّ مَا سَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ المَوْتِ بِالطَّاعُونِ سَيَتَجَاوَزُ أَعْدَادَ مَنْ جَرَفَهُمْ هَذَا الطُّوفَانُ المُدَمِّرُ، وَقَدْ تَجَاوَزَتْ أَعْدَادُهُمْ مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفَ إِنْسَانٍ، عَدَا المَفْقُودِينَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ، وَالمَطْمُورِينَ تَحْتَ الْأَبْنِيَةِ المُتَسَاقِطَةِ، مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ أَثْبَتَ خُبَرَاءُ الزَّلَازِلِ وَالْفَيَاضَانَاتِ أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ: وُقُوعَ هَذَا الزِّلْزَالِ تَحْتَ الْبَحْرِ بِأَرْبَعِينَ كِيلُو مِتْرًا، وَلَوْ كَانَ عَلَى الْيَابِسَةِ لَأَهْلَكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَلَكَانَتْ قُوَّتُهُ أَعْنَفَ، وَتَدْمِيرُهُ أَكْثَرَ.

لَقَدْ قَدَّرُوا أَنَّ هَذَا الزِّلْزَالَ يُعَادِلُ مَا يُقَارِبُ مِنَ انْفِجَارِ مِئَتَيْ قُنْبُلَةٍ نَوَوِيَّةٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً، فَأَيْنَ نَوَوِيَّاتُ الْبَشَرِ وَقُدْرَتُهُمْ وَقُوَّتُهُمْ أَمَامَ هَذَا؟!

فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ! وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

لَقَدْ أَعْلَنَ الْبَشَرُ بِدُوَلِهِم وَأُمَمِهِمْ وَمُنَظَّمَاتِهِمُ الدَّوْلِيَّةِ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ إِيوَاءِ بِضْعَةِ مَلَايِينَ مِمَّنْ شُرِّدُوا جَرَّاءَ هَذَا الْفَيَضَانِ، وَتَصِيحُ المُنَظَّمَاتُ الإِغَاثِيَّةُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا تَطْلُبُ الْعَوْنَ وَالمُسَاعَدَةَ، مُطْلِقِينَ أَكْبَرَ عَمَلِيَّةِ إِنْقَاذٍ دَوْلِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ كَمَا يَقُولُونَ[٣].

---

(٣) هذه المعلومات التي أوردتها في الخطبة عن هذا الفيضان لَخَّصْتُهَا مِنَ الصُّحُف والمحطات الإخبارية ومواقع الإنترنت خلال الأيام الماضية، وإلى ساعة كِتَابَةِ هذه الخطبة تَجَاوَزَ عَدَدُ الهَلْكَى الذين أعلن عنهم مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفَ نسمة، عَدَا المَفْقُودين ومَنْ لا يُعْلَم عنهم شيء حتى الآن، والمطمورين تحت البنايات المهدمة، وهم كثير جدًّا.

ولا يزال جمع كبير مِنْ فِرَق الإغاثة والطوارئ يَبْحَثُون عن جثث عالقة على الأشجار، وعائلات تَبْكِي قَتْلَاها على الشواطئ، وعمال إنقاذ يبحثون عن سياح مفقودين.

وتحولت شواطئ جنوب آسيا التي يزينها النخيل إلى مشاهد موت ودمار من جراء =

. . . .

= موجات المد العاتية الناجمة عن أكبر زلزال في العالم منذ أربعين عامًا.
وهَرعَتْ وكالات الإغاثة الدولية لإرْسَال عمال إنقاذ ومعدات وأموال للمنطقة؛ مُحَذِّرَة من أن الجثث المتَعَفِّنَة في المياه بَدَأَتْ بالفعل تهدد إمدادات المياه للناجين.
وسَوَّتْ مياهٌ بلغ ارتفاعها عَشَرَةَ أمْتَار المَنَازِلَ بالأرض، وقَذَفَتْ بِقَوَارب الصيد على الطُّرق الساحلية، وألْقَتْ بِسَيَّارَات كانت تدور وسط دَوَّامَات من المياه داخل بهو فنادق، كما جرفت المياه أفرادًا كانوا يأخذون حمامات شمس ورُضّع وَصَيَّادِين.
وقال فيل ايزموند رئيس شركة أوكسفام في سريلانكا: «هذه كارثة إنسانية هائلة، والاتصالات سيئة للغاية، وما زلنا لا نعرف حجم الكارثة بالكامل. إذا لم ننقل إمدادات إغاثة سريعًا للناس يمكن أن يلقى كثير منهم حَتْفَهُمْ».
وأزيلت بالكامل قُرًى تَعْمَل بالصيد ومنتجعات سياحية فاخرة.
وبعد يوم واحد من المَوْجَاتِ العاتية التي ضربت المناطق الساحلية في بلدة بينانج شمالي ماليزيا عاد أمس إلى الشاطئ المواطنون والسائحون على حَدٍّ سواء؛ ليشاهدوا عُمَّال الإنقاذ يُمَارِسُون مهِمَّتَهُم بانتشال جثث الضحايا مِنَ البحر في مَشْهَدٍ كئيب.

قوة الزلزال:

أَكَّدَ المَعْهَد الجيولوجي الأمريكي أن قوة الهزَّة التي ضربت إندونيسيا وتَلَتْهَا أمواج عاتية بلغت ٩ درجات على مقياس ريختر المفتوح، وقد أعاد المعهد النظر في الرقم السابق لقوة الهزة الذي كان ٨.٩ درجات.
وقال العالم الفيزيائي (دون بلامكن) لوكالة فرانس برس: إن المعهد أعاد في ضوء المعلومات الجديدة النظر في الرقم ٨.٩ الذي أعلنه في وقت سابق من النهار.
وأضاف: إنه حدث استثنائي، وهي الهزة الرابعة بهذه القوة منذ ١٩٩٠م.
وذكر المعهد: أن الهزة الأقوى منذ ١٩٠٠م والتي بلغت قوتها ٩,٥ درجات على مقياس ريختر قد ضربت تشيلي في ١٩٦٠م.
وكانت هزتان في ألاسكا (شمال غرب الولايات المتحدة) الأولى في ١٩٥٧م والثانية في ١٩٦٤م، وأخرى في كامتشاتكا (سيبيريا الشرقية)، بلغت قوتها ٩ درجات. وحدد مركز الهزة التي وقعت الأحد غرب شمال جزيرة سومطرة.
وقال أحد الخبراء: إن هذا الزلزال لو كان قد وقع على الأرض لكانت خسائره أكبر بكثير مما شوهد بسبب وقوعه على عمق ٤٠ كيلومترًا من قاع البحر. =

. . . .

= وقال أحد الخبراء: إنه يُمْكِنُكَ أن تَتَخَيَّلَ سرعة المياه وقوة اندفاعها من أنك لو فتحت غسالة كهربائية تعمل بكل قوتها عند إخراج الماء، فسوف يضرب الماء وجهك بقوة، والذي جرى صباح الأحد الماضي هو بمثابة فتح أبواب مليون غسالة كَهْرَبائِيَّة عند أوج عملها وفي وقت واحد ..!

وأكَّدَ البروفيسور أحمد رجان رئيس مؤسسة البحوث الجيوفيزيقية التركية: أن الزلزال الذي شهدته دول جنوب شرق آسيا يعادل في قوته قوة مائة وخمسة وسبعين قنبلة ذرية، مشيرًا إلى أن زلزال بحر مرمرة الكبير الذي ضرب إسطنبول وضواحيها في أغسطس عام ١٩٩٩م وأودى بحياة ما لا يقل عن سبعة عشر ألف شخص كانت قوته تعادل قوة ٧٩ قنبلة ذرية جراء الضغط في قاع بحر مرمرة. وأشار في تصريح له إلى أن لحسن الحظ فإن زلزال جنوب شرق آسيا كان مركزه في قاع المحيط الهندي بمسافة أربعين كيلومترًا.

امتداد آثار الزلزال:

شهدت سواحل اليمن وسلطنة عمان المقابلة لبحر العرب الذي يفتح على المحيط الهندي الأحد ارتفاعًا في منسوب مياهها وأمواجًا عاتية، يرجح أنها من تأثير المد البحري الذي نجم عن زلزال سومطرة، أوقعت ثلاثة جرحى في اليمن، وفق ما نشر أمس الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ في صنعاء ومسقط.

وأوضحت وسائل الإعلام اليمنية أن سواحل محافظة المهرة «جنوب شرق اليمن» تعرضت ظهر الأحد ١٤/ ١١ إلى أمواج بحرية عاتية، يُرَجَّحُ أَنَّهَا بتأثير الزلزال الذي أوقع عدة آلاف قتيل في عدد من الدول الآسيوية.

تَعَفّن الجُثَثِ والخَوْف من الأوبئة:

حذرت الأمم المتحدة أمس الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ من تَفَشِّي أوبئة خلال أيام ما لم تستطع الأجهزة الصحية في جنوب وجنوب شرق آسيا تدبير الأمر بعد مقتل الآلاف وتشريد عشرات الآلاف من جراء الموجات البحرية العاتية التي نجمت عن الزلزال الذي بلغت شدته ٩ بمقياس ريختر الذي هزَّ المنطقة أمس الأوَّل.

وقال خبراء: إن أول خمسة أمور سيتم معالجتها هي: المياه، والمرافق الصحية، والطعام، والمأوى، والصحة.

وقال دومينيك نوت من مؤسسة كريستيان للمساعدات: «لدينا تقارير بالفعل من جنوب الهند عن تعفن جثث في الأماكن التي سقطت فيها، وسيكون لهذا تأثير فَوْرِيّ عَلَى =

. . . .

= إِمْدَادَات المياه ولا سيما بالنِّسْبَةِ لِلْفُقَرَاء».
وتوجد قرى مَعْزُولة في بعض المناطق المَنْكُوبَة، وتوجد قرى بعيدة جدًّا بحيث يستحيل معرفة حجم الأضرار.
وقال هاكان ساندبلاد وهو مسؤول صحي كبير في الاتحاد الأوروبي في جنيف: «أكبر التحديات التي نواجهها هي انتشار الأمراض التي تنتقل عن طريق المياه خصوصًا الملاريا والإسهال وأمراض الجهاز التنفّسِي».
وقال منسق إغاثة الطوارئ بالأمم المتحدة جان انجلاند لشبكة «سي. ان. ان التليفزيونية الإخبارية»: إن هذه الكارثة قد تكون الأسوأ في التاريخ الحديث؛ بسبب تأثيرها على الكثير جدًّا مِنَ المناطق الساحلية الكثيفة السكان، وبسبب تَعَرُّضِ الكثير جدًّا من المجتمعات للخطر.
وأضاف يقول: «ربما تكون التأثيرات على المدى الطويل مدمرة، مثل: موجات المد أو الزلزال نفسه، فالكثير جدًّا من الناس يعانون حاليًا من تناول مياه الشرب الملوثة، ويمكن أن تكون لدينا أمراض وبائية في غضون أيام قليلة، ما لم يتم تعزيز النظم الصحية وتفعيلها».
وقال دومينيك نوت المسؤول بوكالة الإغاثة المسيحية: إن لديه تقارير من جنوب الهند عن تعفن جثث، وسيؤثر ذلك بسرعة على إمدادات المياه وخاصة بالنسبة للسكان الأشد فقرًا.
من جانبه قال فيل اسموند رئيس منظمة أوكسفام في سريلانكا: «إن هذه كارثة إنسانية مروعة، والاتصالات سيئة للغاية، لدرجة أننا ما زلنا لا نعرف الحجم الكامل لها، وإذا لم نحصل على مساعدات بسرعة؛ فإن المزيد من الناس يمكن أن يموتوا».
وتقول «مراسلة بي بي سي في آتشيه راتشيل هارفي»: إن الحجم الحقيقي للكارثة على الساحل الجنوبي الغربي، وعلى مجموعة الجزر الصغيرة المقابلة للساحل لم يُعْرَفْ بَعْد، ويتم حاليًا حَفْر قبور جماعية في أَسْوَأ المناطق تأثيرًا بالكارثة في إقليم آتشيه الأندونيسي.
من آثار الزلزال:
يقف العالم مشدوهًا أمام هول كارثة المَدِّ البحري الزلزالي في آسيا، ومع بدء أكبر عملية إنقاذ دولية في التاريخ يتواصل ارتفاع عدد الضحايا إلى أرقام تماثل قتلى الحروب الكبرى.
وتروي الصور وإفادات الناجين من الطوفان مآسي لا تحصى؛ حيث جرف الطوفان الأخضر واليابس لعشرات الكيلومترات، وغيض الماء، وكَشَفَ عن دمار شامل؛ حيث =

وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ النَّجَاةَ مِنَ الهَلَاكِ يَحْكُونَ لِلنَّاسِ مَا رَأَوْا فَإِذَا هُوَ عَظِيمٌ عَظِيمٌ .. كَبِيرٌ كَبِيرٌ!! لَا طَاقَةَ لِلْبَشَرِ بِهِ، وَلَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ أَمَامَهُ، بَلْ مَا نَقَلَتْهُ مَحَطَّاتُ التَّلْفَزَةِ تَسْتَعْظِمُهُ أَكْبَرُ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَالْجُثَثُ عَلَى السَّوَاحِلِ

= أُبِيدَتْ قُرى بأكملها، ووصفت أمواج المد التي بلغ ارتفاعها نحو عشرة أمتار بحوائط القتل؛ فقد غمرت كل شيء بقوة رَهِيبَة حتى الذين اعتصموا بقمم الأشجار وأسطح المنازل.

فقد تَوَقَّع مسؤول بالأمم المتحدة ارتفاع عدد القتلى في إقليم آتشه بإندونيسيا فقط إلى نحو (٨٠ ألفا)، مشيرًا إلى أنه -وفقًا لتقديرات حكومية- أُبِيدَ ثلث سكان بلدة (مولابو) غربي إندونيسيا.

ويتواصل ارتفاع ضحايا كارثة المد الزلزالي بآسيا، ويواجه ملايين الناجين شبح المجاعات والأوبئة الفتاكة؛ بسبب طوفان العصر الحديث.

وتشير التوقعات إلى أن عدد قتلى «تسونامي» في دول جنوب وجنوب شرق آسيا سيتجاوز المائة ألف بكثير، ففي إندونيسيا وسريلانكا والهند وتايلند ودول أخرى يستمر انتشال الجثث من وسط الدمار الشامل، ودفنها في مقابر جماعية.

وفي بعض المناطق النائية مثل: جزر إندامان، ونيكوبار الهندية، لم تصل فرق الإنقاذ بعد لبعض القرى؛ حيث من المتوقع العثور على آلاف القتلى، بينما يعتقد أن تركيز الجهود على جمع الجثث لمنع انتشار الأوبئة يؤثر أيضًا على أعمال الإغاثة.

ومع استمرار وصول المساعدات الدولية الإنسانية في أكبر عملية إغاثة بالتاريخ، تزاحم ملايين المُشَرَّدِين بالمناطق الساحلية في المحيط الهندي؛ للحصول على الغذاء والمياه النقية والوقود.

ولم تنشغل فِرَقُ الإِنْقَاذِ بِإِيوَاءِ المُشَرَّدِينَ وإطعامهم فقط، بل شَرَعَتْ فِي تَنفِيذ خُطَط طارئة لتوفير الخدمات الأساسية، وأيضًا تقديم كميات كافية من الحقائب البلاستيكية؛ لجمع الجثث ومكافحة الآثار الصحية الناجمة عن الكارثة.

وقد حذرت وكالات الأمم المتحدة من كارثة صحية جديدة تفوق خسائر الزلزال والمد؛ بسبب عدم تَوَفُّر الخدمات الأساسية لنحو خمسة ملايين مشرَّد. فخطر المياه الرَّاكِدَة قَدْ يفوق الجارفة على حد تعبير مديرة صندوق الأمم المتحدة للطفولة «يونيسيف» كارول بيلامي وقال يان اجلاند رئيس مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية: «تكلفة الدمار ستكون بمليارات الدولارات».

لَمْ يَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَبَشَرٌ قَدْ عَلَّقَهُمُ الطُّوفَانُ فِي أَعَالِي الْأَشْجَارِ، وَالْبِنَايَاتُ وَالمَرَاكِبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ قَدْ بُعْثِرَتْ، وَالهَالِكُونَ فِي وَسَطِ المُحِيطِ لَا يُعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْءٌ(٤)، كُلُّ هَذَا الطُّوفَانِ مَعَ شِدَّتِهِ وَعُنْفِهِ، وَقُوَّةِ تَدْمِيرِهِ، وَكَثْرَةِ

---

(٤) تقول شين سولين، وهي من أهالي المنطقة التي جرفها الطوفان: «إنه لا يصدق .. بالأمس فقط كنا نقضي العطلة على الشاطئ دون أي خوف»، واستطردت شين التي ذهبت للشاطئ مع عائلتها: «والآن ينتظر العالم أنْ يعرف كم مِنَ الضَّحايَا قد مات».
شين البالغة من العمر ٣٩ عامًا قالت: «إنها كانت قد خرجت لتوِّهَا مِنَ السيارة عندما رأت الناس يركضون هربًا مِنَ المياه، وأمرت أُسْرَتَهَا بالعودة للسيارة، وانطلقت بها مُسْرِعَةً».
وقالت: «كانت الأمواج وكأنها جدار رمادي ضخم لم أَرَ مطلقًا شيئًا كهذا»، وأضافت: «كان المشهد الأكثر رعبًا حيث كان الناس يطلقون صرخات رعب».
كان أحد الصيادين، ويدعى: شعيب محمد عيسى، قَدْ أَبْعَدَتْهُ الأمواج مسافة ثلاثة كيلومترات عن سواحل بلدة كيدا الشمالية لتُلْقِي به على إحدى أشجار المانجروف.
ويذكر لوكالة الأنباء الرسمية بيرناما: «سمعت صوت زَئِيرٍ عَالٍ، ورأيت موجةً كبرى قادمة باتجاه الشاطئ، وقبل أنْ أَتَمَكَّنَ من فعل شيء كانت المَوْجَة قد أصابت قَارِبي وأصابتني».
وفي قصة أخرى احتضن ساريا دارمار (٣٥ عامًا) اثنين من أبنائه، فيما أمسكت زوجته بالثالث، وخرجوا من منزلهم عند مشارف بلدة باندا آتشيه الإندونيسية بسرعة، بعد أن شاهدوا الناس يركضون ويصرخون: «اخرجوا .. اخرجوا» لكنهم لم يتمكنوا من تجاوز سرعة الموجة العاتية التي وصلت سرعتها إلى ٥٠٠ كيلو متر في الساعة، وعبرت المحيط الهندي في ساعة واحدة يوم الأحد، وسرعان ما غطت رؤوسهم وجرفتهم.
وقال دارمار وهو يرقد في مستشفى عسكري في باندا آتشيه أمس، وقد امتلأ جسده بالجروح، وكسرت ساقه: «المياه كانت قوية للغاية .. أمسكت بابني لأطول مدة استطعتها لكن المياه جرفتهما» .. كما اختفت زوجته والطفل الآخر، ويحكي دارمار أنه تشبث بقطعة من الخشب، وجرفته المياه، إلى أن ارتطم بسقف متجر؛ مما تسبب في كسر ساقه، إلا أنه استطاع أن يتسلق إلى القمة.
وقال دارمار: حياتي انتهت .. كل ما بوسعي هو أن أفوض أمري لله تعالى.
ونجت صبية هندية عمرها ١٣ عامًا بعد أن ظلت في البحر يومين، تشبثت خلالها أولًا بباب، ثم شجرة، ثم حقيبة في جزر انداماان ونيكوبار النائية، قرب ميانمار وأندونيسيا.
وقال رام كابس نائب حاكم المنطقة للصحفيين: «حين جرفتها المياه طوال يومين =

آثَارِهِ لَيْسَ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ دَلَائِلِ قُوَّةِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ، وَمَا هَذَا الطُّوفَانُ الْيَسِيرُ أَمَامَ الطُّوفَانِ الَّذِي أَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ قَوْمَ نُوحٍ، وَغَطَّى قِمَمَ الْجِبَالِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ؟!

لَقَدْ بَانَ عَجْزُ الْبَشَرِ، وَظَهَرَ ضَعْفُهُمْ، رَغْمَ مَا يَتَبَاهَوْنَ بِهِ مِنْ قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ، وَمَا يَمْتَلِكُونَهُ مِنْ مَوَارِدَ وَإِمْكَانِيَّاتٍ، وَمَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ وَمُخْتَرَعَاتٍ . . إِنَّهَا لَمْ تَجِدْ شَيْئًا أَمَامَ هَذَا الطُّوفَانِ الصَّغِيرِ الَّذِي مَا أَتَى إِلَّا عَلَى عَدَدٍ مِنَ الدُّوَلِ، وَغَمَرَ بَعْضًا مِنَ الْقُرَى، فَحَدَثَ مَا حَدَثَ مِمَّا رَأَيْتُمْ وَسَمِعْتُمْ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُ الْبَشَرُ، فَكَيْفَ لَوْ غَمَرَ قَارَّةً بِكَامِلِهَا أَوْ غَطَّى رُبْعَ الْأَرْضِ أَوْ نِصْفَهَا؟! مَاذَا سَيَقُولُ الْبَشَرُ؟ وَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ؟! فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

إِنَّ الْأَرْضَ بِكُلِّ مَا فِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا ذَرَّةً صَغِيرَةً فِي مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقْبِضُهَا الرَّبُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَمُحِيطَاتٍ وَأَشْجَارٍ. وَمَعَهَا السَّمَاءُ يَطْوِيهَا بِيَمِينِهِ، فَمَا هَذَا الْفَيَضَانُ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

= واجهت سلاحف وأفاعي أثناء الليل، واستطاعت في النهاية أن تبذل ما يكفي من جهد لتصل إلى قرية على ساحل كارنيكوبار، حيث قدم لها الناس بعض مياه جوز الهند وبعض الطعام، ونقلوها إلى مخيم الإنقاذ».

كما تحدث الناجون عن السرعة التي تحولت بها حياتهم، يقول محمد صوفي محمد حسن ١٩ عامًا: «استغرق الأمر لحظات»، وكان محمد قد حاول التعلق بشجرة بعد ما أطاحت الأمواج بوالدته وشقيقته على شاطئ باتوفيرنجي الشعبي في بنانج، حيث لاقتا حتفيهما. وذكر لصحيفة مالاي ميل: «لم يكن أيّ منا في الماء عند ما انطلقت الموجات .. كنا جلوسًا على الصخر نعد طعامنا فحسب».

فيما ظلت عائلات مئات المفقودين في المستشفيات، وتكَدَّسَتْ على مضايق الشواطئ، في انتظار ورود أنباء عن أحبائهم، فيما سعى رجال الإنقاذ جاهدين في المياه بحثًا عن جثث الضحايا.

رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(٥).

وَالنَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَنْتَفِضُ وَيُرْعَدُ؛ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يَحْكِي وَصْفَ ذَلِكَ: «حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٦).

بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ بِقَارَّاتِهَا وَدُوَلِهَا وَأُمَمِهَا وَكُلِّ مَا فِيهَا لَيْسَ حَجْمُهَا شَيْئًا يُذْكَرُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ، كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ عَلَى إِصْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ كَمَا رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ.

---

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ (٦٩٤٧)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧). وأخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] (٦٩٧٧)، ومسلم (٢٧٨٨).

(٦) هذه الرواية لمسلم (٢٧٨٨).

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦١٥٥)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (٢٧٩٢).
وفي رواية مسلم: «**يَكْفَؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ**».

فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِلْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر: ٦٧][٨].

تِلْكَ بَعْضٌ مِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا رَأَيْنَاهُ مِنْ أَحْدَاثِ هَذَا الزِّلْزَالِ الْمُدَمِّرِ مَا هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ، فَهَلْ آمَنَ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ بِرَبِّهِمْ؟ وَهَلِ ازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ؟

إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى حَتَّى فِي أَحْوَالِ الْكَوَارِثِ وَالْأَزَمَاتِ، وَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ!!

لَقَدْ نَسَبُوا هَذَا الْحَدَثَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: «إِذَا غَضِبَتِ الطَّبِيعَةُ فَلَا يَقِفُ أَمَامَ غَضَبِهَا شَيْءٌ»، وَقَالُوا: «غَضِبَ الْبَحْرُ فَابْتَلَعَ الْيَابِسَةَ»، وَقَالُوا: «مَنْ يَقِفُ أَمَامَ الْبَحْرِ إِذَا غَضِبَ؟!»[٩]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الشِّرْكِيَّةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَإِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

لَقَدْ غَفَلَ هَؤُلَاءِ الْمَفْتُونُونَ عَنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَعَظَمَتِهِ، وَجَهِلُوا أَنَّ الْبَحْرَ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، خَاضِعٌ لِحُكْمِهِ؛ مُمْتَثِلٌ لِأَمْرِهِ، أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ أَنْ يَكُونَ يَبَسًا عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ، فَلَمَّا سَلَكُوهُ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يُطْبِقَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَطْبَقَ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَقَهُمْ، وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ ﷻ بِمَا شَاءَ، مَتَى شَاءَ، فَلَا يَعْصِي لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا؛ لِأَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَجُنْدٌ مِنْ جُنْدِهِ، أَعْلَنَ طَاعَتَهُ

---

(٨) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمر: ٦٧] (٤٥٣٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٩) هذه الأقوال ونحوها كثير، دَوَّنْتُهَا من أفواه الإعلاميين في بعض القنوات الفضائية العربية التي تناقلت الخبر.

يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١].

آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا، وَإِلَيْهِ المَصِيرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، زِنَةَ عَرْشِهِ، وَرِضَاءَ نَفْسِهِ، وَعَدَدَ خَلْقِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّورى: ٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالِمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا مِنْ ذُنُوبِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَوِيٌّ قَدِيرٌ، جَبَّارٌ عَزِيزٌ، سَرِيعُ الْحِسَابِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، الرَّعْدُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ

خِيفَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ ﷻ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَالٍ.

وَكُلُّ عَذَابٍ يَنْزِلُ، أَوْ فِتْنَةٍ تَقَعُ فَإِنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَالتَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ، وَكَشْفِ الْبَلَاءِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وَإِنْ كَانَ هَذَا الزِّلْزَالُ الْمُدَمِّرُ حَدَثًا كَبِيرًا قَدْ رَوَّعَ الْبَشَرَ؛ فَإِنَّ حَدَثًا آخَرَ رَوَّعَنَا فِي دِيَارِنَا؛ إِذْ تَسَلَّطَ عَلَيْنَا ثُلَّةٌ مِنْ أَبْنَائِنَا، يُفَجِّرُونَ فِي بِلَادِنَا، وَيُفْسِدُونَ فِي أَرْضِنَا، وَيُزَعْزِعُونَ أَمْنَنَا، بِتَأْوِيلَاتٍ خَاطِئَةٍ، وَاجْتِهَادَاتٍ غَيْرِ سَائِغَةٍ.

فَإِنْ كَانُوا مُعَظِّمِينَ لِلَّهِ تَعَالَى فَأَيْنَ هُمْ مِنْ تَعْظِيمِ الدَّمِ الْحَرَامِ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ شَأْنَهُ، وَتَوَعَّدَ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَنْ سَفَكَهُ؟! ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٠)، وَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْحَقِّ مِنَ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الَّتِي تُوبِقُ صَاحِبَهَا(١١).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٢).

---

(١٠) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٦٩).

(١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ الغَافِلَات**» أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ .. (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(١٢) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل =

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»[(١٣)].

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّ زَوَالَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِ»[(١٤)].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»[(١٥)].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»[(١٦)]، فَإِذَا اسْتَحَقَّ الْمُشِيرُ بِالْحَدِيدَةِ لِلَعْنَةِ الْمَلَائِكَةِ فَكَيْفَ إِذًا بِمَنْ حَمَلَ السِّلَاحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟! نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

= المؤمن (٤٢٧٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٨)، وفي المعجم الأوسط (٩٢٢٨)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠) والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١).

(١٣) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٣١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٥٤).

(١٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، والبيهقي (٨/ ٢٢). وقد جاء مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح كما ذكر الترمذي والبيهقي. وجاء مرفوعًا من حديث البراء بن عازب ﷺ عند: ابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا (٢٦١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٨).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٦٦٥٩)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٩٨).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٥٠٥)، ومسلم في البر والصلة، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسلاح (٢١٦٢).

وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِتَفْجِيرِهِمْ وَتَخْرِيبِهِمْ وَقَتْلِهِمْ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ فَهُمْ مُخْطِئُونَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ: جَمْعَ الْكَلِمَةِ، وَتَوْحِيدَ الصَّفِّ، لَا تَفْرِيقَ الْمُسْلِمِينَ، وحَمْلَ السِّلَاحِ عَلَيْهِمْ، وَإِشْغَالَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ قَضَايَاهُمْ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَأَيُّ فَشَلٍ وَتَنَازُعٍ أَعْظَمُ مِنْ شَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ، وَالْخُرُوجِ بِالسِّلَاحِ، وَقَصْدِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، وَمِنَ الْغِلْظَةِ وَالْفَظَاظَةِ.

اللَّهُمَّ اهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَرُدَّهُمْ إِلَى الْحَقِّ رَدًّا جَمِيلًا، اللَّهُمَّ اكْفِنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِكَ، اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْإِفْسَادَ فِي الْبِلَادِ، وَزَعْزَعَةَ أَمْنِ الْعِبَادِ فَاكْفِنَاهُ بِمَا تَشَاءُ وَأَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، اللَّهُمَّ اكْبِتْ كُلَّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَكُلَّ ظَالِمٍ وَظَالِمَةٍ، وَاهْدِ كُلَّ ضَالٍّ وَضَالَّةٍ، وَاحْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَصْلِحْ وُلَاتَنَا وَوُلَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَاءَنَا وَعُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَشَبَابَنَا وَشَبَابَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ مَنِ اسْتَهْدَفَ دِينَنَا أَوْ أَمْنَنَا، وَأَرَادَ بِنَا وَبِالْمُسْلِمِينَ شَرًّا وَسُوءًا، فَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ، وَاجْعَلْ تَدْبِيرَهُ تَدْمِيرَهُ، وَاهْتِكْ سَتْرَهُ، وَافْضَحْ أَمْرَهُ، وَرُدَّهُ عَلَى عَقِبِهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، أَنْتَ مَوْلَانَا وَمَوْلَى الْمُسْلِمِينَ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . . .





٣٣٣- حقيقة الزمن (١)
الزمن من خلق الله تعالى

٢٦/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ؛ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَتْقَنَهُ، وَدَبَّرَ مَا خَلَقَ وَأَحْكَمَهُ، وَشَرَعَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ وَأَعْدَلَهُ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَصُرَ عِلْمُ الْعِبَادِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ﷻ؛ فَلَمْ يَفُوهُ سُبْحَانَهُ حَقَّهُ، وَلَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَصَفَ رَبَّهُ ﷻ بِمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِ، وَرَغَّبَ الْعِبَادَ فِي رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ نِقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَزْكَى هَذِهِ الْأُمَّةِ عَمَلًا، وَأَنْفَعُهُمْ عِلْمًا، اجْتَنَبُوا مَا نُهُوا عَنْهُ، وَسَارَعُوا إِلَى مَا أُمِرُوا بِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَارَ تَنْقُصُ، وَإِنَّ عَامَكُمْ هَذَا يُشَارِفُ عَلَى الِانْتِهَاءِ، وَأَنْتُمْ تَعِيشُونَ أَيَّامَهُ الْأَخِيرَةَ، لِيَخْلُفَهُ عَامٌ جَدِيدٌ، وَكُلُّ عَامٍ يَمْضِي يُبْعِدُكُمْ عَنْ دُنْيَاكُمْ، وَيُقَرِّبُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ، فَخُذُوا مِنَ الزَّادِ مَا يَنْفَعُكُمْ، وَاعْتَبِرُوا بِمُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ

أَعْمَارِكُمْ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي نَعِيشُهُ وَنَعْرِفُ لَهُ مَاضِيًا وَحَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا أُعْجُوبَةٌ مِنَ الْأَعَاجِيبِ، وَآيَةٌ بَاهِرَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجِيبِ صُنْعِهِ ﷻ.. آيَةٌ بَيِّنَةٌ انْبَرَى لِمَعْرِفَتِهَا الدَّارِسُونَ، وَاحْتَارَتْ فِيهَا الْعُقُولُ، وَتَخَبَّطَ فِيهَا الْبَشَرُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمُنْذُ الْقِدَمِ وَالْإِنْسَانُ يُحَاوِلُ كَشْفَ كُنْهِ الزَّمَنِ وَحَدَّهُ وَبِدَايَتَهُ وَطَرِيقَةَ سَيْرِهِ، فَمَا يُدْرِكُ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِهِ -بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ- إِلَّا وَيَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ ﷻ، وَيَكْتَشِفُ مَا مَضَى مِنْ جَهْلِهِ وَعَجْزِهِ، وَمَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ حَقَائِقِ الزَّمَنِ فَإِنَّهُ يَتَخَبَّطُ فِيهِ يَمِينًا وَشِمَالًا بِنَظَرِيَّاتٍ وَفَرْضِيَّاتٍ، حَتَّى يَأْتِيَ لَاحِقٌ فَيَكْشِفُ خَطَأَ السَّابِقِينَ وَتَخَبُّطَهُمْ.

وَمِنْ عَجِيبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ أَدِلَّةِ عَجْزِ الْبَشَرِ وَضَعْفِهِمْ: أَنَّ أَرْقَى الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَقْوَاهَا تَفْكِيرًا وَحِدَّةً وَاسْتِحْضَارًا وَتَحْلِيلًا؛ يَعْسُرُ عَلَيْهَا تَحْدِيدُ مَفْهُومِ الزَّمَنِ فِي الْوُجُودِ، وَإِنْ كَانَ أَخْمَلَ الْبَشَرِ وَأَغْبَاهُمْ يَجِدُونَ سُهُولَةً فِي الشُّعُورِ بِالزَّمَنِ وَإِدْرَاكِ أَثَرِهِ.

لَقَدْ كَرَّسَ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْقُدَمَاءِ، وَأَهْلُ الْكَلَامِ، وَعُلَمَاءُ الْفَلَكِ عُقُولَهُمْ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الزَّمَنِ، وَظَنَّ أَكْثَرُهُمْ أَنَّ الزَّمَنَ فِي الْأَرْضِ مُطْلَقٌ لَا يَتَنَاهَى أَبَدًا، فَلَيْسَ لَهُ بِدَايَةٌ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَمِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ الْخَاطِئِ انْبَثَقَتْ مَذَاهِبُ الدَّهْرِيَّةِ، وَالْقَوْلُ بِالتَّنَاسُخِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ.

وَفِي الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ مِنْ آفَاقِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا تَوَصَّلُوا بِهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ ظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا عَلَى أَيْدِي

عُلَمَاءِ الْفِيزْيَاءِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ، فَاكْتَشَفُوا النِّسْبِيَّةَ الَّتِي مِنْهَا نِسْبِيَّةُ الزَّمَنِ، وَأَنَّ الزَّمَنَ الَّذِي تَعِيشُهُ المَخْلُوقَاتُ عَلَى الْأَرْضِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، وَهُوَ غَيْرُ الزَّمَنِ الَّذِي يُوجَدُ فِي الْعَوَالِمِ الْأُخْرَى لَا مِنْ جِهَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الْفُصُولِ وَالْأَعْوَامِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَدَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي النُّصُوصِ المُعْتَنِيَةِ بِالزَّمَنِ، الْكَاشِفَةِ لِكَثِيرٍ مِنْ حَقَائِقِهِ وَأَسْرَارِهِ، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ وَعَلَامَاتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَعْسُرُ إِحْصَاؤُهُ بِدِقَّةٍ مِنْ كَثْرَتِهِ وَتَنَوُّعِهِ، وَاللهُ تَعَالَى سَمَّى سُوَرًا بِالزَّمَنِ أَوْ أَجْزَاءٍ مِنْهُ أَوْ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْفَجْرِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى وَالْعَصْرِ، وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِكَثِيرٍ مِنْهَا، وَقَدْ حَاوَلَ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ أَنْ يُحْصِيَ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَجَمَعَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مِئَةِ مَوْضِعٍ(١).

وَالمُتَقَرَّرُ فِي عَقِيدَةِ المُسْلِمِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ الزَّمَنِ وَمُدَبِّرُهُ، وَخَالِقُ عَلَامَاتِهِ وَآيَاتِهِ وَهِيَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشُّهُورِ وَالْفُصُولِ؛ فَبِالشَّمْسِ يُعْرَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَتُشْرِقُ لِيَبْدَأَ النَّهَارُ، وَتَغْرُبُ لِيَبْدَأَ اللَّيْلُ، وَيَهِلُّ الْقَمَرُ لِيَبْدَأَ الشَّهْرُ، وَيَضْمَحِلُّ لِيَنْتَهِيَ الشَّهْرُ، وَبِالنُّجُوم تُعْرَفُ الْفُصُولُ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، وَبِهَا يَهْتَدِي المُسَافِرُونَ، وَيَزْرَعُ الزَّارِعُونَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدْبِيرِهِ، وَتَسْخِيرِهِ لِمَنَافِعِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصّلت: ٣٧]، وَدَلَّتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى

---

(١) ينظر: مفهوم الزمن في القرآن الكريم رسالة ماجستير لمحمد موسى باب عمى (٣٧) وهو من أجود المراجع في تقسيم الألفاظ الواردة في القرآن الكريم المتعلقة بالزمن ومعانيها ومدلولاتها، وواضح أن الباحث بذل فيه جهدًا كبيرًا، جزاه الله تعالى خيرًا.

أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ مُسَخَّرَةٌ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

وَمِنْ مَنَافِعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَنَتَائِجِ تَسْخِيرِهَا لِلْبَشَرِ: حِسَابُ الزَّمَنِ، وَضَبْطُ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالْفُصُولِ وَالْأَعْوَامِ، وَتِلْكَ عِلَّةٌ لِخَلْقِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وَلِلزَّمَنِ غَايَةٌ كَمَا أَنَّ لِعَلَامَاتِهِ غَايَةً، وَجَرَيَانُ الزَّمَنِ إِنَّمَا هُوَ بِجَرَيَانِ عَلَامَاتِهِ، وَإِذَا تَوَقَّفَتْ عَلَامَاتُ الزَّمَنِ تَوَقَّفَ هُوَ عَنِ الْمَسِيرِ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

وَآيَاتُ الزَّمَنِ فِي الدُّنْيَا -وَهِيَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ- تَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ الدُّنْيَا، وَبِزَوَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ يَنْتَهِي زَمَنُ الدُّنْيَا ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٩]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وَفِي غَيْرِهَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١، ٢]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلَمَّا كَانَ الزَّمَنُ وَعَلَامَاتُهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، يَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ، وَيَخْضَعُ لِحُكْمِهِ

---

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣٠٢٨).

وَتَدْبِيرِهِ؛ فَإِنَّهُ ﷻ قَادِرٌ عَلَى إِيقَافِ عَمَلِهِ فِي حَقِّ أَشْخَاصٍ بِأَعْيَانِهِمْ فَلَا يَعْمَلُ فِيهِمُ الزَّمَنُ مَا يَعْمَلُهُ فِي غَيْرِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فَهَذَا تَوَقَّفَ عَمَلُ الزَّمَنِ فِي جَسَدِهِ وَفِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِئَةَ سَنَةٍ، وَعَمِلَ الزَّمَنُ فِي حِمَارِهِ فَكَانَ عِظَامًا أَحْيَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَرَّةً أُخْرَى وَكَسَاهَا لَحْمًا[٣]، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى اسْتَأْنَفَ عَمَلُ زَمَنِهِ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ، وَجَاءَ فِي أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ بَنِيهِ مَاتُوا، وَبَنِي بَنِيهِ هَرِمُوا وَهُمْ شُيُوخُ أَقْوَامِهِمْ فِي صُدُورِ مَجَالِسِهِمْ، وَهُوَ جَدُّهُمْ وَلَا يَزَالُ شَابًّا يَافِعًا[٤].

وَأَبْيَنُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْظَمُ دَلَالَةً عَلَى تَوَقُّفِ عَمَلِ الزَّمَنِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى: قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ حِينَ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آذَانِهِمْ، فَنَامُوا ثَلَاثَةَ قُرُونٍ وَتِسْعَ سَنَوَاتٍ .. تَوَقَّفَ خِلَالَهَا عَمَلُ الزَّمَنِ فِيهِمْ فَلَمْ تَبْلَ أَجْسَادُهُمْ، وَلَا انْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ، وَلَا هَرِمُوا، وَلَمْ يُحْسَبْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ، وَاسْتَأْنَفُوا يَوْمَهُمْ بَعْدَ

---

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن العظام المذكورة في الآية ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ عظامه هو، والتحقيق أن المقصود بها عظام حماره، كما هو ظاهر من سياق الآية، والله أعلم، وينظر: مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي (١٧١-١٧٢).

(٤) نقل ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «مات وهو ابن أربعين سنة وابنه ابن عشرين سنة، ثم بعث وهو ابن أربعين سنة وابنه ابن عشرين ومئة ...» زاد المسير (١/ ٣١١-٣١٢)، وينظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٩٥).

نَوْمِهِمْ، وَأَرْسَلُوا أَحَدَهُمْ بِوَرِقِهِمْ إِلَى مَدِينَتِهِمْ لِيُحْضِرَ لَهُمْ طَعَامًا فَإِذَا الْمَدِينَةُ تَغَيَّرَتْ، وَإِذَا جِيلُهُمْ قَدْ فَنِيَ، وَخَلَفَتْهُ أَجْيَالٌ فِي إِثْرِ أَجْيَالٍ كُلُّهَا فَنِيَتْ، وَقَدْ تَوَقَّفَ عَمَلُ زَمَنِهِمْ بِنَوْمِهِمْ، فَسُبْحَانَ مَنْ حَبَسَ عَمَلَ الزَّمَنِ فِيهِمْ، وَأَجْرَاهُ فِي غَيْرِهِمْ، وَكَانُوا آيَةً مِنَ الآيَاتِ يُتْلَى خَبَرُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦].

وَقَدْ يَكُونُ حَبْسُ الزَّمَنِ عَامًّا بِحَبْسِ آيَتِهِ وَهِيَ الشَّمْسُ، فَيَتَوَقَّفُ الزَّمَنُ بِتَوَقُّفِهَا، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، كَمَا حَصَلَ لِيُوشَعَ بنِ نُونَ عليه السلام، فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: «**غَزَا فَدَنَا من الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أو قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[٥]. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ**»[٦]، وَفِي هَذَا الْحَبْسِ تَوَقُّفٌ لِلزَّمَنِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

---

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم» (٢٩٥٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٢٥)، وأبو بكر القطيعي في جزء الألف دينار (٢٣٩)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٣٤)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٥٣٩٩)، وصححه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١).

وأخرج الطبراني في الأوسط (٤٠٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار» وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٧، ٢٩٨)، والمناوي في فيض القدير (٥/ ٤٤٠).

وظاهر هذا الحديث معارض لحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يفيد بأن الشمس ما حبست إلا ليوشع بن نون عليه السلام، وقد جاء بصيغة الحصر. =

وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الزَّمَنِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَمُدُّهُ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ الْوَاحِدُ كَقَدْرِ سَنَةٍ أَوْ شَهْرٍ أَوْ جُمُعَةٍ؛ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ مُكْثِ الدَّجَّالِ فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ: «**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» وَهُوَ مَدٌّ حَقِيقِيٌّ، بِدَلِيلِ قَوْلِ الصَّحَابَةِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: **لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**»(٧).

وَمِنْ عَجِيبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ عَلَامَةَ الزَّمَنِ قَدْ تَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ، فَيَكُونُ رُجُوعُهَا رُجُوعًا لِلزَّمَنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «**تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟** قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

فَرُجُوعُ عَلَامَةِ الزَّمَنِ وَهِيَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ هُوَ رُجُوعٌ لِلزَّمَنِ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي رَجَعَتْ فِيهَا الشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَوِيلَةٌ جِدًّا، حَتَّى إِنَّ النَّائِمَ يَسْتَيْقِظُ وَسْطَهَا، وَالْقَائِمَ تَطُولُ

= قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١): «ووجه الجمع أن الحصر محمول على ما مضى للأنبياء قبل نبينا ﷺ، فلم تحبس الشمس إلا ليوشع، وليس فيه نفي أنها تحبس بعد ذلك لنبينا محمد ﷺ» اهـ.

(٧) أخرجه من حديث النواس بن سمعان ﷺ: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣٠٢٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

عَلَيْهِ، وَيَدُوكُ النَّاسُ فِيهَا إِذَا صَلَّوُا الْفَجْرَ يَوْمَهَا، وَيَعْجَبُونَ مِنْ تَأَخُّرِ الشَّمْسِ عَنِ الشُّرُوقِ فَتَفْجَأُهُمْ بِطُلُوعِهَا مِنَ المَغْرِبِ(٩).

فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهَا وَأَجْرَاهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ أَمَرَهَا فَأَطَاعَتْهُ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَوْنُ الزَّمَنِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَا يُحِيطُ الزَّمَنُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ وَمُدَبِّرُهُمْ، وَهُوَ ﷻ خَالِقُ الزَّمَنِ، وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَظِيمَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَانِ وَالمَكَانِ، قَالَ اللَّهُ

(٩) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٥).

تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣][١٠]. نُقِلَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَرَّازِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِجَمْعِهِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مُجْتَمِعٌ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ مَا يَتَضَادُّ فِي حَقِّ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَكُونُ أَوَّلًا آخِرًا بَاطِنًا ظَاهِرًا» اهـ[١١].

وَهُنَا يَقِفُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَلِكَ، وَمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّتِهِ؛ لِعَجْزِهِ وَقُصُورِهِ؛ وَلِكَمَالِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا ثَمَّ إِلَّا الْإِيمَانُ وَالتَّسْلِيمُ، وَتَعْظِيمُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَوِ الْإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَعْطِيلُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِثْبَاتِ وَالْإِجْلَالِ، وَهَذَا هُوَ الْمَزْلَقُ الْخَطَرُ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ الْفَلَاسِفَةُ وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَدِيمًا، وَغَرِقَتْ فِي لُجَّتِهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ، حِينَ أَخْضَعُوا صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ الْمَحْدُودَةِ، وَلَوْ عَرَفُوا مِقْدَارَهُمْ لَعَلِمُوا أَنَّ ذَا الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ سُبْحَانَهُ لَا يُحِيطُ بِهِ الْعَقْلُ الْقَاصِرُ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَإِذَا كَانَتْ كِبَارُ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ عَجَزَتْ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ الزَّمَنِ وَمَفْهُومِهِ فِي الْوُجُودِ، وَهُمْ يَعِيشُونَهُ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ، وَالزَّمَنُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ يُجِيلُونَ عُقُولَهُمْ فِي كُنْهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؟! مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أُمِرَ الْعِبَادُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنُهُوا عَنِ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِهِ ﷻ.

وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُ الْآيَةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ

---

(١٠) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤/ ٣٠١)، وينظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٣-٥٤٤).
(١١) الجواب الصحيح (٤/ ٣٠١).

حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٢).

وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ(١٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ أَنْتَ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ فَلَهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ وَظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، حَتَّى الْخَطْرَةُ وَاللَّحْظَةُ وَالنَّفَسُ وَأَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ؛ فَأَوَّلِيَّةُ اللَّهِ ﷻ سَابِقَةٌ عَلَى أَوَّلِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَآخِرِيَّتُهُ ثَابِتَةٌ بَعْدَ آخِرِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ . . .» اهـ(١٤).

وَمُرُورُ الزَّمَنِ وَعَمَلُهُ فِي النَّاسِ قَدْ أَفْسَدَ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ، فَيَنْقُلُهُمُ الزَّمَنُ مِنْ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الشَّيْخُوخَةِ وَالضَّعْفِ، وَجَرَيَانُ الزَّمَنِ يُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى الْمَوْتِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَكَانَ الزَّمَنُ آيَتَهُ سُبْحَانَهُ الَّتِي قَدَّرَهَا لِتُحَقِّقَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ الْعَظِيمَةَ. قَالَ الْخَلِيفَةُ الْمَنْصُورُ لِلرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ: مَا أَطْيَبَ الدُّنْيَا لَوْلَا الْمَوْتُ! قَالَ الرَّبِيعُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا طَابَتْ إِلَّا بِالْمَوْتِ، قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: لَوْلَا الْمَوْتُ لَمْ تَقْعُدْ هَذَا الْمَقْعَدَ(١٥).

وَلَمَّا كَانَ الزَّمَنُ يَجْرِي بِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْسِدَ عَلَيْهِمْ نَعِيمَهُمْ فِيهَا كَانَ مِنْ نَعِيمِ

---

(١٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) (٦٩٨٢).

(١٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات، (٣٤٨١)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٨)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه (٣٨٧٣)، وأحمد (٢/ ٣٨١).

(١٤) طريق الهجرتين (٤٧).

(١٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣٥)، والوافي بالوفيات (١٤/ ٥٩).

الْآخِرَةِ أَنَّ الزَّمَنَ لَا يَعْمَلُ فِيهِمْ عَمَلَهُ؛ فَأَعْمَارُهُمْ ثَابِتَةٌ فِي ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً(١٦)، وَهُوَ مُنْتَهَى قُوَّةِ الشَّبَابِ وَاكْتِمَالِهِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَبْلَى شَبَابُهُمْ(١٧)، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] وَتَوَقُّفُ عَمَلِ الزَّمَنِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ مِنْ كَمَالِ نَعِيمِهِمْ وَدَوَامِهِ.

وَالْمُؤْمِنُ يَقْرَأُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَيَعْلَمُهُ، وَيَرَى أَنَّ الزَّمَنَ يَجْرِي بِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى

---

(١٦) جاء في ذلك:

١- حديث معاذ رضي الله عنه قال قال نبي الله ﷺ: «**يبعث المؤمنون يوم القيامة جردًا مردًا مكحلين بني ثلاثين سنة**» أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢)، وفي رواية للترمذي: «**أبناء ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين**» وقال: حسن غريب، وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة مرسلًا ولم يسندوه (٢٥٤٥)، ورواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢١)، والبزار (٢٦٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٤) رقم (١١٨)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٥٨).

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مُردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في سبعة أذرع**» أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٥٨).

٣- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين سنة جردًا مرادًا مكحلين ...**» أخرجه أبو بكر بن أبي داود في البعث (٦٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٨٢)، والطبراني في الصغير (١١٦٤)، والضياء في المختارة (٢٧١٧).

(١٧) جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: **لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، مِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، حَصْبَاؤُهَا الْيَاقُوتُ وَاللُّؤْلُؤُ، وَتُرْبَتُهَا الْوَرْسُ وَالزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، وَيَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا يَبْلَى شَبَابُهُمْ، وَلَا تُخَرَّقُ ثِيَابُهُمْ**» أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥)، والطبراني في الأوسط (١١/ ٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤١٥٦).

الْهَرَمِ وَالمَوْتِ، وَالْعَاقِلُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، فَكَرَّسَ دُنْيَاهُ الْفَانِيَةَ بِفَنَاءِ زَمَنِهَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِخُلُودِهِ فِي نَعِيمِ الآخِرَةِ، فَلَا يَجْرِي بِهِ زَمَنٌ فِيهَا إِلَى الْهَرَمِ وَالمَوْتِ، فَأَعِدُّوا لِلْقِيَامَةِ عُدَّتَهَا، وَخُذُوا مِنْ مُرُورِ الْأَيَّامِ وَانْتِهَاءِ الْأَعْوَامِ مُعْتَبَرًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٣٤- حقيقة الزمن (٢)
﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾

٢٨/ ١٢/ ١٤٢٩هـ

الحَمْدُ للَّهِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ؛ جَعَلَ فِي الْكَوْنِ مِنَ الآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِه، وَحُسْنِ خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ؛ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦، ٧]. نَحْمَدُهُ عَلَى وَافِرِ نِعَمِهِ، وَجَزِيلِ عَطَايَاهُ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ مَنِّهِ وَهِدَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ ابْتِلَاءٍ لِعِبَادِهِ، وَظَرْفًا لِأَعْمَالِهِمْ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُجْزَوْنَ بِهَا؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَعْرَفُ الخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِحَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَمَصِيرِهَا، كَانَ ﷺ يَدْعُو، فَيَقُولُ فِي دُعَائِه: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**»(١)، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ تَرَضَّى عَنْهُمْ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الكَارِهِينَ لَهُمْ، وَالحَاقِدِينَ عَلَيْهِمْ؛ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ كُلَّ عَامٍ يَنْقَضِي عَلَيْنَا

---

(١) أخرجه من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما: النسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٤)، وأحمد (٤/ ٢٦٤)، وأبو يعلى (١٦٢٤)، وصححه ابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٧٠٥).

فَإِنَّهُ مِنْ أَعْمَارِنَا، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِنَا، وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَيْنَا؛ فَتَزَوَّدُوا مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاحْذَرُوا الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَفِتْنَتَهَا؛ فَإِنَّهَا -وَإِنِ اخْضَرَّتْ لِأَهْلِهَا- يُوشِكُ أَنْ تَصْفَرَّ وَتَزُولَ، وَيُوشِكُ جَامِعُهَا أَنْ يَتْرُكَ مَا جَمَعَ، وَيُوشِكُ بَانِيهَا أَنْ يُفَارِقَ مَا بَنَى، وَلَا يَبْقَى إِلَّا العَمَلُ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: الزَّمَنُ آيَةٌ احْتَارَ البَشَرُ فِيهَا، وَعَجِبُوا مِنْهَا أَشَدَّ العَجَبِ، وَمَعَ أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي الزَّمَنِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ كُنْهَهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ بِدَايَتَهُ وَنِهَايَتَهُ، وَتَخَبَّطُوا فِيهِ تَخَبُّطًا كَبِيرًا، وَأَنْكَرَ أَقْوَامٌ مِنْهُمْ أَنَّ لِلزَّمَنِ بِدَايَةً وَنِهَايَةً: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَالكَلَامُ عَنِ الزَّمَنِ وَآيَاتِهِ وَعَلَامَاتِهِ وَآثَارِهِ طَوِيلٌ جِدًّا، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةَ الَّتِي ذَكَرَتِ الزَّمَنَ -أَوْ شَيْئًا مِنْهُ- قَارَبَتْ أَرْبَعمِائَةِ آيَةٍ[٢].

وَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِجُمْلَةٍ مِنْ عَلَامَاتِهِ وَأَجْزَائِهِ، وَسُمِّيَتْ سُوَرٌ فِي القُرْآنِ بِبَعْضِهِ وَبَعْضِ عَلَامَاتِهِ؛ كَـ﴿ٱلْفَجْرِ﴾، وَ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، وَ﴿ٱلَّيْلِ﴾، وَ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وَ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ أَجْزَاءِ الزَّمَنِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَعَلَامَتُهُمَا: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ؛ فَالقَمَرُ لِلَّيلِ، وَالشَّمْسُ لِلنَّهَارِ، جَاءَ ذِكْرُهُمَا كَثِيرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ عِنْدَ الْبَشَرِ، فَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ هُمَا زَمَنُ الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ لِلدُّنْيَا وَلِلآخِرَةِ.

---

(٢) ينظر: مفهوم الزمن في القرآن الكريم، محمد موسى بابا عمي (٤٧).

إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَانِ عَلَى وُجُودِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَعَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَعَلَى حُسْنِ خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، جَاءَ ذِكْرُهُمَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا فِي سِيَاقِ بَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلُزُومِ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهِ، وَصَرْفِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ؛ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَاتٌ مُسَخَّرَاتٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ؛ فَلَا يَطَالُهَا الْبَشَرُ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَغْيِيرِهَا أَوْ تَأْخِيرِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الإِفْسَادَ فِيهَا كَمَا أَفْسَدُوا فِي الأَرْضِ؛ بَلْ هِيَ آيَاتٌ مُسَخَّرَاتٌ لِلْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، وَالأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ؛ بَلْ وَمُسَخَّرَاتٌ لِلْحَيَوَانِ، وَالطَّيْرِ وَالزَّوَاحِفِ، كُلُّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ -مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ- أَنْ يَحُولَ بَيْنَ أَهْلِ الأَرْضِ وَبَيْنَ الِانْتِفَاعِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ.

وَنَجِدُ النَّصَّ عَلَى آيَةِ التَّسْخِيرِ هَذِهِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ؛ ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الزمر: ٥].

وَكَوْنُ اللَّيْلِ ظَلَامًا، وَالنَّهَارِ ضِيَاءً آيَةٌ مِنَ الآيَاتِ الْعَجِيبَةِ، وَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ

تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ فَفِي الضِّيَاءِ يَعْمَلُونَ وَيَكْدَحُونَ، وَفِي الظَّلَامِ يَنَامُونَ وَيَرْتَاحُونَ، وَقَدْ ذَكَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الآيَةِ وَالنِّعْمَةِ فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [النمل: ٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

وَذَكَرَ لَنَا رَبُّنَا ﷻ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَ الدُّنْيَا لَيْلًا بِلَا ضِيَاءٍ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهَا نَهَارًا بِلَا لَيْلٍ؛ وَلَكِنَّهُ ﷻ رَحِمَ عِبَادَهُ، فَعَاقَبَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِيَسْتَقِيمَ عَيْشُهُمْ، وَتُعْمَرَ أَرْضُهُمْ، وَتَصْلُحَ أَحْوَالُهُمْ؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَدُخُولُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الآخَرِ حَتَّى يَمْحُوَهُ، وَأَخْذُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ زَمَنِ الآخَرِ صَيْفًا وَشِتَاءً . . كُلُّ ذَلِكَ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُتَصَرِّفَ فِيهِمَا بِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ أَيَّةَ قُوَّةٍ -مَهْمَا بَلَغَتْ- لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْنَعَ تَعَاقُبَهُمَا، وَلَا أَنْ تَأْخُذَ مِنَ اللَّيْلِ لِلنَّهَارِ، وَلَا مِنَ النَّهَارِ لِلَّيْلِ؛ وَلِذَلِكَ يَضْبِطُ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ وَنَوْمَهُمْ عَلَى وَفْقِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِعَجْزِهِمْ عَنْ تَغْيِيرِ ذَلِكَ أَوْ تَعْدِيلِهِ، وَنَجِدُ هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمَ

مَذْكُورًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤]، وَفِي رَابِعَةٍ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وَفِي خَامِسَةٍ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

وَلِعَظَمَةِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ -اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ- أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى- بِهِمَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ؛ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِعَلَامَتَيْهِمَا الشَّمْسِ وَالقَمَرِ؛ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١، ٢].

وَالمُلَاحَظُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- تَقْدِيمُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ فِي الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، وَالعَرَبُ كَانُوا يَجْعَلُونَ النَّهَارَ تَبَعًا لِلَّيْلِ، وَعَلَى هَذَا جَاءَتْ أَغْلَبُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ؛ فِي الصِّيَامِ، وَالفِطْرِ، وَالأَعْيَادِ، وَغَيْرِهَا، بَيْنَمَا كَانَ الأَعَاجِمُ يُقَدِّمُونَ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ.

وَالشَّرِيعَةُ الغَرَّاءُ حَدَّدَتْ بِدَايَةَ اللَّيْلِ، مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ، وَبِدَايَةَ النَّهَارِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ كَمَا جَاءَ فِي نُصُوصِ الصِّيَامِ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي سَاجِدٌ فَاسْجُدُوا مَعِيَ كَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ

---

(٣) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب متى يحل فطر الصائم (١٨٥٣)، ومسلم في الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار (١١٠٠).

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ دُونَ سِوَاهُ، وَأَغْلَبُ الآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا ذِكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِ رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمْرِ الْعِبَادِ بِلُزُومِ تَوْحِيدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَذُيِّلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ بِالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

وَمِنْ عَظِيمِ الِاعْتِبَارِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ تَعَاقُبَهُمَا يُنْقِصُ أَعْمَارَنَا، وَيُقَرِّبُ آجَالَنَا، وَيُعَجِّلُ آخِرَتَنَا، وَأَنَّ كُلَّ عَامٍ يَمْضِي فَهُوَ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، بِمَا أَوْدَعْنَاهُ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَالعُلَمَاءُ وَالحُكَمَاءُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَيَعْمَلُونَ صَالِحًا بِمُقْتَضَاهُ، وَيَعِظُونَ النَّاسَ بِهِ.

قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدَمِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ، نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ عَمَلِي»(٤).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»(٥).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ، فَاعْمَلْ أَنْتَ فِيهِمَا»(٦).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ بَيْنَ مَطِيَّتَيْنِ يُوضِعَانِكَ: اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ، وَالنَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ، حَتَّى يُسْلِمَاكَ إِلَى الآخِرَةِ»(٧).

وَقَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاحِلُ يَنْزِلُهَا

---

(٤) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، للشيخ عبد العزيز السلمان (١/ ٢٢١)، ولم أعثر على هذا الأثر في كتب المتقدمين.

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥١١)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٧١).
وأخرجه من قول الحسن البصري: ابن المبارك في الزهد (٨٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٥) وعزاه الحافظ ابن رجب لأبي الدرداء والحسن جميعًا في جامع العلوم والحكم (٧).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا منسوبًا لبعض الحكماء في مكارم الأخلاق (٤٧)، وذكره الزمخشري منسوبًا لعمر بن عبد العزيز في ربيع الأبرار (١/ ٣٠٥).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (١/ ٤٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٥١٢).

النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً، حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَافْعَلْ»(٨).

وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ، فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمُ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ»(٩).

فَلْنَكُنْ كَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الأَخْيَارُ؛ حِفْظًا لِأَوْقَاتِنَا، وَإِقْبَالًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّنَا، وَعَمَلًا لِآخِرَتِنَا. وَلْنَعْلَمْ أَنَّهُ لَا رَاحَةَ فِي الدُّنْيَا، إِنْ هِيَ إِلَّا عَمَلٌ فِيمَا يَنْفَعُ، أَوْ فِيمَا يَضُرُّ، وَالرَّاحَةُ الكَامِلَةُ فِي الجَنَّةِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَتَى مَا يَنْفَعُهُ، وَجَانَبَ مَا يَضُرُّهُ. جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَصَدْتُكَ مِنْ خُرَاسَانَ؛ أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، قَالَ لَهُ: سَلْ، قَالَ: مَتَى يَجِدُ العَبْدُ طَعْمَ الرَّاحَةِ؟ قَالَ: عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الجَنَّةِ»(١٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المُعْتَبِرِينَ بِتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.

❁ ❁ ❁

---

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٤٥)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٩٣).

(٩) صيد الخاطر (٣-٤).

(١٠) أخرجه أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٣)، وابن مفلح في المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (٩٢٧).

٣٣٥- سنن الله تعالى في التدافع

١٧/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: سُنَنُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ قُوَّةٍ مَهْمَا بَلَغَتْ أَنْ تُعَطِّلَ لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا، أَوْ تَرُدَّ لَهُ قَدَرًا، أَوْ تُبْطِلَ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٨]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النَّحْل: ٤٠]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [الْقَمَر: ٥٠].

وَمِنْ سُنَّتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ قَدَّرَ التَّدَافُعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَبَيْنَ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ [الْحَجّ: ٤٠].

وَمِنْ سُنَّتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ شَرَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ مُدَافَعَةَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَارَعَتَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَمُقَاتَلَتَهُمْ بِالْيَدِ وَالسِّلَاحِ.

لَقَدْ كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ إِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ؛ كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا بِالدَّبُورِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ، وَقَوْمَ شُعَيْبٍ بِيَوْمِ الظُّلَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْغَرَقِ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَمْرِ الْجِهَادِ فِي الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الْقَصَص: ٤٣][١].

وَسَيَظَلُّ الْجِهَادُ قَائِمًا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ إِلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ الدَّجَّالَ وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢]، وَثَبَتَ أَنَّ الْجِهَادَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالمَغْنَمُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٣].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٦٩٧) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه.

وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ، وَكَلَّفَ بِهِ الْعِبَادَ: أَنْ جَعَلَ الْأَيَّامَ دُوَلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَتَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى تَكُونُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِلْعِبَادِ، وَتَمْحِيصًا لِلْقُلُوبِ، وَتَمْيِيزًا لِلثَّابِتِ عَلَى الْحَقِّ مِنَ النَّاكِصِ عَلَى عَقِبَيْهِ، الْمُبَدِّلِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٠، ١٤١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٧٩]، وَفِي بَرَاءَةَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ﴾ [التَّوْبَة: ١٦]، وَفِي الْعَنْكَبُوتِ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣]، وَفِي الْقِتَالِ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، وَفِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣١].

ثُمَّ كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ كَتَبَ الْغَلَبَةَ لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ وَالْعَدْلِ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، نَاصِرِينَ لِدِينِهِ، مُسْتَمْسِكِينَ بِشَرِيعَتِهِ، فَإِنْ غَلَبَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ فَبِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَمَعْصِيَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ. وَهَذِهِ السُّنَّةُ الْعَظِيمَةُ جَاءَتْ بِذِكْرِهَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْحَجّ: ٤٠]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ: ﴿وَعَدَ

ﷲُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١-١٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وَلَكِنْ إِنْ أَخلَّ أَهْلُ الْحَقِّ بِهَذَا الشَّرْطِ الْمُتَمَثِّلِ فِي نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِهَا، فَقَدُوا سَبَبَ النَّصْرِ، وَعُوقِبُوا بِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ؛ تَذْكِيرًا لَهُمْ وَتَأْدِيبًا، لَعَلَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ، وَبِدِينِهِمْ يَسْتَمْسِكُونَ، وَعَنِ الْمَعَاصِي يَنْتَهُونَ.

وَهَذَا التَّأْدِيبُ وَالتَّذْكِيرُ ذَاقَ شِدَّتَهُ وَمَرَارَتَهُ أَفَاضِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ حِينَ عَصَى الرُّمَاةُ فِي أُحُدٍ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ، فَانْقَلَبَ مِيزَانُ الْمَعْرَكَةِ لِصَالِحِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَفَّ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْقِتَالِ إِلَّا حِمَايَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ كَرْبٌ شَدِيدٌ، وَأَلَمَّتْ بِهِمْ مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَشُجَّ رَأْسُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَشَاعَ الْمُشْرِكُونَ قَتْلَهُ، وَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَمَثَّلَ الْمُشْرِكُونَ بِبَعْضِهِمْ، وَأُصِيبَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ تُبَيِّنُ أَنَّ مَعْصِيَتَهُمْ هِيَ سَبَبُ مُصَابِهِمْ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٢] إِلَى أَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٥].

إِنَّهَا حَقَائِقُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِخْبَارُ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، وَلَيْسَتْ تَكَهُّنَاتِ كُهَّانٍ، أَوِ اسْتِنْتَاجَاتِ خُبَرَاءَ، أَوْ تَحْلِيلَاتِ سِيَاسِيِّينَ، أَوْ تَخَبُّطَاتِ صَحَفِيِّينَ، لَا يَرَى أَكْثَرُهُمْ أَبْعَدَ مِنْ أَنْفِهِ، وَلَا يُدْرِكُونَ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَلَا يُحْسِنُونَ التَّلَقِّيَ عَنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ.

إِنَّ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ قَدْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ عَلَى أَيْدِي كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عُبَّادِ الْعِجْلِ وَعُبَّادِ الصَّلِيبِ، الْمَلْعُونِينَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﷺ؛ فَاسْتَبَاحُوا الدِّيَارَ، وَاحْتَلُّوا الْبُلْدَانَ، وَنَهَبُوا الثَّرَوَاتِ وَالْتَفُّوا عَلَى الْقَرَارَاتِ، وَصَارُوا يَلْعَبُونَ بِالْمُسْلِمِينَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ فِي مَجَالِسَ وَمُنَظَّمَاتٍ أُسِّسَتْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى الظُّلْمِ، وَرَاعِيَةً لَهُ مُنْذُ نَشْأَتِهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

لَقَدْ أَقَضَّتْ هَذِهِ الْحَالُ الْمُزْرِيَةُ مَضْجَعَ كُلِّ غَيُورٍ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَاحَ الْكُتَّابُ وَالْبَاحِثُونَ يُشَخِّصُونَ الْمُشْكِلَةَ، وَيَبْحَثُونَ أَسْبَابَهَا، وَيَقْتَرِحُونَ الْحُلُولَ لِعِلَاجِهَا؛ فَرَأَى أَقْوَامٌ مِنْهُمْ أَنَّ سَبَبَهَا تَمَسُّكُ الْمُسْلِمِينَ بِمَوْرُوثِهِمْ مِنْ دِينٍ وَكِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَأَنَّ الْعِلَاجَ فِي اطِّرَاحِ ذَلِكَ، وَأَخْذِ دِينِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُتَمَثِّلِ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ، وَالْحُرِّيَّةِ الْمَزْعُومَةِ، وَهُوَ مَا تَصِيحُ بِهِ أَكْثَرُ الْإِذَاعَاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ، وَيُسَوَّدُ فِي الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ مَعَ كُلِّ نَازِلَةٍ تَنْزِلُ وَأَزْمَةٍ تَتَجَدَّدُ، يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ، وَتَجْرِيدَهُمْ مِنْ مَصْدَرِ عِزِّهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَتَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمَاحِقُ، وَالدَّاءُ الْقَاتِلُ.

وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّ مَا أَصَابَ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ الرُّكُونِ إِلَى الدَّعَةِ

وَالْكَسَلِ، وَالتَّقَاعُسِ عَنِ الْعَمَلِ فِي المَجَالَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَكْثُرُ حَدِيثُ هَؤُلَاءِ عَنِ الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ، وَالتَّقَدُّمِ التِّقْنِيِّ، وَيَتَكَرَّرُ فِي خِطَابِهِمُ اسْتِخْدَامُ المُصْطَلَحَاتِ الانْهِزَامِيَّةِ، كَمُصْطَلَحَاتِ السَّلَامِ وَالتَّعَايُشِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَنَحْوِهَا، وَتَجِدُ اسْتِدْلَالَهُمْ بِأَقْوَالِ حُكَمَاءِ الْكُفَّارِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، حَتَّى فِي مَجَالَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ؛ مِمَّا يَنِمُّ عَنِ انْهِزَامٍ أَمَامَ المَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ، وَانْبِهَارٍ بِمُنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ، وَافْتِتَانٍ بِالدُّنْيَا، وَيَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِتَغْيِيرِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ المَأْلُوفَةِ إِلَى عَقْلِيَّةٍ جَدِيدَةٍ وَاسِعَةِ الْآفَاقِ، مُنْفَتِحَةٍ عَلَى الْآخَرِينَ، وَنِهَايَةُ مَقُولَاتِهِمْ تَلْتَقِي مَعَ مَقُولَاتِ الطَّائِفَةِ الْأُولَى، وَلَوْلَا سَابِقَةُ بَعْضِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ لَرُبَّمَا نَحَوْا نَحْوَهَا.

وَالْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ مَا أَصَابَ المُسْلِمِينَ مِنْ ذُلٍّ وَهَوَانٍ مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَهِيَ الَّتِي أَوْرَثَتِ التَّنَازُعَ وَالِاخْتِلَافَ، وَهِيَ سَبَبُ تَسَلُّطِ الظَّالِمِينَ وَالْكَافِرِينَ. وَكُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْبَابِ التَّخَلُّفِ وَالضَّعْفِ فَمَرَدُّهُ إِلَى المَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُهْزَمُونَ إِلَّا بِمَعْصِيَتِهِ. وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَةٌ وَاحِدَةٌ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا بَعْدَ عِزٍّ، وَقَلَبَتِ المَعْرَكَةَ مِنْ نَصْرٍ إِلَى هَزِيمَةٍ، فَكَيْفَ بِمِئَاتِ المَعَاصِي الَّتِي تَمْتَلِئُ بِهَا بُيُوتُنَا وَأَسْوَاقُنَا وَأَعْمَالُنَا؟!

كَمْ فِي المُسْلِمِينَ مِنْ مَعَاصٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ، كَمْ فِيهِمْ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، وَبَخْسٍ لِلْحُقُوقِ، وَتَضْيِيعٍ لِلْأَمَانَاتِ، وَتَرْكٍ لِلْوَاجِبَاتِ، وَمُسَارَعَةٍ إِلَى المُحَرَّمَاتِ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ كِبَارُ الْقَوْمِ وَأَصَاغِرُهُمْ.

إِنَّ الْوَاحِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ لَوْ أَحْصَى ذُنُوبَهُ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، سَوَاءٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ

بِحَقِّ رَبِّهِ ﷻ، أَوْ حَقِّ نَفْسِهِ، أَوْ حُقُوقِ الْآخَرِينَ مِنْ وَالِدٍ وَوَالِدَةٍ وَزَوْجٍ وَوَلَدٍ، وَذِي رَحِمٍ وَجِوَارٍ، وَحُقُوقِ وَظِيفَتِهِ وَعَمَلِهِ، وَحُقُوقِ رَعِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ وَأُمَّتِهِ. لَوْ أَحْصَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَعَلِمَ أَنَّ ذُنُوبَ يَوْمٍ وَاحِدٍ كَفِيلَةٌ بِحَجْبِ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنَزُّلِ عُقُوبَتِهِ، وَتَسَلُّطِ أَعْدَائِهِ، فَكَيْفَ إِذَا عَدَّهَا فِي عَامٍ كَامِلٍ، ثُمَّ جَمَعَ مَعَهَا ذُنُوبَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ.

إِنَّهَا الذُّنُوبُ الَّتِي تُورِثُ الذُّلَّ، وَتُسَبِّبُ التَّنَازُعَ وَالْفَشَلَ، وَتُؤَدِّي إِلَى الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وَتَدْفَعُ إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَضَعْفِ الْهِمَّةِ لِلْآخِرَةِ. وَلَيْسَ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْأَمْرِ كَلَامٌ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ سِيَاقَ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فِي مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ وَأَسْبَابِهِ؛ تَعْرِفُوا أَثَرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْأُمَّةِ، كَيْفَ وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ قُرِّرَ فِي غَيْرِ الْحَدِيثِ عَنْ أُحُدٍ فِي عَدَدٍ مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِذَلِكَ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّسَاء: ٧٩].

هَذَا هُوَ الدَّاءُ، وَالْعِلَاجُ فِي التَّوْبَةِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، شُعُوبًا وَحُكُومَاتٍ، وَإِلَّا كَانَ الْمَزِيدُ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَالظُّلْمِ وَالِاسْتِضْعَافِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرُدَّنَا إِلَيْهِ رَدًّا جَمِيلًا، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ ذُنُوبِنَا، وَأَلَّا يُؤَاخِذَنَا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ...

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ كَتَبَ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الْمَعَاصِيَ فَإِنَّهَا سَبَبُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَالْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَمَالِكُ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بِيَدِهِ ﷻ الذُّلُّ وَالْعِزُّ، وَالنَّصْرُ وَالْهَزِيمَةُ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَبْسُطُ وَيَقْبِضُ، وَيَرْفَعُ وَيَضَعُ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٦]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلْك: ١].

مَنِ ابْتَغَى الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا مِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا عِزَّةَ إِلَّا فِي دِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فَاطِر: ١٠] أَيْ: مَنْ أَرَادَهَا فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَتِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠]. وَلَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنَ قَدْحُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي دِينِهِ، أَوِ انْتِقَاصُهُمْ لَهُ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ فِيهِ مَهْمَا قَالُوا ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يُونُس: ٦٥]، وَلَمّا قَالَ المُنَافِقُ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المُنَافِقُون: ٨] كَانَ الْجَوَابُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ٨]، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ وَالَى الْكُفَّارَ يَطْلُبُ الْعِزَّةَ مِنْهُمْ فَقَدْ طَلَبَهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٩].

وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ، وَيُطْلَبُ ذَلِكَ مِنْهُ لَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ مَهْمَا عَلَا قَدْرُهُ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٠]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦]، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الرُّوم: ٥].

أَفَبَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الْوَاضِحَاتِ يَسُوغُ لِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَطْلُبَ الْعِزَّ وَالنَّصْرَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَبْتَغِيَهُ فِي غَيْرِ دِينِهِ، وَقَدْ قَضَى سُبْحَانَهُ بِأَنَّ مَنْ نَصَرَهُ بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِ فَسَوْفَ يَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ؟

أَيَسُوغُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَقْرَأُ كِتَابَهُ؟ أَوْ يَيْأَسَ مِنْ عَوْدَةِ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ؛ لِتَحْكُمَ فِي الْأَرْضِ بِالْعَدْلِ وَقَدِ امْتَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى عَزِيزٌ رَغْمَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ؟

نَحْتَاجُ فَقَطْ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ الَّتِي يَتَخَلَّصُ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِنْ ذُنُوبِهِ، وَيَسْتَشْعِرُ مَسْئُولِيَّتَهُ، وَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَيُرَاقِبُ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ، وَيَسْعَى فِي نَصْرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، مَعَ ثِقَتِهِ بِرَبِّهِ ﷻ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ

الدُّعَاءَ سِلَاحٌ لَا يُخْطِئُ، وَقُوَّةٌ لَا تُغْلَبُ، وَمَا تَسَلَّحَ الْفَاتِحُونَ مِنْ أَسْلَافِكُمْ بِسِلَاحٍ أَمْضَى مِنْهُ، سَأَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى-: «مَا كُنْتَ تَفْزَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَرْبِ؟ قَالَ: الدُّعَاءُ وَالصَّبْرُ»(٤).

وَلَمَّا صَافَّ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لِلتُّرْكِ، وَهَالَهُ أَمْرُهُمْ سَأَلَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَقِيلَ: هُوَ ذَاكَ فِي المَيْمَنَةِ، جَامِحٌ عَلَى قَوْسِهِ، يُبَصْبِصُ بِأُصْبُعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، قَالَ: «تِلْكَ الْأُصْبُعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ وَشَابٍّ طَرِيرٍ»(٥).

وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- إِذَا سَمِعَ أَنَّ الْعَدُوَّ دَاهَمَ المُسْلِمِينَ خَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ قَائِلًا: «إِلَهِي، قَدِ انْقَطَعَتْ أَسْبَابِي الْأَرْضِيَّةُ فِي دِينِكَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْإِخْلَادُ إِلَيْكَ، وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِكَ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِكَ، أَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»(٦).

فَثِقُوا بِرَبِّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَتَعَلَّقُوا بِهِ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَاسْأَلُوهُ فَإِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ ...

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ١٦٨) وهو في السير (٦/ ١٢١).

(٦) النوادر السلطانية لابن شداد (٤٠).

٣٣٦- الاستغفار (١)
استغفار الأنبياء عليهم السلام

١٣/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَسْتُرُ الْعُيُوبَ، وَيَجْبُرُ الْقُلُوبَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ نِعَمَهُ، وَيَسْتَجْلِبُ رِزْقَهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَسْتَوْجِبُ رِضَاهُ، وَيُطْفِئُ غَضَبَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الزَّلَّاتِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً[1]، وَكَانَ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم يَعُدُّونَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[2] صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٢٨٢)، والبخاري في الدعوات، باب استغفاره ﷺ (٦٣٠٧)، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة محمد ﷺ (٣٢٥٩)، وابن حبان (٩٢٥).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد(٢/ ٢١)، وعبد بن حميد (٧٨٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٧) برقم (٢٩٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، وقال: حسن صحيح غريب (٣٤٣٤)، وأبو داود في الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٦)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار (٣٨١٤).

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَاتَّقُوهُ: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ، وَشَرَّفَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُ بِدِينِهِ، وَأَعْطَاهُ عَقْلًا يَدُلُّهُ عَلَى رَبِّهِ، وَيَعْرِفُ بِهِ مَصَالِحَهُ؛ وَرَكَّبَ فِيهِ شَهْوَةً تَمِيلُ بِهِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ، وَتَصْرِفُهُ عَمَّا يَنْفَعُهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، يُزَيِّنُونَ لَهُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفَهَا وَمَتَاعَهَا؛ فَيَسْقُطُ فِي شَهَوَاتِهَا مَنْ يَسْقُطُ، وَيَعْصِمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا.

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ عَلَى عِبَادِهِ فَتَحَ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ لِلْمُذْنِبِينَ، وَشَرَعَ الِاسْتِغْفَارَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ فَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا اسْتَغْفَرَ لِذُنُوبِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وَيَقُولُ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

إِنَّ الِاسْتِغْفَارَ كَانَ دَأْبَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَهُوَ سِلَاحُ الْمُذْنِبِينَ ضِدَّ الشَّيْطَانِ وَأَعْوَانِهِ، وَكَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ أَهْلَكَهُ عُلُوُّهُ وَاسْتِكْبَارُهُ؛ فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْجَاهُ تَوْبَتُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ.

عَصَى إِبْلِيسُ فَاسْتَكْبَرَ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ وَالْعَذَابُ، وَعَصَى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَغْفَرَ وَأَنَابَ، فَقَبِلَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْبَتَهُ، وَغَسَلَ حَوْبَتَهُ، وَتَجَاوَزَ عَنْ خَطِيئَتِهِ؛ فَكَانَتِ التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ عَقِبَ الْخَطَإِ سُنَّةً سَنَّهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أحمد (٥/ ١٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَنِيهِ؛ فَإِنَّمَا يَقْتَفِي سُنَّةَ أَبِيهِ، وَمَنْ عَانَدَ وَاسْتَكْبَرَ فَهُوَ مُتَّبِعٌ لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ.

إِنَّ الِاسْتِغْفَارَ كَانَ أَوَّلَ طَاعَةٍ عَمِلَهَا إِنْسَانٌ بَعْدَ أَوَّلِ خَطَإٍ، وَتِلْكَ الطَّاعَةُ مِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِدَايَةٌ هُدِيَ إِلَيْهَا آدَمُ وَحَوَّاءُ عليهما السلام، وَبَقِيَتْ لِبَنِيهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧].

وَتِلْكَ الْكَلِمَاتُ هِيَ كَلِمَاتُ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَإِ، وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٢، ٢٣].

رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، قَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٤].

وَكَانَتِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام مُقْتَفِينَ أَثَرَ أَبِيهِمْ آدَمَ عليه السلام فِي مُلَازَمَةِ التَّوْبَةِ، وَكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ.

هَذَا نُوحٌ عليه السلام يَسْأَلُ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ الْمُشْرِكِ مِنَ الطُّوفَانِ، فَيُعَاتِبُهُ اللَّهُ عز وجل فِي

---

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٠)، وابن عساكر في تاريخه (٧/ ٤٣٣) والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر وابن مردويه (١/ ١٤٢)، وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما.

ذَلِكَ، وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّ ابْنَهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مُشْرِكٌ، وَيُحَذِّرُهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَيُبَادِرُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَطَلَبِ الرَّحْمَةِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧].

وَلَمَّا دَعَا نُوحٌ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ بَعْدَ أَنْ مَكَثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نُوح: ٢٨].

وَفَعَلَهَا بَعْدَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ أَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فَدَعَا بِدَعَوَاتٍ كَانَ مِنْهَا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤١]، وَكَانَ دُعَاؤُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِوَالِدِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١١٤].

وَحَاجَجَ قَوْمَهُ فِيمَا يَعْبُدُونَ فَحَجَّهُمْ، وَخَاصَمَهُمْ فَخَصَمَهُمْ، وَقَالَ فِي مَعْرِضِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ تَبَرَّأَ مِنْ أَصْنَامِهِمْ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٧-٨٢].

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو رَبَّهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المُمْتَحِنَة: ٥].

وَهَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقِرُّ بِذَنْبِهِ، وَيَعْتَرِفُ بِظُلْمِهِ، وَيَطْلُبُ مَغْفِرَةَ رَبِّهِ، حِينَ نَصَرَ مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ عَدُوِّهِ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ

هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْقَصص: ١٥، ١٦].

وَلَمَّا رَجَعَ عليه السلام مِنْ مُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- غَضِبَ أَشَدَّ الْغَضَبِ مِنْ عِبَادَةِ قَوْمِهِ لِلْعِجْلِ، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٠، ١٥١].

وَلَمَّا أَصَابَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَصَابَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالرَّجْفَةِ بَادَرَ مُوسَى عليه السلام بِالِاسْتِغْفَارِ وَطَلَبِ الرَّحْمَةِ؛ ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٥].

وَابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى دَاوُدَ عليه السلام بِخَصْمَيْنِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا عَلِمَ دَاوُدُ عليه السلام أَنَّهُ قَدْ فُتِنَ بِذَلِكَ بَادَرَ بِالِاسْتِغْفَارِ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: ٢٤، ٢٥].

وَابْتُلِيَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ، فَسَارَ عَلَى سُنَّةِ آبَائِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ؛ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٤، ٣٥].

وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَمَرَهُ رَبُّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَلَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [مُحَمَّد: ١٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النَّصر: ٣]. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَلَاةً بَعْدَ

أَنْ نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النَّصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٥)، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهَا ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْفَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقْصُورًا عَلَى صَلَاتِهِ فَحَسْبُ؛ بَلْ لَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَفِي كُلِّ أَحْيَانِهِ، حَتَّى قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﵄ يَعُدُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: «**أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(٨).

نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

---

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣)، والبخاري في التفسير، باب تفسير إذا جاء نصر الله والفتح (٤٩٦٨)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٦) هذه الرواية للبخاري في الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٧) مضى تخريجه في حاشية (١).

(٨) عزاه الحافظ في الفتح للنسائي وجوّد إسناده (١١/ ١٠١)، وعنه المباركفوري في شرح الترمذي (٩/ ١٠٢)، ولم أعثر عليه في المجتبى ولا في السنن الكبرى.

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَأَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْزَمُوا التَّوْبَةَ، وَأَكْثِرُوا الِاسْتِغْفَارَ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ أَمَانٌ مِنَ الْعَذَابِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣].

رَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه مَوْقُوفًا: قَالَ: «أَمَانَانِ كَانَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُفِعَ أَحَدُهُمَا وَبَقِيَ الْآخَرُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣]»(٩)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ فِيكُمْ أَمَانَانِ، مَضَتْ إِحْدَاهُمَا وَبَقِيَتِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(٩) أخرجه مرفوعًا الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨٢)، وتمام في فوائده كما في الروض البسام (١٣٤٥)، وفي سنده إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، وسفيان بن وكيع وهما ضعيفان، قال الترمذي: هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٦٩٠).

وجاء موقوفًا من طريق أخرى عند: أحمد (٤/ ٣٩٣)، قال: حدثنا وكيع، عن حرملة بن قيس عن محمد بن أيوب عن أبي موسى به، ورواه الحاكم وسكت عنه (١/ ٥٤٢)، والطبراني في الدعاء (١٧٩٢). وله شواهد أخرى عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم.

لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٠).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَمَانَيْنِ، لَا يَزَالُونَ مَعْصُومِينَ مُجَارِينَ مِنْ طَوَارِقِ الْعَذَابِ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَأَمَانٌ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَمَانٌ بَقِيَ فِيكُمْ»(١١)، قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِيهِ حَثٌّ لِلنَّاسِ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ حَيْثُ مَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا هَذَا الْأَمَانُ»(١٢).

وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ: «**الْعَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ** عز وجل»(١٣).

إِنَّهَا نِعْمَةٌ، وَأَيُّ نِعْمَةٍ! أَنْ يَلْزَمَ الْعَبْدُ الِاسْتِغْفَارَ لِمَحْوِ ذُنُوبِهِ، وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ، وَتَأْمِينِ نَفْسِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَإِذَا اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ فَضَعُفَ عَنِ الطَّاعَةِ، أَوْ وَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ؛ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ حَتَّى يَمْحُوَ أَثَرَ الذُّنُوبِ، وَيَنْجُوَ مِنَ الْعَذَابِ.

وَهَذَا مَا يَغِيظُ الشَّيْطَانَ وَيَدْحَرُهُ، وَمَا ظَفِرَ إِبْلِيسُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ ظَفَرِهِ بِعَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَيِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ، فَتَرَكَ الطَّاعَاتِ، وَرَكِبَ

---

(١٠) أخرجه موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه: الحاكم (١/ ٥٤٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٤٤٢)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٩٢)، والبيهقي (٥/ ٤٥-٤٦).

(١٢) ينظر: حاشية محققي مسند أحمد، ط: الرسالة (٣٢/ ٢٦٦).

(١٣) أخرجه من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أحمد (٦/ ٢٠)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٢٦٤)، وفي سنده رشدين بن سعد وهو ضعيف، والراوي عن فضالة لا يعرف، لكن للحديث طريقًا أخرى عند ابن عساكر في تاريخه (٥٥/ ٨٦) عن يعقوب بن محمد بن فضالة بن عبيد عن أبيه عن جده قال: قال رسول ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ آمِنًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللهَ**» وشواهد أخرى.

الْمُحَرَّمَاتِ، حَتَّى وَقَعَ فِي الْكُفْرِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَعْظَمُ سِلَاحٍ يَتَسَلَّحُ بِهِ الْمُسْلِمُ لِلنَّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ، وَصِيَانَةِ نَفْسِهِ وَعِصْمَتِهَا، وَدَحْرِ عَدُوِّهِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مُلَازَمَتُهُ لِلِاسْتِغْفَارِ، وَتَكْرَارُهُ لِلتَّوْبَةِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُجَاهِدًا لِنَفْسِهِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٩].

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ عز وجل: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عز وجل: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٤).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٢]: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى(١٥).

---

(١٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩-٤١-٦٧)، وعبد بن حميد (٩٣٢)، وأبو يعلى (١٢٧٣-١٣٩٩)، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨)، وفي الدعاء (١٧٧٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٢٩٠)، وقال الهيثمي في الزوائد: «وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى (١٠/ ٢٠٧).

(١٥) أخرجه مسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).
وهذا رأي ابن المبارك -رحمه الله تعالى-، وقد جاء عنه في تفسير الطبري ومستدرك الحاكم عن محمد بن المنكدر قال: «التقى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرجى عندك؟ قال عبدالله بن عمرو: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣]، فقال ابن عباس: لكن قول إبراهيم: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] هذا لما في الصدور ويوسوس الشيطان، فرضي الله من قول إبراهيم: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: =

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ كَثُرَتِ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ، وَتَفَشَّتِ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ وَالْعَصَبِيَّةُ، بِسَبَبِ ضُغُوطِ الْحَيَاةِ، وَتَشَعُّبِ الِاهْتِمَامَاتِ، وَكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَفِي مُلَازَمَةِ الِاسْتِغْفَارِ تَفْرِيجٌ لِلْهُمُومِ، وَمَخَارِجُ مِنَ الضَّوَائِقِ، وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِجَلْبِ الْأَرْزَاقِ.

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

= فيه انقطاع، ينظر: المستدرك (١/ ١٢٨)، ورواه الطبري في تفسيره بنحوه عن سعيد بن المسيب (٣/ ٤٩) لكن فيه رجل لم يسم.

(١٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨)، وأبو داود في الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار(٣٨١٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١١)، والخطيب في تاريخه (٥/ ٥٧)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي فقال: الحكم فيه جهالة (٤/ ٢٩١)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨١) برقم (١٠٦٦٥) وفي الدعاء (١٧٧٤)، والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (١١٨).

وقال الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة: «هذا حديث حسن غريب» (٢٥٠ -٢٥١)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٨٥٠٨)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٤٢٢).

لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٧١) وفي الضعيفة بجهالة الحكم (٧٠٥).

والحديث في سنده الحكم بن مصعب القرشي المخزومي، قال أبو حاتم: مجهول(٣/ ١٢٨)، وذكره ابن حبان في الثقات (٦/ ١٨٧) ثم ذكره في المجروحين (٢٤٩) حتى قال الحافظ في تهذيب التهذيب (٢/ ٣٧٧): «وهو تناقض صعب»، وقال الشيخ أحمد شاكر بعد أن صحح الحديث، ونقل تجهيل أبي حاتم للحكم بن مصعب، واضطراب ابن حبان فيه: «والذي أراه أنه إن جهله أبو حاتم فقد عرفه غيره، وإن تناقض فيه ابن حبان فلا يؤخذ بكلامه؛ فإن البخاري عرفه وترجمه في الكبير (٢/ ٣٣٨) قال: «الحكم بن مصعب القرشي سمع محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس، سمع منه الوليد بن مسلم» فلم يذكر فيه جرحًا، فهو ثقة عنده، خصوصًا وأنه لم يذكره هو ولا النسائي في الضعفاء» اه (٤/ ٥٤)، وينظر: التاريخ الكبير (٢/ ٣٣٨).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- وَجَدِّدُوا تَوْبَاتِكُمْ، وَاسْتَغْفِرُوا مَوْلَاكُمْ؛ فَتِلْكَ سُنَّةُ المُرْسَلِينَ لَكُمْ، وَدَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٧].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...





٣٣٧- الاستغفار (٢)
جلب الأرزاق ورفع العذاب

٢٨/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ فَهُوَ أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، فَهُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ يُسْرًا، وَاتَّقُوهُ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُعْظِمْ لَكُمْ أَجْرًا.

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا تَتَابَعَتِ الْكُرُوبُ، وَتَرَاكَمَتِ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَتَفَاقَمَتِ الْفِتَنُ، وَعَظُمَتِ الْأَزَمَاتُ، وَاسْتَحْكَمَتِ الْمُشْكِلَاتُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَتَدَاعَوْنَ لِبَحْثِهَا، وَيَخُوضُونَ فِي أَسْبَابِهَا وَعِلَاجِهَا، وَيَوَدُّونَ حَسْمَهَا وَنِهَايَتَهَا.

وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِمْ أَزَمَاتٌ عَظِيمَةٌ، وَابْتُلُوا بِرَزَايَا كَبِيرَةٍ، وَمُشْكِلَاتٍ مُعَقَّدَةٍ؛ أَذْهَبَتْ هَيْبَتَهُمْ، وَفَرَّقَتْ جَمْعَهُمْ، وَأَشْغَلَتْهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدِّيَارِ، فَمُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَعَمَّ

الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ كَثِيرًا مِنْ أَرَاضِيهِمْ.

وَمَعْرِفَةُ أَدْوَائِهِمْ، وَعِلَاجُ مُشْكِلَاتِهِمْ لَنْ يَجِدُوهُ فِي فَلْسَفَاتِ الْمُتَفَلْسِفِينَ، وَتُرَّهَاتِ الْمُتَخَرِّصِينَ، وَآرَاءِ الْجَاهِلِينَ؛ بَلْ سَيَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ رَبِّهِمُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ ﷻ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ؛ قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ وَدَوَائِكُمْ، أَمَّا دَاؤُكُمْ فَذُنُوبُكُمْ، وَأَمَّا دَوَاؤُكُمْ فَالِاسْتِغْفَارُ»[1].

إِنَّ ذُنُوبَ الْعِبَادِ هِيَ سَبَبُ كُلِّ الْمُشْكِلَاتِ وَالْأَزَمَاتِ، وَإِنَّ اسْتِغْفَارَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ مُؤْذِنٌ بِرَفْعِ الْعَذَابِ، وَحُصُولِ الْأَرْزَاقِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: ٥٢].

فَالذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلْمَصَائِبِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ، كَمَا أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعَذَابِ إِذَا تَكَاثَرَتْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُهَا، وَيَنْهَى عَنْهَا.

وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِمَحْوِ الذُّنُوبِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ رَفْعُ الْعَذَابِ، وَنُزُولُ الْأَرْزَاقِ؛ وَقَدْ رَوَى الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: أَنَّ عُمَرَ ﷺ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَمَا زَادَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ! قَالَ: لَقَدِ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ[2].

---

(١) أخرجه مرفوعًا من حديث أنس ﷺ: البيهقي في الشعب (٧١٤٧)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٧٣)، ولا يصح رفعه، قال البيهقي: «روي مرفوعًا بإسناد مجهول»، وقال المنذري في الترغيب والترهيب بعد أن أورد المرفوع: «وقد روي عن قتادة من قوله وهو أشبه بالصواب» (٢/ ٣٠٩) برقم (٢٥٠١).
وأخرجه من قول قتادة -رحمه الله تعالى-: البيهقي في الشعب (٧١٤٦)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم (٥/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٦١)، والطبري =

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عُذِّبُوا بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَاطِّرَاحِهِمْ لِدِينِهِمْ؛ حَتَّى حُبِسَتْ عَنْهُمُ الْأَرْزَاقُ . . نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المَائِدَة: ٦٦]؛ أَيْ: لَوْ

= في تفسيره (٢٩/ ٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٥١)، وفي معرفة السنن والآثار (٢٠٠٩-٢٠١٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٤٣٤)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ٢٠٤٥)، وسعيد بن منصور في سننه (١٠٩٥)، والطبراني في الدعاء (٩٦٤)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٢٣٥)، وهو مرسل؛ كما نقل الزيلعي عن النووي في الخلاصة أنه قال: «إسناده صحيح لكنه مرسل فإن الشعبي لم يدرك عمر» ينظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ٩٣) برقم (١٤٠٤)، ولإرساله ضعفه الألباني في الإرواء (٣/ ١٤١) برقم (٦٧٣).

والمجاديح جمع مجدح، قال ابن سلام في غريب الحديث (٣/ ٢٥٩): «وهو كل نجم من النجوم كانت العرب تقول إنه يمطر به، كقولهم في الأنواء، فسألت عنه الأصمعي فلم يقل فيه شيئًا، وكره أن يتأول على عمر مذهب الأنواء .. والذي يراد من هذا الحديث أنه جعل الاستغفار استسقاءً بتأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]، وإنما نرى أن عمر تكلم بهذا على أنها كلمة جارية على ألسنة العرب، ليس على تحقيق الأنواء، ولا على التصديق بها .. ومما يبين لك أن عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بها قوله: «لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها الغيث، فجعل الاستغفار هو المجاديح لا الأنواء» اهـ.

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «المجدح نجم من النجوم، وقيل: هو الدبران، وقيل: هو ثلاثة كواكب كالأثافي، تشبيهًا بالمجدح الذي له ثلاث شعب، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهًا بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولًا بالأنواء، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر» اهـ من النهاية (١/ ٢٤٣).

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالى-: «استدل عمر بالآيتين على أن الاستغفار الذي ظُن الاقتصار عليه لا يكون استسقاءً من أعظم الأسباب التي يحصل عندها المطر والخصب؛ لأن الله جل جلاله قد وعد عباده بذلك وهو لا يخلف الوعد، ولكن إذا كان الاستغفار واقعًا من صحيح القلب، وتطابق عليه الظاهر والباطن، وذلك مما يقل وقوعه» اهـ من نيل الأوطار (٤/ ٣٣).

أَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَأَقَامُوا كِتَابَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؛ لَيَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْأَرْزَاقَ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْطَارَ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ(٣).

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ خَاصًّا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلِكُلِّ الْبَشَرِ؛ فَنُوحٌ عليه السلام دَعَا قَوْمَهُ لِلِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ؛ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وَجَاءَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الْجَدْبَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ الْفَقْرَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافَ بُسْتَانِهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ عَدَمَ الْوَلَدِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ(٤).

وَالْخَلْقُ مَجْبُولُونَ عَلَى مَحَبَّةِ الْخَيْرَاتِ الْعَاجِلَةِ فِي الدُّنْيَا مِنْ بَسْطِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الرِّزْقِ، فَإِنْ أَرَادُوا ذَلِكَ؛ فَسَبِيلُهُ التَّقْوَى وَالتَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ، كَمَا بَيَّنَ نُوحٌ عليه السلام أَنَّ ثَمَرَةَ الِاسْتِغْفَارِ سَتَكُونُ الْأَمْطَارَ، وَالْإِمْدَادَ بِالْبَنِينَ وَالْأَمْوَالِ، وَإِنْبَاتَ الْأَرْضِ، وَجَعْلَهَا أَنْهَارًا مِنْ كَثْرَةِ الْخَيْرَاتِ، وَقَالَ هُودٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وَالْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَحْتَاجُ إِلَى الْأَرْزَاقِ الَّتِي سَبَبُهَا الْأَمْطَارُ، وَهِيَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ بِهَا بَأْسَ أَعْدَائِهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

---

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٩٨)، وذكره بنحوه الرازي في تفسيره الكبير (٣٠/ ١٢٢) ولم أقف عليه مسندًا في كتب الآثار والزهد.

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ إِنْ لَزِمَتِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ حَفِظَهَا اللَّهُ ﷻ مِنَ الْعَذَابِ، وَمِنْ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، وَبَسَطَ لَهَا الْأَرْزَاقَ، وَمَتَّعَهَا مَتَاعًا حَسَنًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هُود: ٣].

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الذُّنُوبِ سَبَبٌ لِأَنْ يُمَتِّعَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؛ لِأَنَّهُ رَتَّبَ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ تَرْتِيبَ الْجَزَاءِ عَلَى شَرْطِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ سَعَةُ الرِّزْقِ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا(٥).

وَجَاءَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى مُعَاوِيَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ- فَقَالَ لَهُ بَعْضُ حُجَّابِهِ: إِنِّي رَجُلٌ ذُو مَالٍ وَلَا يُولَدُ لِي، عَلِّمْنِي شَيْئًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي وَلَدًا، فَقَالَ الْحَسَنُ: عَلَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ يُكْثِرُ الِاسْتِغْفَارَ حَتَّى رُبَّمَا اسْتَغْفَرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَمِائَةِ مَرَّةٍ، فَوُلِدَ لَهُ عِشْرُونَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ ﷺ فَقَالَ: هَلَّا سَأَلْتَهُ مِمَّ قَالَ ذَلِكَ؟ فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ هُودٍ عليه السلام: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هُود: ٥٢]، وَقَوْلَ نُوحٍ عليه السلام: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نُوح: ١٢](٦).

إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ فَلَمْ يَشْكُرُوا كَانُوا حَقِيقِينَ بِسَلْبِ النِّعْمَةِ، وَحُلُولِ النِّقْمَةِ، وَإِذَا ابْتَلَاهُمْ فَصَبَرُوا وَاتَّقَوْا وَاسْتَغْفَرُوا؛ رَفَعَ سُبْحَانَهُ بَلْوَاهُمْ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَتْبَاعِ مُوسَى لَمَّا

---

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٦٩-١٧٠).

(٦) تفسير النسفي (٢/ ١٥٩)، والكشاف (٢٢/ ٣٨١)، ولم أقف عليه مسندًا بعد بحث طويل في كتب الآثار والزهد.

مَكَّنَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣٧].

فَحَقِيقٌ بِكُلِّ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةً أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَجَدِيرٌ بِكُلِّ مُبْتَلًى أَنْ يَصْبِرَ وَيَسْتَغْفِرَ؛ حَتَّى يُكْشَفَ بَلَاؤُهُ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ؛ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ اجْتَمَعَ بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا-، فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: لَا أَقُومُ حَتَّى تُحَدِّثَنِي، قَالَ جَعْفَرٌ: أَمَا إِنِّي أُحَدِّثُكَ، وَمَا كَثْرَةُ الْحَدِيثِ لَكَ بِخَيْرٍ، يَا سُفْيَانُ: إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَأَحْبَبْتَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا فَأَكْثِرْ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٧]، وَإِذَا اسْتَبْطَأْتَ الرِّزْقَ فَأَكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نُوح: ١٠-١٢][(٧)].

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «أَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فِي بُيُوتِكُمْ، وَعَلَى مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طُرُقَاتِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ»[(٨)].

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَنْ أَقَامَ فِي أَرْضِنَا فَلْيُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ الْقِطَارَ. وَالْقِطَارُ هُوَ السَّحَابُ الْعَظِيمُ الْقَطْرِ[(٩)].

وَحَبْسُ الْمَطَرِ، وَجَدْبُ الْأَرْضِ مَا هُوَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَسَبَبُهُ

---

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٩٣)، وهو في صفة الصفوة (٢/ ١٦٨).

(٨) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٤)، وأخرجه بنحوه عن الحسن مختصرًا: الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٩٤).

(٩) الاستغفار لمحمد بن علي العرفج (١٩).

الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ سَبَقُوا كَانَ عَذَابُهُمْ بِذَلِكَ؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وَبَرَكَاتُ السَّمَاءِ هِيَ الْأَمْطَارُ، وَبَرَكَاتُ الْأَرْضِ هِيَ النَّبَاتُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَنَا بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْ يُغِيثَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَمْطَارِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، وَحُسْنَ عِبَادَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَكَمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ مَصَائِبَ وَأَدْوَاءٍ لَا مَخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ! ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ، سَوَاءٌ كَانَ الْعَذَابُ سَمَاوِيًّا كَحَبْسِ الْأَمْطَارِ، وَقِلَّةِ الْأَرْزَاقِ، الَّذِي يَنْتِجُ عَنْهُ مَا يَنْتِجُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَالضَّعْفِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمِحَنِ وَالْفِتَنِ، أَوْ يَكُونُ الْعَذَابُ مِنْ قَبِيلِ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تَسْلِيطِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِاخْتِلَافِ كَلِمَتِهِمْ،

وَتَشَعُّبِ آرَائِهِمُ الَّذِي يَنْتِجُ عَنْهُ التَّفَرُّقُ ثُمَّ الِاقْتِتَالُ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

فَالِاسْتِغْفَارُ يَرْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَهُوَ أَمَانٌ لِلْعِبَادِ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْفِتَنِ وَالْعَذَابِ، يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ تَعْلِيقًا عَلَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣]، يَقُولُ: «وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فِي الِاسْتِغْفَارِ الدَّافِعِ لِلْعَذَابِ.

وَالثَّانِي: فِي الْعَذَابِ الْمَدْفُوعِ بِالِاسْتِغْفَارِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّ الْعَذَابَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الذُّنُوبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ يُوجِبُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْعَذَابِ فَيَنْدَفِعُ الْعَذَابُ . . .

وَأَمَّا الْعَذَابُ الْمَدْفُوعُ فَهُوَ يَعُمُّ الْعَذَابَ السَّمَاوِيَّ، وَيَعُمُّ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَذَابًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي النَّوْعِ الثَّانِي: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٩].

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٥]، مَعَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ!**» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ!**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ: «**هَاتَانِ أَهْوَنُ**»[١٠]. يَقْتَضِي أَنَّ لَبْسَنَا شِيَعًا وَإِذَاقَةَ بَعْضِنَا بَأْسَ بَعْضٍ هُوَ مِنَ

(١٠) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب في قوله الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] (٦٨٨٣) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنعام (٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (٧٧٣١)، وأحمد (١/ ٧٠)، وابن حبان (٧٢٢٠)، والحميدي (١٢٥٩).

الْعَذَابِ الَّذِي يَنْدَفِعُ بِالِاسْتِغْفَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وَإِنَّمَا تُنْفَى الْفِتْنَةُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ» اهـ مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى(١١).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ أَنْ يَقْتُلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمِنْ أَشَدِّ الْفِتَنِ أَنْ تُعْلِنَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ الْمُسْلِمِ، وَتُتْبِعَ ذَلِكَ بِأَفْعَالٍ مُنَافِيَةٍ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ تَرْوِيعِ الْآمِنِينَ، وَقَتْلِ الْمُسْتَأْمَنِينَ وَالْمُعَاهَدِينَ، وما يَسْتَتْبِعُهُ مِنَ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النِّسَاء: ٩٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»(١٢)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**»(١٣).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**»(١٤)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ**

---

(١١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١-٤٤).

(١٢) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٨٦٢)، وأحمد (٢/ ٩٤).

(١٣) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١).

(١٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، وذكر الترمذي والبيهقي أن الموقوف أصح من المرفوع.

اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»(١٥).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(١٦)، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «إِنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٧).

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُدِيمَ عَلَيْنَا نِعْمَتَهُ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَشَرَّ ذُنُوبِنَا، وَشَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِهِ؛ وَأَنْ يَقْطَعَ دَابِرَ الْمُفْسِدِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَأَمْنَنَا وَأَرْزَاقَنَا وَعَافِيَتَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

نَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ لِذُنُوبِنَا وَذُنُوبِ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ، فَلَا تُعَذِّبْنَا وَلَا تُعَذِّبْهُمْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا وَأَيْدِيهِمْ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا وَذُنُوبِهِمْ مَنْ لَا يَخَافُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا، وَعَافِنَا وَعَافِهِمْ، وَاعْفُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيبٌ.

---

(١٥) أخرجه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: الترمذي في الديات، باب الحكم في الدماء وقال: حديث غريب (١٣٩٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٢١)، والصغير (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١١٢٨).

(١٦) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٧٠٧٠)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٩٨).

(١٧) أخرجه موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] (٦٨٦٣).

٣٣٨- الاستغفار (٣)
استغفار الملائكة للمؤمنين

٢٢/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ للَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ؛ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إِلَّا نَالَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا نَالَهُ، وَفَازَ المُؤْمِنُونَ بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنْهَا، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. نَحْمَدُهُ عَلَى مِنَنِهِ وَإِفْضَالِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى وَاسِعِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ رَحِمَ أُمَّتَهُ فَبَشَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، وَأَكْثَرَ مِنَ الاِسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَادَّخَرَ دَعْوَتَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لِيَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَفِي طَاعَتِهِ ﷻ اسْتِجْلَابُ رَحْمَتِهِ ﷻ، وَفِي ذَلِكَ أَمَانٌ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى المَلَائِكَةَ مِنْ نُورٍ، وَسَخَّرَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، فَمِنْهُمُ المُصَلُّونَ وَمِنْهُمُ المُسَبِّحُونَ؛ ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وَكَلَّفَ فَرِيقًا مِنْهُمْ بِأَعْمَالٍ تَخُصُّ بَنِي آدَمَ؛ فَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ،

وَمِنْهُمُ المُتَعَاقِبُونَ عَلَيْهِمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ حَلَقَاتِ الذِّكْرِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَقِفُونَ عَلَى أَبْوَابِ المَسَاجِدِ يَوْمَ الجُمُعَةِ يُسَجِّلُونَ فِي صُحُفِهِمُ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ.

وَهُمْ ﷺ دَائِبُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعْصُومُونَ مِنَ الخَطَإِ وَالعِصْيَانِ؛ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

وَلَمَّا كَانُوا ﷺ أَهْلَ طَاعَةٍ للَّهِ تَعَالَى كَانُوا مُحِبِّينَ لِلطَّائِعِينَ مِنَ الْبَشَرِ، مُحْتَفِينَ بِهِمْ، دَاعِينَ لَهُمْ، يُبَشِّرُونَهُمْ عِنْدَ المَوْتِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وَيَسْتَقْبِلُونَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ أَبْوَابِ الجَنَّةِ مُرَحِّبِينَ بِهِمْ، وَمُهَنِّئِينَ لَهُمْ بِمَنَازِلِهِمْ فِي الجَنَّةِ؛ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لَهُمْ، وَدَافِعُ تِلْكَ المَحَبَّةِ الإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ المَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ.

إِنَّ المَلَائِكَةَ ﷺ قَدْ شَرَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا بِأَعْلَى المَقَامَاتِ، وَوَكَلَ إِلَيْهِمْ أَشْرَفَ الأَعْمَالِ وَأَجَلَّهَا، وَيَكْفِي شَرَفًا لَهُمْ قُرْبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي المَلَكُوتِ الأَعْلَى، وَدَأْبُهُمْ فِي عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ، وَمَعَ هَذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ، وَالمَقَامِ الكَبِيرِ الرَّفِيعِ فَإِنَّهُمْ ﷺ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَائِهِمْ لَهُمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنْهُمْ؛ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى لَهُمْ، وَيَدْعُونَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، وَيُجَنِّبَهُمْ مُوجِبَاتِ سَخَطِهِ، وَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ؛ فَأَيُّ شَرَفٍ حَظِيَ بِهِ

المُؤْمِنُونَ؟! وَأَيُّ مَكَانَةٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ يُسَخِّرُ سُبْحَانَهُ مَلَائِكَتَهُ المُقَرَّبِينَ لِلدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ؟! بَلْ وَيَدْعُونَ لِآبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، وَمَا أَعْظَمَ الإِيمَانَ الَّذِي أَنَالَهُمْ هَذِهِ المَنْزِلَةَ العَالِيَةَ! ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وَاسْتِغْفَارُ المَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَلَائِكَةَ ﷺ أَنْصَحُ لِلْبَشَرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ البَشَرِ؛ فَالْبَشَرُ يَعْتَدِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ.

قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَجَدْنَا أَنْصَحَ عِبَادِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى المَلَائِكَةَ، وَوَجَدْنَا أَغَشَّ عِبَادِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْطَانَ» وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ[1].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُونَ: المَلَائِكَةُ خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنِ ابْنِ الْكَوَّاءِ؛ فَالمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ، وَابْنُ الكَوَّاءِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ، وَكَانَ ابْنُ الكَوَّاءِ رَجُلًا خَارِجِيًّا»[2].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ لِأَصْحَابِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: «افْهَمُوهَا فَمَا فِي العَالَمِ جَنَّةٌ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٨).

(٢) تفسير السمرقندي (٣/ ١٩١)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لأبي عبيد وابن المنذر (٧/ ٣٣٧).

أَرْجَى مِنْهَا، إِنَّ مَلَكًا وَاحِدًا لَوْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَغَفَرَ لَهُمْ، كَيْفَ وَجَمِيعُ المَلَائِكَةِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ؟!»[٣].

وَقَالَ خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى سُلَيْمِ بْنِ عِيسَى فَلَمَّا بَلَغْتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا خَلَفُ، مَا أَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى! نَائِمًا عَلَى فِرَاشِهِ وَالمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ»[٤].

تَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- هَذَا الدُّعَاءَ العَظِيمَ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ المَعَانِي الْعَظِيمَةِ؛ فَهُمْ ﷺ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ المَغْفِرَةَ، وَالْوِقَايَةَ مِنَ الجَحِيمِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ وَهِيَ اقْتِرَافُ السَّيِّئَاتِ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى الجَنَّةَ لَهُمْ وَلِلصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.

وَهَؤُلَاءِ المَلَائِكَةُ الْكِرَامُ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا أَيَّ مَلَائِكَةٍ، وَإِنَّمَا هُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، وَهُمْ أَقْرَبُ المَلَائِكَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا ذُنُوبَ عَلَيْهِمْ أَلْبَتَّةَ، وَاسْتِغْفَارُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَدُعَاؤُهُمْ لَهُمْ كَانَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، لَا يَعْلَمُهُ المُؤْمِنُونَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ دَعَوَاتِهِمْ مَرْجُوَّةَ الإِجَابَةِ، فَمَا أَحَظَّ المُؤْمِنِينَ وَأَسْعَدَهُمْ بِدُعَاءِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ لَهُمْ!!

إِنَّ الرَّابِطَةَ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ وَبَيْنَ بَنِي آدَمَ فِي الأَرْضِ حَتَّى دَعَوُا اللَّهَ لَهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ الصَّالِحَ الْعَظِيمَ إِنَّمَا هِيَ رَابِطَةُ الإِيمَانِ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ ﷻ قَالَ عَنِ المَلَائِكَةِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فَوَصَفَهُمْ بِالإِيمَانِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ بَنِي آدَمَ فِي اسْتِغْفَارِ المَلَائِكَةِ لَهُمْ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛

---

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (٨/ ٣٢١-٣٢٤)، وهو في تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢-٣٣٣).

فَوَصَفَهُمْ أَيْضًا بِالإِيمَانِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّابِطَةَ بَيْنَهُمْ هِيَ الإِيمَانُ، وَهِيَ أَعْظَمُ رَابِطَةٍ(٥)، فَاعْرِفُوا -عِبَادَ اللَّهِ- فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَاقْدُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ حَقَّ قَدْرِهَا، بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَالْعَمَلِ بِلَوَازِمِهَا.

وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِغْفَارِ المَلَائِكَةِ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ إِكْثَارِ المَلَائِكَةِ عليهم السلام مِنَ الاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ اطِّلَاعَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنْ نَقْصٍ وَخُرُوقٍ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مَعَ مَا يُقَارِفُونَهُ مِنَ المَعَاصِي(٦).

وَلَمَّا كَانَ الدُّعَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ سَجِيَّةً مِنْ سَجَايَا المَلَائِكَةِ وَعَادَاتِهِمْ عليهم السلام كَانُوا يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَاءِ المُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، كَمَا رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَلَمَّا كَانَ هَذَا حَالَ المَلَائِكَةِ عليهم السلام مَحَبَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاءً لَهُمْ، وَقُرْبًا مِنْهُمْ، وَحِرْصًا عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَدْعُونَ لَهُمْ؛ كَانَ مِنَ الاقْتِدَاءِ بِهِمْ عليهم السلام أَنْ يُوَالِيَ المُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَاذَلُونَ المَحَبَّةَ وَالنُّصْحَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ فَإِنَّ رَابِطَةَ الإِيمَانِ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ تَحْتَ العَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ المَلَائِكَةِ وَبَيْنَ المُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ اخْتِلَافِ الجِنْسِ، وَبُعْدِ المَكَانِ؛ لَحَقِيقَةٌ أَنْ تَرْبِطَ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ مِنَ الْبَشَرِ وَهُمْ مِنْ جِنْسٍ

---

(٥) أضواء البيان (٣/ ٤٦-٤٧).

(٦) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٣).

(٧) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٢).

وَاحِدٍ وَفِي مَلَكُوتٍ وَاحِدٍ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فَكُونُوا -أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- لِإِخْوَانِكُمْ كَمَا كَانَ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ لَكُمْ؛ مَحَبَّةً وَوَلَاءً، وَنُصْحًا وَدُعَاءً، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٨).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا العَمَلَ بِمَا عَلِمْنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنْ كَانَ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ ﷷ يَسْتَغْفِرُونَ لِعُمُومِ المُؤْمِنِينَ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ، فَإِنَّ ثَمَّةَ أَعْمَالًا صَالِحَةً تَسْتَجْلِبُ صَلَاةَ المَلَائِكَةِ عَلَى المُؤْمِنِينَ، وَمِن نُصْحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ أَنْ دَلَّهُمْ عَلَى تِلْكَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِيُسَابِقُوا إِلَيْهَا، فَيَحْظَوْا بِصَلَاةِ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ.

---

(٨) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: الطبراني في مسند الشاميين (٢١٥٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وإسناده جيد (١٠/ ٢١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

وَمِنْ تِلْكُمُ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ: مُكْثُ المُصَلِّي فِي مُصَلَّاهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَبَعْدَهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ**»(٩).

وَجَاءَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُ لَا يَكَادُ يُبَارِحُ المَسْجِدَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: «فَإِنِّي أَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأُهَلِّلُ، وَأُسَبِّحُ، وَأَسْتَغْفِرُ؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ تَقُولُ المَلَائِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِسَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ»(١٠).

---

(٩) أخرجه البخاري في المساجد، باب الحدث في المسجد (٤٣٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (٦٤٩).

(١٠) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٤٠).

وأصل الخبر ما روى ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- فقال: «ذكر الفريابي حدثنا حكيم بن زريق الأيلي قال: سمعت أبي يسأل سعيد بن المسيب وأنا معه قال: يا أبا محمد، إنا أهل قرية لا نكاد أن نقبر موتانا إلا بالعشي، فإذا خرجت الجنازة لم يتخلف عنها أحد، إلا من لا يستطيع حضورها، فكيف ترى اتباع الجنازة أحب إليك أم القعود في المسجد؟ فقال سعيد: من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تقبر فله قيراطان، والتخلف في المسجد أحب؛ فإني أذكر الله وأهلل وأسبح وأستغفر؛ فإن الملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، فإذا فعلت تقول الملائكة: اللهم اغفر لسعيد بن المسيب.

ثم ساق ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- عن الفريابي بإسناده إلى مجاهد -رحمه الله تعالى- قوله: الصلاة على الجنائز أفضل من صلاة التطوع. ثم قال ابن عبد البر: هذا أصح في النظر؛ لأن الفروض التي على الكفاية أفضل من النوافل» اهـ من التمهيد (١٩/ ٣٩-٤٠)، وينظر: الاستذكار (٢/ ٣٠٠).

وَجَاءَ فِي أَحَادِيثَ عِدَّةٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَنْ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ الْمُنْقَطِعَةَ[١١]، وَيُصَلُّونَ عَلَى أَهْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ[١٢]، وَيُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ لِلصِّيَامِ[١٣]، وَمَنْ أَصْبَحَ فَزَارَ مَرِيضًا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، فَإِنْ زَارَهُ فِي الْمَسَاءِ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ[١٤].

---

(١١) كما في حديث عائشة ﵂ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف**» أخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب إقامة الصفوف (٩٩٥) وصححه ابن خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٢١٦٣-٢١٦٤).

(١٢) كما في حديث البراء ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يأتينا فيمسح عواتقنا وصدورنا ويقول: «**لا تختلف صفوفكم فتختلف قلوبكم، إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول**». وفي لفظ: «**على الصفوف المقدمة**» أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تسوية الصفوف (٦٦٤)، والنسائي في الإمامة، باب كيف يقوم الإمام الصفوف (٢/ ٨٩)، وابن ماجه في الإقامة، باب فضل الصف المقدم (٩٩٧)، وأحمد (٤/ ٣٠٤)، وصححه ابن خزيمة (١٥٥١)، وابن حبان (٢١٥٧-٢١٦١).

(١٣) جاء ذلك من حديث أبي سعيد ﵁ عند: أحمد (٣/ ١٢)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٨٠١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).
وجاء أيضًا من حديث ابن عمر ﵄ عند: أبي نعيم (٨/ ٣٢٠)، وصححه ابن حبان (٣٤٦٧)، وذكره الألباني في الصحيحة (١٦٥٤).

(١٤) كما في حديث علي ﵁: «**وما من رجل يعود مريضًا ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ...**» الحديث. أخرجه أبو داود في الجنائز، باب في فضل العيادة على وضوء (٣٠٩٨-٣٠٩٩) وفي (٣١٠٠) قال أبو داود: أُسند هذا عن علي عن النبي ﷺ من غير وجه صحيح اهـ، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، وقال: حسن غريب (٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٧٤٩٤)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٢) ولفظ ابن ماجه: «**فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ...**» الحديث، وأحمد كلفظ ابن ماجه (١/ ٨١)، وكذا أبو يعلى (٢٨٩)، وقد اختلف في رفعه ووقفه، وقد مضى ذكر تصحيح أبي داود لروايات الرفع، وقال البزار بعد أن أورد رواية الرفع: وهذا الحديث قد روي عن علي بنحو كلامه هذا من غير وجه، ولا نعلم يروى إلا عن علي. اهـ من البحر الزخار (٧٧٧).
قلت: إن ترجّح الوقف على الرفع فله حكم المرفوع؛ إذ لا مجال للرأي فيه، والله أعلم.

وَمَنْ نَامَ عَلَى طَهَارَةٍ وُكِّلَ بِهِ مَلَكٌ يَسْتَغْفِرُ لَهُ لَيْلَتَهُ أَجْمَعَ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**طَهِّرُوا هَذِهِ الأَجْسَادَ طَهَّرَكُمُ اللهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَبِيتُ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ مَعَهُ مَلَكٌ فِي شِعَارِهِ لَا يَنْقَلِبُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فَإِنَّه بَاتَ طَاهِرًا**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(١٥).

وَمِنْ أَسْبَابِ اسْتِجْلَابِ رَحْمَةِ المَلَائِكَةِ عليهم السلام أَنْ يَرْحَمَ المُسْلِمُ غَيْرَهُ، وَرَحْمَةُ المَلَائِكَةِ لِلْعَبْدِ سَبَبٌ لِاسْتِغْفَارِهِمْ وَدُعَائِهِمْ لَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**ارْحَمْ مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١٦).

وَفِي لَفْظٍ: «**ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ**»(١٧)، وَالمَلَائِكَةُ مِنْ أَهْلُ السَّمَاءِ(١٨).

---

(١٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٦) رقم (١٣٦٢٠)، وفي مسند الشاميين (٢٥٥٢)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٣٩٦٧)، وعزاه المنذري في الترغيب للطبراني في الأوسط، وقال: بإسناد جيد (٨٧٩)، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره (٥٩٩) وخرّجه في الصحيحة (٢٥٣٩).

(١٦) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الطيالسي (٣٣٥)، وأبو يعلى (٥٠٦٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٤٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٩) رقم (١٠٢٧٧)، والأوسط (٣٠٣١)، والصغير (٢٨١)، وهو من رواية أبي عبيدة عن أبيه عبد الله رضي الله عنه، ولم يسمع منه، لكنه من أهل بيته ومختص به، واختلف أيضًا في رفعه ووقفه. وصححه الحاكم (٤/ ٢٧٧) والألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٩٦).

(١٧) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أبو داود في الأدب، باب في الرحمة (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، وقال: حسن صحيح (١٩٢٤)، والحميدي (٥٩١)، وابن المبارك في مسنده (٢٧٠)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، وصححه الحاكم (٤/ ١٧٥).

(١٨) ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٤٣)، وعون المعبود (١٣/ ١٩٥).

عِبَادَ اللَّهِ: كُلُّ هَذِهِ أَبْوَابٌ مِنَ الخَيْرِ عَظِيمَةٌ؛ فَمَنْ وَلَجَهَا كُلَّهَا كَانَ أَحْظَى النَّاسِ بِدُعَاءِ المَلَائِكَةِ ﷺ، وَاسْتِغْفَارِهِمْ لَهُ، وَمَنْ أَخَذَ بِبَعْضِهَا كَانَ لَهُ مِنْ دُعَاءِ المَلَائِكَةِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ بِقَدْرِ مَا أَخَذَ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي جَمِيعِهَا فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٣٩- الحب في الله تعالى (١)

١٨/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ اخْتِلَافُ الْبَشَرِ فِي صُوَرِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ، وَطَبَائِعِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَأَصْوَاتِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، وَأَجْنَاسِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الرُّوم: ٢٢].

وَالرَّوَابِطُ بَيْنَ الْبَشَرِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، دِينِيَّةً كَانَتْ أَمْ دُنْيَوِيَّةً؛ فَمِنْهَا الْعِرْقِيَّةُ وَالْوَطَنِيَّةُ، وَالْقَبَلِيَّةُ وَالْأُسَرِيَّةُ، وَمِنْهَا الدِّينِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ، وَالثَّقَافِيَّةُ وَاللِّسَانِيَّةُ.

وَالرَّابِطَةُ الْأَعْلَى الَّتِي لَا تُمَاثِلُهَا رَابِطَةٌ أُخْرَى، وَلَا تُضَاهِيهَا وَلَا تُقَارِبُهَا،

وَيَجِبُ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُقْضَى بِهَا عَلَى كُلِّ رَابِطَةٍ، هِيَ الرَّابِطَةُ الْإِيمَانِيَّةُ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ.

إِنَّهَا الرَّابِطَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْمُسْلِمَ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ لَوْنِهِ وَجِنْسِهِ وَبَلَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَهِيَ الَّتِي آخَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ بِلَالٍ الْحَبَشِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ الْقُرَشِيِّ[١]، وَبَيْنَ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَالْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ الْخَزْرَجِيِّ الْأَنْصَارِيِّ[٢]، وَبَيْنَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ الْخَزْرَجِيِّ الْأَنْصَارِيِّ[٣]، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَهِيَ الَّتِي حَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْأُخُوَّةَ فِيهَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٠].

بِهَا يُحَقِّقُ الْعَبْدُ كَمَالَ الْإِيمَانِ مَتَى مَا بَنَى تَعَامُلَهُ مَعَ الْآخَرِينَ عَلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه[٤].

إِنَّ الْحُبَّ فِي اللَّهِ ﷻ عِبَادَةٌ قَلْبِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُؤْمِنُ لِرَبِّهِ فَيَنَالُ خَيْرًا كَثِيرًا. إِنَّهَا مَحَبَّةٌ خَالِصَةٌ صَادِقَةٌ، لَا تُكَدِّرُهَا شَوَائِبُ الدُّنْيَا، وَلَا تَخْلَقُ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ ثَابِتَةٌ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ، مَا

---

(١) ينظر: أسد الغابة (١/ ٤١٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥١٤).

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤) برقم (٧٦١٣) وفي مسند الشاميين (١٢٦٠)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (١٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٦٩).
وجاء أيضًا بنحوه من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٤٣٨)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب (٦٠)، وقال: هذا حديث حسن (٢٥٢١)، وأبي يعلى (١٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٨) برقم (٤١٢).

دَامَ المَحْبُوبُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ.

يُحِبُّ المُؤْمِنُ أَخَاهُ لَا لِأَجْلِ جَاهٍ قَدْ يَنْفَعُهُ بِهِ، وَلَا لِمَالٍ قَدْ يَنَالُ حَظَّهُ مِنْهُ، وَلَا لِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ يَرْجُوهُ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ يُحِبُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَحَسْبُ؛ وَتَزْدَادُ مَحَبَّتُهُ لِأَخِيهِ كُلَّمَا ازْدَادَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَصَلَاحًا إِلَى صَلَاحِهِ.

هَذِهِ المَحَبَّةُ الْخَالِصَةُ الَّتِي يَبْذُلُهَا المُؤْمِنُ لِأَخِيهِ المُؤْمِنِ لَيْسَتْ تُشْتَرَى بِمَالٍ، وَلَا تُنَالُ بِجَاهٍ، وَيَمْلِكُهَا المُؤْمِنُ بِقَلْبٍ صَادِقِ الْإِيمَانِ، مُخْلِصٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَغْمَ أَنَّهَا لَا تُكَلِّفُ الْعَبْدَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، وَهِيَ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَؤُونَةٍ، وَلَا يَنْتِجُ عَنْهَا نَصَبٌ وَلَا رَهَقٌ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ قَدْ رَتَّبَ عَلَيْهَا أُجُورًا عَظِيمَةً، لَا يُفَرِّطُ فِيهَا إِلَّا مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَبَخَسَ حَظَّهُ؛ فَآثَرَ دُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ!

بِهَا يَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَحَلَاوَتَهُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**»، وَذَكَرَ مِنْهَا: «**وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَيُبْغِضَ فِي اللَّهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه(٥).

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٦).

---

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان (٢١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٨)، والطيالسي (٢٤٩٥)، وابن راهويه في مسنده (٢٥٣-٣٦٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٤٠)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٧٠٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٤٤).

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ حِينَ يَطُولُ بِالنَّاسِ الْمُقَامُ، وَيَشْتَدُّ الزِّحَامُ؛ وَتَعْظُمُ الْأَهْوَالُ، وَتَكُونُ الشَّمْسُ عَلَى مِقْدَارِ مِيلٍ مِنْ رُؤُوسِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، فَإِنَّ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ تَعَالَى يُنْجِيهِمْ حُبُّهُمْ هَذَا مِنْ كَرْبِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ؛ فَمِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «**رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧)، أَيْ: اجْتَمَعَا عَلَى هَذِهِ المَحَبَّةِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهَا. وَالمُرَادُ: أَنَّهُمَا دَامَا عَلَى المَحَبَّةِ الدِّينِيَّةِ وَلَمْ يَقْطَعَاهَا بِعَارِضٍ دُنْيَوِيٍّ، سَوَاءٌ اجْتَمَعَا حَقِيقَةً أَمْ لَا، حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المَوْتُ(٨).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

إِنَّ أَهْلَ المَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ فِي الدُّنْيَا يُغْبَطُونَ فِي الآخِرَةِ، وَلَيْسَ مَنْ يَغْبِطُهُمْ كُفَّارٌ أَوْ مُنَافِقُونَ، أَوْ حَتَّى مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ؛ بَلْ يَغْبِطُهُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَهُ: النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ**»، قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ! قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ، مِنْ**

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٩)، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٨) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٥). وقال النووي في شرح مسلم: «معناه: اجتمعا على حب الله، واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما» (٧/ ١٢١) وينظر: الديباج (٣/ ١١٠).

(٩) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٦)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢)، وأحمد (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨)، والدارمي (٢٧٥٧).

غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونُس: ٦٢]» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[١٠].

وَفِي رِوَايَةٍ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١١].

وَحُقَّ لِذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ أَنْ يَعْجَبَ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَثَا عَلَى الْأَرْضِ، وَأَلْوَى إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاسٌ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ! انْعَتْهُمْ لَنَا -أَيْ: صِفْهُمْ لَنَا- فَسُرَّ وَجْهُ النَّبِيِّ بِسُؤَالِ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ، وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا، وَثِيَابَهُمْ نُورًا ...» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى[١٢].

وَقَدْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ قَلِيلَ الْعَمَلِ، لَكِنَّ مَحَبَّتَهُ لِمَنْ هُمْ أَقْوَى مِنْهُ إِيمَانًا وَأَكْثَرُ

(١٠) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٣٦)، وأبو يعلى (٦١١٠)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٥)، وصححه ابن حبان (٥٧٣).

(١١) هذه الرواية جاءت من حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند: أبي داود في البيوع والإجارات، باب في الرهن (٣٥٢٧)، وصححها الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٢٦).

(١٢) هذه الرواية جاءت من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ عند: أحمد (٥/ ٣٤٣)، وعبد الرزاق (٢٠٣٢٤)، وابن المبارك في الزهد (٧١٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٢٩) برقم (٣٤٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٦٤)، وفي سندها شهر بن حوشب ضعيف، لكن لها شواهد تتقوى بها؛ ولذا ذكر الألباني هذ الحديث في السلسلة الصحيحة في تخريج حديث ابن عمر ﷺ (٣٤٦٤)، وحسنه المنذري بعد أن عزاه لأبي يعلى (٤/ ٤٨).

عَمَلًا؛ صَيَّرْتُهُ إِلَيْهِمْ، وَرَفَعْتُهُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ المَحبَّةِ الْخَالِصَةِ فِي الدُّنْيَا، عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١٣).

رَوَى الشَّيْخَانِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، ثُمَّ قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ أَعْمَالَهُمْ»(١٤).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: قَالَ أَنَسٌ: رَأَيْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرِحُوا بِشَيْءٍ لَمْ أَرَهُمْ فَرِحُوا بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْهُ(١٥). وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ حِبَّانَ: قَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِهَا(١٦).

وَنَحْنُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْرَحَ بِذَلِكَ، وَحُقَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَفْرَحَ بِهَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ الْمُؤْمِنُ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ، وَالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ بِمَحَبَّتِهِمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِمْ، كَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثٌ أَحْلِفُ**

---

(١٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب علامة حب الله ﷻ (٦١٦٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٤٠).

(١٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٤٨٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

(١٥) هذه الرواية لأبي داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٧).

(١٦) هذه الرواية لابن حبان (٧٣٤٨)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٧٩).

عَلَيْهِنَّ»، وَذَكَرَ مِنْهَا: «**وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ مَعَهُمْ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١٧)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِلَّا حُشِرَ مَعَهُمْ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٨).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا مَحَبَّتَهُ، وَمَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ، وَمَحَبَّةَ كُلِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نُشْهِدُكَ عَلَى مَحَبَّتِكَ، وَمَحَبَّةِ رُسُلِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَمَلَائِكَتِكَ وَصَحَابَةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَاحْشُرْنَا مَعَهُمْ، وَبَلِّغْنَا مَنَازِلَهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مَرْيَم: ٩٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «أَيْ: مَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(١٩).

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . . .

❁ ❁ ❁

---

(١٧) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ١٤٥)، وإسحاق بن راهويه (٨٦٣)، وأبو يعلى (٤٥٦٦)، والحاكم وصححه (١/ ٦٧).

(١٨) هذه الرواية جاءت من حديث علي ﵁ عند: الطبراني في الأوسط (٦٤٥٠)، والصغير (٨٧٤).

وللحديث شاهد من حديث أبي أمامة ﵁ عند: الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦٣) برقم (٨٠٢٣).

وشاهد آخر من حديث ابن مسعود ﵁ موقوفًا عند: عبد الرزاق (٢٠٣١٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٩) برقم (٨٧٩٩).

(١٩) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥١٦)، وذكره البغوي في شرح السنة، إلا أنه قال: «محبة في قلوب الصالحين» (١٣/ ٥٥).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

عِبَادَ اللَّهِ: مَنْ أَحَبَّ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَصِدْقِهِمْ فِي إِيمَانِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ فِي تَنَسُّكِهِمْ، وَصَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ كَانَ رَفِيقًا لَهُمْ، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

وَمَنْ أَحَبَّ أُولِي الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَأَهْلَ الْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ، وَأَصْحَابَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِجِهَادِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ، وَنَشْرِهِمْ لِلْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَقْوَاهُمْ وَصَلَاحِهِمْ؛ كَانَ مَعَهُمْ وَلَوْ قَصُرَ عَمَلُهُ عَنْهُمْ، وَحُشِرَ فِي زُمْرَتِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ.

وَمَنْ أَحَبَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْفُجَّارَ وَالْفَاسِقِينَ، كُتَّابًا كَانُوا أَمْ سِيَاسِيِّينَ أَمْ صَحَفِيِّينَ، أَمْ أَهْلَ غِنَاءٍ وَتَمْثِيلٍ وَرَقْصٍ وَرِيَاضِيِّينَ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يُحْشَرَ مَعَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِمْ.

وَمَنْ أَبْغَضَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَأَصْحَابَ الصَّلَاحِ وَالتُّقَى، لَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا لِمَا يَظْهَرُ عَلَى حَالِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لِلشَّرِيعَةِ، وَاسْتِمْسَاكِهِمْ بِالسُّنَّةِ فِي هَدْيِهِمْ وَدَلِّهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَإِعْفَاءِ اللِّحَى، وَتَقْصِيرِ اللِّبَاسِ، وَالْتِزَامِ السِّوَاكِ، وَارْتِيَادِ الْمَسَاجِدِ، وَتَعْظِيمِ الْقُرْآنِ، وَيُحِبُّ مِنَ النَّاسِ تَرْكَ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الشَّرْعِيَّةِ، وَنَبْذَ تِلْكَ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ كَانَ فِي عِدَادِ

الْمُصَلِّينَ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَكْرَهُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي شَرَعَهَا، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ الَّتِي سَنَّهَا! وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ لَا يَنْتَبِهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُدْرِكُ مَغَبَّةَ فِعْلِهِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ ظُهُورِ أَهْلِ الْغُلُوِّ وَالتَّكْفِيرِ، وَانْتِشَارِ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّخْذِيلِ.

فَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَوْ يُبْغِضَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَشْخَاصِ! فَإِنَّ أَصْلَ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ، وَالْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، مُعَلَّقٌ بِمَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَمَوَدَّةٍ، وَبُغْضٍ وَكَرَاهِيَةٍ، وَمُوَالَاةٍ وَمُعَادَاةٍ.

وَإِذَا أَحَبَّ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَلْيُعْلِمْهُ بِذَلِكَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ[٢٠]، وَرَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ رَجُلٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ نَاسٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ عِنْدَهُ: إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا لِلَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَقُمْ إِلَيْهِ فَأَعْلِمْهُ**»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَعْلَمَهُ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكَ مَا احْتَسَبْتَ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ[٢١].

وَفَائِدَةُ هَذَا الْإِعْلَامِ بِالْمَحَبَّةِ أَنَّهُ يَجْلِبُ الْمَوَدَّةَ، وَيَزِيدُ فِي الْأُلْفَةِ، وَيَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ، وَيُزِيلُ شَحْنَاءَ النُّفُوسِ، وَإِذَا عَلِمَ أَخُوهُ أَنَّهُ مُحِبٌّ لَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ قَبِلَ

---

(٢٠) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٢)، وأبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٤)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في إعلام الحُب وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٩٣)، وصححه ابن حبان (٢٥١٤).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٦)، وعبد بن حميد (٤٤٤)، وأبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠١٠)، وأبو يعلى (٣٤٤٢)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣١٩٣)، وصححه ابن حبان (٥٧١)، والحاكم (٤/ ١٨٩)، والزيادة التي في آخر الحديث للبغوي في شرح السنة (٣٤٨٢).

نُصْحَهُ وَمَوْعِظَتَهُ، وَأَصْغَى إِلَى رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ؛ لِيَقِينِهِ بِصِدْقِ أَخِيهِ مَعَهُ، وَنُصْحِهِ لَهُ(٢٢).

فَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ يَدْعُو لِإِخْوَانِهِ وَأَحْبَابِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُخْبِرُهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ يَكْتُمُهُ عَنْهُمْ، وَإِنْ دَعَا لَهُمْ بِحَضْرَتِهِمْ أَسَرَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُظْهِرُهُ لَهُمْ(٢٣)، إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ مَعْرُوفًا فَيُكَافِئُهُ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ(٢٤).

فَمَحَبَّتُهُ لِأَخِيهِ يُعْلِمُهُ بِهَا، وَدُعَاؤُهُ لَهُ يَكْتُمُهُ عَنْهُ؛ لِئَلَّا يَتَّكِلَ أَخُوهُ عَلَى دُعَائِهِ

---

(٢٢) ينظر: شرح السنة (١٣/ ٦٧)، وشرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣٢٠٥).

(٢٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٤٩)، وعون المعبود (٤/ ٢٧٥-٢٧٦)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٩٧).

(٢٤) وذلك لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، وعبد بن حميد (٨٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٥/ ٨٢)، وصححه ابن حبان (٣٤٠٨)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٧٣).

ولا يرد على ذلك أن من أراد مكافأة أخيه على معروفه بالدعاء أن يدعو له بظهر الغيب فقط، فله ذلك، وله أن يظهر دعوته له؛ للحاجة إلى ذلك، ولتأليف قلب أخيه، وهو من باب الشكر على المعروف ولو كان دعاءً، والشكر لا ينفع إذا كان سرًّا، بل لا بد من إظهاره.

وقد دل النص على استثناء دعوة المكافأة من عموم دعوة المسلم لأخيه المسلم التي ينبغي أن تكون بظهر الغيب، وذلك ما جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن جيد غريب (٢٠٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٠٨)، والطبراني في الصغير (١١٨٣)، وصححه ابن حبان (٣٤١٣).

وهذا الثناء البليغ المذكور في الحديث دعاء، وجاء بصيغة الخطاب لمن صنع المعروف، فاستثنيت هذه الصورة من عموم دعوة المسلم لأخيه التي ينبغي أن تكون بظهر الغيب، والله أعلم.

فَيَتْرُكَ الدُّعَاءَ، أَوْ يَكْسَلَ عَنْهُ؛ وَلِظَاهِرِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٥).

فَسَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ «دَعْوَةً بِظَهْرِ الْغَيْبِ»، وَإِذَا أَظْهَرَهَا، أَوْ أَعْلَمَ أَخَاهُ بِهَا لَمْ تَكُنْ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، فَفَقَدَتْ مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَسْرَعَ الدَّعَوَاتِ إِجَابَةً دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ؛ لِإِخْلَاصِهِ، وَصِدْقِ نِيَّتِهِ، وَبُعْدِهِ عَنْ شَوَائِبِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ(٢٦).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَأَخْلِصُوا عَمَلَكُمْ لَهُ، وَأَحِبُّوا فِيهِ، وَأَبْغِضُوا فِيهِ، وَوَالُوا فِيهِ، وَعَادُوا فِيهِ؛ تَجِدُوا بِذَلِكَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(٢٥) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٢)، وأبو داود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (١٦٣٤)، وابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٥).

(٢٦) جاء في ذلك حديث ضعيف، وهو ما رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«ما دعوة أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب»** أخرجه أبو داود (١٥٣٥)، والترمذي (١٩٨)، وعبد بن حميد (٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٢٣)، وفي سنده عبدالرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، ضعفه الأئمة كما في تهذيب التهذيب (٣/ ٢٦٠) رقم الترجمة: (٤٤٠٥)، وقال الترمذي بعد رواية حديثه: والأفريقي يضعف في الحديث.



٣٤٠- الحب في الله تعالى (٢)

٧/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَأَتْقَنَ خَلْقَهُمْ، وَصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْمُتَتَابِعِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّلَ بِخَلْقِهِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَبَرْهَنَ بِتَقْدِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا رَبَّ يُعْبَدُ بِحَقٍّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ يَنْفَعُ سِوَاهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٤، ٨٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ مَا كَانَ فِي قَلْبِهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَا اتَّخَذَ خَلِيلًا سِوَاهُ، قَالَ جُنْدَبٌ رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[1] صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَلَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَتَحَابُّوا بَعْدَ الْبَغْضَاءِ، وَاتَّفَقُوا بَعْدَ الِاخْتِلَافِ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣] وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (٥٣٢). وجاء في الصحيحين عن ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهم بنحوه.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ، فَمَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهُوَ مَانِحُهَا، وَلَا مِنْ عَطِيَّةٍ إِلَّا وَهُوَ وَاهِبُهَا، خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَهَدَاكُمْ وَكَفَاكُمْ، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَاكُمْ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِمَرْضَاتِهِ، وَطَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى جَنَّاتِهِ، وَالْعِبَادَاتُ مِنْهَا الْأَقْوَالُ، وَمِنْهَا الْأَفْعَالُ، وَمِنْهَا أَعْمَالُ الْقُلُوبِ، وَهِيَ أَعْمَالٌ يَقُومُ بِهَا الْقَلْبُ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى مَؤُونَةِ قَوْلٍ وَلَا عَمَلِ جَوَارِحَ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا إِلَّا الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي سَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتَسْلَمَ لِأَمْرِهِ، وَخَضَعَ لِحُكْمِهِ، وَطَوَّعَ هَوَاهُ لِشَرِيعَتِهِ.

وَكَمْ مِنْ عَظِيمٍ فِي النَّاسِ، قَوِيِّ الْجَاهِ، كَثِيرِ الْمَالِ، مُهَابِ الْجَنَابِ؛ يَحْمِلُ قَلْبًا ضَعِيفًا مَرِيضًا، تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ، وَلَا يَثْبُتُ عِنْدَ الضَّرَّاءِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المَعَارج: ٢٠، ٢١].

وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ عِنْدَ النَّاسِ يَحْمِلُ قَلْبًا حَيًّا، فَاضَ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُزَحْزِحُوهُ عَنْ يَقِينِهِ مَا زَحْزَحُوهُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ مَحَلُّ الْإِخْلَاصِ أَوِ الرِّيَاءِ، وَحَامِلُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ إِنْ أَحَبَّ أَحَبَّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ وَالَى وَالَى فِيهِ، وَإِنْ عَادَى عَادَى فِيهِ، وَبِذَلِكَ يُسْتَكْمَلُ الْإِيمَانُ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَالْبُغْضَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَسَلَامَتِهِ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا .. بِهِ تُنَالُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ، وَيَسْتَظِلُّ صَاحِبُهُ حِينَ لَا ظِلَّ إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ الرَّحْمَنُ، وَيَبْلُغُ الْعَبْدُ بِحُبِّهِ لِأَخِيهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى مَنْزِلَةً يَغْبِطُهُ عَلَيْهَا النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَإِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ قَوْمًا لَا يُدْرِكُ بِعَمَلِهِ

فَضْلَهُمْ فَهُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ؛ كُلُّ ذَلِكَ جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ.

وَمِنْ كَمَالِ مَحَبَّتِهِ لِأَخِيهِ أَنْ يَتَمَنَّى لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ؛ فَلَا يَحْسُدُهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَزْدَرِيهِ أَوْ يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢].

وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ**»[٣].

وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَامِلَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ أَنْ يَحْصُلَ لِأَخِيهِ نَظِيرُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ فِي أُمُورِ الدِّينِ أَوْ فِي الْمُبَاحَاتِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا[٤].

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ أَيْضًا أَنْ يُبْغِضَ لِأَخِيهِ مَا يُبْغِضُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِّ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ حُبَّ الشَّيْءِ مُسْتَلْزِمٌ لِبُغْضِ نَقِيضِهِ[٥].

وَمَنْ رَأَى تَحَاسُدَ الْأَقْرَانِ، وَتَهَاجُرَ الْإِخْوَانِ، وَتَقَطُّعَ الْقَرَابَةِ؛ عَلِمَ أَنَّ بَيْنَ أَكْثَرِ النَّاسِ وَبَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ مَفَازًا عَظِيمًا، وَسَبَبُ ذَلِكَ الدُّنْيَا الَّتِي عَظُمَتْ فِي النُّفُوسِ فَأَفْسَدَتِ الْقُلُوبَ، وَقَدَّمَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ شَهَوَاتِهِمْ عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ

---

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

(٣) هذه الرواية لأبي يعلى (٣٠٨١)، وصححها ابن حبان (٢٣٥)، والضياء في المختارة (٢٥٢٥).

(٤) ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٦)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٥٧-٥٨).

(٥) ذكره الحافظ عن الكرماني (١/ ٥٨).

تَعَالَى، وَإِلَّا فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي اللَّهِ تَعَالَى هِيَ مِنْ إِكْرَامِ الْعَبْدِ لِرَبِّهُ، وَيَسْتَوْجِبُ بِذَلِكَ مَا يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْأَجْرِ الْكَثِيرِ، وَمَنْ أَكْرَمَ الْكَرِيمَ أَكْرَمَهُ الْكَرِيمُ أَكْثَرَ مِنْ كَرَمِهِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُكْرِمُ رَبَّهُ ﷻ بِإِخْلَاصِ الْمَحَبَّةِ لَهُ وَفِيهِ؟! رَوَى أَبُو أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَحَبَّ عَبْدٌ عَبْدًا لِلَّهِ** ﷻ **إِلَّا أَكْرَمَ رَبَّهُ** ﷻ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٦].

فَهَلْ يُفَرِّطُ فِي إِكْرَامِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ يُرِيدُ كَرَامَتَهُ؟! وَكَرَامَتُهُ سُبْحَانَهُ جَنَّتُهُ وَرِضَاهُ عَنْ عِبَادِهِ، كَيْفَ؟! وَفَضْلُهُ عَلَيْنَا لَا يُعَدُّ، وَعَطَاؤُهُ لَا يُحْصَى!

إِنَّهُ حُبٌّ فِي اللَّهِ تَعَالَى لَا تُكَدِّرُهُ أَدْرَانُ الدُّنْيَا، خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى لَا حَظَّ فِيهِ لِمَخْلُوقٍ، صَادِقٌ مِنَ الْقَلْبِ لَا يَتَأَثَّرُ بِتَقَلُّبَاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِيهِ الْوُدُّ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ صَاحِبِهِ مِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى، أَوْ بِتَبَدُّلِ مَنْ يُحِبُّ مِنَ الْجَاهِ إِلَى فَقْدِهِ.

وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ الصَّادِقَةِ هُمُ الزِّينَةُ وَالْأُنْسُ فِي الرَّخَاءِ، وَهُمُ الْعَوْنُ وَالْعُدَّةُ -بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى- فِي الشَّدَائِدِ، إِنْ رَأَوْا مِنْ أَخِيهِمْ حَسَنًا أَظْهَرُوهُ، وَإِنْ وَقَعُوا عَلَى سَيِّئٍ سَتَرُوهُ، يَحْفَظُونَ لَهُ فِي غَيْبَتِهِ مَا يُبْدُونَ لَهُ فِي حَضْرَتِهِ، لَا يَخْتَلِفُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَمَّا تُلْقِيهِ أَلْسِنَتُهُمْ فِي ذِكْرِ صَاحِبِهِمْ. إِنْ جَلَسُوا مَعَ مَنْ يُحِبُّونَ احْتَسَبُوا مَجْلِسَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ تَزَاوَرُوا تَزَاوَرُوا لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنِ احْتَاجَ صَاحِبُهُمْ مَعُونَةً بَذَلُوهَا لَهُ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى.

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ بِالشَّامِ، فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ

---

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٩)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٢٠)، والبيهقي في الشعب (٩٠١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٦).

هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ، فَقَالَ: آللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آللَّهِ. فَقَالَ: آللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آللَّهِ. فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ: أَبْشِرْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**» رَوَاهُ الْإِمَامَانِ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ[٧].

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ أَبُو إِدْرِيسَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلْتُ فَإِذَا مُعَاذٌ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ، قَالَ: فَصَلَّيْتُ عِنْدَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ جَلَسْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ السَّارِيَةُ، ثُمَّ احْتَبَيْتُ فَلَبِثْتُ سَاعَةً لَا أُكَلِّمُهُ وَلَا يُكَلِّمُنِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِغَيْرِ دُنْيَا أَرْجُوهَا أُصِيبُهَا مِنْكَ، وَلَا قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، قَالَ: فَلِأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: فَنَثَرَ حُبْوَتِي ثُمَّ قَالَ: فَأَبْشِرْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**»، قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَلْقَى عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي حَدَّثَنِي مُعَاذٌ، فَقَالَ عُبَادَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: **حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ**»[٨].

وَالزِّيَارَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الْمَحَبَّةِ فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهَا مَحَبَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْظُمُ أَثَرُهَا إِنْ أَنْشَأَ الْمُحِبُّ سَفَرًا لِأَجْلِهَا؛ فَمَاذَا

---

(٧) أخرجه مالك (٢/ ٩٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٠) رقم (١٥٠)، وصححه ابن حبان (٥٧٥)، والحاكم (٣/ ٣٠٢)، والضياء في المختارة (٣٧٢-٣٧٣).

(٨) هذه الرواية لأحمد (٥/ ٣٢٨).

سَيَكُونُ فِي قَلْبِ أَخِيهِ لَهُ إِنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَا شَدَّ رَحْلَهُ، وَلَا أَنْشَأَ سَفَرَهُ، وَلَا أَكَلَّ ظَهْرَهُ، وَلَا أَتْعَبَ نَفْسَهُ؛ إِلَّا لِلُقْيَاهُ وَزِيَارَتِهِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ وَمُجَالَسَتِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ زِيَارَةٍ! وَمَا أَعْلَى مَنْزِلَةَ صَاحِبِهَا! وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ دِينٍ يُرَبِّي أَتْبَاعَهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ! رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»**[9].

وَيَنَالُ الْمُحِبُّ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ ﷻ بِقَدْرِ مَا يَبْذُلُ لِأَخِيهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»** رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ[10].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّقْوَى وَالْيَقِينِ، وَأَنْ يَمْلَأَ قُلُوبَنَا مَحَبَّةً لَهُ وَلِأَوْلِيَائِهِ، وَبُغْضًا لِأَعْدَائِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

❀ ❀ ❀

---

(٩) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب الحب في الله تعالى (٢٥٦٧)، وإسحاق بن راهويه (٢٧)، وأحمد (٢/٤٠٨)، وابن حبان (٥٧٢).

(١٠) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، والطيالسي (٢٠٥٣)، وأبو يعلى (٣٤١٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣١٩٢)، والطبراني في الأوسط (٢٨٦٩)، وصححه ابن حبان (٥٦٦).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَأَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقُلُوبُ بِيَدِهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَنْقَى الْعِبَادِ سَرِيرَةً، وَأَصْلَحُهُمْ قَلْبًا، وَأَزْكَاهُمْ نَفْسًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا رُتِّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ؛ أَيْقَنَ أَنَّ لِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ شَأْنًا عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الْعَبْدَ يُدْرِكُ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يُدْرِكُهُ مَرِيضُ الْقَلْبِ وَلَوْ كَانَ أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَشَدَّ سَعْيًا.

وَقَدْ يُحِبُّ الرَّجُلُ قَوْمًا يَظُنُّ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِهَوَى نَفْسِهِ، وَشَهْوَةِ قَلْبِهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَحَبَّتِهِ نَصِيبٌ؛ كَمَنْ يُحِبُّ مُؤْمِنًا تَقِيًّا صَاحِبَ جَاهٍ وَمَالٍ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِمَا يَمْلِكُ، وَيَزُورُهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، أَوْ لِيَرَاهُ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَوْ لَمْ يَنَلْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِذَا مَا زَالَ مَا يَمْلِكُهُ زَالَتْ مَحَبَّتُهُ، وَانْقَطَعَ عَنْ زِيَارَتِهِ، فَهَذَا مَا أَحَبَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا لِشَهْوَةٍ فِي نَفْسِهِ.

وَصَاحِبُ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ لَا تَتَغَيَّرُ مَحَبَّتُهُ بِتَغَيُّرَاتِ الدُّنْيَا وَأَحْوَالِهَا، وَلَكِنَّهَا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرَاتِ الدِّينِ، كَانْتِقَالِ مَنْ يُحِبُّ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، أَوْ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ، أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَحِينَئِذٍ يَتَنَازَعُ الْقَلْبَ وَارِدَانِ: وَارِدُ مَحَبَّتِهِ لِصَاحِبِهِ الَّذِي تَغَيَّرَ دِينُهُ، وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُهُ، وَقَدْ صَاحَبَهُ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ،

وَوَارِدُ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَيُقَدِّمُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَحَبَّةِ خَلِيلِهِ؛ لأَنَّهُ مَا أَحَبَّهُ إِلَّا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا تَنَكَّرَ لِدِينِهِ فَقَدَ سَبَّبَ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

قَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، فَإِذَا أَحَبَبْتَ أَحَدًا فِي اللَّهِ فَأَحْدَثَ حَدَثًا فَأَبْغِضْهُ فِي اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْحُبُّ فِي اللَّهِ»(١١).

وَمِنْ هُنَا كَانَتِ المَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ الْخَالِصَةُ لِلَّهِ تَعَالَى مَبْنَاهَا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيُحِبُّ صَاحِبُهَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُبْغِضُ أَعْدَاءَهُ، وَهَكَذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ**»(١٢)، وَمُعَاذٌ مِنْ فُقَهَاءِ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَائِهِمْ وَقُضَاتِهِمْ، فَأَحَبَّهُ النَّبِيُّ ﷺ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَاتٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى.

وَوَصَفَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: «مَا أَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا ذَا تُقًى» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(١٣).

وَجَاءَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، تَتَلَاقَى فِي الْهَوَاءِ فَتَتَشَامُّ كَمَا تَتَشَامُّ الْخَيْلُ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ، وَلَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا جَاءَ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُنَافِقٍ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ لَقُيِّضَ لَهُ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيْهِ»(١٤).

---

(١١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٥١٧)، وجاء نحوه عن سفيان الثوري في الشعب (٩٥١٨-٩٥١٩).

(١٢) أخرجه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: البخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وأبو داود في الصلاة، باب الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وعبد بن حميد (١٢٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (٣/ ٣٠٧).

(١٣) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥٢)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٤).

(١٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٤٣٧).

بَلْ إِنَّ مِنْ عُقُوبَاتِ المَعَاصِي أَنَّهَا تُفَرِّقُ المُحِبِّينَ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي انْقِلَابِ المَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ إِلَى عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءَ، وَيَكُونُ هَذَا فِي الآخِرَةِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخْرُف: ٦٧]، كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَكَمَا أَنَّ لِلْعَبْدِ أَصْدِقَاءَ يُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَعْدَاءٌ يُبْغِضُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُهُمْ وَيُبْغِضُ أَفْعَالَهُمْ، فَبُغْضُ الْعَبْدِ لَهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ طَاعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُوَافَقَةٌ لَهُ فِي شَرْعِهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَمِنَ الْحُبِّ فِي اللَّهِ حُبُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَهُمُ الأَنْقِيَاءُ الْعُلَمَاءُ الْفُضَلَاءُ، وَمِنَ الْبُغْضِ فِي اللَّهِ بُغْضُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَجَاهَرَ بِمَعَاصِيهِ، أَوْ أَلْحَدَ فِي صِفَاتِهِ وَكَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، أَوْ نَحْوُ هَذَا كُلِّهِ»(١٦).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَتَفَقَّدُوا قُلُوبَكُمْ، وَتَعَاهَدُوهَا بِأَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالرَّشَادِ؛ فَأَحِبُّوا مَنْ أَحْبَبْتُمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَبْغِضُوا مَنْ أَبْغَضْتُمْ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٦٨)، وحسنه المنذري في الترغيب (٣٣٦٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٤).
وله شاهد من حديث الحسن عن رجل من بني سليط عند: أحمد (٥/ ٧١).

(١٦) التمهيد (١٧/ ٤٣١).



٣٤١- الرضا عن الله تعالى (٢) (*)

٤/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: سَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَالرِّضَا عَنْهُ ﷻ، وَشَقَاءُ الْعَبْدِ فِي كُفْرِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَوِ التَّفْرِيطِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، أَوْ عَدَمِ الرِّضَا عَنْهُ ﷻ.

وَالْمُلْكُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، وَخَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَافِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْتَلِي مَنْ يَشَاءُ .. لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. وَالْخَلْقُ مَهْمَا عَلَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَبَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ؛ فَإِنَّهُم مَخْلُوقُونَ مُدَبَّرُونَ، مَشِيئَتُهُمْ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ

(*) الرضا عن الله تعالى (١) تجدها في مجلد (٣) خطبة رقم (١٠٥).

تَعَالَى، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير: ٢٩]. فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا الَّذِي بِهِ يَسْعَدُ فِي الدُّنْيَا بِعَيْشِهَا، وَيَهْنَأُ فِي الْآخِرَةِ بِنَعِيمِهَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ الَّذِي بِهِ يَشْقَى فِي الدُّنْيَا، وَلَنْ يَنَالَ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا، مَعَ خَسَارَتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَقَامٌ رَفِيعٌ، وَمَطْلَبٌ عَزِيزٌ، لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا الْخُلَّصُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ فَهُوَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي بِهَا يَصْعَدُ الْعَبْدُ إِلَى ذِرْوَةِ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ[1]، وَيَقْتَفِي أَثَرَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﵇ الَّذِي حَقَّقَ الرِّضَا، فَرَضِيَ اللَّهُ فِعْلَهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَنَالَهُ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَجَعَلَهُ أُمَّةً فِي الْعَالَمِينَ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ابْتَلَاهُ بِالْكَوْكَبِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِذَبْحِ ابْنِهِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالْهِجْرَةِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالنَّارِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالْخِتَانِ»[2].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «مَا ابْتُلِيَ بِهَذَا الدِّينِ أَحَدٌ فَأَقَامَهُ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النَّجم: ٣٧]. فَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ»[3].

---

(١) قال أبو الدرداء ﵁: «ذروة الإيمان: الصَّبْرُ للحكم والرضا بالقَدَرِ والإخْلَاص في التوكُّل والاستسلام للرَّبِّ ﷻ» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٦)، وابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٣)، والبيهقي في الشعب (١٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٢١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي شيبة (١/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٣١)، والطبري (١/ ٥٢٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٦٠٢).

وَمَنْشَأُ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ: قُوَّةُ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَعِلْمُهُ بِعَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ؛ فَإِنَّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، لَا يَخْرُجُ عَنْ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

أَمَّا عَدْلُهُ ﷻ فَإِنَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ مِنْ مَصَائِبَ، وَمَا يُضَيَّقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَرْزَاقٍ، سَبَبُهُ: تَفْرِيطُهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِتْيَانُهُمْ مَا يَسْتَوْجِبُ عُقُوبَتَهُمْ. وَمَا يَعْفُو عَنْهُ الرَّبُّ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ يَلْحَظُ ذَلِكَ وَيُبْصِرُهُ فَوْرَ وُقُوعِ الْمُصِيبَةِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ؛ كَمَا كَانَ السَّلَفُ يَصْنَعُونَ، قَالَ يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَكِّيُّ: «زَرَعَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ زَرْعًا، فَلَمَّا بَلَغَ أَصَابَتْهُ آفَةٌ فَاحْتَرَقَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ نُوَاسِيهِ عَنْهُ، فَبَكَى، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَلَيْهِ أَبْكِي، وَلَكِنْ سَمِعْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧] فَأَخَافُ أَنْ أَكُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»(٤).

وَأَمَّا رَحْمَتُهُ ﷻ؛ فَإِنَّ مُصَابَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا يُخَفِّفُ عَنْهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُبَلِّغُهُ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ فِي الْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٥).

---

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (١٢).

(٥) أخرجه من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده: أبو داود في الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٢)، وأبو يعلى (٩٢٣)، والبيهقي (٣/ ٣٧٤)، والطبراني في الكبير(٢٢/ ٣١٨) برقم (٨٠١) وفي الأوسط (١٠٨٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤١٦).
ومحمد بن خالد مجهول هو وأبوه كما ذكر الحافظان الذهبي وابن حجر، لكن للحديث شواهد يتقوى بها عن أبي هريرة وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن إياس عن أبيه عن جده ﷺ؛ ولذلك ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٩٩).

فَأَفْعَالُهُ ﷻ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، وَكُلُّ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ بَعْضُ الْعِبَادِ وَلَمْ يَرْضَوْهُ، فَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُهُمْ مِنْهُمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْضِ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه[٦].

وَمِنَ الْخِذْلَانِ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ: أَنْ يَتَّهِمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ ﷻ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ عَنْ رَبِّهِ فِي رِزْقِهِ فَهُوَ مُتَّهِمٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ، شَاكٌّ فِي عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَأَجَابَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اذْهَبْ فَلَا تَتَّهِمِ اللَّهَ عَلَى نَفْسِكَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَلَا تَتَّهِمِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ**» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[٧].

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، لَا يَتَّهِمُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي قَضَائِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَكٌّ فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَإِنْ أُصِيبَ وَاحِدُهُمْ بِمُصِيبَةٍ، أَوْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ أَرْجَعَ ذَلِكَ إِلَى ذُنُوبِهِ،

---

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧، ١٨٤)، وأبو يعلى (٤٢١٨)، وصححه ابن حبان (٧٢٨).
وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ١٧٣، ١٨٢) وعبد بن حميد (١٣٩)، وعبد الرزاق (٢٠٣١٠)، والبيهقي (٣/ ٣٧٥).

(٧) الرواية الأولى أخرجها من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٠٤).
والرواية الثانية أخرجها من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٤٠٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للطبراني (١/ ٥٨٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما حسن» (٢/ ١٨٨) برقم (٢٠٤٦)، لكن ضعَّف الهيثمي حديث عمرو بن العاص برشدين بن سعد، وضعّف حديث عبادة بابن لهيعة، ينظر: مجمع الزوائد (١/ ٥٩ - ٦٠).

وَأَحْسَنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَقَابَلَ مُصَابَهُ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا، فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ.

هَذَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رضي الله عنه أُصِيبَ بِدَاءٍ فِي بَطْنِهِ ثَلاثِينَ سَنَةً، فَقَابَلَ ذَلِكَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَتَيْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنه يَوْمًا فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَأَدَعُ إِتْيَانَكَ لِمَا أَرَاكَ فِيهِ، وَلِمَا أَرَاكَ تَلْقَى، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ: «سُقِيَ بَطْنُهُ فَمَكَثَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى سَرِيرٍ مَثْقُوبٍ»(٨).

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اشْتَكَى عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رضي الله عنه فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَارٌ لَهُ، فَاسْتَبْطَأَهُ فِي الْعِيَادَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا نُجَيْدٍ: إِنَّ بَعْضَ مَا يَمْنَعُنِي مِنْ عِيَادَتِكَ مَا أَرَى بِكَ مِنَ الْجَهْدِ، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللَّهِ فَلَا تَبْتَئِسْ لِي بِمَا تَرَى، أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ مَا تَرَى مُجَازَاةً بِذُنُوبٍ قَدْ مَضَتْ، وَأَنَا أَرْجُو عَفْوَ اللَّهِ عَلَى مَا بَقِيَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورى: ٣٠]»(٩).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا أُبَالِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَرَاهُمْ، أَبِسَرَّاءَ أَمْ بِضَرَّاءَ، وَمَا أَصْبَحْتُ عَلَى حَالٍ فَتَمَنَّيْتُ أَنِّي عَلَى سِوَاهَا»(١٠).

وَجَاءَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- «أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتِهِ اشْتَكَى فَوَجَدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُخْبِرَ بِمَوْتِهِ فَسُرِّيَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: نَدْعُو

---

(٨) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية أبي عبدالله المروزي (٤٦١)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩٠)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٦٠).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٦١).

(١٠) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٥)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٩).

اللَّهَ فِيمَا نُحِبُّ، فَإِذَا وَقَعَ مَا نَكْرَهُ لَمْ نُخَالِفِ اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا أَحَبَّ»(١١).

إِنَّ رِضَا الْعَبْدِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبٌ لِرِضَا اللَّهِ ﷻ عَنِ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ارْضَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى يَرْضَ اللَّهُ عَنْكَ، وَأَعْطِ اللَّهَ تَعَالَى الْحَقَّ مِنْ نَفْسِكَ، أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]»(١٢).

وَالرِّضَا سَبَبٌ لِرَاحَةِ النَّفْسِ، وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، وَذَهَابِ الهَمِّ وَالْغَمِّ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ عَنْ رَبِّهِ ﷻ فَإِنَّهُ لَا يَسْعَدُ وَلَوْ مَلَكَ المَالَ الْكَثِيرَ، وَحَازَ الْجَاهَ الْعَظِيمَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقِسْطِهِ وَحِلْمِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»(١٣).

وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزْقِ وَبَرَكَتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ ﷻ لَهُ بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ**» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(١٤).

وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُصِيبَةِ وَاجِبٌ، وَالرِّضَا أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الصَّبْرِ، وَلَا يَقْدِرُ

---

(١١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٧)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٨٧).

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٩٠).

(١٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية أبي عبد الله المروزي (١٤٣٨)، وهناد في الزهد (٥٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١١٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٦) برقم (١٠٥١٤)، وابن أبي الدنيا في اليقين (٣٢)، والبيهقي في الشعب (٢٠٣)، ورفعه بعضهم، ولا يصح مرفوعًا، بل هو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، والروح: استراحة القلب وطمأنينته.

(١٤) أخرجه من حديث أبي العلاء بن الشخير عن رجل من بني سليم له صحبة: أحمد (٥/ ٢٤)، وابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٧)، والبيهقي في الشعب (١٣٥٤)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٤)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٧٢)، وقال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٥٧).

عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعِبَادِ، لِذَلِكَ كَانَ مُسْتَحَبًّا(١٥).

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّضَا عَزِيزٌ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مُعَوَّلُ الْمُؤْمِنِ»(١٦).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا بِمَا أَعْطَانَا، وَبِمَا قَدَّرَ عَلَيْنَا، وَأَنْ يَرْضَى عَنَّا، وَأَنْ يُرْضِيَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ،

---

(١٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (٢/ ٧٤): «النوع الثاني: الرضا بالمصائب؛ كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر».
وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥): «فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجب على المؤمن حتم» اهـ.
وفي الفرق بين الرضا والصبر قال الحافظ ابن رجب: «والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر كَفّ النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال الألم وإن وجد الإحساس بألم، لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية» اهـ من جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥).

وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي الْحَيَاةِ الْمُعَاصِرَةِ بِكُلِّ مَشْكِلَاتِهَا وَتَعْقِيدَاتِهَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ؛ تَكْثُرُ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ، وَالِاضْطِرَابَاتُ الْعَصَبِيَّةُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، الَّذِينَ رَضُوا عَنِ اللَّهِ ﷻ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ فِي الدُّنْيَا بِرَاحَةِ الْبَالِ، وَسَعَادَةِ الْقَلْبِ، وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ قِلَّةٍ وَذِلَّةٍ فِي النَّاسِ.

وَالتَّسَابُقُ الْمَحْمُومُ فِي مَيَادِينِ الدُّنْيَا الَّذِي كَرَّسَتْهُ الْمَذَاهِبُ الْمَادِّيَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، كَانَ سَبَبًا فِي عَدَمِ رِضَا أَكْثَرِ النَّاسِ عَنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَسَخُّطِهِمْ عِنْدَ أَدْنَى مُصِيبَةٍ تَحِلُّ بِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَرْضَوْا بِأَرْزَاقِهِمْ رَغْمَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ الْوَفِيرِ .. فَمَسْتُورُ الْحَالِ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا، وَالْغَنِيُّ يُرِيدُ ثَرَاءً فَاحِشًا، وَأَصْحَابُ الثَّرَاءِ الْفَاحِشِ يَطْلُبُونَ الْمَزِيدَ وَالْمَزِيدَ، فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْجَشَعِ لَا تَنْتَهِي، قَدْ عَمَّتْ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى.

إِنَّ الْحَضَارَةَ الْمَادِّيَّةَ الْمُعَاصِرَةَ قَدْ أَوْجَدَتْ حَالَةً مِنَ السَّخَطِ وَعَدَمِ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَكَثُرَ فِي النَّاسِ تَذَمُّرُهُمْ مِنْ وَاقِعِهِمْ، وَخَوْفُهُمْ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِمْ؛ فَاسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَرَاتِبِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ؛ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ.

وَصَارَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَهِمُّ بِالْأَمْرِ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ وَظِيفَةٍ أَوْ جَاهٍ، فَإِذَا أَخْفَقَ فِيهِ أَوْ خَسِرَ رَأَى أَنَّ حَيَاتَهُ انْتَهَتْ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُدْرِكْهُ، وَأُصِيبَ بِعِلَّاتٍ نَفْسِيَّةٍ يَعْسُرُ شِفَاؤُهُ مِنْهَا، وَلَيْسَتْ مُشْكِلَتُهُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي فَوَاتِ مَا يَطْلُبُ، وَوُقُوعِ مَا

يَكْرَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُنْذُ خُلِقَ مُعَرَّضٌ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ مُشْكِلَتَهُ فِي ضَعْفِ يَقِينِهِ بِرَبِّهِ، فَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ تَسَخُّطُهُ مِنْ أَدْنَى شَيْءٍ يَجْرِي عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ يَسِيرًا.

وَلَوْ آمَنَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِحِكْمَتِهِ الَّتِي أَتْقَنَ بِهَا صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِعِلْمِهِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُقَدِّرُ لَهُ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ يَضُرُّهُ، وَلَوْ كَانَ هُوَ يَطْلُبُهُ وَيَرْغَبُهُ، وَالْخِيرَةُ خَفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَالْخَيْرُ فِيمَا اخْتَارَهُ ﷻ.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُشْرِفُ عَلَى الْأَمْرِ مِنَ التِّجَارَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ حَتَّى يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ يَذْكُرُهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَيَقُولُ لِلْمَلَكِ: اذْهَبْ فَاصْرِفْ عَنْ عَبْدِي هَذَا؛ فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أُدْخِلْهُ جَهَنَّمَ، فَيَجِيءُ الْمَلَكُ فَيَعُوقُهُ، فَيُصْرَفُ عَنْهُ، فَيَظَلُّ يَتَظَنَّى بِجِيرَانِهِ: إِنَّهُ دَهَانِي فُلَانٌ .. سَبَقَنِي فُلَانٌ، وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً بِهِ» رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَالدَّارِمِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ(١٧).

---

(١٦) الاستقامة (٢/ ٧٤)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥).

(١٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (٨٠)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٧)، واللالكائي في السنة (١٢١٩)، والذهبي في العلو وقال: «بإسناد قوي» (٩٩-١٧٧)، وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٥٤)، وقوّى إسناده الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول (١/ ١٧٧).
وأخرجه مرفوعًا من حديث ابن عباس ﵄: أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٤-٣٠٥ و٧/ ٢٠٨)، وابن قدامة في العلو (ص٦٣)، قال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث شعبة والحكم عن مجاهد، لم نكتبه إلا من حديث علي بن معبد عن صالح» اهـ.
قلت: صالح هو ابن بيان الثقفي، ويقال العبدي، ذكره العقيلي في الضعفاء وقال: «الغالب على حديثه الوهم، ويُحَدِّث بالمناكير عمن لم يحتمل» (٢/ ٢٠٠) برقم (٧٢٤)، وذكره ابن عدي في الكامل وقال: «وكان شيخًا صالحًا» (٤/ ٦٦) برقم (٩١٤)، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين، ونقل عن الدارقطني قوله: «متروك» (٢/ ٤٧) برقم (١٦٥٤)، ولذلك ذكر ابن الجوزي حديثه هذا في العلل المتناهية (٢/ ٨٠٢) برقم (١٣٤١).

وَيَقُولُ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَخِيرُ اللَّهَ تَعَالَى فَيَخْتَارُ لَهُ، فَيَسْخَطُ عَلَى رَبِّهِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعَاقِبَةِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خِيرَ لَهُ»(١٨).

وَاسْتَمِعُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- إِلَى هَذَا الْكَلَامِ الْمَتِينِ مِنَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «ارْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ لِهَمِّكَ، وَأَبْلَغُ فِيمَا تَطْلُبُ مِنْ آخِرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ لَنْ يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِنْدَ الْفَقْرِ وَالْبَلَاءِ كَرِضَاهُ عِنْدَ الْغِنَى وَالثَّرَاءِ، كَيْفَ تَسْتَقْضِي اللَّهَ تَعَالَى فِي أَمْرِكَ ثُمَّ تَسْخَطُ إِنْ رَأَيْتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟ وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَكَتُكَ، وَتَرْضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ؛ وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالْغَيْبِ، وَكَيْفَ تَسْتَقْضِيهِ إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ؟ مَا أَنْصَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا» اهـ(١٩).

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



(١٨) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٨)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٦١).

(١٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٦٩)، وهو في صفة الصفوة (٣/ ٣١١).

٣٤٢- قيمة الحياة الدنيا (١)

٢٤/ ٨/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: يَعْتَنِي الْبَشَرُ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى قَدْرِ أَهَمِّيَّتِهَا، وَيُثَمِّنُونَهَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا وَبَقَائِهَا، وَتَخْتَلِفُ نَظْرَتُهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَعِلْمِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَالْمُؤْمِنُ يَهْتَدِي فِي ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَا تُخْطِئُ نَظْرَتُهُ لِلْأَشْيَاءِ، وَلَا يَخْتَلُّ تَقْدِيرُهُ لَهَا.

وَالدُّنْيَا عِنْدَ الْمُؤْمِنِ مَطِيَّةُ الْآخِرَةِ وَوَسِيلَتُهَا، وَأَمَّا مَطْلُوبُهُ الْأَعْظَمُ، وَغَايَتُهُ الْكُبْرَى فَرِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارُ الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَإِنْ كَانَ يُكَذِّبُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فَهُوَ عَبْدٌ لِلدُّنْيَا، مُعْرِضٌ عَنِ

الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَيَعْمَلُ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ، فَلَنْ يَزِيدَهُ عَمَلُهُ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْفَوْزِ بِالْآخِرَةِ.

إِنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ قَدْ بَيَّنَا مَنْزِلَةَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَذَّرَا مِنْ عَاقِبَةِ الْعَمَلِ لَهَا، أَوْ جَعْلِهَا غَايَةً تُطْلَبُ مِنْ دُونِ الْآخِرَةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ الْمَقَامُ وَالْمُسْتَقَرُّ، وَهِيَ السُّرُورُ وَالْحُبُورُ، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وَإِذَا ذُكِرَتِ الدُّنْيَا فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَهِيَ لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ عَنْهَا وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِحَقِيقَتِهَا، وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِرَبِّهِ، وَبِمَا أَعَدَّ ﷻ لِعِبَادِهِ فِي الْآخِرَةِ.

دَخَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ السُّوقَ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ -أَيْ: عَلَى جَانِبَيْهِ، وَإِذَا ذُكِرَ السُّوقُ فَإِنَّ فِيهِ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ التِّجَارَةَ، وَيَعْرِفُونَ قِيمَةَ الْأَشْيَاءِ- فَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه[1].

---

(١) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٧)، وأبو داود في الطهارة، باب ترك الوضوء من مس الميتة (١٨٦)، وأحمد (٣/ ٣٦٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٢).
وجاء تفسير الأسك في رواية البخاري قال فيها: «فقالوا: والله لو كان حيًّا لكان عيبًا فيه أنه أسك -والأسَك الذي ليس له أذنان- فكيف وهو ميت ..» فلعله إدراج من بعض =

وَفِي حَادِثَةٍ أُخْرَى عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ[٢].

عَجِيبٌ وَاللَّهِ مَا أَفَادَتْهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنَ الْمَعَانِي، وَمَا ضَرَبَتْهُ مِنَ الْأَمْثَالِ! فَأَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوقِنُونَ الَّذِين يُتْبِعُونَ الْعِلْمَ الْعَمَلَ؟! فَلَا تَغُرُّهُمُ الدُّنْيَا، وَلَا تَشْغَلُهُمْ عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ؟!

هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَدْيًا أَسَكَّ مَيِّتًا، وَلَا شَاةً

= الرواة تفسيرًا للكلمة.

وقد ذكر النووي أن الأسكَّ صغير الأذنين، وقال القاضي عياض: «يطلق على ملتصق الأذنين وعلى فاقدهما وعلى مقطوعهما وعلى الأصم الذي لا يسمع، والمراد ها هنا الأول» ينظر: شرح النووي (١٨/ ٩٣)، والديباج على مسلم (٦/ ٢٧٤)، وعون المعبود (١/ ٢٢٢).

وقوله: «والناس كَنَفَته» قال النووي: «وفي بعض النسخ: «كَنَفَتَيْه» معنى الأول: جانبه، ومعنى الثاني: جانبيه» اهـ من شرحه على مسلم (١٨/ ٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧) برقم (٥٨٤٠)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي بأن في سنده زكريا بن منظور ضعيف (٤/ ٣٤١).

قلت: له شاهد من حديث المستورد بن شداد ﷺ عند: الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وحَسَّنَه، وقال: وفي الباب عن جابر وابن عمر (٢٣٢١)، وأخرجه ابن ماجه (٤١١١)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٠٤) برقم (٧٢٣)، وله شاهد آخر من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف عند أحمد (٢/ ٣٣٨)، والدارمي (٣٩٦).

وقد أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وذكر طرقًا كثيرة له، وقال: وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب (٦٨٦).

مَيِّتَةٌ، وَلَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ عَندَ وَاحِدٍ مِنَّا.

وَإِذَا أُطْلِقَتِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا تَنْتَظِمُ الزَّمَانَ الدُّنْيَوِيَّ كُلَّهُ، وَالْأَرْضَ بِكَامِلِهَا، مَعَ أَنْجُمِهَا وَأَفْلَاكِهَا، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا. وَالْوَاحِدُ مِنَّا لَمْ يَرَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ، لَا مِنْ جِهَةِ الزَّمَانِ وَلَا مِنْ جِهَةِ المَكَانِ! فَلَوْ عَاشَ المَرْءُ مِئَةَ سَنَةٍ لمَا أَدْرَكَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا الْقَلِيلَ؛ فَهِيَ تَزِيدُ عَلَى آلَافِ السِّنِينَ، فَمَا عُمْرُ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ لِعُمْرِ الدُّنْيَا؟!

وَأَمَّا المَكَانُ فَكَمْ يُشَاهِدُ الْإِنْسَانُ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ وَلَوْ كَانَ أَكْبَرَ رَحَّالَةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ؟! إِنَّهُ لَنْ يَرَى مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ! وَمَا فَاتَهُ مِنْ مُدُنِهَا وَقُرَاهَا، وَأَوْدِيَتِهَا وَجِبَالِهَا، وَغَابَاتِهَا وَأَشْجَارِهَا، وَبِحَارِهَا وَأَنْهَارِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ أَكْثَرُ مِمَّا أَدْرَكَهُ وَرَآهُ، وَمَا لَمْ يُشَاهِدْهُ مِنَ المَلَكُوتِ الْعُلْوِيِّ بِأَنْجُمِهِ وَأَفْلَاكِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي شَاهَدَ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَا جَدْيًا أَسَكَّ، وَلَا شَاةً مَيِّتَةً!!

إِنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا لَتَدُلُّنَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَعَظِيمِ خَزَائِنِهِ، وَاتِّسَاعِ سُلْطَانِهِ، وَغِنَاهُ عَنْ عِبَادِهِ.

كَمْ قِيمَةُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَّا؟ وَمَا ثَمَنُ شَاةٍ مَيِّتَةٍ فِي نُفُوسِنَا؟ وَلَوْ أَنَّ أَفْقَرَ رَجُلٍ عَلَى الْبَسِيطَةِ أُعْطِيَ مِنْ أَغْلَى المَعَادِنِ وَأَثْمَنِهَا مَا زِنَتُهُ عَشْرَ بَعُوضَاتٍ لمَا انْتَفَعَ بِهِ؛ لِخِفَّةِ وَزْنِهَا، فَكَيْفَ بِزِنَةِ بَعُوضَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ بِزِنَةِ جَنَاحِهَا؟!

فَزِنَةُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَثَمَنُ شَاةٍ مَيِّتَةٍ فِي نَفْسِكَ، لَا يُسَاوِي مِقْدَارَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ دُوَلٍ وَأُمَمٍ، وَحَضَارَةٍ وَعُمْرَانٍ،

وَمَطَاعِمَ وَمَشَارِبَ، وَمَرَاكِبَ وَمَلَابِسَ، وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَجِبَالٍ وَشِعَابٍ، وَأَشْجَارٍ وَغَابَاتٍ، وَكُلِّ شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِي الدُّنْيَا مِمَّا نَعْلَمُهُ وَمِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكُلِّ مَا مَضَى قَبْلَنَا مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا، وَكُلِّ مَا يَأْتِي بَعْدَنَا إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . . كُلُّ ذَلِكَ لَا يُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَّا، فَمَنْ يَقْدُرُ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَيَعْبُدُهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَيَعْلَمُ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَزِنَتَهَا عِنْدَ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا؟! عَزَّ سُلْطَانُهُ، وَجَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى لُهَاثِ الْبَشَرِ عَلَى الدُّنْيَا أَيْقَنَ أَنَّهُمْ مَا عَرَفُوا قَدْرَهَا، أَوْ غَفَلُوا عَنْ حَقِيقَتِهَا.

فِي مُقَابِلِ تَصْوِيرِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِالمَهَانَةِ وَالْقِلَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ إِذَا ذُكِرَتْ أَوْ ذُكِرَ جُزْءٌ مِنْهَا، أَوْ عَمَلٌ يُوَصِّلُ إِلَيْهَا؛ ذُكِرَ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، أَوْ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لَا يَتَّسِعُ المَقَامُ لِذِكْرِهَا كُلِّهَا، وَحَسْبُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى المَقْصُودِ مِنْهَا؛ فَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ تُفِيدُ أَنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؛ فَالْغُدْوَةُ وَالرَّوْحَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ[٣]، وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا[٤]، وَلَمَّا أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ**

---

(٣) أخرجه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله تعالى (١٨٨٣).
وأخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»: البخاري في الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٦٣٩).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لَغُدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ»: البخاري (٢٦٤٠).

(٤) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله تعالى (٢٧٣٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٤)، وأحمد (٥/ ٣٣٩).

أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس»(٥).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لِأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٦).

وَلمَّا أَرْسَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِيًّا رضي الله عنه في بعض مَغَازِيهِ أَوْصَاهُ بِأَشْيَاءَ، ثُمَّ قَالَ: «يَاعَلِيُّ، لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٧).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَكْعَتَا الْفَجْرُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨)، وَالمَقْصُودُ بِهَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ: السُّنَّةُ الرَّاتِبَةُ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِالْفَرِيضَةِ؟!

---

(٥) أخرجه من حديث زيد بن أسلم عن أبيه: مالك في الموطأ (١/ ٢٠٣)، والبخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٣)، وأبو يعلى (١٤٨)، وابن حبان (٦٤٠٩).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٥)، والترمذي في الدعوات، باب العفو والعافية، وقال: حديث حسن صحيح (٣٥٩٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٧١).

(٧) أخرجه من حديث أبي رافع رضي الله عنه: الحاكم، وسكت عنه، وحذفه الذهبي من التلخيص (٣/ ٦٩٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٣٣٢) برقم (٩٩٤).

(٨) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٥)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل (٤١٦)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب المحافظة على الركعتين قبل الفجر (٣/ ٢٥٢)، وأحمد (٦/ ٢٦٥)، وأبو يعلى (٤٧٦٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٦٥٠)، وقال الطحاوي: «فلما كانت أشرف التطوع كان أولى بهما أن يفعل فيهما أشرف ما يفعل في التطوع» اهـ، قلت: يعني بذلك: قراءة سورتي الإخلاص.

وقال النووي في شرح مسلم (٦/ ٥): «أي: خير من الدنيا وما فيها، أي: من متاع الدنيا» اهـ.

وقال الطيبي: «إن حُمل الدنيا على أعراضها وزهرتها فالخير إما يجرى على زعم من =

فَثَوَابُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ رَغْمَ قِلَّتِهَا فِي الْعَدَدِ، وَضَآلَةِ مَا يُنْفَقُ فِيهَا مِنْ جُهْدٍ وَزَمَنٍ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

وَأَمَّا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا فَإِنَّ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهَا، أَوْ شَيْئًا مِمَّا يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا؛ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ لَخيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]»[٩].

= يرى فيها خيرًا، أو يكون من باب: أيّ الفريقين خير مقامًا، وإن حُمِلَ على الإنفاق في سبيل الله فتكون هاتان الركعتان أكثر ثوابًا منها».

ونقل المباركفوري عن الدهلوي في حجة الله البالغة قوله: «إنما كانت خيرًا منها؛ لأن الدنيا فانية، ونعيمها لا يخلو عن كدر النصب والتعب، وثوابهما باق غير كدر» اهـ من تحفة الأحوذي (٢/ ٣٨٨).

وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ٢٥٢): «ركعتا الفجر؛ أي: سنة الفجر، وهي المشهورة بهذا الاسم، ويحتمل الفرض، خير من الدنيا؛ أي: خير من أن يعطى تمام الدنيا في سبيل الله تعالى، أو هو على اعتقادهم أن في الدنيا خيرًا، وإلا فَذَرَّةٌ من الآخرة لا تساويها الدنيا وما فيها» اهـ.

وذكر ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٢٨): أن ركعتي الفجر فاتتا عبد الله بن أبي ربيعة فأعتق رقبة.

ونقل ابن عبد البر الخلاف في أيهما أوكد: سنة الفجر أو الوتر؟ ومال إلى ترجيح أن سنة الفجر أوكد؛ لأن النبي ﷺ قضاها حين نام عن صلاة الفجر، ولم يقض شيئًا من السنن غيرها بعد انقضاء وقتها. ينظر: التمهيد (٢٤/ ٤٥).

(٩) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٣٠)، وأحمد (٣/ ٤٣٣).

وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في الإسلام (٢٦٤٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة آل عمران، وقال: حديث =

وَلَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ قَالَ فِي الْوَاحِدَةِ مِنْهُنَّ: «**وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١٠). وَنَصِيفُهَا هُوَ خِمَارُهَا عَلَى رَأْسِهَا.

وَالسُّؤَالُ المُهِمُّ هُنَا: لِمَاذَا كَانَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ وَنَعِيمٍ لَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

وَلِمَاذَا كَانَ قَلِيلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كَرَكْعَتَيِ الْفَجْرِ الرَّاتِبَةِ، وَهِدَايَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؟ وَلِمَاذَا كَانَ قَلِيلُ الْجَنَّةِ كَمَوْضِعِ سَوْطٍ فِيهَا، أَوْ خِمَارٍ عَلَى رَأْسِ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؟!

إِنَّ مَعْرِفَةَ جَوَابِ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ تُزِيلُ الْإِشْكَالَ مِنْ عَقْلِ مَنْ عِنْدَهُ إِشْكَالٌ، وَإِنَّ جَوَابَ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَسْأَلَةِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ، فَالدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَقَلِيلُ مَا يَبْقَى خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ مَا يَفْنَى، هَذَا إِذَا تَسَاوَيَا فِي الْجَوْدَةِ وَاللَّذَّةِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مَا فِي الْجَنَّةِ أَطْيَبَ وَأَلَذَّ، وَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ نَعِيمِهَا وَنَعِيمِ الدُّنْيَا؟! ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

= حسن صحيح، واللفظ له (٣١٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، وابن حبان (٧٤١٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٧).

قال ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٨٧): «إنما أراد به ذم الدنيا، والزهد فيها، والترغيب في الآخرة؛ فأخبر أن اليسير من الجنة خير من الدنيا كلها، وأراد بذكر السوط -والله أعلم- التقليل، لا أنه أراد موضع السوط بعينه، بل موضع نصف سوط وربع سوط من الجنة الباقية خير من الدنيا الفانية ..» اهـ.

(١٠) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٦٤٣)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله تعالى (١٦٥١).

أَلَيْسَ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَرَادَ شِرَاءَ سِلْعَةٍ مِنَ السِّلَعِ وَلَوْ كَانَتْ سِلْعَةً مُحْتَقَرَةً كَنَعْلٍ يَقِي بِهَا قَدَمَهُ، أَوْ سَرَاوِيلَ تَسْتُرُ عَوْرَتَهُ يَدْفَعُ ثَمَنًا أَعْلَى لِسِلْعَةٍ أَجْوَدَ لِتَبْقَى مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ غَيْرِهَا؟ فَكَيْفَ لَوْ قِيلَ لِلنَّاسِ: إِنَّ سِلْعَةً تَبْقَى مَعَهُمْ مَا بَقُوا، وَتَعِيشُ مَا عَاشُوا؟! إِذَنْ لَبَذَلَ النَّاسُ فِيهَا غَالِيَ الْأَثْمَانِ! وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِيمَا يُحْتَقَرُ كَنَعْلٍ وَسَرَاوِيلَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالمَلَابِسِ وَالمَرَاكِبِ وَالمَسَاكِنِ وَغَيْرِهَا؟!

وَأَجْوَدُ مَا فِي الدُّنْيَا لَا يَدُومُ إِلَّا سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ، ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ، وَأَمَّا ثَوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَوْ كَانَ الْعَمَلُ قَلِيلًا فَإِنَّهُ يَدُومُ وَلَا يَنْقَطِعُ، وَمِنْ هُنَا كَانَ قَلِيلُ مَا يَتَعَلَّقُ بَالْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ كَثِيرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى، لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَخْتَارَ خَزَفًا يَبْقَى عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى، فَكَيْفَ وَقَدِ اخْتَرْنَا خَزَفًا يَفْنَى عَلَى ذَهَبٍ يَبْقَى»(١١).

ثُمَّ إِنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ كَامِلٌ غَيْرُ مَنْقُوصٍ، مُتَتَابِعٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، يَشْمَلُ الرُّوحَ وَالْجَسَدَ، وَلَا يَتَكَدَّرُ بِخَوْفٍ وَلَا حُزْنٍ، وَأَمَّا نَعِيمُ الدُّنْيَا فَهُوَ عَلَى الْجَسَدِ دُونَ الرُّوحِ، وَيُصَاحِبُهُ مَا يُصَاحِبُهُ مِنْ خَوْفٍ وَأَحْزَانٍ وَمُنَغِّصَاتٍ، وَقَدْ قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ وَيُنْذِرُهُمُ الِاغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

---

(١١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَهْمَا طَالَ عُمْرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَنْسَى مَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ، وَلَوْ سَأَلْتُمْ أَبْنَاءَ الثَّمَانِينَ وَالتِّسْعِينَ، وَمَنْ جَاوَزُوا الْمِئَةَ لَحَدَّثُوكُمْ أَنَّهَا مَضَتْ سَرِيعًا، وَمَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا جَزَاءُ مَا عَمِلُوا فِيهَا.

إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَوْنَ نَعِيمَ الدُّنْيَا، وَيَنْسَوْنَ طُولَ إِقَامَتِهِمْ فِيهَا؛ حَتَّى إِنَّ عَيْشَهُمْ كُلَّهُ يَخْتَصِرُونَهُ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

بَلْ إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الدُّنْيَا نَعِيمًا يَنْسَى نَعِيمَهُ بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ، وَأَكْثَرَ أَهْلِ الدُّنْيَا بُؤْسًا يَنْسَى بُؤْسَهُ بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ،**

مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه[١٢].

اللَّهُ أَكْبَرُ! نَسِيَ صَاحِبُ النَّعِيمِ فِي الدُّنْيَا نَعِيمَهُ الْمُتَتَابِعَ فِي سِنِينَ طَوِيلَةٍ مِنْ صَبْغَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ، وَنَسِيَ صَاحِبُ الْبُؤْسِ بُؤْسَهُ مِنْ صَبْغَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَمَنْ يَتَّعِظُ؟ وَمَنْ يَتَذَكَّرُ؟ وَمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الدُّنْيَا فَلَا يُعْطِيهَا أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهَا؟ وَمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الْآخِرَةِ فَيَعْمَلُ لَها عَمَلَهَا، وَيُنَافِسُ أَهْلَهَا عَلَيْهَا؟!

مَنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَحْرَمَ بِسُنَّةِ الْفَجْرِ الرَّاتِبَةِ اسْتَحْضَرَ أَنَّ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؟ فَأَدَّاهُمَا كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى خُشُوعًا وَخُضُوعًا، وَأَعْطَى الْفَرِيضَةَ مِنْ خُشُوعِهِ وَحُضُورِ قَلْبِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**»[١٣].

إِنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ يَقْلِبُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَيُقَدِّمُ قَلِيلَ الدُّنْيَا عَلَى كَثِيرِ الْآخِرَةِ، بَلْ قَدْ يُضَيِّعُ الْآخِرَةَ بِجُزْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا!!

أَلَا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مَنْ لَوْ سَاوَمَهُ مُسَاوِمٌ عَلَى أَنْ يَدَعَ سُنَّةَ الْفَجْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً مُقَابِلَ سَيَّارَةٍ أَوْ مَنْزِلٍ أَوْ أَيِّ مَتَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا لَتَرَكَهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ؟! بَلْ رُبَّمَا بَذَلَ الْفَرَائِضَ لِأَجْلِ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَكُلُّ مُضَيِّعٍ لِلْفَرَائِضِ يُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ!! وَقَدْ سَمِعْتُمْ قَبْلَ أَيَّامٍ أَنْ سُوقًا تِجَارِيًّا بَذَلَ قَلِيلًا مِنَ الْمَالِ لِمَنْ يَدْخُلُهُ أَوَّلًا وَقْتَ افْتِتَاحِهِ، فَبَاتَ أُنَاسٌ كَثِيرٌ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ عِنْدَ السُّوقِ فِي الْعَرَاءِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْمَالِ الْقَلِيلِ، وَعِنْدَ افْتِتَاحِهِ هَلَكَتْ أَنْفُسٌ مِنْ شِدَّةِ الزِّحَامِ[١٤]. وَلَعَلَّ مِنْ

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة (٢٨٠٧).

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب التواضع (٦١٣٧).

(١٤) هذا إشارة إلى ما وقع قبل أسبوع تقريبًا من إعلان شركة إيكيا الإيطالية للأثاث عن =

أُولَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ تَزَاحَمُوا عَلَى عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ مَنْ ضَيَّعَ رَكْعَتَي الْفَجْرِ اللَّتَيْنِ هُمَا خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ السُّوقِ، وَخَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، بَلْ لَعَلَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُضَيِّعٌ لِلْفَرَائِضِ! فَمَا أَعْظَمَ إِقْبَالَ النُّفُوسِ عَلَى الدُّنْيَا! وَمَا أَشَدَّ إِعْرَاضَهَا عَنِ الْآخِرَةِ! نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ يُدْرِكُ مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا رَمَضَانَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا رَمَضَانُ؟! ذَلِكَ المَوْسِمُ الْعَظِيمُ الَّذِي تُقَالُ فِيهِ الْعَثَرَاتُ، وَتُكَفَّرُ السَّيِّئَاتُ، وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ.

مَوْسِمٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجِنَانِ، وَتُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ، وَتُسَلْسَلُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ؛ فَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَتَزَوَّدُوا فِيهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَبْقَى لَكُمْ.

وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا أَكْثَرَ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُ مِنْ رَمَضَانَ إِلَّا السَّهَرَ عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالنَّوْمَ عَنْ بَعْضِ الْفَرَائِضِ، وَالتَّفْرِيطَ فِي النَّوَافِلِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ تَسَلُّطِ أَهْلِ الشَّرِّ فِيمَا يَعْرِضُونَهُ عَلَى النَّاسِ فِي قَنَوَاتِهِمُ الْإِعْلَامِيَّةِ، مِمَّا يُبَشِّرُونَ بِهِ الصَّائِمِينَ قَبْلَ أَشْهُرٍ مِنْ رَمَضَانَ؛ لِيُفْسِدُوا عَلَيْهِمْ صِيَامَهُمْ، وَيُحَمِّلُوهُمْ أَوْزَارًا إِلَى أَوْزَارِهِمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ، وَأَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرُورَهُمْ.

= افتتاح فرعين كبيرين لها، أحدهما في جدة، والآخر في الرياض، وقد أعلنت الصحف المحلية ثاني يوم الافتتاح أن الزحام شديد، وهلك من جرائه اثنان على الأقل، وأصيب عشرات، وقد ذكر من شاهد الموقع بأنه زحام كالحج، وكانت الشركة قد أعطت أول خمسين يدخلون المحل الحق في أن يتسوقوا بما قيمته خمس مئة ريال سعودي، فكان ذلك الزحام الشديد والتدافع بسبب ذلك. وعلى الخطيب أن يحور الحادثة بما يناسب الحال أو يحذفها، فذكري لها؛ لأن عهد الناس بها قريب ويعرفونها.

فَالمَغْبُونُ مَنْ طَاوَعَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ، وَوَافَقَهُمْ فِي مُرَادِهِمْ، وَأَسَرُوهُ بِبَرَامِجِهِمْ، فَقَضَى رَمَضَانَ أَمَامَ شَاشَتِهِمْ؛ فَهَذَا حَظُّهُ مِنْ رَمَضَانَ الْإِثْمُ وَالْأَوْزَارُ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ.

وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى فِي رَعِيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ؛ فَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَفْعَلُونَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ إِذَا كَانَ رَاضِيًا مُوَافِقًا، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُبَلِّغَنَا رَمَضَانَ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنَّا، اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا إِلَى رَمَضَانَ، وَسَلِّمْهُ لَنَا، وَتَسَلَّمْهُ مِنَّا مُتَقَبَّلًا.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.





٣٤٣- قيمة الحياة الدنيا (٢)

٢٦/٨/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، أَحْمَدُهُ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَشْكُرُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيَّرَهُ رَبُّهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا وَإِنِ اخْضَرَّتْ فَهِيَ إِلَى زَوَالٍ، وَإِنَّ النَّاسَ وَإِنْ طَالَ عَيْشُهُمْ فِيهَا فَهُمْ إِلَى مَوْتٍ وَجَزَاءٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَافَى رَبَّهُ وَدُنْيَاهُ قَلِيلَةٌ، وَأَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ كَثِيرَةٌ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القمر: ١٣]، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا مَحَلًّا لِأَعْمَالِ الْآخِرَةِ، وَزَيَّنَهَا بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَحَذَّرَ عِبَادَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ بِهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، وَأَنَّهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَأَنَّ نَعِيمَهَا زَائِلٌ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ يَدْعُو بَنِي آدَمَ إِلَيْهَا، وَيُزَيِّنُهَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَيُعَظِّمُهَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَمَنْ أَطَاعَهُ فِي ذَلِكَ فَقَدْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاغْتَرَّ بِالدُّنْيَا، وَلَمْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ عَدُوًّا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

لَقَدْ أَبْدَأَ الْقُرْآنُ وَأَعَادَ فِي ذَمِّ الدُّنْيَا، وَنَوَّعَ الأَسَالِيبَ، وَأَكْثَرَ الآيَاتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَحَكَى الْقَصَصَ، وَحَذَّرَ الْعِبَادَ، وَرَهَّبَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَرَغَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْحَيَاةَ الْأُخْرَى هِيَ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

فَهِيَ الْعَاجِلَةُ الَّتِي يَغْتَرُّ بِهَا الْعِبَادُ ابْتِدَاءً، وَيُؤْثِرُهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى الْمُدَّخَرِ الْبَاقِي ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وَلَمَّا تَقَاعَسَ قَوْمٌ عَنِ النَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخْلَدُوا إِلَى الدُّنْيَا وَدَعَتِهَا؛ كَانَ الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ لَهُمْ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وَمَهْمَا أُوتِيَ الْعَبْدُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَهُوَ يَزُولُ عَنْهَا بِالْمَوْتِ، ثُمَّ هِيَ إِلَى زَوَالٍ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ، وَلَا يَبْقَى لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

وَالْآخِرَةُ حَرْثُهَا يَبْقَى، وَزَرْعُهَا لَا يَفْنَى، وَمَنْ رَضِيَ بِحَرْثِ الدُّنْيَا دُونَهَا فَلَا حَرْثَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وَالنَّاسُ بِالنِّسْبَةِ لِطَلَبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ مَذْكُورَيْنِ فِي الْقُرْآنِ ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ لَوْ عَقَلَهَا النَّاسُ وَتَدَبَّرُوهَا وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا لَما رَأَيْنَا شُحَّهُمْ بِالدُّنْيَا، وَتَنَافُسَهُمْ عَلَيْهَا، وَتَخَاصُمَهُمْ فِيهَا، فَكَمْ مِنْ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ فِي سَبِيلِ الدُّنْيَا؟ وَكَمْ مِنْ فَرَائِضَ عُطِّلَتْ بِسَبَبِهَا؟ وَكَمْ مِنْ حُرُمَاتٍ لِلَّهِ تَعَالى انْتُهِكَتْ مِنْ أَجْلِهَا؟ وَكَمْ مِنْ شِكَايَةٍ بُثَّتْ لِلْخَلْقِ مِنْ قِلَّةِ الرِّزْقِ؟! أَيَشْكُو الْعَبِيدُ خَالِقَهُمْ وَرَازِقَهُمْ إِلَى عَبِيدٍ مِثْلِهِمْ، لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ خَلْقًا وَلَا رِزْقًا؟!

إِنَّ مَحَبَّةَ الدُّنْيَا، وَالْإِغْرَاقَ فِي شَهَوَاتِهَا هُوَ الَّذِي أَوْرَدَ النَّاسَ هَذِهِ الْمَوَارِدَ، وَجَرَّهُمْ إِلَى الْمَهَالِكِ. نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَرْزَاقِ بَعْضٍ، فَازْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَلَا شَبِعَ غَنِيُّهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَنْ هُوَ أَغْنَى مِنْهُ، وَلَا قَنِعَ مَسْتُورُهُمْ؛ لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْغَنِيِّ، وَلَا صَبَرَ فَقِيرُهُمْ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ اللِّحَاقَ بِصَاحِبَيْهِ.

وَكُلَّمَا زَادَ انْفِتَاحُ النَّاسِ عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا زَادَتْ حَسْرَتُهُمْ وَعَذَابُهُمْ وَجْدًا عَلَى مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ مِنْهَا، وَبِقَدْرِ انْصِرَافِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهَا يَنْصَرِفُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَمَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابًا مِنْ شَهَوَاتِهَا الْمُحَرَّمَةِ

فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يَفْتَحُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ عَذَابٍ فِي قَبْرِهِ وَيَوْمَ نَشْرِهِ.

وَلَا مَنْجَاةَ مِنْ هَذَا السُّعَارِ الَّذِي أَصَابَ النَّاسَ عَلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا، وَتَدَبُّرِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِيهَا، وَالنَّظَرِ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهُوَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ قَرَأَ سِيرَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي احْتِقَارِهِ للدُّنْيَا وَتَقَلُّلِهِ مِنْهَا.

لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَلَوْ شَاءَ لَسَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَوْدِيَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَوْ أَرَادَ لَأَكَلَ أَطْيبَ المَآكِلِ، وَلَبِسَ أَحْسَنَ الثِّيَابِ، وَرَكِبَ أَفْخَرَ المَرَاكِبِ، وَلَوْ شَاءَ لَشَيَّدَ الْقُصُورَ، وَعَدَّدَ الدُّورَ، وَاتَّخَذَ مَا يَتَّخِذُ المُلُوكُ، كَيْفَ وَقَدْ خَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ المُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ، وَبَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا[1].

لَقَدْ دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَبَّهُ، وَمَا دَعَا بِانْفِتَاحِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، وَلَا بِالْغِنَى وَالرِّزْقِ، بَلْ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[2]. وَالْقُوتُ هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ بَدَنُ الْإِنْسَانِ[3].

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ، قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك أملكًا جعلك لهم أم عبدًا رسولًا؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال ﷺ: «**لا بل عبدًا رسولًا**» أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزار (٢٤٦٢)، وصححه ابن حبان (٦٣٦٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح (٩/ ١٩-٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٠).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا (٦٤٦٠)، ومسلم في الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٥).

(٣) عمدة القاري (١٨/ ١٥).

وَمَنْ طَالَعَ حَيَاتَهُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ، فَكَانَ يَجُوعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَشْبَعُ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْوَاعًا مِنَ الطَّعَامِ فَلَا يَذُوقُهَا إِلَّا بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ، مِنَ الْقِلَّةِ الَّتِي كَانَ يَجِدُهَا.

وَالْأَخْبَارُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَالِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِنْ خُبْزِ بُرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٤].

وَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرَ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

وَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٦].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ[٧]، وَقَلَّ أَنْ يَجِدَهُمَا،

---

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم، من الطعام واللحم وغيره (٥٤٢٣)، ومسلم واللفظ له في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته (٣٠٩٧)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٣).

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

(٧) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل» أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الحلواء والعسل (٥٤٣١)، ومسلم في الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته (١٤٧٤).

وَكَانَ يَشْتَهِي الْإِدَامَ، فَإِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا زَيْتًا أَوْ خَلًّا فَيأْتَدِمُ بِهِ، وَلَا يَجْمَعُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»(٨).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ﵄ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْأُدُمَ فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ فَدَعَا بِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ بِهِ وَيَقُولُ: «**نِعْمَ الْأُدُمُ الخَلُّ، نِعْمَ الْأُدُمُ الخَلُّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَذَاتَ مَرَّةٍ دَخَلَ عَلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**» فَقُلْتُ: لَا إِلَّا كِسَرٌ يَابِسَةٌ وَخَلٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَرِّبِيهِ، فَمَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدمٍ فِيهِ خَلٌّ**»(١٠).

وَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﵄ تَوَسُّعَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ، مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ»، «وَمَا تَرْضَوْنَ دُونَ أَلْوَانِ التَّمْرِ وَالزُّبْدِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١). وَالدَّقَلِ هُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ(١٢).

---

(٨) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٤).

(٩) أخرجه مسلم في الأشربة، باب فضيلة الخل والتأدم به (٢٠٥٢).

(١٠) أخرجه من حديث أبي حمزة الثمالي، عن الشعبي، عن أم هانئ بنت أبي طالب به: الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث أم هانئ إلا من هذا الوجه. وأبو حمزة الثمالي اسمه ثابت بن أبي صفية، وأم هانئ ماتت بعد علي بن أبي طالب بزمان، وسألت محمدًا عن هذا الحديث قال: لا أعرف للشعبي سماعًا من أم هانئ، فقلت: أبو حمزة كيف هو عندك؟ فقال: أحمد بن حنبل تكلم فيه، وهو عندي مقارب الحديث (١٨٤١)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٧) رقم (١٠٦٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (٢١٢٥).

(١١) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٧).

(١٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ١٢٧).

وَذَكَرَ عُمَرُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا فِي وَقْتِهِ، فَقَالَ مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ لَمْ يَجِدْ مَا يَسُدُّ بِهِ جُوعَهُ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، كَمَا قَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ -وَهُوَ وَرَقُ شَجَرِ السَّمُرِ- حَتَّى يَضَعَ أَحَدُنَا مَا تَضَعُ الشَّاةُ»(١٥).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَمُرُّ عَلَيْهِ الْيَوْمُ وَالْيَوْمَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَلَمْ يَذُقْ طَعَامًا أَلْبَتَّةَ، كَمَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ فَاطِمَةَ رضي الله عنها نَاوَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كِسْرَةً مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَذَا أَوَّلُ طَعَامٍ أَكَلَهُ أَبُوكِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

وَأَمَّا فِرَاشُهُ وَأَثَاثُهُ فَيَحْكِي وَصْفَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَيَقُولُ: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ، مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ . . .

---

(١٣) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٨).

(١٤) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٦٧).

(١٥) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥٤١٢)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٦٦).

(١٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وابن أبي عاصم في الزهد (٣٩)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٨٣٢)، ووثق المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٩٢) والهيثمي في مجمع الزوائد رجاله (١٠/ ٣١٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٩٩).

فَرَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ، غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ قَدْ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا، وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: «**أَوَفِي هَذَا أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي».

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: **مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟! فَقَالَ: **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟** قُلْتُ: بَلَى» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧).

وَذَاتَ مَرَّةٍ غَابَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَصَلَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها مَا يَحْصُلُ لِلنِّسَاءِ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِبُيوتِهِنَّ، وَالْعِنَايَةِ بِأَثَاثِهِنَّ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرْتَضِ ذَلِكَ مِنْهَا، تَقُولُ رضي الله عنها: «رَأَيْتُهُ خَرَجَ فِي غَزَاتِهِ فَأَخَذْتُ نَمَطًا -وَالنَّمَطُ: بِسَاطٌ لَطِيفٌ لَهُ خَمْلٌ يُجْعَلُ عَلَى الْهَوْدَجِ وَقَدْ يُجْعَلُ سِتْرًا- فَسَتَرْتُهُ عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا قَدِمَ فَرَأَى النَّمَطَ عَرَفْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ، فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتَكَهُ أَوْ قَطَعَهُ، وَقَالَ: **إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ**. قَالَتْ: فَقَطَعْنَا مِنْهُ وِسَادَتَيْنِ وَحَشَوْتُهُمَا لِيفًا، فَلَمْ

(١٧) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨) ومسلم في الطلاق، باب في الإيلاء، واعتزال النساء، وتخييرهن وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ [التحريم: ٤] (١٤٧٩) والرواية الأولى للبخاري والثانية لمسلم.

يَعِبْ ذَلِكَ عَلَيَّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٨).

هَكَذَا كَانَ زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا، وَحَمَلَ أَهْلَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِيَتِمَّ لَهُمُ الْأَجْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ مَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَضَى أَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ ﷺ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ مِنَ التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا وَطَلَبِ الْآخِرَةِ، وَسَنَمْضِي كَمَا مَضَى الْقَوْمُ، فَهَلْ نَقْتَدِي بِهِمْ، وَنَقْتَفِي آثَارَهُمْ، وَنَلْتَزِمُ هَدْيَهُمْ، عَلَّنَا نُحْشَرُ مَعَهُمْ؟!

عَسَى أَنْ نَكُونَ كَذَلِكَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى أَنْفُسِنَا الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

❀ ❀ ❀

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا

---

(١٨) أخرجه مسلم في اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٢١٠٧).

سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ بَانَ لَنَا بِمَا سَبَقَ مِنْ نُصُوصٍ مُتَضَافِرَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مِنْ أَزْهَدِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهَا وَبِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَمِعْنَا الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي شِبَعِهِ وَجُوعِهِ، وَطَعَامِهِ وَإِدَامِهِ، وَمَتَاعِهِ وَأَثَاثِهِ. لَئِنْ عَلِمْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فَأَعْجَبُ مِنْهُ وَصْفُ دَارِهِ وَدُورِ نِسَائِهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ-، فَفِي ذَلِكَ عَجَبٌ لَا يَنْقَضِي، وَتَزْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ تَأَسَّى بِالنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى ﷺ.

رَوَى ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «أَدْرَكْتُ حُجَرَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ عَلَى أَبْوَابِهَا الْمُسُوحُ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَحَضَرْتُ كِتَابَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يُقْرَأُ يَأْمُرُ بِإِدْخَالِ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ . . . قَالَ عَطَاءٌ: فَسَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ تَرَكُوهَا عَلَى حَالِهَا؛ يَنْشَأُ نَاشِئٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَيَقْدَمُ الْقَادِمُ مِنَ الأُفُقِ فَيَرَى مَا اكْتَفَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يُزَهِّدُ النَّاسَ فِي التَّكَاثُرِ وَالتَّفَاخُرِ فِيهَا». وَقَالَ يَوْمَئِذٍ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ: «لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ؛ حَتَّى يَقْصُرَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ، وَيَرَوْنَ مَا رَضِيَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ، وَمَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ . . . فَلَمَّا فَرَغَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ مِنْ حَدِيثِهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ: كَانَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ بِلَبِنٍ لَهَا حُجَرٌ مِنْ جَرِيدٍ، وَكَانَتْ خَمْسَةَ أَبْيَاتٍ مِنْ جَرِيدٍ مُطَيَّنَةٍ لا حُجَرَ لَهَا، عَلَى أَبْوَابِهَا مُسُوحُ الشَّعْرِ، ذَرَعْتُ السِّتْرَ فَوَجَدْتُهُ ثَلاثَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَالْعَظْمِ أَوْ أَدْنَى مِنَ الْعَظْمِ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتُ مِنَ الْبُكَاءِ

يَوْمَئِذٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي مَجْلِسٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَأَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ حَتَّى أَخْضَلَ لِحَاهُمُ الدَّمْعُ ... وَقَالَ يَوْمَئِذٍ أَبُو أُمَامَةَ: «لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ حَتَّى يَقْصُرَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ، وَيَرَوْا مَا رَضِيَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَمَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ»(١٩).

وَعَنِ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «كُنْتُ أَدْخُلُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَأَتَنَاوَلُ سَقْفَهَا بِيَدِي»(٢٠).

هَذَا وَصْفُ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، وَلَوْ شَاءَ لَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَمَا حَفَلَ بِهَا، وَلَا أَتْبَعَهَا بَصَرَهُ، وَلَا رَفَعَ إِلَيْهَا رَأْسَهُ، فَرَضِيَ مِنْهَا بِمَا يُبَلِّغُهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، فَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ اقْتَرَضَ مِنْهُ شَعِيرًا(٢١)، وَلَمْ يُخَلِّفْ كَثِيرَ مَالٍ وَلَا مَتَاعٍ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ رضي الله عنه قَالَ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً، وَلَا شَيْئًا، إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً»(٢٢).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الدُّنْيَا وَالْفِتْنَةَ بِهَا؛

---

(١٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٩٩- ٥٠٠)، وابن الجوزي في المنتظم (٦/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢٠) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٠)، وأبو داود في المراسيل (٤٩٧)، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٢٤٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٣٥١).

(٢١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعًا من شعير» أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، والقميص في الحرب (٢٩١٦).

(٢٢) أخرجه البخاري في الوصايا، باب الوصايا (٢٧٣٩).

فَكَمْ أَهْلَكَتْ مِنَ النَّاسِ؟!

أَفْسَدَتْ عَلَيْهِمْ آخِرَتَهُمْ، وَمَا سَلِمَتْ هِيَ لَهُمْ، وَلَا سَلِمُوا لَهَا، بَلْ فَارَقُوهَا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ وَيَدْخُلُ شَهْرٌ مِنْ أَشْهُرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَيْدَانٌ مِنْ مَيَادِينِ الْآخِرَةِ، فَيَا لِسَعَادَةِ مَنْ أَدْرَكَهُ وَعَمَرَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى! وَيَا لِخَسَارَةِ مَنْ ضَيَّعَهُ كَمَا ضَيَّعَ الْمَوَاسِمَ قَبْلَهُ، وَضَيَّعَ عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ!

أَحْسِنُوا اسْتِقْبَالَ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، وَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَاحْذَرُوا شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فِي رَمَضَانَ، مِنَ الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَمَجَالِسِ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، وَفَضَائِيَّاتِ الشَّرِّ وَالشَّيْطَانِ، وَمَا يَعْرِضُونَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ. فَإِنَّهُمْ فِي مُسَلْسَلَاتِهِمُ الْفُكَاهِيَّةِ قَدْ عَوَّدُوا الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ الْعِظَامِ.

فَمَنْ شَاهَدَ تِلْكَ الْمَشَاهِدَ مُتَفَكِّهًا بِهَا فَهُوَ رَاضٍ، وَالرَّاضِي كَالْفَاعِلِ، وَلَمَّا قَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ كَانَ جَوَابُهُمْ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»[٢٣]، فَهَلْ كَرِهَ تِلْكَ الْبَرَامِجَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهَا وَتَابَعَهَا، وَتَفَكَّهَ بِمَا فِيهَا مِنْ مُحَرَّمَاتٍ؟!

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

---

(٢٣) أخرجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها: مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك (١٨٥٤).

٣٤٤- وسوسة الشيطان للإنسان

١١/ ٧/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ جَعَلَ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا، وَسَخَّرَ لَهُ مِنَ الْكَيْدِ وَالْوَسْوَسَةِ بِالْإِنْسَانِ شَيْئًا عَظِيمًا، وَأَمَدَّ حَيَاتَهُ فَجَعَلَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ مَنْظُورًا، فَغَوَى مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَهُوَ وَإِيَّاهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، حَفِظَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، فَأَمَدَّهُمْ بِالذِّكْرِ سِلَاحِ الْمُتَّقِينَ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَدَّرَ فَهَدَى، وَخَلَقَ فَابْتَلَى، وَإِلَيْهِ الْمَآبُ وَالْمُنْتَهَى. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، فَبَلَّغَ وَنَصَحَ، وَحَذَّرَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَمَكَائِدِهِ، وَخَطَرَاتِهِ وَوَسَاوِسِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَهْلِ التَّقْوَى وَالِاتِّبَاعِ، وَمُحَارَبَةِ الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى نَجَاةٌ مِنَ النَّارِ، وَطَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى الْجِنَانِ، وَهِيَ حَاجِزٌ يَحْفَظُ مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَأَهْبَطَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالصِّرَاعُ قَائِمٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَسَمِهِ فِي إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ وَصَدِّهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْجَنَّةِ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، هَذِهِ حَقِيقَةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ بَنِي آدَمَ وَالشَّيَاطِينِ، وَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

لَقَدْ تَكَبَّرَ إِبْلِيسُ عَلَى رَبِّهِ، فَعَصَى أَمْرَهُ، وَأَبَى السُّجُودَ لِآدَمَ، فَحَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، وَاسْتَوْجَبَ الْخُرُوجَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَطَلَبَ الْخُلُودَ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَرُدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَقَدْ حَشَدَ ضِدَّ الْإِنْسَانِ جُنُودَهُ، وَنَوَّعَ فِي الْغِوَايَةِ وَسَائِلَهُ؛ فَهَذَا يَقْذِفُ فِي قَلْبِهِ الشُّبُهَاتِ، وَذَاكَ يُزَيِّنُ لَهُ الشَّهَوَاتِ. يَأْتِي مِنْ طَرِيقِ المَعْصِيَةِ تَارَةً، وَمِنْ طَرِيقِ الْبِدْعَةِ تَارَةً أُخْرَى.

وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَلُطْفًا بِهِمْ، وَخَوْفًا عَلَيْهِمْ؛ حَذَّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنَّهُ يَقُودُ إِلَى دَارِ السَّعِيرِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وَلَكِنْ رَغْمَ هَذَا الْإِعْلَامِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ أَقْوَامًا أَجْلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَاجْتَرَّ فِئَامًا مِنْهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَالْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ.

وَآخَرُونَ زَيَّنَ لَهُمُ المَعَاصِيَ وَالشَّهَوَاتِ وَالمُحَرَّمَاتِ، وَبَغَّضَ إِلَيْهِمُ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ فَكَرِهُوهَا، وَإِنْ لَمْ يَكْرَهُوهَا اسْتَثْقَلُوهَا.

وَعَجَزَ عَنْ آخَرِينَ؛ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، فَوَسْوَسَ لَهُمْ فِي المُعْتَقَدَاتِ وَالطَّاعَاتِ، حَتَّى سَلَكُوا الْغُلُوَّ وَالْإِفْرَاطَ فِي المُعْتَقَدَاتِ، وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّشْدِيدَ فِي الْعِبَادَاتِ، فَمِنْهُمْ مَنْ نَصَّبَ نَفْسَهُ مُوَقِّعًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، يُكَفِّرُ وَيُفَسِّقُ وَيَرْمِي المُؤْمِنِينَ بِالنِّفَاقِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، وَآخَرُونَ تَشَدَّدُوا فِي الْعِبَادَاتِ وَالْقُرُبَاتِ حَتَّى أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ.

فَانْظُرْ -يَا عَبْدَ اللَّهِ- كَيْفَ يَصِلُ الشَّيْطَانُ إِلَى إِفْسَادِ قَلْبِ بَنِي آدَمَ؟ وَتَأَمَّلْ -يَا رَعَاكَ اللهُ- طَرِيقَتَهُ وَتَدَرُّجَهُ فِي الْإِفْسَادِ.

إِنَّهُ حِينَمَا يَبْدَأُ بِالْوَسْوَسَةِ يَصُدُّ عَنِ السُّنَنِ وَالمَنْدُوبَاتِ، وَيُزَيِّنُ المَكْرُوهَاتِ،

ثُمَّ يَتَدَرَّجُ بِالْإِنْسَانِ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَيُحَبِّبَ إِلَيْهِ فِعْلَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِذَا أَبْلَغَهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ حَسَّنَ فِي نَفْسِهِ تَرْكَ الدِّينِ وَكَرَاهِيَةَ أَهْلِهِ، حَتَّى يُوقِعَهُ فِي سَبِّ الدِّينِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالسُّنَنِ وَالْوَاجِبَاتِ، فَيَبْلُغَ دَرَجَةَ الْكُفْرِ، وَرُبَّمَا أَنْزَلَهُ إِلَى دَرَكِ النِّفَاقِ.

وَإِذَا أَعْيَتْهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَهُ هَذَا الطَّرِيقُ؛ لِقُوَّةِ الدِّينِ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ، اسْتَعْمَلَ وَسِيلَةً أُخْرَى وَسَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ، فَقَذَفَ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ الشُّبُهَاتِ، وَحَسَّنَ لَهُ الْمُبْتَدَعَاتِ بِاسْمِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّينِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، فَأَوْصَلَهُ إِلَى دَرَجَةِ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ، فَأَدْخَلَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَاتَّهَمَ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا هُمَ مِنْهُ بُرَءَاءُ، أَوْ وَسْوَسَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، فَزَادَ عَلَى قَدْرِهَا، وَأَدْخَلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، أَوْ أَمَاتَ فِي نَفْسِهِ سُنَّةً كَانَ يَعْمَلُهَا.

وَهُوَ مَعَ هَذَا الْإِغْرَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ يَغُرُّ الْإِنْسَانَ وَيَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْكَرَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُم فَاسْتَوْجَبُوا النَّارَ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

تِلْكُمْ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- نِهَايَةُ مَنْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ، وَسَلَّمُوا قُلُوبَهُمْ لِوَسَاوِسِهِ وَخَطَرَاتِهِ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ، عِبَادُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ، فَقَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ

كَيْدِهِ، فَاسْتَعَانُوا بِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى دَحْرِهِ.

اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَمِلُوا بِسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَاقْتَفَوْا أَثَرَ صَحْبِهِ الْكِرَامِ، إِنْ فَعَلُوا طَاعَةً حَمِدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ خَالَفُوا أَوْ هَمُّوا بِمَعْصِيَةٍ ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، فَعَادُوا أَتْقِيَاءَ أَنْقِيَاءَ، سَلِمُوا مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَجَانَبُوا الْغُلُوَّ وَالتَّقْصِيرَ، لَمْ يُدْرِكِ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ شَيْئًا فَعَادَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٤].

أَلَا وَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، وَالْمُوَاظَبَةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْبُعْدَ عَمَّا حَرَّمَ؛ عَاصِمٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَطْرُدُهُ مِنَ الْمَكَانِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ»(١).

وَعَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَازِمٌ بِالْقَلْبِ، مَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى. مَا تَرَوْنَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ، يَأْتِي عَلَى أَحَدِهِمْ عَامَّةُ يَوْمِهِ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا حَالِفًا، مَا لَهُ مِنَ الْقَلْبِ طَرْدٌ إِلَّا قَوْلُهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]»(٢).

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلا وَشَيْطَانٌ مُتَبَطِّنٌ فِقَارَ ظَهْرِهِ، لَاوٍ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٥)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٨٠)، وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٣).

عُنُقَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، فَاغِرٌ فَاهُ عَلَى قَلْبِهِ»[٣].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ عَلَى ابْنِ آدَمَ: أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ قِبَلِ الطَّاعَةِ، فَيُوَسْوِسَ لَهُ فِيهَا، وَهَذَا الْأَمْرُ مَعَ شِدَّةِ خُطُورَتِهِ قَدْ غَفَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، وَمَا يُوقِعُ فِيهِ إِلَّا شِدَّةُ الْحِرْصِ، وَقِلَّةُ الذِّكْرِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِخَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ، فَتَجِدُ صَاحِبَهُ دَائِمَ الشَّكِّ فِي طَهَارَتِهِ وَطَهَارَةِ ثِيَابِهِ، وَفِي التَّكْبِيرِ لِلصَّلَاةِ، وَفِي الْقِرَاءَةِ، وَفِي الرَّكَعَاتِ، وَفِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، حَتَّى يُهْلِكَ نَفْسَهُ، وَيُتْعِبَ بَدَنَهُ، وَرُبَّمَا فَاتَ وَقْتُ الْعِبَادَةِ وَهُوَ مُشْتَغِلٌ عَنْهَا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَلَا تُقْبَلُ عِبَادَةٌ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي وَصْفِهِمْ: «وَهَؤُلَاءِ يَغْسِلُ أَحَدُهُمْ عُضْوَهُ غَسْلًا يُشَاهِدُ بِبَصَرِهِ، وَيُكَبِّرُ وَيَقْرَأُ شَيْئًا بِلِسَانِهِ، بِحَيْثُ تَسْمَعُهُ أُذُنَاهُ، وَيَعْلَمُهُ بِقَلْبِهِ، بَلْ يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ مِنْهُ وَيَتَيَقَّنُهُ، وَهَذَا يُصَدِّقُ الشَّيْطَانَ فِي إِنْكَارِهِ يَقِينَ نَفْسِهِ وَجَحْدِهِ لِمَا رَآهُ بِبَصَرِهِ، وَسَمِعَهُ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ يَشُكُّ: هَلْ فَعَلَ ذَلِكَ أَمْ لَا.

وَكَذَلِكَ يُشَكِّكُهُ فِي نِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ، أَلَا يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ يَقِينًا، بَلْ يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ مِنْهُ بِقَرَائِنِ أَحْوَالِهِ؟ وَمَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ قَوْلَ إِبْلِيسَ فِي أَنَّهُ مَا نَوَى الصَّلَاةَ وَلَا أَرَادَهَا؛ مُكَابَرَةً مِنْهُ لِعِيَانِهِ، وَجَحْدًا لِيَقِينِ نَفْسِهِ، حَتَّى تَرَاهُ مُتَلَدِّدًا مُتَحَيِّرًا، كَأَنَّهُ يُعَالِجُ شَيْئًا يَجْتَذِبُهُ، أَوْ يَجِدُ شَيْئًا فِي بَاطِنِهِ يَسْتَخْرِجُهُ. كُلُّ ذَلِكَ مُبَالَغَةً فِي طَاعَةِ إِبْلِيسَ، وَقَبُولِ وَسْوَسَتِهِ.

وَمَنِ انْتَهَتْ طَاعَتُهُ لِإِبْلِيسَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ بَلَغَ النِّهَايَةَ فِي طَاعَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَقْبَلُ قَوْلَهُ فِي تَعْذِيبِ نَفْسِهِ، وَيُطِيعُهُ فِي الْإِضْرَارِ بِجَسَدِهِ، تَارَةً بِالْغَوْصِ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَتَارَةً بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ، وَإِطَالَةِ الْعَرْكِ، وَرُبَّمَا فَتَحَ عَيْنَيْهِ فِي الْمَاءِ وَغَسَلَ

---

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٤).

دَاخِلَهُمَا حَتَّى يَضُرَّ بَصَرَهُ، وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى كَشْفِ عَوْرَتِهِ لِلنَّاسِ، وَرُبَّمَا صَارَ إِلَى حَالٍ يَسْخَرُ مِنْهُ الصِّبْيَانُ، وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ، وَرُبَّمَا شَغَلَهُ بِوَسْوَسَتِهِ حَتَّى تَفُوتَهُ الْجَمَاعَةُ، وَرُبَّمَا فَاتَهُ الْوَقْتُ، وَيَشْغَلُهُ بِوَسْوَسَتِهِ فِي النِّيَّةِ حَتَّى تَفُوتَهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى، وَرُبَّمَا فَوَّتَ عَلَيْهِ رَكْعَةً أَوْ أَكْثَرَ، وَرُبَّمَا فَوَّتَ عَلَيْهِ الْوَقْتَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَسْوِسُ فِي إِخْرَاجِ الْحُرُوفِ حَتَّى يُكَرِّرَ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ لِي إِنْسَانٌ: قَدْ عَجَزْتُ عَنْ قَوْلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ مِثْلَمَا قُلْتُ الْآنَ، وَقَدِ اسْتَرَحْتَ، وَنَحْوُ هَذَا وَأَصْنَافُهُمْ كَثِيرٌ» اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى[٤].

وَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي الْوَفَاءِ ابْنِ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيِّ: أَنَّ رَجُلًا لَقِيَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَغْسِلُ الْعُضْوَ وَأَقُولُ: مَا غَسَلْتُهُ، وَأُكَبِّرُ وَأَقُولُ: مَا كَبَّرْتُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَقِيلٍ: دَعِ الصَّلَاةَ؛ فَإِنَّهَا مَا تَجِبُ عَلَيْكَ، فَقَالَ قَوْمٌ لِابْنِ عَقِيلٍ: كَيْفَ تَقُولُ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُمْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ**»، وَمَنْ يُكَبِّرُ وَيَقُولُ: مَا كَبَّرْتُ فَلَيْسَ بِعَاقِلٍ، وَالْمَجْنُونُ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ» اهـ[٥].

فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاحْذَرُوا الشَّيْطَانَ وَمَكَائِدَهُ، فَإِنَّهُ مَنْ يُسْلِمْ نَفْسَهُ لِلشَّيْطَانِ يُفْسِدْ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، فَيَعِيشُ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ، وَشُكُوكٍ مُسْتَمِرَّةٍ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ غَيْرَ مُسْتَقِرَّةٍ، وَمَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَدْ أَتْعَبَ بَدَنَهُ، وَضَيَّعَ وَقْتَهُ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤

(٤) ذم الموسوسين (١٠-١٢)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٣٣).

(٥) تلبيس إبليس (١٢٤)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٣٤).

ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ، تَابَعَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ، وَتَرَادَفَ إِلَيْنَا إِحْسَانُهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَمْ يَزَلْ بِعِبَادِهِ لَطِيفًا خَبِيرًا، وَلَهُمْ غَفُورًا رَحِيمًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَتْقَى الْخَلْقِ وَأَزْكَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ، كَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَلِرَبِّهِ عَبْدًا شَكُورًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ اتَّقَى اللَّهَ ﷻ سِرًّا وجَهْرًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَعْصِمُ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ مُدَاوَمَةَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وَلَا يُسْلِمْ نَفْسَهُ لِلْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ وَالشُّكُوكِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَعِبَادَتُهُ مُكَمَّلَةً بِالْيَقِينِ، وَيَسُدَّ كُلَّ طَرِيقٍ يُفْضِي إِلَى الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ، وَيَقْتَفِي فِي ذَلِكَ آثَارَ سَلَفِ الْأُمَّةِ؛ فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا عَمِلُوهُ، فَإِذَا جَاءَتْهُ الشُّكُوكُ فِي الْوُضُوءِ قَلَّلَ المَاءَ وَأَرْغَمَ الشَّيْطَانَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: «قُلْتُ لِأَبِي: إِنِّي أُكْثِرُ الْوُضُوءَ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، يُقَالُ: إِنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ: الْوَلْهَانُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَلَقَدْ نَهَانِي عَنْ كَثْرَةِ

صَبِّ المَاءِ، وَقَالَ لِي: أَقْلِلْ مِنْ هَذَا المَاءِ يَا بُنَيَّ»(٦).

وَنَقَلَ ابْنُ قُدَامَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ قَوْلَهُ: «الْفِقْهُ فِي الدِّينِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ، وَقِلَّةُ إِهْرَاقِ المَاءِ»(٧).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجْزِئُ مِنَ الْوُضُوءِ المُدُّ، وَمِنَ الجَنَابَةِ الصَّاعُ**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَا يَكْفِينَا ذَلِكَ يَا جَابِرُ، فَقَالَ: قَدْ كَفَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَأَكْثَرُ شَعَرًا»(٨).

وَلَا يَزِيدُ فِي غَسْلِ الْعُضْوِ الْوَاحِدِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَّاتٍ؛ لأن أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْوُضُوءِ، فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، فَقَالَ: «**مَنْ زَادَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ أَوِ اعْتَدَى وَظَلَمَ**»(٩).

وَقَالَ إِسْحَاقُ الْكَوْسَجُ: «قُلْتُ لِأَحْمَدَ: يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثٍ فِي الْوُضُوءِ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا مُبْتَلًى»(١٠).

وَمَنْ كَانَ يَشُكُّ فِي الْحَدَثِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ فَلْيَعْمَلْ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»(١١).

---

(٦) مسائل أحمد بن حنبل، رواية ابنه عبد الله (١١٢).

(٧) ذم الموسوسين (٢٣).

(٨) أخرجه البخاري في الغسل، باب الغسل بالصاع ونحوه (٢٥٢)، ومسلم في الحيض، باب استحباب إفاضة الماء على الرأس (٣٢٩)، وأحمد (٣/ ٣٧٠)، وابن خزيمة (١١٧) واللفظ لأحمد وابن خزيمة.

(٩) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أبو داود في الطهارة، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا (١٣٥) والنسائي في الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء (١/ ٨٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٤)، والنووي في خلاصة الأحكام (٢٠٩).

(١٠) مسائل أحمد وإسحاق بن راهويه، رواية إسحاق بن منصور الكوسج (٢/ ٢٧٧)

(١١) أخرجه من حديث عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد ﵁: البخاري في الوضوء، =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْوَسْوَاسُ فِي الصَّلَاةِ كَثِيرٌ وُقُوعُهُ، وَقَلِيلٌ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهُ، وَإِذَا كَثُرَ أَضَرَّ بِالْإِنْسَانِ، وَأَذْهَبَ أَجْرَ الصَّلَاةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُكَافَحَتِهِ وَمُدَافَعَتِهِ وَعَدَمِ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي(١٢).

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: وَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ لَا يَسَعُ الْمُسْلِمَ إِلَّا أَنْ يَتَجَنَّبَ مَكَائِدَ الشَّيْطَانِ، وَيَحْذَرَ مِنْ غَوَائِلِهِ، بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْجِيهَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَيَقْتَفِي آثَارَ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِيَكُونَ دِينُهُ قَوِيًّا كَمَا كَانُوا، خَالِيًا مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَسَطًا بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، فَيَعِيشَ قَرِيرَ الْعَيْنِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، مُسْتَرِيحًا فِي دُنْيَاهُ، مَأْجُورًا عَلَى أَعْمَالِهِ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ الْمُصْطَفَى ﷺ، عَامِلًا بِسُنَّتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرِدُ حَوْضَهُ، وَيَدْخُلُ جَنَّةَ رَبِّهِ، وَيَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . .

❁ ❁ ❁

= باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن (١٣٧)، ومسلم في الحيض، باب الدليل على أن مَنْ تَيَقَّنَ الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك (٣٦١).

(١٢) أخرجه مسلم في الآداب، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

٣٤٥- في القبر عذاب ونعيم

٣٠/ ١٠/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَالنَّاسُ إِلَى أَبَدِ الْآبَادِ يَبْقَوْنَ، وَعَلَى ثَلَاثِ دُورٍ يَمُرُّونَ، وَلَنْ يَفْنَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَنَاءً أَبَدِيًّا، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى. إِنَّهَا السُّنَّةُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ.

وَدَارُ الدُّنْيَا يَعِيشُهَا الْأَحْيَاءُ، وَدَارُ الْبَرْزَخِ يَعِيشُهَا الْأَمْوَاتُ، وَلَسَوْفَ يَمُوتُ الْأَحْيَاءُ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ وَيُحَاسَبُونَ، وَبِمَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ، وَيَسْتَقِرُّ الْكُلُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَالْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، تِلْكَ الْحُفْرَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَا يُكَلِّفُ حَفْرُهَا جُهْدًا كَبِيرًا، وَلَا مَالًا كَثِيرًا، وَلَكِنَّهَا الْمُسْتَقَرُّ وَالْمَقَامُ إِلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ.

فِي دَارِ الدُّنْيَا يَبْنِي الْإِنْسَانُ دَارًا عَلَى قَدْرِ مَالِهِ، وَأَعْظَمُ التَّبَاهِي هُوَ التَّبَاهِي فِي الدُّورِ وَالْمَسَاكِنِ، وَالْغَلَبَةُ لِمَنْ كَانَ أَكْثَرَ مَالًا، وَأَوْفَرَ مَتَاعًا، لَكِنَّ دَارَ الْبَرْزَخِ

لَيْسَ بِنَاؤُهَا بِكَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَوَفْرَةِ المَالِ، وَإِنَّمَا بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ الْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ الِاتِّبَاعِ.

وَيَعْجَبُ الْعُقَلَاءُ مِنْ أَشْخَاصٍ يَعْتَنُونَ بِبِنَاءِ دُورٍ لَا يَسْكُنُونَها إِلَّا قَلِيلًا، وَيُهْمِلُونَ دَارًا يُقِيمُونَ فِيهَا كَثِيرًا، وَإِذَا كَانَ المَقَامُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عُقُودًا قَلِيلَةً، فَقَدْ يَكُونُ المَقَامُ فِي الْبَرْزَخِ قُرُونًا طَوِيلَةً، وَلَوْلَا ضَعْفُ الْإِيمَانِ، وَنِسْيَانُ الْقَبْرِ وَالْآخِرَةِ لمَا كَانَ هَذَا حَالَنَا وَحَالَ النَّاسِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: يُفْتَنُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ، وَيُنَعَّمُ فِيهِ المُؤْمِنُونَ، وَيُعَذَّبُ الْكَافِرُونَ، وَقَدْ يُعَذَّبُ المُؤْمِنُونَ بِمَعَاصِيهِمْ، وَأَدِلَّةُ الشَّرْعِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَلَا يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَّا المَلَاحِدَةُ وَالمَادِّيُّونَ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ الضَّالَّةِ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هَذَا فِي الْقَبْرِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنهم: هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ[١]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَدْنَى فِي الْقُبُورِ، وَعَذَابُ الدُّنْيَا[٢].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَرْشَدَ أُمَّتَهُ إِلَى ذَلِكَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[٣].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٩١).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨).

وَالمُشَكِّكُونَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ يَقُولُونَ: لَوْ كَشَفْنَا عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ قُبُورَهُمْ لما رَأَيْنَا نَعِيمًا وَلَا عَذَابًا، وَلَرَأَيْنَا عِظَامًا بَالِيَةً، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ أَضَلَّهُمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانُ؟!

أَلَيْسَ النَّائِمُ قَدْ يَتَنَعَّمُ فِي نَوْمِهِ لِمَا يَرَى مِنَ المُبَشِّرَاتِ وَالمَسَرَّاتِ، وَقَدْ يُعَذَّبُ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْقَلَقِ وَالْأَحْلَامِ المُزْعِجَةِ، بَلْ يَنَامُ اثْنَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَمَكَانٍ وَاحِدٍ، وَظُرُوفٍ وَاحِدَةٍ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا مُتَلَذِّذًا بِنَوْمِهِ، وَالْآخَرُ مُعَذَّبًا فِيهِ، فَالْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ أَلَيْسَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُوقِعَ الْعَذَابَ أَوِ النَّعِيمَ عَلَى رُوحِ المَيِّتِ وَجَسَدِهِ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﷻ؟ قَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ المَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَلَا نَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ؛ إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ؛ لِكَوْنِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ» اهـ[٤].

وَبَعْضُ الضُّلَّالِ وَالمُنْحَرِفِينَ جعَلُوا لَهُمْ وَسَائِلَ وَطُرُقًا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِهَا يَنْجُوْنَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِذَا مَاتَ المَيِّتُ فِيهِمْ أَحْرَقُوهُ حَتَّى يَصِيرَ رَمَادًا، ثُمَّ فَرَّقُوهُ عَلَى شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، وَسَحِيقِ الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، أَوْ رُبَّمَا قَطَّعُوهُ وَوَزَّعُوهُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ.

وَكُلُّ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ نَقْصِ الْعُقُولِ، وَخَطَإِ المُعْتَقَدِ؛ فَالَّذِي خَلَقَهُ أَوَّلًا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُذِيقَ الْجَسَدَ وَالرُّوحَ عَذَابًا أَوْ نَعِيمًا وَلَوْ كَانَ الْجَسَدُ مُفَرَّقًا.

بَلْ لَوْ كَانَ المَيِّتُ مَصْلُوبًا أَمَامَ النَّاسِ فِي مَهَابِّ الرِّيحِ، أَوْ عَلَى ثَلْجٍ لَنَالَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ. وَلَوْ جُعِلَ

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٠).

جَسَدُ المَيِّتِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَأَتُونِ النَّارِ وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى نَعِيمَهُ لَحَصَلَ لَهُ النَّعِيمُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ جَعَلَ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بَرْدًا وَسَلَامًا، وَسَيَجْعَلُ نَارَ الدَّجَّالِ الَّتِي يَقْذِفُ فِيهَا الصَّالِحِينَ جَنَّةً، وَسَيَجْعَلُ جَنَّتَهُ الَّتِي يَجْعَلُ فِيهَا الْكُفَّارَ نَارًا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: **«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»** قَالَ: **«يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ -مُحَمَّدٍ ﷺ-؟»** قَالَ: **«فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»** قَالَ: **«فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»**، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: **«فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»** قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ: **«وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»**(٥).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، فَمَرَّ عَلَى حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ؛ فَإِذَا هُوَ بِقَبْرٍ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ، فَحَاصَتِ الْبَغْلَةُ، فَقَالَ: **«لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

---

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾** [إبراهيم: ٢٧]» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: مُنْكَرٌ، وَلِلآخَرِ: نَكِيرٌ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ -لِمُحَمَّدٍ ﷺ-؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ(٨).

---

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] واللفظ له، (٤٤٢٢)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧١)، ولفظه: عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ، قال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: **نزلت في عذاب القبر، فيقال له**: من ربك؟ **فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله ﷻ**: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

(٨) أخرجه الترمذي في الجنائز: باب ما جاء في عذاب القبر، وقال: حديث حسن غريب (١٠٧١)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٥٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤)، =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالمَعَاصِي تكُونُ سَبَبًا فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهُنَاكَ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَكُونُ سَبَبًا لِلنَّعِيمِ فِيهِ، فَمِمَّا يُعَذَّبُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ: النَّمِيمَةُ، وَعَدَمُ الِاسْتِبْرَاءِ مِنَ الْبَوْلِ، فَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»(٩).

وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَالَ: «**مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبُطُونَهُمْ نَارًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

و«**المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَالْغُلُولُ مِنَ المَعْرَكَةِ سَبَبٌ لِعَذَابِ الْقَبْرِ؛ خَرَجَ رَجُلٌ مَعَهُمْ فِي خَيْبَرَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْهَا أَصَابَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ! فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٢).

وَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَنَفْسُهُ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ، وَقَدْ بَوَّبَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ

= والآجري في الشريعة (٣٦٥)، وصححه ابن حبان (٣١١٧)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر (١٣٩١).

(٩) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الوضوء، باب ما جاء في غسل البول (٢١٨)، ومسلم في الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧).

(١١) أخرجه من حديث المغيرة رضي الله عنه: البخاري في الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١)، ومسلم في الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٣).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٥).

تَعَالَى- فَقَالَ: بَابُ مَا يُخَافُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الدَّيْنِ(١٣)، وَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَجُلٍ عَلَيْهِ دِينَارَانِ، حَتَّى ضَمِنَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ السَّدَادَ عَنْهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ لِلضَّامِنِ: «**مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١٤).

وَأَمَّا مَنْ أَخَذَ الْقُرْآنَ فَرَفَضَهُ وَنَامَ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَعَذَابُهُ أَنَّ رَأْسَهُ يُرْضَخُ بِالْحِجَارَةِ، كُلَّمَا رُضِخَ عَادَ كَمَا كَانَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالَّذِي يَكْذِبُ كَذْبَةً تَبْلُغُ الْآفَاقَ يُشَقُّ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي فَيُجْمَعُونَ فِي تَنُّورٍ وَهُمْ عُرَاةٌ، وَيَأْتِيهِمُ اللَّهَبُ مِنْ تَحْتِهِمْ فَيَرْفَعُهُمْ، كُلَّمَا ارْتَفَعُوا ضَوْضَوْا، وَيَبْقَوْنَ فِي التَّنُّورِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَآكِلُ الرِّبَا يَسْبَحُ فِي نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، يَنْقِلُ حِجَارَةً بِفَمِهِ أَوَّلَ النَّهْرِ إِلَى آخِرِهِ، وَهَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٥).

وَأَمَّا الْأَسْبَابُ الَّتِي تَقِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَبَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَقْوَاهُ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُنْجِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي الْقَبْرِ(١٦).

وَالرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُنْجِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**

---

(١٣) في كتابه: إثبات عذاب القبر (٩٣).

(١٤) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣٣٠)، والطيالسي (١٦٧٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٣).

(١٥) أخرجه من حديث سمرة بن جندب ﷺ: البخاري في التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

(١٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١١٢).

خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٧].

وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ وَلَا يُفْتَنُ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[١٨]. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ لِلْقَتِيلِ عِنْدَ اللَّهِ سِتَّ خِصَالٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[١٩].

وَرُوِيَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»[٢٠].

وَالْمَبْطُونُ لَا يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ»[٢١].

---

(١٧) أخرجه من حديث سلمان ﷺ: مسلم في الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله ﷻ (١٩١٣).

(١٨) أخرجه عن رجل من الصحابة ﷺ: النسائي في الجنائز، باب الشهيد (٤/ ٩٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٢١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣).

(١٩) أخرجه من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ: الترمذي في فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، وقال: حسن صحيح غريب (١٦٦٣)، وابن ماجه في الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢١٣).

(٢٠) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ: أحمد (٢/ ١٦٩) والترمذي في الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، وقال: هذا حديث غريب. وهذا حديث ليس إسناده بمتصل، ربيعة بن سيف إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعًا من عبد الله بن عمرو (١٠٧٤)، قال الزيلعي: وصله الطبراني في معجمه فرواه من حديث ربيعة بن سيف عن عياض بن عقبة الفهري عن عبدالله بن عمرو فذكره. تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٢١) أخرجه من حديث سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة ﷺ: النسائي في الجنائز، باب من قتله بطنه (٤/ ٩٨)، والطيالسي (١٢٨٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٢)، وصححه ابن حبان (٢٩٣٣)، والألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٤٦١).

وَمَنْ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نَوَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي قَبْرِهِ؛ فَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(٢٢).

وَمِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَجْرِي عَمَلُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَا رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ**»(٢٣).

وَكُلُّ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ يَجْرِي أَجْرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ وَفَضْلِهَا.

تِلْكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- بَعْضُ مُوجِبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْهُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ..

❁ ❁ ❁

---

(٢٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الجنائز، باب الصلاة على القبر (٩٥٦).

(٢٣) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٨١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٤)، والبيهقي في الشعب وضعفه، فقال: محمد بن عبيد الله العَرْزَمِيّ ضعيف، غير أنه قد تقدّمه ما يشهد لبعضه، والله أعلم، وهما لا يخالفان الحديث الصحيح، فقد قال فيه: إلا من صدقة جارية، وهي تجمع ما قد جاء به من الزيادة (٣٤٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٦٠٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خلقَ الْعِبَادَ فَابْتَلَاهُمْ، وَأَحْصَى عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، فَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى نَجَاةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَثَبَاتٌ فِي الْفِتْنَةِ، وَنُورٌ فِي الْقَبْرِ، وَأَنِيسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَأَمْنٌ مِنَ الْخَوْفِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: مُشَاهَدَةُ الْقَبْرِ، وَالنَّظَرُ إِلَى اللَّحْدِ؛ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ الْمُتَكَلِّمِ، وَمِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ، لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ غُرْبَتَهُ، وَتَفَكَّرَ فِي وَحْدَتِهِ، لَا أَنِيسَ وَلَا جَلِيسَ إِلَّا الْعَمَلُ، فَإِنْ كَانَ صَالِحًا فَنِعْمَ الْجَلِيسُ، وَجْهُهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ سَيِّئًا فَشَرٌّ وَبَلَاءٌ وَعَذَابٌ وَنَدَامَةٌ.

إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ لَيَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا وَلَوْ وَقْتًا قَلِيلًا، مَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى تَسْبِيحَةٍ وَتَحْمِيدَةٍ، وَتَهْلِيلَةٍ وَتَكْبِيرَةٍ! وَمَا أَشَدَّ لَهفَهُمْ عَلَى رَكْعَتَيْنِ يَزْدَادُونَ بِهِمَا رِفْعَةً وَدَرَجَةً!

إِنَّ فِيهِمْ لَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً، تَحَلَّلَتْ أَجْسَادُهُمْ، وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُمْ، وَأَكَلَ الدُّودُ لُحُومَهُمْ، وَاسْتَحَالَتْ عِظَامُهُمْ رُفَاتًا وَرَمِيمًا، لَكِنْ فِيهِمْ مَنْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَهُمْ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعْضِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: الْقَبْرُ مَرْحَلَةٌ حَاسِمَةٌ، إِنْ نَجَا الْإِنْسَانُ مِنْ عَذَابِهِ نَجَا مِنْ عَذَابِ

النَّارِ؛ وَلِذَا كَانَ خَوْفُ السَّلَفِ مِنْهُ شَدِيدًا، وَعَمَلُهُمْ لَهُ كَثِيرًا، كَانَ عُثْمَانُ ﷺ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**»(٢٤).

وَلِلْقَبْرِ ضَمَّةٌ عَظِيمَةٌ تَخْتَلِفُ فِيهَا الْأَضْلَاعُ، يَجِدُهَا كُلُّ أَحَدٍ، لَكِنْ يُفَرَّجُ عَنِ المُؤْمِنِ، وَيُعَذَّبُ الْكَافِرُ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْهَا لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**»(٢٥).

فَاعْمَلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- لِلدَّارِ الَّتِي يَكُونُ بَقَاؤُكُمْ فِيهَا أَطْوَلَ؛ فَإِنَّ الْكَيِّسَ الْفَطِنَ مَنْ بَنَى دَارَهُ الَّتِي يَسْكُنُهَا أَبَدًا، وَإِنَّ مِنَ الْحُمْقِ وَالْجَهَالَةِ تَقْدِيمَ دَارٍ فِي طَرِيقِ سَفَرٍ عَلَى دَارِ المَقَامِ وَالْبَقَاءِ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- عَلَى الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ المُسْدَاةِ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...

❀ ❀ ❀

---

(٢٤) أخرجه الترمذي في الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام ابن يوسف (٢٣٠٨)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، والحاكم وصححه (٤/ ٤٧٥-٤٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٦٢٣).

(٢٥) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٥)، وفي فضائل الصحابة (١٥٠١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٤)، وصححه ابن حبان (٣١١٢)، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: رواه أحمد بإسناد جيد (٤٤٦٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد عن نافع عن عائشة، وعن نافع عن إنسان عن عائشة، وكلا الطريقين رجالهما رجال الصحيح (٣/ ٤٦) وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٩٥).



٣٤٦- من أسباب الذل

١٩/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْد: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: حِينَمَا تَتَرَدَّى أَوْضَاعُ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَتَضْطَرِبُ أَحْوَالُهَا، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهَا، وَيَكْثُرُ تَفَرُّقُهَا وَاخْتِلَافُهَا، وَيَعْمَى عَنِ الْحَقِّ كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَائِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا مَخْرَجَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الضَّوَائِقِ وَالْمَآزِقِ إِلَّا بِالْمُرَاجَعَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ.. مُرَاجَعَةِ عَلَاقَتِهَا مَعَ رَبِّهَا، وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهَا عَلَى تَقْصِيرِهَا.. مُرَاجَعَةً جَادَّةً لَا هَزْلَ مَعَهَا، وَمُحَاسَبَةً صَارِمَةً لَا مُحَابَاةَ فِيهَا.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ الْمُزَلْزِلَةُ، وَالِاضْطِرَابَاتُ الْعَاتِيَةُ؛ لَمْ تُحَرِّكْ فِي الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا يَدْفَعُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا حَقِيقِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى،

وَلَنْ يَكُونُوا جَدِيرِينَ بِالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ وَحَمَلَةِ دِينِهِ.

إِنَّ الْعِزَّ وَالذُّلَّ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ يَهَبُهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٢٦].

وَلِلْعِزِّ أَسْبَابُهُ، كَمَا أَنَّ لِلذُّلِّ أَبْوَابَهُ، فَمَنْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ الْعِزِّ فَلَنْ يُهَانَ دِينُهُ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَضْعَفًا، وَلَا يَظْفَرُ الْعَدُوُّ مِنْهُ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَ مُسْتَضَامًا، تَتَزَحْزَحُ الْجِبَالُ الرَّوَاسِي عَنْ مَقَارِّهَا قَبْلَ أَنْ يَحِيدَ هُوَ عَنْ دِينِهِ وَمَبَادِئِهِ، يَلْقَى اللَّهَ ﷻ بِصَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، فَيُجَازِيهِ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى.

وَمَنْ تَلَمَّسَ أَبْوَابَ الذُّلِّ وَلَجَ مِنْ جَمِيعِهَا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ وَاصِفٌ أَنْ يَصِفَ الذُّلَّ، قَالَ: انْظُرْ إِلَى فُلَانٍ!! يَرْضَى لِنَفْسِهِ الْهَوَانَ، وَيَتَنَكَّرُ لِدِينِهِ وَمَبَادِئِهِ؛ اسْتِبْقَاءً لِنَفْسِهِ، أَوْ خَوْفًا عَلَى دُنْيَاهُ؛ وَلَنْ يُعَمَّرَ أَكْثَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ؛ عِزُّهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَذُلُّ أَعْدَائِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٨]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادلَة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١-١٧٣]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ تُثْبِتُ هَذَا الْأَصْلَ الْعَظِيمَ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ عَزِيزٌ مَرْفُوعٌ، وَأَنَّ دِينَهُ غَالِبٌ مَنْصُورٌ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ ذَلِيلٌ مَقْهُورٌ . .

وَلَا يَتَخَلَّفُ هَذَا الْأَصْلُ إِلَّا بِتَخَلُّفِ أَسْبَابِهِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِتَغَيُّرِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَنَكُّرِهِمْ لِدِينِهِمْ الَّذِي يَمْنَحُهُمْ الْعِزَّةَ وَالرِّفْعَةَ، وَالْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ.

وَكَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُقَرِّرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ أَعِزَّةٌ؛ فَهُوَ كَذَلِكَ يُقَرِّرُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ: الضَّعَةُ وَالذِّلَّةُ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ، وَأَيًّا كَانَ عَدَدُهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [الْمُجَادَلَة: ٢٠]. وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ كَافِرٍ.

وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الْبَقَرَة: ٦١]، وَهَذِهِ الذِّلَّةُ مَضْرُوبَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِنَصِّ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٢]، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٢].

هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُخَالِفُ ذَلِكَ، فَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ عَزُّوا بِقُوَّتِهِمْ، وَذَلَّ غَيْرُهُمْ بِضَعْفِهِمْ، فَفَرَضُوا سُلْطَانَهُمْ عَلَى النَّاسِ، وَبَسَطُوا نُفُوذَهُمْ عَلَى الدِّيَارِ، فَأَوَامِرُهُمْ تُنَفَّذُ عَلَى الْفَوْرِ، وَأَقْوَالُهُمْ يُنْصَتُ إِلَيْهَا، وَأَخْبَارُهُمْ هِيَ أَهَمُّ الْأَخْبَارِ، وَأَحْوَالُهُمْ الدَّاخِلِيَّةُ فِي بِلَادِهِمْ صَارَتْ تَهُمُّ الْقَاصِيَ وَالدَّانِيَ، وَقَتِيلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُوزَنُ بِأَلْفِ قَتِيلٍ مِنْ سِوَاهُمْ!! بَلْ صَارَ الْعَالَمُ يَتَسَابَقُ لِإِرْضَائِهِمْ؛ بِتَقْدِيمِ أَبْنَائِهِ قَرَابِينَ لِمَشْرُوعَاتِهِمُ الاِسْتِعْمَارِيَّةِ التَّوَسُّعِيَّةِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الْعِرَاقِ وَغَيْرِهَا!![1].

---

(١) رغم عدم استصدار قرار من مجلس الأمن الطاغوتي بغزو العراق فإن أمريكا قررت الحرب وحدها، وكان معها قليل من الدول المؤيدة كبريطانيا واستراليا وأسبانيا وإيطاليا، ثم =

وَمَا كَانَ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُجَافِيَ الْحَقَائِقَ، أَوْ يُخَالِفَ الْوَاقِعَ، وَلَا يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شَيْءٍ فَيَقَعُ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَلَامُ اللهِ تَعَالَى يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِلَّةِ الْكَافِرِينَ أَسْبَابًا، لَا يَتَخَلَّفُ الْأَصْلُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِتَخَلُّفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ.

فَإِقَامَةُ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِهِ فِي الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فَكَمْ أَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي لَا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ! أَوِ الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فِي الْمَسَاجِدِ! وَكَمْ أَعْدَادِ الَّذِينَ لَا يُخْرِجُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ!

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَضَعْفُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ، بَلْ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْإِنْكَارُ يَقَعُ عَلَى مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ نَهَى عَنْ الْمُنْكَرِ! بَلْ وَيُتَّهَمُ بِإِثَارَةِ الْفِتَنِ!!

وَالْأَخْذُ بِالْقُوَّةِ، وَإِعْدَادُ الْعُدَّةِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْعِزَّةِ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، سَوَاءٌ كَانَتْ قُوَّةَ الرَّمْيِ وَالسِّلَاحِ، أَوْ قُوَّةَ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ، فَمَاذَا أَعَدَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ؟!

إِنَّ قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُفَاخِرُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَائِهِمْ قَدْ تَحَوَّلَتْ مِنَ الْقُوَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ إِلَى قُوَّةِ الْأَنْدِيَةِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَالْبَرَامِجِ التَّرْفِيهِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ مِنْ غِنَاءٍ وَرَقْصٍ وَقِلَّةِ

= لما تورطت في العراق وطلبت من الدول إرسال جنود لحفظ الأمن بادرت كثير من الدول الغربية والآسيوية بذلك، وأرسلوا جنودهم ليقتلوا في العراق إرضاء لأمريكا!!.

حَيَاءٍ، حَتَّى صَارَ يُحْتَفَى بِالْفَائِزِينَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنَ الِاحْتِفَاءِ بِكِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ، وَحُذَّاقِ الْأَطِبَّاءِ وَالمُهَنْدِسِينَ.

يَفْعَلُ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَعْدَاءَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؛ هِيَ السَّبَبُ فِي التَّسَلُّطِ، وَبَسْطِ النُّفُوذِ، وَتَقْوِيضِ الدُّوَلِ، وَتَدْمِيرِ الْعُمْرَانِ .. يَرَوْنَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً إِعْلَامِيَّةً تُزَوِّرُ الْحَقَائِقَ، وَتُلَفِّقُ التُّهَمَ، وَتَحْشُدُ الْعَالَمَ ضِدَّهُمْ!!

وَيَرَوْنَ أَعْدَاءَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً سِيَاسِيَّةً يَلْتَفُّونَ بِهَا عَلَى الْقَرَارَاتِ، وَيَسْتَخْرِجُونَ بِهَا التَّوْصِيَاتِ الَّتِي تَخْدِمُهُمْ وَحُلَفَاءَهُمْ!!

وَيَرَوْنَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً عَسْكَرِيَّةً ضَارِبَةً، تُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَتُدَمِّرُ الْمُدُنَ وَالْقُرَى!!

وَمَا يَمْتَلِكُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُوَّةٍ أَسَاءَ الْكَثِيرُونَ اسْتِخْدَامَهَا، حَتَّى سَخَّرَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الِاحْتِرَابِ بَيْنَهُمْ، وَمُقَاتَلَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ التَّفَرُّقِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الذُّلِّ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَقَدْ رَضِيَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ بِوَاقِعِهِمْ المَهِينِ الذَّلِيلِ، الَّذِي يَجْعَلُ مَصِيرَهُمْ وَمَصِيرَ دُوَلِهِمْ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ!! وَلَا وُجُودَ لِتَفْكِيرٍ جَادٍّ، وَسَعْيٍ حَثِيثٍ لِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَاقِعِهِمْ المَهِينِ الْأَلِيمِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَنْتَظِرُ فَرَجًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ أَنْ يَأْخُذَ بِأَسْبَابِ هَذَا الْفَرَجِ!!

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ -وَهُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ- قَدْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ الْعِزَّةِ، وَاجْتَنَبَ أَسْبَابَ الذُّلِّ، وَلَمْ يَرْكَنْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَنْتَظِرِ الْفَرَجَ بِلَا عَمَلٍ؛ بَلْ كَانَ يَعْمَلُ وَيَبْنِي، وَيُوَجِّهُ وَيُرْشِدُ، وَيُوَاجِهُ الْمِحَنَ وَالْأَذَى بِالصَّبْرِ وَالْجَلَدِ؛ حَتَّى أُوذِيَ وَضُرِبَ، وَانْتَقَلَ إِلَى الطَّائِفِ يَدْعُو، وَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَرَكَ بِلَادَهُ وَدَارَهُ، وَجَاهَدَ وَجُرِحَ، وَشُجَّ رَأْسُهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،

وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَفَعَلَ كُلَّ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَنَّهَا اللَّهُ ﷻ لِلْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَمَعَ كُلِّ مَا عَمِلَ فَإِنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْعَوْنَ وَالسَّدَادَ، وَكَانَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ ذَلِكَ[٢].

وَمَا تَرَكَ ﷺ أُمَّتَهُ حَتَّى بَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَ الْعِزَّةِ؛ لِيَأْخُذُوا بِهَا، كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَ الذُّلِّ لِيَجْتَنِبُوهَا، فَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[٣]، وَمَا بَيْعُ الْعِينَةِ أَمَامَ انْتِشَارِ الرِّبَا، وَالرَّشْوَةِ،

---

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٣٠٥-٣٢٥-٣٥٤-٥٤٠)، وأبي داود في الصلاة، باب الاستعاذة (١٥٤٤)، والنسائي في الاستعاذة، باب في الاستعاذة من الذلة (٨/ ٢٦١)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يعوذ منه رسول الله ﷺ (٣٨٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٧٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي(١/ ٥٣١-٥٤١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٤٢-٨٤)، وأبو داود واللفظ له في الإجارة، باب في النهي عن بيع العينة (٣٤٦٢)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢) برقم (١٣٥٨٣)، والبيهقي (٥/ ٣١٦)، وصححه ابن القطان فيما نقله الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٦)، والحافظ في التلخيص الحبير(٣/ ١٩)، وأورد ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود إسنادي أحمد وأبي داود ثم قال: «وهذان إسنادان حسنان يشد أحدهما الآخر» (٩/ ٢٤٥)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٠): «وقد روى أحمد وأبو داود بإسنادين جيدين» فذكر الحديث. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٥١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٣)، وفي السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه (١١). وذكره الحافظ في البلوغ (٨٦٠) وقال: «رواه أبو داود من رواية نافع عنه، وفي إسناده مقال، ولأحمد نحوه من رواية عطاء، ورجاله ثقات، وصححه ابن القطان» وذكر الشيخ ابن باز أن هذا الحديث جاء من طرق يشد بعضها بعضًا، وأقواها رواية أحمد كما في تهميشي على البلوغ.
وتعقب الحافظ ابن حجر تصحيح ابن القطان له في التلخيص الحبير وقال: «وعندي أن الحديث الذي صححه ابن القطان معلول؛ لأنه لا يلزم من كون رجاله ثقات أن يكون =

. . . .

= صحيحًا؛ لأن الأعمش مدلس ولم يذكر سماعه من عطاء، وعطاء يحتمل أن يكون هو الخراساني فيكون من تدليس التسوية بإسقاط نافع بين عطاء وابن عمر فيرجع إلى الحديث الأول وهو المشهور» اهـ (٣/ ١٩).

وقد عقد البيهقي في سننه لهذا الحديث بابًا استوفى طرقه وأوضح علله (٥/ ٣١٦).

وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند من طريق الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر (٤٨٢٥) وضعفه في موضع آخر من حديث ابن أبي غنية أنبأنا أبو حيان عن شهر بن حوشب عن ابن عمر به (٥٠٠٧).

وجمهور العلماء: أبو حنيفة ومالك وأحمد على تحريم بيع العينة، وقال بجوازه الشافعي، وقد حقق العلامة ابن القيم تحريمه بعد أن بحثه باستفاضة في حاشيته على سنن أبي داود (٩/ ٢١٧-٢٥٠)، وفي إعلام الموقعين (٣/ ١٦٥- ١٧١) وعنه نقل تحريمه الشوكاني في نيل الأوطار (٥/ ٣١٩) وينظر في تحريمه: الموطأ (٢/ ٦٤٢)، والمغني(٩/ ٢٤٢).

وصورة العينة: «أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ثم يشتري قبل قبض الثمن بثمن نقدًا أقل من ذلك القدر».

ووجه المنع: أنه حيلة للربا، والمبيع مجرد وسيلة، وإلا فحقيقته دراهم متفاضلة حالّة بدراهم مؤجلة.

وقوله في الحديث: «**وأخذتم أذناب البقرة ورضيتم بالزرع**»، قال الصنعاني: «كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث، والرضا بالزرع كناية عن كونه قد صار همهم ونهمتهم، وتسليط الله كناية عن جعلهم أذلاء بالتسلط؛ لما في ذلك من الغلبة والقهر.

وقوله: «حتى ترجعوا إلى دينكم» أي: ترجعوا إلى الاشتغال بأعمال الدين، وفي هذه العبارة زجر بالغ وتقريع شديد، حتى جعل ذلك بمنزلة الردة، وفيه الحث على الجهاد» اهـ من سبل السلام (٥/ ١٢٧).

وقد جاء في صحيح البخاري (٢٣٢١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه رأى سكة وشيئًا من آلة الحرث فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل**»، وفي رواية: «**إلا دخله الذل**» وفي رواية أخرى: «**إلا أدخلوا على أنفسهم ذلًّا لا يخرج عنهم إلى يوم القيامة**»، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «والمراد بذلك ما يلزمهم من حقوق الأرض التي تطالبهم بها الولاة، وكان العمل في الأراضي أول ما افتتحت على أهل الذمة، فكان الصحابة يكرهون تعاطي ذلك، وقال =

. . . .

= ابن التين: هذا من إخبار النبي ﷺ بالمغيبات؛ لأن المشاهد الآن أن أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث» اهـ من الفتح (٥/ ٧).

وقد وجه الحافظ سياق البخاري لهذا الحديث مع حديث أنس ﷺ في فضل الفرس والزرع متواليين بأن البخاري أشار إلى الجمع بينهما بأحد أمرين:

١. إما أن يحمل ما ورد من الذم على عاقبة ذلك، ومحله: ما إذا اشتغل به فضيع بسببه ما أمر بحفظه.

٢. وإما أن يحمل على ما إذا لم يضيع إلا أنه جاوز الحد فيه، ثم قال الحافظ: «والذي يظهر أن كلام أبي أمامة محمول على مَنْ يَتَعَاطَى ذلك بنفسه، أما من له عمال يعملون له، وأدخل داره الآلة المذكورة لتحفظ لهم فليس مرادًا، ويمكن الحمل على عمومه؛ فإن الذل شامل لكل من أدخل على نفسه ما يستلزم مطالبة آخر له، ولا سيما إذا كان المطالب من الولاة، وعن الداودي: هذا لمن يقرب من العدو؛ فإنه إذا اشتغل بالحرث لا يشتغل بالفروسية فيتأسد عليه العدو، فحقهم أن يشتغلوا بالفروسية، وعلى غيرهم إمدادهم بما يحتاجون إليه» اهـ من الفتح (٥/ ٧).

وقال شمس الحق آبادي: «وسبب هذا الذل -والله أعلم- أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان» اهـ عون المعبود (٩/ ٢٤٢) وقد نقله عن الشوكاني في نيل الأوطار(٥/ ٣٢٠) وذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤-١٧) كلامًا نحو ما ذكره الحافظ ابن حجر.

فائدة: قال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «عامة العينة إنما تقع من رجل مضطر إلى نفقة يضن بها عليه الموسر بالقرض حتى يربح عليه في المئة ما أحب، وهذا المضطر إن أعاد السلعة إلى بائعها فهي العينة، وإن باعها لغيره فهو التورق، وإن رجعت إلى ثالث يدخل بينهما فهو محلل الربا، والأقسام الثلاثة يعتمدها المرابون، وأخفها التورق، وقد كرهه عمر بن عبد العزيز وقال: هو أخية الربا، وعن أحمد فيه روايتان، وأشار في رواية الكراهة إلى أنه مضطر، وهذا من فقهه ﷺ، قال: فإن هذا لا يدخل فيه إلا مضطر، وكان شيخنا ﷺ -يعني ابن تيمية- يمنع من مسألة التورق، وروجع فيها مرارًا وأنا حاضر فلم يرخص فيها، وقال: المعنى الذي لأجله حرم الربا موجود فيها بعينه مع زيادة الكلفة بشراء السلعة وبيعها، والخسارة فيها، والشريعة لا تحرم الضرر الأدنى وتبيح ما هو أعلى منه» اهـ من إعلام الموقعين (٣/ ١٧٠).

وَالِاحْتِكَارِ، وَالْغِشِّ، وَأَنْوَاعِ الْبُيُوعِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي صَارَ مِنْ أَقَلِّهَا بَيْعُ الْعِينَةِ؟!

وَأَمَّا الْأَخْذُ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَالرِّضَا بِالزَّرْعِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْخُلُودِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْعَمَلِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: مَخَافَةُ الْمَوْتِ، وَتَعْطِيلُ الْجِهَادِ. وَهَذَا عَيْنُ مَا وَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ، فَقَدْ سَيْطَرَ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُقُولِ؛ فَفِيهَا يَتَنَافَسُونَ! وَلِأَجْلِهَا يَتَبَاغَضُونَ! وَفِي سَبِيلِهَا يَتَقَاتَلُونَ!

إِنَّ تَعْظِيمَ الدُّنْيَا وَإِكْبَارَهَا جَعَلَ كَثِيرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ -بَلْ أَكْثَرَهُمْ- يَهْتَمُّونَ بِالرُّسُومِ وَالْمَبَانِي، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْأَهْدَافِ وَالْمَعَانِي، فَصَارَ وَاحِدُهُمْ يَهْتَمُّ بِلِبَاسِهِ وَمَظْهَرِهِ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمَامِهِ بِقَلْبِهِ وَمَخْبَرِهِ، وَيَحْرِصُ عَلَى دَلِّهِ وَشَكْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى هَدَفِهِ وَغَايَتِهِ، وَيَعْتَنِي بِبَيْتِهِ وَسَيَّارَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِدِينِهِ وَمَبْدَئِهِ، وَيُرَبِّي أَوْلَادَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُوصِيهِمْ بِهِ، وَأَضْحَى الْعَمَلُ لِأَجْلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، وَهَذَا وَاللَّهِ هُوَ أَصْلُ الذُّلِّ، وَأَسَاسُ الْبَلَاءِ.

وَمَا عَزَّ أَسْلَافُنَا فِيمَا مَضَى إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا دِينَهُمْ عَلَى حُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ، وَاهْتَمُّوا لِأَمْرِ آخِرَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمَامِهِمْ لِأَمْرِ دُنْيَاهُمْ، وَاعْتَنَوْا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَهْدَافِ وَالْغَايَاتِ وَلَوْ بَذَلُوا فِي سَبِيلِهَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْطَانَ، وَالرَّاحَةَ وَالِاطْمِئْنَانَ؛ فَحَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ الْمَبَانِيَ وَالْمَعَانِيَ، وَحَازُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَعَاشُوا أَعِزَّةً بَيْنَ النَّاسِ؛ يَهَابُهُمُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ .. مَا أُهِينَتْ لَهُمْ كَرَامَةٌ، وَلَا دَعَسَ الْعَدُوُّ لَهُمْ عَلَى وِطَاءٍ.

هَذَا عُمَرُ رضي الله عنه خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ، يَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ لِاسْتِلَامِ مَفَاتِيحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ نُزُولِ النَّصَارَى عَنْهَا لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَاذَا كَانَ مَرْكَبُهُ؟ وَمَا هِيَ هَيْئَتُهُ وَعُدَّتُهُ؟!

كَانَ ﷺ يَرْكَبُ جَمَلًا أَوْرَقَ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ قَدِ انْخَرَقَ، وَحَقِيبَتُهُ شَمْلَةٌ أَوْ نَمِرَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيفًا، وَهِيَ وِسَادَتُهُ، وَوِطَاؤُهُ فَرْوُ كَبْشٍ نَجْدِيٍّ، وَهُوَ فِرَاشُهُ إِذَا نَزَلَ(٤).

هَكَذَا وَصَفَ النَّقَلَةُ مَرْكَبَهُ وَمَلْبَسَهُ، وَهَيْئَتَهُ وَعُدَّتَهُ، وَهُوَ خَلِيفَةُ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ تَحْتَ حُكْمِهِ!!

وَلَوْ أَرَادَ ﷺ لَلَبِسَ الْحَرِيرَ، وَمَشَى عَلَى الدِّيبَاجِ، وَرَكِبَ أَصِيلَاتِ الْخَيْلِ، وَلَوْ شَاءَ لَحَمَلَ الْمَتَاعَ الْكَثِيرَ، وَلَأَحَاطَتْ بِهِ الْمَرَاكِبُ، وَحَفَّتْ بِهِ الْمَوَاكِبُ!! وَلَكِنْ أَنَّى لِعُمَرَ أَنْ يَهْتَمَّ بِالْهَيْئَةِ وَالْمَظْهَرِ دُونَ الْغَايَةِ وَالْمَخْبَرِ!!

وَلَمَّا وَصَلَ الشَّامَ، وَاسْتَقْبَلَهُ قَادَةُ الْجُنْدِ؛ سَارُوا مَعَهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَعَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةُ طِينٍ، فَنَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ، وَنَزَعَ نَعْلَيْهِ فَأَمْسَكَهُمَا بِيَدِهِ، وَخَاضَ الْمَاءَ وَمَعَهُ بَعِيرُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: «قَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ صُنْعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ، كَيْفَ لَوْ رَآكَ الْعَدُوُّ هَكَذَا؟! فَصَكَّ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ، وَقَالَ: أَوَّهْ!! لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَذَلَّ النَّاسِ، وَأَحْقَرَ النَّاسِ، وَأَقَلَّ النَّاسِ، فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمُ اللهُ»(٥).

وَوَقَعَ مَا قَالَهُ عُمَرُ ﷺ؛ فَلَقَدْ طَلَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعِزَّ بِغَيْرِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَذُلُّوا وَأُهِينُوا، وَانْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُمْ، وَاسْتُبِيحَتْ دِيَارُهُمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى اللُّطْفَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَجْبُرَ مُصَابَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُبَدِّلَ خَوْفَهُمْ أَمْنًا،

---

(٤) أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (١٤٠٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٠٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠) برقم (٣٣٨٤٧)، وأيضًا (٧/ ٩٣) برقم (٣٤٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (٧٨٤٧)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ١٣٠).

وَذُلَّهُمْ عِزًّا، وَضَعْفَهُمْ قُوَّةً، وَقِلَّتَهُمْ كَثْرَةً، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ . .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَفِي ذَلِكَ الْفِتْنَةُ وَالْعَذَابُ، وَالذُّلُّ وَالصَّغَارُ؛ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(٦).

---

(٦) أخرج البخاري بعضه معلقًا في الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح، قبل حديث (٢٧٥٧).

وأخرجه موصولًا بهذا اللفظ أحمد (٥٠١٢)، وأبو داود مختصرًا مقتصرًا على آخره في كتاب الحمام، باب لبس الصوف والشعر (٤٠٣١)، من طريق عثمان بن أبي شيبة ثنا أبو النضر ثنا عبدالرحمن بن ثابت ثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر به.

وأخرجه موصولًا أيضًا ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وتمام في =

. . . .

= فوائده كما في الروض البسام (٨٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٦)، والبيهقي في الشعب (١١٩٩) وابن عبد البر في التمهيد (١١/ ٢٧٦).

وأخرجه مرسلًا من حديث طاووس: ابن المبارك في الجهاد (١٠٥)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٦).

قال شيخ الإسلام بعد سياقه لإسناد أبي داود: «وهذا إسناد جيد فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال هم من رجال الصحيحين، وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي: ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم: هو ثقة، وقال أبو حاتم: هو مستقيم الحديث، وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي: هو ثقة وما علمت أحدًا يذكره بسوء، وقد سمع منه حسان بن عطية، وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث» اهـ من الاقتضاء (١/ ٨٢، ٨٣).

وقال الحافظ ابن حجر: «وأبو منيب لا يعرف اسمه، وفي الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه، وله شاهد مرسل بإسناد حسن ... وذكر مرسل طاووس عن النبي ﷺ» اهـ من الفتح (٦/ ٩٨) ونحوه في تغليق التعليق (٣/ ٤٤٦).

وقال الذهبي في السير (١٥/ ٥٠٩): «إسناده صالح» وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥١١٤) ثم الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١)، وقال الشيخ الألباني بعد أن ساق إسناد أحمد وأبي داود: «وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا ففيه خلاف، وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ وتغير بأخرة» ثم ذكر الألباني الطرق الأخرى له، ينظر: الإرواء (١٢٦٩).

وضعفه محققو المسند بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط بعد أن أفاضوا في دراسة إسناده (٩/ ١٢٣-١٢٦)، وقال الشيخ جاسم الدوسري في الروض البسام (٣/ ٤٦-٤٨) بعد أن درس إسناده واستعرض رجاله وما قيل فيهم، وذكر طرقه: «فالحديث بمجموع هذا الطرق -باستثناء طريق أنس- حسن أو صحيح» اهـ.

قال المناوى: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي، قال الديلمي: يعني: الغنائم، وكان سهم منها له خاصة، يعني: إن الرمح سبب تحصيل رزقي، قال العامري: يعني: أن معظم رزقه كان من ذلك، وإلا فقد كان يأكل من جهات أخر غير الرمح، كالهدية والهبة وغيرهما. وحكمة ذلك: أنه قدوة للخاص والعام، فجعل بعض رزقه من جهة الاكتساب، وتعاطي =

أَيُّهَا النَّاسُ: قَدْ خَالَفَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَغَشِيَهُمُ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ.. أُهِينَ دِينُهُمْ، وَامْتُهِنَتْ كَرَامَتُهُمْ، وَعَظُمَتْ مَصَائِبُهُمْ، وَكَثُرَ اخْتِلَافُهُمْ، وَاسْتُبِيحَتْ دِيَارُهُمْ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ: اسْتِشْرَافَهَا، وَالْخُضُوعَ لَهَا، وَتَغْيِيرَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ؛ إِرْضَاءً لِهَذَا، أَوْ كَسْبًا لِذَاكَ.

إِنَّ زَمَنَ الِانْكِسَارِ هَذَا قَدْ أَوْرَثَ ذُلًّا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارَ لَهُ دُعَاتُهُ وَمُسَوِّقُوهُ الَّذِينَ لَا يَخْجَلُونَ مِنْ تَرْوِيجِهِ وَالدِّعَايَةِ لَهُ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَأَنَّهُ الْبِضَاعَةُ الْمَطْلُوبَةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ.

لَقَدْ أَفْرَزَتْ مَوْجَاتُ الذُّلِ هَذِهِ كُتَّابًا وَصَحَفِيِّينَ وَمُحَلِّلِينَ يَسْتَكْثِرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الِاعْتِرَاضَ عَلَى الِاحْتِلَالِ، وَالشِّكَايَةَ مِنَ النِّكَايَةِ، وَيُرِيدُونَ مِنَ

= الأسباب، وإنما قال: تحت ظل رمحي ولم يقل في سنان رمحي، ولا في غيره من السلاح؛ لأن رايات العرب كانت في أطراف الرماح، ولا يكون في إقامة الرماح بالرايات إلا مع النصر، وقد نصر بالرعب فهم من خوف الرمح أتوا تحت ظله؛ ولأنه جعل السنان للجهاد، وهو أكبر الطاعات فجعل له الرزق في ظله، أي: ضمنه، وإن كان لم يقصده، كذا ذكره ابن أبي جمرة، ولا يخفى تكلفه، وجعل الذل أي: الهوان والخسران، والصغار -بالفتح- أي: الضيم على من خالف أمري، فإن الله تعالى خلق خلقه قسمين: علية وسفلة، وجعل عليين مستقرًا لعليه وأسفل سافلين مستقرًا لسفله، وجعل أهل طاعته وطاعة رسوله الأعلين في الدارين، وأهل معصيته الأسفلين فيها، والذلة والصغار، وكما أن الذلة مضروبة على مَنْ خالف أمره، فالعز لأهل طاعته ومتابعيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وعلى قدر متابعته تكون العزة والكفاية والفلاح، ومَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْم فهو منهم، أي: حكمه حكمهم؛ وذلك لأن كل معصية من المعاصي مِيرَاث أمة مِنَ الأُمَم التي أهلكها الله؛ فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود، فكل مَنْ لابس من هؤلاء شيئًا فهو منهم، وهكذا ...» اهـ من فيض القدير (٣/ ٢٤).

الضَّحِيَّةِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلْعَدُوِّ الْغَازِي الْمُحْتَلِّ؛ لِيَذْبَحَهُ، وَيُدَنِّسَ عِرْضَهُ، وَيَسْلُبَ مَالَهُ، وَيَعِيثَ فَسَادًا فِي أَرْضِهِ، دُونَ أَنْ يَتَأَوَّهَ أَوْ يَسْتَنْجِدَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَاوِمَ وَيُدَافِعَ!!

بَلْ رَاحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَزْعُمُ تَحَرُّرَ الشُّعُوبِ بِفِعْلِ الْغُزَاةِ، وَيُرَحِّبُ بِاحْتِلَالِهِمْ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ!! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى.

وَمَعَ بَالِغِ الْأَسَفِ فَقَدِ انْغَمَسَ فِي وَحْلِ الذُّلِّ هَذَا بَعْضُ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، بِإِيجَادِ الْمُسَوِّغَاتِ، وَاخْتِرَاعِ الْمَخَارِجِ، وَلَيِّ أَعْنَاقِ النُّصُوصِ؛ بِهَدَفِ إِبْقَاءِ الْأَمْرِ عَلَى حَالِهِ، وَالرِّضَا بِالْوَاقِعِ، فَلَيْسَ بِالْإِمْكَانِ أَفْضَلُ مِمَّا كَانَ، هَكَذَا يَزْعُمُونَ!!

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ الْأَعْدَاءُ وَالْمُحْتَلُّونَ مِنْ صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى بِاحْتِلَالِ الْبِلَادِ، وَنَشْرِ الْفَسَادِ، وَمُحَاصَرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَضَرْبِهِمْ، وَحَرْقِهِمْ، وَإِبَادَتِهِمْ؛ يَتَحَدَّثُ مَنْ يَتَحَدَّثُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَفْوِهِ عَنِ الْخُصُومِ، وَرَأْفَتِهِ بِالْأَعْدَاءِ، وَكَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى الِانْتِقَامِ حَتَّى يَعْفُوا وَيَصْفَحُوا!!

إِنَّ الَّذِي يُسَامِحُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِانْتِقَامِ، وَالَّذِي يَعْفُو هُوَ مَنْ يَسْتَطِيعُ الرَّدَّ، أَمَّا الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ فَحَدِيثُهُ عَنِ السَّمَاحَةِ وَالْعَفْوِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ تَسْوِيغٍ لِعَجْزِهِ، وَتَسْوِيقٍ لِذُلِّهِ، حَالُهُ حَالُ الْعَرَبِيِّ الْقَائِلِ: «انْجُ سَعْدُ؛ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ»[٧].

---

(٧) هذا المثل مشهور عند العرب، وقد استشهد به زياد بن أبيه في خطبته البتراء التي هدد فيها أهل العراق كما في البيان والتبيين (٢/ ٦٣)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٩٧)، والكامل لابن الأثير (٣/ ٣٠٥).

وقيل: استشهد به الحجاج أيضًا في خطبة له عنيفة ضد أهل العراق، كما في الفائق (٤/ ١٣٠) واللسان (٣/ ٢١٦). =

إِنَّ رَفْعَ الذُّلِّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِوَقْفَةٍ جَادَّةٍ مِنَ الْجَمِيعِ؛ يُحَاسِبُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ، وَإِنَّ مُحَاصَرَةَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ فِي الْفَلُّوجَةِ وَفِي فِلَسْطِينَ[٨]، وَضَرْبَ كُلِّ مَنْ يَدِينُ بِالْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُلٍّ ضُرِبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، كَانَ نَتِيجَةً لِلذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ، وَرَفْعُ هَذَا الذُّلِ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، فَلَيْسَ مَنُوطًا بِالْحُكُومَاتِ دُونَ الشُّعُوبِ، وَلَا هُوَ وَاجِبُ الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَإِنْ كَانَتِ التَّبِعَاتُ وَالْوَاجِبَاتُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْوَظَائِفِ وَالْمَرَاكِزِ؛ وَلَكِنَّهُ وَاجِبُ الْجَمِيعِ.

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ عَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ أَوْ بَيْتِهِ أَوْ وَظِيفَتِهِ، أَنَّهُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ هَذَا الذُّلِّ الْعَظِيمِ، وَكُلُّ مَنْ قَصَّرَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَانْهَمَكَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ لِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِلَسْطِينَ، وَفِي غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

= وأصله أنه كان لضبة بن أُد ابنان: سعد وسُعيد، فخرجا يطلبان إبلًا لهما، فرجع سعد ولم يرجع سُعيد، فكان ضبة إذا رأى سوادًا تحت الليل قال: سعد أم سُعيد؟
هذا أصل المثل، فأخذ ذلك اللفظ منه، وصار مما يتشاءم به عند العرب -والتشاؤم بمثل هذا لا يجوز-، وهو يضرب مثلًا في العناية بذي الرحم، ويضرب في الاستخبار عن الأمرين الخير والشر أيهما وقع.

(٨) حوصرت مدينة الفلوجة في العراق من قبل القوات الأمريكية حصارًا شديدًا حتى منع إيصال المواد الغذائية إليها، وذلك انتقامًا لمقتل أربعة أمريكيين وصلبهم، وتصوير العدسات ذلك، فكان العقاب الأمريكي عامًّا على كل أهل الفلوجة البالغ عددهم ثلاث مئة ألف نسمة، والطائرات تدك المدينة دكًّا شديدًا، وقد قتلوا كثيرًا من الرجال والأطفال والنساء، ودمروا بالقنابل العنقودية كثيرًا من المنازل،حتى قصفوا المسجد الجامع في المدينة، ولا يزال الحصار والضرب مستمرًّا إلى ساعة كتابة هذه الخطبة، أسأل الله تعالى أن يفرج عن إخواننا في الفلوجة، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ويثبتهم وينصرهم على عدو الإسلام والمسلمين.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَنَاظِرَ الدَّمَارِ وَالْقَتْلِ الَّتِي حَلَّتْ بِالْمُسْلِمِينَ يَتَأَثَّرُونَ وَيَبْكُونَ، وَتَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِالِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُونَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يُدِيرُوا الْجِهَازَ عَلَى قَنَاةٍ رِيَاضِيَّةٍ، أَوْ تَرْفِيهِيَّةٍ، فَيَنْسَوْنَ مُصَابَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ لِمَا يَجْرِي لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أَرَادُوا نُصْرَتَهُمْ فَلْيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلْيَرْجِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْفَعُ الذُّلَّ عَنْهُمْ، وَالْبَلَاءَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَأَصْلِحُوا بُيُوتَكُمْ؛ نُصْرَةً لِإِخْوَانِكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَكْثِرُوا لَهُمْ مِنَ الدُّعَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ؛ عَسَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَةَ عَبْدٍ مُخْلِصٍ؛ فَيَكْشِفُ بِهَا الْكَرْبَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا غَوْثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَيَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَا مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ؛ أَغِثْ إِخْوَانَنَا فِي الْفَلُّوجَةِ بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ، اللَّهُمَّ ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنْهُمْ، وَفُكَّ حِصَارَهُمْ، وَدَمِّرْ أَعْدَاءَهُمْ.

اللَّهُمَّ أَمِدَّهُمْ بِجُنْدِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ، وَارْزُقْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَامْنَحْهُمْ رِقَابَ أَعْدَائِهِمْ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِلَسْطِينَ، وَأَفْغَانِسْتَانَ وَكَشْمِيرَ، وَالشِّيشَانِ وَالْفِلِبِّينِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ، وَيَا كَاسِرَ الْأَكَاسِرَةِ، وَيَا مُذِلَّ الْقَيَاصِرَةِ، اللَّهُمَّ اكْسِرْ شَوْكَةَ صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، وَأَخْرِجْهُمْ مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

اللَّهُمَّ اقْذِفِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَزَلْزِلِ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، وَاجْعَلْهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، أَنْتَ

مَوْلَانَا وَمَوْلَى المُسْلِمِينَ، لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا، وَلَا تَكِلْ إِخْوَانَنَا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، وَأَنْتَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.





الفهرس



